العلم يقرأ كتاب الوجود

الوجود رسالة توحيد



د. عمرو شريف

الطبعة الثانية

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

الوجود رسالة توحيد



- لم تكن محض صدفة أن يتوجه أبو الأنبياء إبراهيم ﷺ وأيضاً خاتم الأنبياء محمد ﷺ إلى السماء، يتأملانها ويستدلان منها على الإله الخالق.
- يؤكد ذلك السلوك أن " الوجود هو أول رسالات التوحيد"، خلقه الله ﷻ على هذه الهيئة ليشير إليه وإلى وحدانيته وأسمائه وصفاته.

- لذا فإن الوجود رسالة توحيد تماماً مثلما أن الديانات الإبراهيمية رسالات توحيد. وكما أن القرآن الكريم هو" كتاب الله المسطور" فالوجود هو" كتاب الله المنظور" الذي نستنطقه مفاهيم الألوهية التي نزلت الكتب المقدسة لتعرفنا بها. ويخبرنا الله ﷻ في كتابه

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت - ٥٣).

أي أن العلم سيكشف للإنسانية من الدلائل في الكون وفي الأنفس البشرية ما يجعلنا نجزم بأن مفاهيم الألوهية حق. كما تخبرنا الآية الكريمة أن آيات الوجود هي الحجة على صدق آيات القرآن الكريم.

- ومن ثم فإن " القراءة العلمية للوجود" تقدم البرهان على صدق المحاور الثلاثة للألوهية (إثبات الوجود الإلهي - الإقرار بالتوحيد - التعريف بما شاء الله ﷻ أن يطلعنا عليه من أسمائه الحسنى وصفاته العُلى).

وهذه القراءة للوجود هي مراد المؤلف من هذا الكتاب...

ISBN 9789778514612



NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

الوجود رسالة توحيد

الطبعة الأولى

فبراير 2015 م - 1436 هـ

الطبعة الثانية

مارس 2015 م - 1436 هـ



نيو بوك للنشر و التوزيع

٦ عمـارات الدفاع الوطنى عمارات القبة ـ القاهرة

Tel : 01092673274

Email: <Nasserahman@hotmail.com>

<Newbooknb@gmail.com>

الوجود رسالة توحيد

د. عمرو شريف

أستاذ الجراحة العامة



نيو بوك للنشر و التوزيع

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

شريف، عمرو.

الوجود رسالة توحيد/ عمرو شريف. ط١ .ـ القاهرة: نيوبوك للنشر والتوزيع، ٢٠١٥م.

٤٠٤ ص؛ ١٧×٢٤سم.

تدمك 978-977-85146-1-2

١ - الوجود

أ- العنوان

رقم الإيداع ٢٢٩٤٣ / ٢٠١٥م

الترقيم الدولى -I.S.B.N. 978-977-85146-1-2

تصميم الغلاف
نيفين صلاح
عين العلم تقرأ كتاب الوجود

إهـــــداء

إلى الفاضل الدكتور مُصْطَفى البَدَوى ...

عَالِمُ النفسِ وطبيبُها . .

الذى علمنى قراءة الوجود.

د. عمرو شريف

فهرس

الموضوع | الصفحة

قبل أن تقرأ هذا الكتاب

تقوم رسالات التوحيد الإبراهيمية (الإسلام - المسيحية - اليهودية)، فى مجال الألوهية، على ثلاثة محاور؛ الأول، هو «إثبات الوجود الإلهى»، والثانى «الإقرار بالتوحيد»، والمحور الثالث هو التعريف بما شاء الله ﷻ أن يُطلعنا عليه من «أسمائه الحسنى وصفاته العُلى».

وتطرح الرسالات الإبراهيمة الأدلة على هذه المحاور الثلاثة من خلال آيات كُتُبها المقدسة، وذلك تبعًا لظروف ومقتضيات نزول كل رسالة. وليس تحيزًا للإسلام أن نؤكد أن القرآن الكريم هو صاحب الطرح الأكمل والأشمل والأبقى فى هذا المجال.



وفى الوقت نفسه، يخبرنا الحق ﷻ فى كتابه الحكيم ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] أن الله ﷻ سيرينا (من خلال العلم) من الدلائل فى الكون وفى الأنفس البشرية ما يجعلنا نجزم بأن مفاهيم الألوهية (الوجود الإلهى - التوحيد - الأسماء والصفات) حق[1].

ومنذ نزل القرآن الكريم والآية الكريمة تخاطبنا بلفظ «سنريهم»، أى بالإشارة إلى المستقبل. وتظل الآية تخاطب البشرية بهذا الأسلوب إلى يوم القيامة. وكما كشف الله ﷻ فى القرون الماضية للبشرية ما يبين لها أنه الحق، فسيظل المزيد من الآيات يتكشف للعلم عامًا بعد عام حتى يوم القيامة.



(١) تتحدث الآية الكريمة عن القرآن الكريم، وبديهى أن إثبات صدق القرآن الكريم دليل قاطع على صدق ما جاء فيه عن الألوهية.

ويلاحظ المتأمل للقرآن الكريم أن «لفظ آية» يرد فيه للدلالة على أحد ثلاثة معانٍ:

الأول: الوحدة البنائية التى يتكون منها القرآن الكريم، فهو يشتمل على ٦٢٣٦ آية.

الثانى: ما أشرنا إليه من شواهد ودلائل علمية فى الكون والأنفس، مما يشير إلى صدق القرآن الكريم وصدق دلالته على الإله الخالق.

الثالث: المعجزات، بما تمثله من خرق للسنن الكونية.

ولا شك أن المعانى الثلاثة للفظ آية هى وسائل الإقناع التى يقدمها الخالق ﷻ للبشرية كحجج على الألوهية.



فى المقابل، يدعى كبار الملاحدة المعاصرين أن العلم «محايد» بخصوص قضية الوجود الإلهى، فلا هو قادر على إثبات وجود الإله ولا نفيه، ومن باب أولى يصبح نفى دور العلم فى إثبات التوحيد والتعريف بالأسماء والصفات الإلهية (وهو مقصدنا من هذا الكتاب) من البديهيات. ويظن الملاحدة أنهم بذلك يسدون أمام المتدينين طريق الاحتكام إلى العلم فى قضية الألوهية.

ولا شك أن هذا الادعاء للملاحدة باطل، ونستشهد على ذلك بأن معظم كبار العلماء من مؤسسى فيزياء الكم والحاصلين جميعًا على جوائز نوبل كانوا من المؤلهة، وعلى رأسهم أينشتين، وماكس بلانك، وهيزنبرج، وشرودنجر، وبول ديراك. وكذلك أشهر الرواد من علماء المخ والأعصاب كانوا من المؤمنين بالإله، ومنهم روجر سبيرى، وويلدر بنفيلد، وتشارلس شرنجتون، وجون إكلز، وقد حصل الأربعة على جوائز نوبل أيضًا. ولا شك أن هذين المثلين يقضيان على الهراء الذى يملأ به الملاحدة الساحة مرددين أن معظم العلماء من الملاحدة، ويُزَوِّرون الإحصائيات من أجل إثبات ذلك[1].

ويقول سير جون هوفتُن[2] عالم المناخ الكبير: «إن علمنا يؤمن بالإله، إن الإله يقف وراء قصة العلم كلها؛ النظام المدهش، الانضباط، المصداقية، التعقيد المذهل، إن

(١) يدعى الملاحدة كذبًا أن بعض من ذكرت من العلماء كانوا ملاحدة! ومن أشهر من زوروا عقيدتهم ونسبوه إليهم فى حياته هو أينشتين! الذى أعلن مرارًا ضيقه الشديد من ذلك. ويكفينا لإثبات إيمان أينشتين قوله: إن الإله لا يلعب النرد، وقوله أن هدفه الرئيسى أن يعرف كيف يفكر الإله، والباقى تفاصيل.

(٢) John Houghton: عالِم وأستاذ فيزياء المناخ بأكسفورد. الرئيس المشارك لِلَجنة منح جائزة نوبل للسلام، المقولة من كتابه Our Science is God Sience. ولد ببريطانيا عام ١٩٣١.

ذلك كله ليس إلا ممارسات الإله». وانظر أيضًا إلى قول سير جيليان برانس[1]: «لسنوات عديدة وأنا أعتقد أن الإله هو مصمم الوجود، إن كل دراساتى العلمية تثبت هذا الإيمان».

ويأتى فى مقدمة قافلة المؤمنين بالله الرواد الفطاحل من العلماء. فهذا «جاليليو» يعلن أن وراء عقله المتسائل الباحث عن الحقيقة قناعته الداخلية بأن الخالق الذى أمدنا بالحواس والعقل والذكاء يريد منا أن نستخدمها لنتوصل إلى المعرفة. وهذا «كبلر» يعلن أن الهدف الرئيسى للبحث فى العالم الخارجى هو اكتشاف النظام المنطقى الذى وضعه الإله، والذى كشفه لنا فى لغة الرياضيات. و من الأسماء الكبيرة ـ غير هذين العالِمين ـ باسكال وبويل ونيوتن وفاراداى ومندل وباستير وماكسويل.

لقد كان لكلٍّ من هؤلاء العلماء المؤمنين (وغيرهم كثيرون) مدخله إلى الإيمان بوجود الإله. ويبدو أن فكرة تعدد الآلهة قد عفا عليها الزمن ولم تعد مقبولة بداهة، فما من عالم دفعه العلم للإقرار بالوجود الإلهى إلا وأقر ضمنًا بالتوحيد.

ولا شك أن العلم كمدخل للإيمان يرتبط إلى حد بعيد بتخصص كل عالم، ومن ثم لم يكن العلم بابًا لإثبات الألوهية والتوحيد وحسب، بل كان أيضًا بابًا لتعريف هذا العالِم ببعض صفات الإله. وبذلك قَدَّمَ العلم من خلال قراءة الوجود أدلته على نفس المحاور الثلاثة الخاصة بالألوهية (الوجود الإلهى ـ التوحيد ـ الأسماء والصفات).

***

الأدلة العلمية على الوجود الإلهى

تناولنا فى عدد من كتبنا السابقة الأدلة العلمية على أن هناك إلهًا (الوجود الإلهى)، وبالتالى فهذا الأمر ليس من المقاصد الرئيسية للكتاب الذى بين يديك.

لذا سنركز طرحنا فى هذا الكتاب على المحورين الآخَرَيْن من محاور مفهوم الألوهية، وهما إثبات التوحيد، والتوصل إلى الأسماء والصفات الإلهية، من خلال قراءة الوجود (الكون ـ الحياة ـ الإنسان).

---

(١) Ghillean Prance: عالِم النبات والبيئة الكبير. ولد ببريطانيا عام ١٩٣٧.

لذلك سنعرض فى هذه المقدمة **تلخيصًا لأدلة العلم على الوجود الإلهى**، حتى ننطلق فى فصول الكتاب من أرضية صلبة لعرض المحورين الآخرين (التوحيد ـ الأسماء والصفات الإلهية). وفى الوقت نفسه فإن ما سنعرضه كأدلة علمية ـ مستمدة من قراءتنا للوجود ـ على هذين المحورين سيثبتان بالتبعية المحور الأول (الوجود الإلهى).

عَرَضْتُ فى مقدمة كتابى «كيف بدأ الخلق» قصة الخليقة بأسلوب نثرى، وأود هنا أن أمهد بهذا النثر لعرض الأدلة العلمية على الوجود الإلهى:

كان عدمًا مطلقًا...

لم يكن هناك شىء...

بل لا ينبغى أن نقول هناك،

فلم يكن ثَمَّ هناك...

وفجأة:

انفجر شىءٌ ما... انفجارًا أعظم.

فبزغَ الزمانُ والمكان، وخُلِقَت الطاقةُ ثم المادة.

لقد خرج الوجود إلى الوجود[1]...

ثم ظهرت شظية الأرض المستعرة[2]

وأخذ الكوكب الوليد فى التَبرُّد...

وفجأة تحرك جنين الحياة فى أحشاء أمنا الأرض[3]...

ثم انهمر سيلُ الكائنات الحية من رحِم الحياة

حتى جاء الإنسان... ثم جئنا أنا وأنت...

(١) كان ذلك منذ ١٣,٧ مليار عام...
(٢) كان ذلك منذ ٤,٥ مليار عام...
(٣) كان ذلك منذ ٣,٧ مليار عام...

الوجود الإلهى حق...

ترتكز البراهين والأدلة العلمية والعقلية والفلسفية على أن «هناك إلهًا» على شِقَّين: **الأول**، **علوم البدايات**؛ فنشأة الكون من عدم، وظهور الحياة فى المادة غير الحية، وبزوغ العقل الإنسانى، أمورٌ لا يمكن أن تقوم بها الطبيعة العمياء، ولا بد لها من موجد حى ذكى خالق بارىء مصور. والشق الثانى؛ ما عليه منظومة الكون والحياة والعقل الإنسانى من تعقيد هائل، بحيث لا يمكن تفسير بقائها وممارستها لأنشطتها من خلال قوانين الطبيعة فقط، ولا بد لها من الموجد الحافظ المدبر القيوم القادر سبحانه وتعالى.

ونرى أن الوجود الإلهى قد صار فى بداية القرن الحادى والعشرين بمثابة الحقيقة العلمية،وهذه أدلتنا على ذلك[1]:

أولًا: كون مبهر بدأ من عدم
دليلٌ على التصميم الذكى

أثبت العلم أن للكون بداية ترجع إلى ١٣,٧ مليار(± ٢٠٠ مليون سنة)، وأنه نشأ من العدم، أى أنه ليس قديمًا أزليًا. ومع بداية نشأة الكون كانت بداية وجود الزمان والمكان والطاقة والمادة، وقبلها ـ حتمًا ـ وُجدت القوانين الطبيعية التى وجهت هذه النشأة.

وتُعتبر نظرية الانفجار الكونى الأعظم أصوب وأدق النظريات (حتى الآن) التى تفسر نشأة الكون، وقد قامت على صحتها أدلة علمية كثيرة.

وقد أظهرت النظرية أن عند بداية خلق الكون (حدوث الانفجار الأعظم) تَبَدَّت بعض المعالم الخارقة التى لا تخضع للقوانين الفيزيائية السائدة الآن،والتى لا يمكن للعلم وحده أن يفسرها.

كذلك عقب الانفجار الأعظم، سار الكون من حالة اللاانتظام المطلق إلى حالة الانتظام ثم تكوين المنظومات، ومن البنية الأبسط قليلة الفائدة إلى البنية الأعقد المناسبة لغاية لاحقة، ومن المادة ذات الوظيفة الأقل أداءً وكفاءة إلى وظيفة أفضل أداءً وكفاءة. ولا شك أن الاتجاه

(١) من أجل الوقوف على تفاصيل أدلتنا على هذه الدعوة نحيلك، قارئى الكريم، إلى كتبنا «رحلة عقل» و«كيف بدأ الخلق»، و«خرافة الإلحاد»، الناشر/ مكتبة الشروق الدولية.

إلى الأكثر انتظامًا والأعقد بنية والأكفأ أداء ووظيفة يحتاج بشكل حتمى إلى تدخل ذكى وفعال من خارج المنظومة، ويؤكد ذلك وجود التصميم الذكى، الذى لا دور للعشوائية فيه.

ولا شك أن وجود «التصميم الذكى فى بنية الكون ونشأته» دليل على «المصمم الذكى» الذى هو الإله الخالق ﷻ. وهذا ما يُعرف بـ«البرهان الكونى» الذى يتلقى دعمًا متزايدًا كلما انكشف للعلم جانب جديد من قصة الخلق.

كذلك أثبت العلم أن نشأة الكون وبقاءه تحتاج إلى ضبط دقيق للغاية للثوابت الفيزيائية (مثل سرعة الضوء ومقدار الجاذبية)، وإذا تغيرت هذه الثوابت بجزء من بلايين الأجزاء لما كان لهذا الكون أن ينشأ ويستقر، ويُعرف هذا المفهوم بـ«برهان الضبط الدقيق». ولا يقف هذا الضبط الدقيق عند الكون فقط، بل هو مطلوب كذلك لنشأة الحياة والإنسان وبقائهما.

ثانيًا: كوكبنا المتميز المتفرد
دليلٌ على صحة البرهان الكونى والمبدأ البشرى

كانت نقلة فارقة؛ بعد أن كان يُنظَر إلى كوكب الأرض كهباءة لا اعتبار لها، أدرك العلماء أنه كوكب متفرد متميز كتربة صالحة لنشأة الحياة وظهور الإنسان، ولا يكاد يكون له نظير، ليس فى مجرتنا فحسب، بل ربما فى الكون كله!

وكان بديهيًّا (والحال هكذا) أن يدور التساؤل فى عقول المفكرين؛ هل هذا التفرد والتميز لكوكب الأرض عن قصد، أم هو مَحْضُ المصادفة؟

لقد تجمع للعلماء من الأدلة ما يؤكد أن هذه المواءمة لا يمكن إلّا أن تكون عن قصد (وهو ما يُعرف بالمبدأ البشرى). وذلك (أولًا) لدقة التوافق المطلوب فى بنية الكون والأرض لنشأة الحياة، حتى إن أى خلل - وإن كان ضئيلًا جدًّا - فى أحد الثوابت والقوانين الفيزيائية العديدة التى تحكم الكون، ما كان ليسمح بنشأتها. ولأن العالم (ثانيًا) ليس مجهزًا لخروج الحياة وحسب، ولكن لخروج كائنات حية ذكية منطقية، ترصد وتفهم هذه المواءمة. و(أخيرًا)، لغزارة ما فى الكون من توافق يفوق احتياجات الكائنات الحية ويحقق لها الرفاهية والاستمتاع، ذلك بالرغم من أن قدرًا أقل بكثير من هذا التوافق كان كافيًا لنشأة وبقاء هذه الكائنات.

وهذا ما جعل أحد العلماء يصف هذه المواءمة بقوله: «يبدو أن الكون قد تم تفصيله على مقاس الإنسان»، وجعل عالِمًا آخر يقول: «يبدو أن الكون كان يعلم أننا قادمون».

ثالثًا: الحياة مولود من نوع جديد تمامًا على الأرض

تعجز العشوائية عن تفسير نشأته

لقد كان التوصل إلى معرفة بنية جزيء الدنا DNA والطريقة المبهرة لأدائه لوظيفته بمثابة ثورة أسفرت عن تأسيس علوم البيولوجيا الجزيئية، التى أظهرت استحالة تَكَوُّن هذا الجزيء - وكذلك جزيء البروتين - عشوائيًا. إن حدوث ذلك تلقائيًا يتطلب أن يكون الكون أثقل كتلة، وأكبر حجمًا، وأطول عمرًا من حقيقته ببلايين المرات!!!

وقد أثبتت «**نظرية المعلومات**» أن ظهور الحياة فى المادة الحية، وكذلك ما تحمله الشفرات الوراثية للكائنات الحية من معلومات هائلة (كمًا وكيفًا)، لا تقدر الصدفة والعشوائية على توفيره، بل يحتاج - بيقين - إلى مصدر مطلق الذكاء. وقد صار هذا المفهوم أقوى الأدلة على الوجود الإلهى، وصار يعرَف بدليل «**المكون المعرفى**» **لظاهرة الحياة**. لذلك أصبحنا ننظر إلى الحياة باعتبارها (**ظاهرة معلوماتية**) بعد أن كان يُنظَر إليها باعتبارها (**ظاهرة كيميائية**).

كذلك إذا كانت الخطوة المادية المهمة فى نشأة الحياة تتمثل فى **الحصول على جزيء الدنا DNA القابل للتوالد الذاتى**، فقد واجهت محاولات تفسير حدوث ذلك تلقائيًا مصاعب عدة. فبالإضافة إلى أن الدنا جزيء بالغ التشعب والتعقيد، فإن نشأته تلقائيًا تعترضها معضلة «**البيضة والدجاجة - أيهما أولًا!**». «**فالتطور الكيميائى**» الذى طرحه الدراونة - كمفهوم يفسرون به نشأة الدنا، يتطلب تكاثر الكائنات حتى يتمكن الانتخاب الطبيعى من القيام بتشكيل هذا الجزيء المعقد، وفى الوقت نفسه يحتاج التكاثر إلى وجود الدنا!. ومرة أخرى قابلت معضلة البيضة والدجاجة البيولوجيين عندما أدركوا أن **نشأة الدنا تحتاج إلى البروتينات (إنزيمات) بينما يحتاج بناء البروتينات إلى الدنا!**

وتدور النظريات المادية التى طُرحت لتفسير نشأة جزيء الدنا والخلية الحية حول مفاهيم ألبسها واضعوها **مصطلحات علمية**، كالتولد التلقائى، والنشأة العشوائية على مراحل، والتنظيم الذاتى والقابلية الكيميائية، والتنظيم الذاتى والفوضى الخلاقة، وأخيرًا ادَّعوا استيراد الحياة من كوكب آخر! وبقليل من التمحيص والتدقيق تتكشف ضحالة وخطأ هذه المفاهيم، ولا يتبقى أمامنا إلّا **القول بالتصميم الذكى**، ومن ثم **حتمية وجود الإله الخالق** ﷻ.

رابعًا: الحياة ليست مجرد وظائف بيولوجية، بل للحياة سمات وجودية جديدة تمامًا على عالم المادة

بالرغم من أن البيولوجيا الحديثة تُشَبِّه الخلية الحية بمصنع عالى التقنية وبمدينة كبيرة تدار إلكترونيًّا، فإن فى كلا التشبيهين إجحافًا بالقدرات الهائلة للخلية.

لذلك ارتقت النظرة إلى الخلية الحية من مجرد دراسة أنشطتها البيولوجية إلى دراسة سماتها الوجودية[1] التى تقربنا بشكل أكبر من حقيقة الحياة. ولا شك أن هذه السمات الوجودية ليس لها نظير فى عالم المادة غير الحية، ولا شك أن كل قوانين الطبيعة مجتمعة لا يمكن أن تفسر نشأة الحياة من المادة غير الحية. لذلك فإننا إذا أنكرنا الذكاء والتصميم وأرجعنا نشأة الحياة إلى التلقائية والعشوائية، فقد اخترنا التفسير الأصعب.

(١) أهم هذه السمات الوجودية هى:

١- الحياة وجود ذكى، فكل ما يميز الحياة من جمال ومنطقية وغائية لا يمكن تفسيره من خلال نشاط الذرات والجسيمات تحت الذرية ومجالات الطاقة. ومما يزيد الأمر إعجازًا أن الحياة قد تفجرت بكل ما فيها من ذكاء فجأة، أى أن الخلية الأولى كانت تمتلك كل السمات الوجودية للحياة؛ مما لا يدع مجالًا للتفسير إلّا القول بأنها قد صدرت عن مصمم حى ذكى.

٢- الحياة ظاهرة معلوماتية: بعد أن كان العلم ينظر إلى الكون باعتباره ظاهرة فيزيائية، وإلى الحياة باعتبارها ظاهرة كيميائية، أصبح العلم الآن ينظر إلى الوجود (الكون والحياة) باعتباره ـ فى المقام الأول ـ مجموعة من النظم المعلوماتية، وباعتبار أن المادة والطاقة عنصران إضافيان يترجمان المعلومات إلى وجود مادى ثلاثى الأبعاد. وبذلك أصبح الوجود كله (ظاهرة معلوماتية). ولا شك أن الطبيعة ـ دون توجيه ذكى ـ لا تستطيع أن توفر المعلومات الهائلة المطلوبة لنشأة الكون والحياة.

٣- تقوم الحياة على نظام للتشفير ومعالجة المعلومات؛ إذ يحكم الخلية الحية نظام مُعجز شديد التعقيد، يعتمد على اختزان المعلومات على هيئة شفرة رقمية يتم تناقلها داخل الخلية، ثم ترجمتها إلى وجود مادى عن طريق بناء البروتينات الملائمة.

٤- القدرة على التشكيل، وهى من أهم سمات الحياة؛ إذ يتم تحويل المعلومات إلى وجود مادى ثلاثى الأبعاد يتخذ شكل الكائن الحى. ويمكن تشبيه ذلك بتحويل كلمات نخطها على أوراق نَصِف فيها بدقة هيئة إنسان إلى رجل حقيقى من لحم ودم.

٥- للكائنات الحية هدف متأصل فى بنيتها (الغائية)، وهو المحافظة على وجودها. ويعين على تحقيق ذلك أهداف أخرى ثانوية، كالتكاثر الذى يخدمه الجنس، ثم هناك الاغتذاء والحركة والإخراج وغيرها. وقد جُعلت هذه الأهداف فطرة غريزية فى جميع الكائنات.

٦- ذاتية التحكم؛ إذ تقوم الكائنات الحية بالسعى لتحقيق أهدافها بشكل فطرى غريزى، دون استمداد الدافع أو الآلية من الخارج، بخلاف الآلات الأوتوماتيكية التى يصممها الإنسان ويديرها.

٧- العمل كوحدة واحدة: إن كل مجموعة من مليارات الخلايا التى يتكون منها الكائن الحى تتخصص للقيام بوظيفة معينة، وتتكامل هذه الأنسجة والأعضاء لتشكل الكائن الذى يتصرف كوحدة واحدة.

٨- القدرة على التكاثر: يعجز الانتخاب الطبيعى عن تفسير ظهور القدرة على التكاثر؛ إذ يحدث الانتخاب من بين كائنات تتكاثر، أى أن التكاثر هو الحصان الذى يجر عربة الانتخاب الطبيعى وليس العكس.

خامسًا: العقل، خصوصية الإنسان

من أصعب الأمور فى علوم المخ والأعصاب تفسير قدرات العقل الإنسانى، بما يتميز به من التفكير المنطقى فى الأمور المادية وفى المفاهيم المجردة، وإدراك ما يحيطنا وما بداخلنا، وإدراك ذواتنا. كيف يمكن أن تصدر هذه النشاطات عن الدوائر الكهروكيميائية للمخ؟!

إن كل ما تم تقديمه من تفسيرات لا يصمد للتمحيص، ومن ثم لا مفر من اللجوء إلى القول بمصدر حى ذكى للذكاء الإنسانى (ففاقد الشىء لا يعطيه).

ولا شك أن الصدفة العشوائية تعجز عن إنشاء العقل البشرى بما يتمتع به من ملكات عقلية عن طريق التطور عن كائنات أدنى من الإنسان، وهذا ما حدا المهتمين بنشأة العقل بوصف تلك النشأة بأنها «انبثاق» مفاجئ لا علاقة له بالتطور.

ولا شك أن «الانبثاق» كلمة تُوَصِّف ما حدث لكنها لا تحدد له آليات. ولا يبقى من تفسير للانبثاق إلا الإقرار بموجد خالق حكيم قدير.

سادسًا: دليل المنظومة الأخلاقية

أقر الدراونة بأن ما يتمتع به الإنسان من أخلاق سامية لا يمكن أن يكون إفرازًا للتطور العشوائى، فتلك الآلية لا تُفرِز إلا أمثال هولاكو وهتلر وستالين. لذلك لا شك أن أخلاق مثل التعاطف والإيثار، المناقضة لمفهوم الصراع من أجل البقاء الداروينى، لا تكون إلا خلقًا مباشرًا لإله رءوف رحيم.

سابعًا: دليل الإدراك خارج الحس

يكاد يكون لكل فرد منا خبرته الشخصية مع الإدراك خارج الحس، سواء على هيئة رؤى مسبقة أو رؤى صادقة أو تواصل عن بعد أو غيرها. وهذه الظواهر التى يخترق فيها الإنسان حاجز الزمان أو حاجز المكان لا تجد لها تفسيرًا فى عالم القوانين الطبيعية، وليس لها من تفسير إلا إرجاعها إلى قوة قادرة على خرق هذين الحاجزين، ولا تكون هذه القوة إلا الإله القادر ﷻ.

ومما يُستدل به على أن الأدلة العلمية قد حسمت قضية «الوجود الإلهى»، هو تراجع سير أنتونى فلو (أستاذ الفلسفة فى جامعة أكسفورد)، زعيم الإلحاد فى النصف الثانى من القرن العشرين عن إلحاده، بعد أن تجاوز الثمانين عامًا من عمره، وكان ذلك فى عام ٢٠٠٤. وقد أذاعت وكالة أنباء الأسوشيتدبرس الخبر بعنوان «ملحد شهير يؤمن بالإله، بدافع من

الشواهد العلمية». وقد علقت مجلة التايم الأمريكية على الخبر بقولها: «**على رأس الاكتشافات العلمية المبهرة فى القرن العشرين، يأتى اكتشاف أن هناك إلها**».

سبحان ربى الذى بث أدلة الوجود الإلهى فى كتابه المنظور (الكون والأنفس) ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] كما بثها فى كتابه المسطور ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت].

ونختم عرض أدلة الوجود الإلهى بطرح أربعة مفاهيم نرى فيها استكمالًا للاستدلال السابق:

المفهوم الأول: **ينبغى ألا نعتبر أن البحث فى كيفية حدوث الظواهر (التفسير الآلى = كيف؟ـ How?) هو وحده التفسير العلمى، فإن التفسير الآلى لا يتعارض عقليًا مع وجود تفسير غائى (لماذا؟ـ Why?) قصد إليه خالق الكون والإنسان، ومن ثم ينبغى أن نُوَسِّع من تعريف التفسير العلمى ليشمل الجانبين.**

نحن لا نرى تعارضًا بين التفسيرين، ولا يتنافى القول بأحدهما مع القول بالآخر (كما يرى الملحدون). فإن معظم أمورنا الحياتية يحكمها الأمران، الغائية والآلية: التهام الطعام؛ هناك غائية وهناك آلية ـ تناول الدواء؛ هناك غائية وهناك آلية ـ قيادة السيارة...

المفهوم الثانى: يعتقد الملاحدة أن ما يمكن تفسيره بقوانين الطبيعة لا يحتاج للإله! ومن ثم كلما توصل العلم لتفسير ظاهرة ما اعتبروا أن ذلك ينتقص من رصيد الألوهية! ودحضًا لهذه الحجة المحورية للملاحدة نؤكد أن **وجود قوانين الطبيعة التى تنظم عمل الكون لا يتعارض مع كَوْن الله ﷻ هو الفاعل بكلمة كن** ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]، فقد شاء الله ﷻ أن يلتزم الوجود بطاعة الأسباب، بل اختار الله ﷻ (القادر على الفعل بالأمر المباشر) **أن يدير الكون بآلية الأسباب** ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾ [ق].

المفهوم الثالث: تبنى أرسطو أن الإله بعد أن خلق الكون ووضع فيه القوى والقوانين التى تنظم عمله انشغل بما يليق بسموه وعُلوِّه؛ انشغل بذاته. لقد حاول بعض الفلاسفة بذلك تنزيه الإله عن الانشغال بما دونه، فكانت النتيجة أن عزلوه عن خلقه، وجعلوه **إلـهًـا ليس له أهمية**

فى حياتنا. وفى العصر الحديث، تبنى فريق من العلمانيين هذا المفهوم وصاروا يُعرَفون «**بأنصار الديانة الطبيعية أو الربوبيون Diests**».

وتتبنى فلسفة العلم الحديث احتياج قوى الطبيعة وقوانينها (كالجاذبية مثلًا) لما يمدها بقوتها فى كل لحظة. وإذا لم يكن هذا المُمِد قائمًا على الوجود بشكل متواصل، فسوف تتوقف الجاذبية وغيرها من قوى وقوانين الطبيعة عن العمل، بل سوف تنهار الطبيعة نفسها. **أى أن الله ﷻ يقف وراء الطبيعة وقوانينها، فى كل لحظة، وعلى نحو متواصل.**

المفهوم الرابع: إن الإقرار بالسبب الأول الذى لا موجد له (الإله) أمر «**حتمى التعقل**» وإلا ما كان لنا وجود، حتى وإن **عجز العقل عن** «تصور» موجود لا موجد له.

وأخيرًا نقول إن القفزات العلمية؛ من قوانين الحركة (نيوتن)، إلى **العلاقة بين الكتلة والطاقة** (أينشتين)، إلى سلوك الذرة والجسيمات تحت الذرية (فيزياء الكم)، إلى بنية الدنا **DNA** (جزىء الحياة)، إلى المخ وما تَكَشَّف من أسراره... **تُظهر لنا أبعادًا وأعماقًا أكبر وأكبر لبراهين الوجود الإلهى.**

هذه المجموعات السبع[1] من الأدلة العلمية، مع المفاهيم الأربعة المُكَملة تؤكد أن

---

(١) نلخص هنا «الأدلة العلمية والفلسفية» على الوجود الإلهى، مقترنة بأدلة علم الكلام التى طرحها واستخرجها من القرآن الكريم منذ قرابة ألف سنة، وأكثر هذه الأدلة قبولًا فى العقيدة الإسلامية هى:

١ - **دليل الخلق والإيجاد**: وهو يقابل «البرهان الكونى»، ويعنى أن نشأة الكون من عدم تدل على وجود الإله الخالق. ويلخصه قول الأعرابى: البعرة تدل على البعير والخطو يدل على المسير، أسَماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على الخالق القدير.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران].

٢ - **دليل الوجوب**: وهو يقابل قولنا أنه لا يجوز تسلسل الموجودات الحادثة فى السببية إلى ما لا نهاية (التسلسل يمتنع)، ومن ثم لا بد من سبب أول واجب الوجود.

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور].

٣ - **دليل الإتقان والنظام (التقدير)**: ويقابل «دليل الضبط الدقيق»، ويعنى أن دقة بناء الكون وقوانينه تدل على وجود الإله الخالق.

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ [الملك].

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل].

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر].

٤ - **دليل العناية (الغاية)**: وهو يقابل «المبدأ البشرى»، ويعنى أن الكون قد تم بناؤه ليكون ملائمًا تمامًا لنشأة الإنسان، ويعود هذا الدليل إلى صفات الجمال والرحمة الإلهية.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم].=

«الوجود الإلهى حق»، ومن ثم ينبغى النظر إلى هذا الجزء من المقدمة باعتباره جزءًا لا يتجزأ من بنية الكتاب.

***

أتدرى - قارئى الكريم - ما هو أكبر العوائق التى تحجب البعض عن الإيمان بمفهوم الألوهية؟ إنه عائق الغرور والتكبر!!

إن المشكلة التى تواجه الملاحدة أنهم يُحَكِّمون عقولَهم على أفعال الله ﷻ وحكمته، فيقولون لو كان إلهًا حكيمًا أو رحيمًا لَمَا فعل كذا وكذا، مثلًا: لَمَا قتل مئات الآلاف من البشر بالتسونامى، ولما أصاب أطفالًا لا ذنب لهم بالسرطان، .... ويقفزون إلى القول: إذًا ليس هناك إله، وهذا التناول هو ما يُعرف بمجادلة الشر والألم.

إن هذا التناول يحمل خطأين منهجيين كبيرين. الأول هو أن هذه الشرور لا تتعارض مع الوجود الإلهى، لكنها تتعارض مع كون الإله رحمانًا رحيمًا كما يقول المسلمون أو كونه إله محبة كما يقول المسيحيون. إذًا لا ينبغى الاحتجاج بمثل هذه الأمثلة لنفى الوجود الإلهى[1].

والخطأ الثانى الذى يقع فيه الملاحدة؛ هو تحكيم عقولهم المحدودة على أفعال وحكمة الإله

= ٥ - دليل التسخير والتدبير: يقابل «دليل العناية»، ويختص بصفات الجلال والقهر الإلهى.
﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل]. لقد قهر الله ﷻ هذه الكائنات لتكون فى خدمة الإنسان.

٦ - دليل التخصيص (الاختصاص): ويعنى أن ما نراه فى الكون كان يمكن أن يكون على هيئات عديدة، لكن الله ﷻ اختار منها الهيئة الأفضل.
﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة].
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ... ﴿٤٥﴾ ﴾ [الفرقان].
﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص].

(١) كان الانتباه لهذا الخطأ من دوافع رجوع زعيم الملاحدة فى القرن العشرين - سير أنتونى فلو - عن إلحاده، بعد أن كان دافعه للإلحاد هو مجادلة الشر والألم.

المطلق. إن عجزنا عن فهم الأفعال والحكمة الإلهية لا يرجع إلى عجز الإله أو عدم وجوده بالمرة، وإنما يرجع إلى جهلنا ومحدودية قدراتنا.

يقول بعض الملاحدة: لقد سئمنا من ترديدكم - أيها المتدينون - القول بعجزنا ومحدودية قدراتنا العقلية، لقد صارت حجة بالية، ألا تقولون إن الغاية من خلقنا أن نتعرف على الإله وقدراته وحكمته؟ فكيف تقولون إن قدراتنا تعجز عن إدراك ذلك؟! ويضيفون: لقد مللنا من هذا المنطق وهذه الحجة حتى لم يعد لها معنى.

لهؤلاء نقول: نعم لقد كرر المتدينون هذه الحجة كثيرًا، حتى مللتم، لكن ذلك لا يمنع أنها حقيقة ينبغي إدراكها واحترامها. إن الله ﷻ يُطلعنا على مالا حصر له من مواقف قدرته وحكمته، لكن ذلك لا يعنى أن نَتَشَوَّف إلى إدراك كل الحكمة، وإذا عجزنا عن إدراك بعضها قفزنا إلى إنكار الألوهية!!. وأكرر مرة أخرى؛ يستحيل أن يدرك المحدودُ حكمةَ المطلق، هذا أمر بديهى. بل إننا فى حياتنا الدنيا نرصد العديد من المواقف التى تبين عجز بعضُنا عن إدراك حكمة البعض، هذا بالرغم من أننا جميعًا مخلوقون ومحدودو القدرة. ولأضرب لك بعض الأمثلة (الحقيقية والافتراضية) على ذلك:

- ماذا تقول فى «النملة» التى كانت تسير بجوار طعامك على المائدة، وأدهشها أن رأتك تضع على الطعام بعضًا من الملح!! إن حكمة النمل تقتضى أن تضع على الطعام السكر لا الملح!!!
- ماذا تقول فى «العروستين» اللتين كانتا تتحاوران فى محل لعب الأطفال، فسألت إحداهما الأخرى، هل صاحب المحل يعمل بالزمبرك مثلى أم يعمل بالبطارية الكهربائية مثلك؟!

إن عالم العرائس لا يخرج عن هاتين الآليتين للتشغيل، هل أدرَكَت العروسة حقيقة آلية صاحب المحل؟ وهل يكمن القصور فى صاحب المحل؟!

- وُلد أحد «توأمين» قبل أخيه بعشر دقائق، وتواصلا بالتخاطر! فأخبر التوأم الذى خَبَرَ الحياة خارج الرحم أخيه بما وجده فى حياتنا. أخبره أنه لا يحيا فى الماء (كما كان) بل فى شيء اسمه الهواء، ولو غُمِرَ فى الماء لمات! أخبره أن الفتحة التى فى وجهه ليست عيبًا خِلقيًّا بل إنه يتغذى منها بدلًا من السُّرة! أخبره أن أمهما قد غادرت فراشها وسارت

دونه، بل إنه بقى فى فراشه بعيدًا عنها! أخبره أن شخصًا آخر قد حمله بدلًا من أمه!!! أخبره وأخبره الكثير عن الحياة التى لا يعرفها التوأم الذى ما زال فى بطن الأم، لا شك أن هذا الأخير سيظن أن توأمه قد أصابه الجنون!!

- كانوا يقولون لنا فى «المرحلة الابتدائية» إن (٨ –٥=٣) وكنا نصدقهم، فهذا معقول بالنسبة لنا، ثم سألتنا مُدَرسة: كم حاصل (٥–٨)؟! اتهمنا المدرسة بعدم التركيز بل بالجهل. وعندما انتقلنا إلى «المرحلة الإعدادية» أدركنا أن الإجابة هى (–٣)! نعم هناك أرقام سالبة! من كان المخطئ، نحن أم مُدَرِّستنا؟

- كان «تلميذى فى الجراحة» يراقبنى فى أثناء إجرائى لعملية جراحية، فوجدنى أقوم بخطوة تخالف (بل تضاد) ما علمته له، فظن أننى (أستاذ الجراحة) قد أخطأت. وبعد سنين صار جراحًا، فأدرك أن ما فعلته فى الماضى كان هو عين الصواب، لكنه كان فوق طاقته على الفهم.

- نحن كائنات ذات قدرة على «الإدراك المكانى ثلاثى الأبعاد» (أمام خلف ـ يمين يسار ـ فوق تحت). تصور كائنًا (ربما تكون الدودة) لها قدرة على إدراك البعدين الأولين ولا تدرك بُعد فوق تحت. إن الوجود سيختلف بالنسبة لها تمامًا عنه بالنسبة لنا!. فعندما يسقط المطر تبتل الأرض ثم تجف، ولا تدرك الدودة أن المطر يأتى من أعلى. كذلك الكرة التى تقفز على الأرض، فالكرة تظهر وتختفى، ولا تدرك الدودة أن الكرة ترتفع لأعلى... إن الوجود سيكون مختلفًا تمامًا. هذا بالنسبة لمن يقل إدراكه عنا ببعد واحد. ما تقول فيما يطرحه العلماء من أن للوجود أحد عشر بُعدًا. كيف تكون حقيقة هذا الوجود؟! لا ندرى!! **وكيف يكون الوجود عند من هو خارج إطار المكان، وخارج إطار الزمان، سبحانه** ﷻ.

ربما (قارئى الكريم) أكون قد أكثرت من طرح الأمثلة فى هذه القضية، لكن الأمر كان ضروريًا لإيقاظ الغافلين عن أبسط حقائق الوجود، وهو **ألا يحكم الأدنى المحدود على أفعال وحكمة الأعلى المطلق.**

ومن سياق الأمثلة السابقة، أقول للملحد (دون انتقاص من شأنه، لكنه الواقع): أيتها النملة، يا عروسة اللعب، أيها الجنين، أيها الطفل فى الابتدائى، يا تلميذ الجراحة، أيتها الدودة...:

أما آن لك أن تدرك أن قدرات البشر العقلية تعجز ـ بحق ـ عن إدراك الحكمة الإلهية؟!

وأقول أيضًا للملحد: لن تُكْتَب لك النجاة حتى تتخلص من حجاب الغرور والكِبر.



بعد أن عرضنا تلخيصًا للأدلة على الوجود الإلهى (أن هناك إلها) مع توضيح العائق الأساسى الذى يحجب البعض عن الإيمان بقضية الألوهية، نستطيع أن ننطلق عبر فصول الكتاب لإثبات المحورين الآخرين للألوهية (التوحيد ـ الأسماء والصفات الإلهية) من خلال استقراء الوجود (الكون ـ الحياة ـ الإنسان).

وسيكون إثباتنا لمحور التوحيد (الإله واحد أحد) من خلال إثباتنا أنه بالرغم من التنوع الهائل لمكونات الوجود، فإنه نسيج واحد خيوطه هى مجالات الطاقة، وتحركه قوى طبيعية واحدة، وتتحكم فيه قوانين طبيعية واحدة. ومن ثم فإن وحدة النسيج لا تعنى إلا نَسَّاجًا واحدًا، أى إلهًا واحدًا لا إله إلا هو.

وسيكون إدراكنا للأسماء والصفات الإلهية عن طريق قراءة الوجود من خلال إثبات:

ـ ما تحتاجه عملية الخلق ثم إدارة الوجود من صفات إلهية.

ـ ما يميز الموجودات من صفات، ينبغى أن تتوافر فى خالقها، ففاقد الشىء لا يعطيه.

بذلك تتكامل منظومة الألوهية ذات المحاور الثلاثة.

إن هدفنا من هذا الكتاب إثبات أن القراءة العلمية للوجود تقدم البرهان على صدق المحاور الثلاثة للألوهية: إثبات الوجود الإلهى، الإقرار بالتوحيد، التعريف بما شاء الله ﷻ أن يطلعنا عليه من أسمائه الحسنى وصفاته العُلى.

ومن ثم، فإن نجاحنا فى إثبات ذلك يعنى أن «الوجود رسالة توحيد»، تمامًا مثلما أن الرسالات الإبراهيمية رسالات توحيد.

ومن ثم أيضًا، فإن نجاحنا فى إثبات مفهوم الألوهية، يعنى أن لدينا «قرآن منظور» وهو الوجود، وهو مكمل لـ«القرآن المسطور» الذى هو القرآن الكريم.



ونختم هذا التقديم للكتاب بعرض لأبوابه وفصوله:

ينقسم الكتاب إلى أربعة أبواب تضم اثنى عشر فصلًا.

- **الباب الأول بعنوان: «الألوهية».**

ويشتمل على فصلين، الأول بعنوان «**الألوهية فى الأديان**»، ونتناول فيه النظر إلى الألوهية وصفات الإله عبر الحضارات والديانات.

والفصل الثانى بعنوان: «**الألوهية فى الإسلام**». ونعرض فيه أسماء الله وصفاته فى المنظور الإسلامى، كما جاءت فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة.

- **بعد هذا الباب التمهيدى، يأتى الباب الثانى بعنوان: «الألوهية تتجلى فى الخَلْق».**

ويشتمل هذا الباب على أربعة فصول، نعرض فى الثلاثة الأولى منها دلالة عملية خلق الوجود (الكون والحياة والإنسان) على «التوحيد»، كما نستخلص من عملية خلق كل من مكوناته عددًا من الأسماء والصفات الإلهية. لذلك جاءت هذه الفصول الثلاثة تحت أسماء:

الفصل الثالث: **الألوهية وخلق الكون**

الفصل الرابع: **الألوهية وخلق الحياة**

الفصل الخامس: **الألوهية وخلق الإنسان**

ثم يأتى الفصل السادس (والأخير فى الباب) تحت اسم «**الإنسان المرآة**»، ونعرض فيه كيف أن خلق الإنسان وتأمل طبيعته وسلوكه يجلى عددًا من الأسماء والصفات الإلهية، كما يثبت مفهوم التوحيد.

- **ثم يأتى الباب الثالث بعنوان: «الألوهية تتجلى فى المخلوقات».**

ويشتمل على أربعة فصول، وهى الفصل السابع، بعنوان «**لا إله إلا الله**». ونعرض فيه أدلة التوحيد التى ينطق بها الوجود.

والفصل الثامن، بعنوان: «**وجود منضبط**». ونعرض فيه الأسماء والصفات الإلهية التى يمكن أن نحصيها من خلال تأمل انضباط الوجود.

والفصل التاسع، بعنوان: «**ثنائيات الوجود المتكاملة**». وفيه نطرح الأسماء والصفات الإلهية التى يمكن أن نحصيها من خلال إدراك ما فى الوجود من ثنائيات أصيلة متكاملة.

ونختم الباب بالفصل العاشر بعنوان: «**جنة الوجود**». فالعين البصيرة تتنبه إلى أن الوجود بمثابة الجنة للإنسان، حتى وإن أفقدنا حجاب الاعتياد إدراك ما فيه من نِعَم.

- **ونختم الكتاب بالباب الرابع وعنوانه «الوجود والقرآن»**. ويشتمل هذا الباب على فصلين:

الفصل الحادى عشر باسم «**القرآن الكريم وعوالم الوجود**». وفيه نضع أيدينا على منهج القرآن الكريم فى «**ضرب الأمثال**» التى تمزج بين عوالم الوجود الثلاثة (عالم الشهادة ـ عالم المعنى ـ عالم الغيب).

ثم يأتى الفصل الثانى عشر والأخير من الكتاب، بعنوان: «**بين وحيين، حىّ بن يقظان**». ويتناول من خلال قصة حىّ بن يقظان الفلسفية التشابه بين مفهوم الألوهية كما يوجود الإلهى ـ التطرحه الإسلام وكما يتوصل إليه العقل البشرى الفلسفى من قراءة الوجود.

بهذه الأبواب الأربعة، نكون قد **استكملنا الدليل العلمى على محاور الألوهية الثلاثة** (الوجود الإلهى ـ التوحيد ـ الأسماء والصفات الإلهية)، أى نكون قد **أطللنا على الألوهية بعيون العلم**.

وهكذا تتكامل رحلتنا التى قصدنا منها إثبات أن «**الوجود رسالة توحيد**»، تمامًا مثلما أن الرسالات السماوية الإبراهيمية رسالات توحيد. وأيضًا إثبات أن الوجود «**قرآن منظور**» تمامًا مثلما أن القرآن الكريم «**قرآن مسطور**».



الباب الأول

الألوهية

عندما تصدى العلم لقراءة الوجود (الكون ـ الحياة ـ الإنسان) تَـكَشَفَ لنا ما يتمتع به خالقه من صفات. من ذلك أدركنا أن الله ﷻ قد صمم الكون وأنشأه على هيئة تُعَرِّف الإنسان بخالقه: وجوده، وحدانيته، وباقى صفاته، مما يعنى أن الوجود مرآة للألوهية. لذا كان عنوان كتابنا أن «الوجود رسالة توحيد».

وقد اخترنا أن نبدأ الكتاب بهذا الباب (الألوهية)، الذى نعرض فيه صفات الإله كما جاءت فى الديانات المنتشرة فى العالم. ونقدم الباب فى فصلين؛ الأول: يتناول نظرة الديانات المختلفة إلى الألوهية، ويتناول الفصل الثانى نظرة الإسلام لها. وقد قصدنا إلى ذلك حتى يتسنى لنا مقارنة ما تكشفه قراءة الوجود من صفات الألوهية (فى الأبواب الثلاثة التالية) بما طرحته الديانات على البشرية.

الفصل الأول

الألوهية فى الأديان

- ظهور الديانات
  - أ ـ نظريات التوحيد أولًا
  - ب ـ نظريات تطور الأديان
  - ـ بين مدٍ وجزر
  - ـ القرآن الكريم يطرح الحقيقة
  - ـ جغرافية الديانات
- ـ الألوهية فى الأديان
- ـ أولًا: الألوهية فى الديانات الطبيعية
  - ـ الديانة الطوطمية والديانة الإحيائية
  - ـ متتالية الديانات الهندية: الڤيدية ـ البراهمانية ـ الهندوسية
    - الألوهية فى الديانة الڤيدية
    - الألوهية فى الديانة البراهمانية
    - الألوهية فى الديانة الهندوسية
  - ـ الديانة البوذية والديانة اللامية
  - ـ «دين السماء» الصينى والديانة الكونفوشيوسية والديانة «الطاوية»
  - ـ ديانة الشنتو
  - ـ الديانة الزرادشتية والمجوسية
- ـ ثانيًا: الألوهية فى الديانات التشبيهية
  - ـ الديانة اليونانية
  - ـ الديانة الرومانية
  - ـ الديانات المصرية القديمة
  - ـ الديانة الهرمسية
- ـ ثالثًا: الألوهية فى ديانات التوحيد المتعالى
  - ـ الديانة اليهودية
  - ـ الديانة المسيحية
- ـ القارئ الكريم

ظهور الديانات[1]

يقابل الدارسون لعلوم تاريخ وتطور ومقارنة الأديان نظرتين متقابلتين؛ تتبنى الأولى أن البشرية فى أول عهدها بالدين قد عرفت التوحيد، ثم اتجهت إلى تعدد الآلهة ثم عادت إلى التوحيد. وترى النظرة المقابلة أن البشرية قد بدأت بالتعدد الذى تطور إلى التوحيد. وفيما يلى نطرح وجهتى النظر هاتين (شكل ـ ١):

أ) نظريات التوحيد أولًا

تتبنى هذه النظريات أن النظرة الدينية للبشرية بدأت بالتوحيد، الذى تكشف لها إما بالتأمل العقلى أو بوحى إلهى، ثم حاد الإنسان عن التوحيد وسقط فى الشرك والتعدد والوثنية. وتتفق «نظريات التوحيد أولًا»[2] مع مفاهيم الكتب المقدسة عن عقيدة البشرية الأولى، وتستند فى ذلك إلى المنهج العلمى والتحليل الفلسفى.

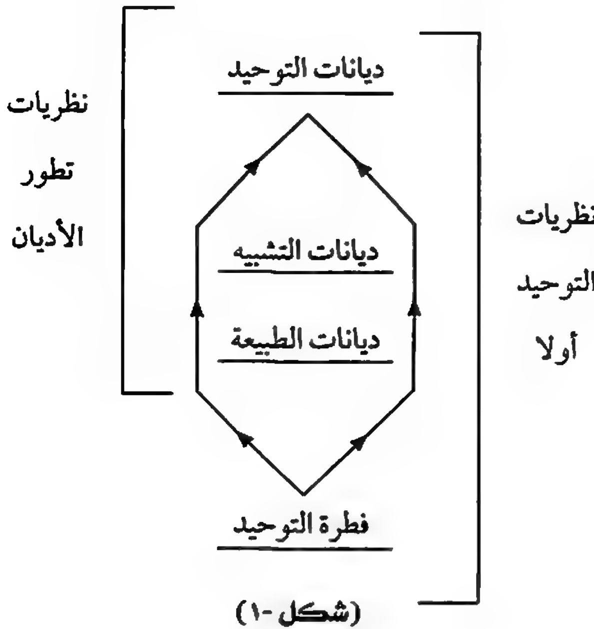
(١) مرجع هذا الفصل كتاب :«تطور الأديان، قصة البحث عن الإله» ـ تأليف الأستاذ الدكتور محمد عثمان الخشت، أستاذ فلسفة الدين بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة. الناشر مكتبة الشروق الدولية ـ ٢٠١٠.

(٢) يذهب الفيلسوف الألمانى الكبير فريدريك شلنج F.W.Schelling (1775 - 1854) فى كتابه «فلسفة الميثولوجيا Philosophy of Mythology» إلى أن التوحيد كان هو المعتقد الدينى عند البشرية قبل أن تدخل مرحلة تعدد الآلهة. كذلك يذهب الكثير من علماء الأنثروبولوجيا إلى القول بأن التوحيد هو دين البشرية الأول، ومن هؤلاء عالم الأنثروبولوجيا الاسكتلندى آنـدرو لانـج Andrew lang (1844 - 1912) الذى طرح فى كتابه «نشـأة البشرية The Making of Humanity» أن الدين الأول هو دين «إله السماء»، واستند فى ذلك إلى الدراسات الأنثروبولوجية عن قبائل وسط إفريقيا، مثل الزولو والبوشمان والهوتنتوت وبعض قبائل الأمريكتين وأستراليا الجنوبية الشرقية. ومن هؤلاء أيضًا الألمانى إينرايخ Enreich فى مقاله «الآلهة والمنقذون Gods and Saviors» (1906) وهو بحث عن قبائل الهنود الحمر.

ومن أهم الأبحاث تلك التى أجراها الأب ويلهلم شمت Wilhelm Schimdt عالم الأنثروبولوجيا والأجناس الألمانى (1868 - 1956) على الأقزام، باعتبارهم أدنى الأجناس البشرية تطورًا. فقد ثبت أنهم يعتقدون فى إله واحد خالق مهيمن، الأمر الذى يبطل مزاعم القائلين بأن البدائى الخالص لا يستطيع أن يُرجع ما يحدث فى الكون إلى سبب واحد. وقد نشر شمت نتائج أبحاثه فى كتابه «مكانة الأقزام فى تاريخ تطور الإنسان Position of Pygmy People in The History of Human Development»، وأيضًا فى كتابه «مجموعة لغات أستراليا The Grouping of The Languages of Australia».

وتُرجع «نظريات التوحيد أولًا» ميلاد عقيدة الألوهية إلى وجود «فكرة السببية» فى التفكير الإنسانى، فهى تدفع الإنسان إلى الاعتقاد بأن لكل صنعة صانعًا، ومن ثم لابد لهذا الكون من صانع ذى قدرات تتجاوز القدرات الإنسانية.

كذلك ترى هذه النظريات أن العقل المنطقى يطرح أفكارًا صحيحة يسبق بها عمل الخيال الذى يطرح عادة أفكارًا غير صحيحة، ومن ثم بدأت الديانة بمعتقدات توحيدية نقية ثم تلتها تصورات أسطورية أفرزها الخيال، بعد أن فشل بعض ما قدمه الإنسان من قرابين وأضاحى للإله الواحد فى تحقيق دعائه، فلجأ إلى الأرواح التى اعتقد أنها سوف تعينه على تحقيق ما يريد، ومن هنا آمن بها بجوار إيمانه بالإله الخالق. بذلك دخلت البشرية فى مراحل تعددية وثنية شركية مختلفة، أصبح فيها لكل ظاهرة إله، حتى ظهرت الديانات الإبراهيمية التى أعادت للدين عقيدة التوحيد نقية ومكتملة.



(شكل -١)

نظريات نشأة الأديان

وتُرَجِّح «نظريات التوحيد أولًا» أن تصورات البدائيين الأوائل للإله الواحد كانت مختلفة. فمنهم من اعتقد أن الإله غير مُدرَك بالحواس لكننا نشعر به، ومنهم من تصوره ذا وجود لا شكل ولا صورة له مثل السماء ومثل الضوء، ورأى بعضهم أنه مثل الإنسان لكنه أرقى، وربما يكون جالسًا فى السماء. ومهما اختلفت التصورات فقد كان لهذا الإله الأسمى قدرات

لا نهائية، وكان هو حاكم الكون والمهيمن عليه، ولا شريك له فى هذا. هذا وقد اكتشف علماء الأنثروبولوجيا عددًا من القبائل البدائية المعاصرة التى لا تزال على فطرة التوحيد الأولى.

ب) نظريات تطور الأديان

أما الرأى المقابل فى نشأة الديانات، فتمثله «النظريات التطورية» (شكل ـ ١) التى تذهب إلى أن شأن الإنسان مع الدين كشأنه مع مظاهر الحضارة الأخرى من فن وعلم وفلسفة. فإذا كانت حركة الحضارة الإنسانية فى تطور وارتقاء، فإن الدين بوصفه نشاطًا إنسانيًا قد مر بمختلف مراحل التطور والارتقاء من أدنى إلى أعلى، بدءًا بالنظرة التعددية إلى الآلهة، مرورًا بالنظرة الهرمية، حتى وصلت بالإنسانية إلى التوحيد. وتقف وراء هذه النظرة عدة نظريات تتناول نشأة الديانات وتطورها[1].

(١) نظريات تطور الأديان

أ) تفسيرات التحليل النفسى:

يُرجع «فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩)» أصل الدين إلى عجز الإنسان عن مواجهة مجموعتين من القوى؛ قوى الطبيعة الخارجية كالبراكين والأعاصير والحيوانات الضارية، والقوى الغريزية الجنسية والعدوانية الداخلية. فى مواجهة هذه القوى قام الإنسان بإيهام نفسه بوجود «قوة عليا تدعمه» حتى يحقق لنفسه الشعور الكاذب بالأمان. ومن ثم فالدين عند فرويد «عرض عصابى Neurosis» يسجن الإنسان ويقيده بروابط تمنعه من التوصل إلى الغرض الأعلى لوجوده: الحرية والاستقلالية. كذلك يُرجع فرويد نشأة فكرة وجود الإله عند القبائل البدائية إلى «الشعور بالذنب» المتبقى لدى البشرية، نتيجة لقتل الأبناء للأب حسب عقدة أوديب، وإلى «الشعور بالخوف» من روح الأب التى يُظَن أنها حلت فى حيوان ما (الطوطم)، مما يجعل أفراد القبيلة يقدسون ذلك الطوطم ويعبدونه باعتباره جد القبيلة الأعلى.

ويجب ألا يغيب عنا أن آراء فرويد تكونت نتيجة دراسته للحالات الشاذة المرضية، ومن ثم من غير الجائز علميًا تعميمها على الإنسانية كلها.

نتيجة لذلك انشق على فرويد عددٌ من تلاميذه الذين رفضوا التفسير الجنسى والعدوانى للسلوك ولنشأة الأديان، من هؤلاء «ألفريد أدلر» (١٨٧٠ - ١٩٣٧) الذى أنشأ مدرسة علم النفس الفردى مستبدلًا الدوافع الغريزية عند فرويد بعدد من «الدوافع الاجتماعية»، مع التأكيد على الإرادة والوعى. كذلك انشق «كارل جوستاف يونج» (١٨٧٥ - ١٩٦١) على مفاهيم فرويد لعدم نضجها وتجاهلها للاعتبارات الدينية، وأشار إلى قوة دافعة أكبر من الطاقة الجنسية وهى «طاقة الحياة»، وكان يعلق على باب منزله عبارة «الله موجود». كما يركز «إيريك فروم» على «العوامل الاجتماعية» لتفسير نشأة الديانات والمنظومات الأخلاقية.

ب) التفسير الطبيعى: وتتبناه مدرستان رئيسيتان

ـ الفيلسوف ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦): يُرجع نشأة الشعور الدينى إلى «مشاعر القلق والخوف» من أحداث المستقبل ومن الأفكار التى يضمرها الإنسان عن القوى غير المرئية وغير المعروفة، والتى كانت تسيطر على الإنسان البدائى.

ويظن هيوم أن الإنسان البدائى لم ينشغل بالتفكير فى مصدر الطبيعة، وبالتالى لم تكن نظرته للآلهة بصفتها خالقة للعالم بل بصفتها متحكمة فيه. =

وإذا قارَنَّا هذه النظرة التطورية للديانات بالعلم، نجد أن العقل العلمى كان يلجأ فى البداية إلى العديد من المبادئ لتفسير الطبيعة، ثم أخذت هذه المبادئ تقل تدريجيًا حتى وصلت

= ويعتبر هيوم أن أصل الديانات هو تعدد الآلهة، وعندما سيطرت القبيلة الأقوى على القبائل المحيطة ساد الإله الأكبر للقبيلة المنتصرة، هكذا وُلد التوحيد من التعدد.

ـ ماكس مولر (١٨٢٣ - ١٩٠٠): ويُرجع نشأة الديانات إلى خوف الإنسان من الطبيعة التى ترمز عنده إلى قوة لامتناهية، فحولها إلى قوى متشخصة تُعبَد، ثم تحول التعدد إلى توحيد.

جـ) التفسير الحيوى:

قدم هذا التفسير «إدوين تايلور» (١٨٣٢ - ١٩١٧م)، ويتبنى أن الإنسان البدائى يعتبر ما يراه فى أحلامه أرواحًا حقيقية متحررة من الجسد والمادة، وقد تكون «أرواح آبائه وأجداده»، ومن هنا نشأت عبادة أرواح الأجداد. ثم نشأت عبادة مظاهر الطبيعة، بعد أن اعتقد الإنسان أن لهذه المظاهر أرواحًا حية، خيرة أو شريرة، يمكن التأثير فيها من خلال أقوال وحركات دينية معينة.

د) التفسير ما قبل الحيوى:

يتبنى هذا التفسير عبادة «روح كلية سارية فى الوجود» (المانا) هى مصدر جميع الأرواح. وكهنة المانا هم القادرون على التواصل معها بطقوس خاصة، مما أدى إلى ظهور السحر كأسلوب فى هذه الديانات. ويعتبر الإيمان بالمانا شكلًا بدائيًّا من أشكال وحدة الوجود. ومن أهم القائلين بهذا الرأى «ماريت» (المتوفى عام ١٩٠٠).

هـ) التفسير الاجتماعى:

يرد هذا التفسير الدين إلى عوامل اجتماعية، وأشهر القائلين بذلك هما:

ـ أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٧٥): يرى كونت أن التفكير الإنسانى (ومعه الدين) قد مر بثلاث مراحل. تمثل المرحلة الأولى «طفولة البشرية»، وفيها خضع الإنسان لإرادات الأرواح أو الآلهة التى تسكن الأشياء الطبيعية. وأعقبتها «المرحلة الميتافيزيقية» التى يرد فيها الإنسان الطبيعة إلى القوى الميتافيزيقية المجردة. ثم أخيرًا «المرحلة العلمية الوضعية» التى تعتمد على الاستقراء ومعرفة القوانين الطبيعية دون محاولة تفسيرها أو ردها إلى علل دينية أو ميتافيزيقية، مما يعنى رفض البحث فى العلل الأولى ورفض ما بعد الطبيعة، وبهذه المرحلة ينتهى دور الدين عند كونت.

لذلك دعى كونت إلى «دين وضعى» يضع عبادة الإنسانية محل عبادة الله، ويركز على عنصرى «الواقع والمنفعة» اللذين يتحققان بالعلم، ومن ثم يصبح على الإنسان أن يعيش من أجل نفسه والآخرين، لا من أجل إله متشخص.

ـ إميل دوركايم (١٨٥٨ - ١٩١٧): صاحب «المدرسة الوظيفية» التى ترى أن للدين وظيفة اجتماعية. اعتبر دوركايم أن الدين منظومة متماسكة من المعتقدات والممارسات المقدسة التى توحد بين المؤمنين بها فى مجتمع دينى اجتماعى له قيم أخلاقية مشتركة. لذلك يعتبر دوركايم أن الدين الأول هو «دين الطواطم» الذى هو اسم القبيلة وشعارها ورمزها الذى يوحد أفرادها ويحقق تميزها واستمرارها فى الوجود. وأعقب ذلك مرحلة كانت الألوهية فيها مبثوثة فى الإنسان نفسه وما حوله من كائنات وأشياء ورموز، وبذلك أصبحت الجماعة فى الحقيقة «تعبد نفسها».

و) التفسير المثالى المطلق:

يرى «هيجل» (١٧٧٠ - ١٨٣١) أن الإنسان اعتبر فى البداية أن للطبيعة روحًا، وهو ما انعكس فى ظهور أديان السحر. ثـم حرر الإنسان الروح من الطبيعة شيئًا فشيئًا، حتى وصل إلى الدين المطلق الذى تتحرر فيه الروح تحررًا كاملًا.

وقد أُعتبر هذا التفسير «مثاليًّا» لاعتباره أن الروح أو العقل الكلى هو أساس التطور الدينى، وليست المادة أو الظروف التاريخية أو الاجتماعية أو الاقتصادية.

إلى قوانين أعم[1]. ولا يزال العلم يبحث عن قانون واحد يضم كل القوانين الجزئية فى نظام واحد يوجه أفكارنا ويضبط استدلالاتنا[2]. وكما سعى العقل العلمى نحو مبدأ واحد لتفسير الظواهر الطبيعية، فإن العقل الدينى سعى إلى الوصول إلى مبدأ واحد ترتد إليه كل الظواهر، فبدأ بالتخلص من الخرافات، والابتعاد البطىء والمستمر عن تعدد الآلهة، والاتجاه نحو الفصل بين الألوهية والطبيعة. وقد وصل الدين إلى نقطة ارتقائه العقلية القصوى حين رأى أن الإله الواحد هو الذى يحقق أكبر وحدة ممكنة للعقل فى فهم الوجود.

وعلى هذا الأساس، بدأ منطق تطور الدين من ديانات الكثرة بـ«ديانات الطبيعة»، وداخلها حدث تطور من عبادة الطواطم والحيوانات وأرواح الأسلاف إلى عبادة مظاهر الطبيعة. واشتملت هذه الأشكال على امتزاج واضح بين الطبيعى والإلهى. فعندما واجه الإنسان الحوادث الكونية المفاجئة مثل الزلازل والبراكين والفيضانات والصواعق والعواصف، نشأ داخله خوف من المجهول، مما استثار خياله، فأخذ يفسر الظواهر الطبيعية باعتبارها قوى عاقلة فاعلة بذاتها، ثم قام بتأليه ظواهر الطبيعة، أو بإعطاء الألوهية صفات الطبيعة.

وتشتمل «ديانات الطبيعة» على ديانات شركية تعددية ، وفى مرحلة متقدمة منها تظهر ديانات التسلسل الهرمى للآلهة؛ وهى التى تؤمن بتعدد الآلهة لكنها تخضعها لإله أكبر. وتظل هذه الآلهة ممتزجة بالطبيعة قبل أن تتحول فى مرحلة تالية وتصبح على شاكلة البشر.

ثم يرتقى الوعى الدينى إلى «ديانات التشبيه»، وفيها عبد الإنسان آلهة ذات صفات إنسانية، لكنها أعلى قدرة وأكثر قوة، آلهة ذات إرادة تشبه الإرادة الإنسانية لكنها أكبر من إرادته، ويمكن استرضاؤها بوسائل استرضاء الإنسان رغبة فى اجتذاب خيرها واتقاء غضبها. وتتراتب هذه الآلهة ترتيبًا هرميًّا، يقف فى أعلاه إله أكبر. وتماثل بنية مجمع الآلهة بنية الأسرة أو بنية الدولة؛ كما فى الديانة الإغريقية القديمة وبعض الديانات المصرية القديمة، ويظهر الإله الأكبر فى بعض الديانات ككبير للعائلة، وأحيانًا يتجلى ويتجسد فى آلهة أخرى لكل منها وظيفة واختصاص.

بذلك يتبنى الطرح التطورى أن العقل الدينى بدأ رحلته بـ«تصور طبيعى» للألوهية، ثم

---

(١) صارت هناك قوانين للحركة والجاذبية، وأخرى للحرارة، وثالثة للكهرباء، ورابعة للمغناطيسية....، ثم توحدت قوانين الكهرومغناطيسية.

(٢) يجتهد العلماء للتوصل إلى نظرية واحدة جامعة لقوانين كل قوى الطبيعة، وأطلقوا عليها اسم M)theory)، أو نظرية كل شىء Theory of Every thing (Toc). وقد مات أينشتين وهو يحلم بالتوصل إلى تلك النظرية.

دخل فى «تصور إنسانى» لها، ثم انتهى بتصوره للألوهية إلى التعالى عن الطبيعى والإنسانى. وقد صاحب هذا الانتقال التدريجى من الكثرة إلى الوحدة انتقال من نوع آخر؛ هو الانتقال من المحسوس إلى المعقول، ومن المتناهى إلى اللامتناهى، ومن الجزئى إلى الكلى، ومن العينى إلى المجرد.

ويستمر الوعى الدينى فى ارتقائه حتى يصل إلى «أديان التوحيد المتعالى»، وفيها يرتقى الدين من التوحيد غير الخالص إلى التوحيد الخالص، ومن الإله القومى (نسبة إلى القوم كالهندوسية واليهودية) إلى الإله العالمى (رب العالمين فى الإسـلام)، ومن التوحيد المعقد المُلغز (ثالوث المسيحية المعاصرة) إلى التوحيد الواضح الصرف (الإله كما يطرحه الإسلام).

ويوازى ذلك التحول تحولًا فى «منطق الاستدلال»؛ من منطق الأسطورة إلى منطق الواقع، ومن منطق الحس إلى منطق البرهان العقلى، ومن الاستدلال بخوارق الطبيعة إلى الاستدلال بنظام الطبيعة، ومن منطق الحواة إلى منطق عدم التناقض، ومن المعجزات الحسية الوقتية إلى المعجزة البيانية الباقية، ومن الكتاب الذى يلتمس دليلًا من خارجه إلى الكتاب الذى يلتمس دليلًا من داخله، ومن توحيد غامض يعتمد على التسليم إلى توحيد مطلق مستند إلى الاستدلال البرهانى، ومن منطق «آمِن ثم تَعَقَّل» إلى منطق «تَعَقَّل ثم آمن» (جدول ـ ١).

بين مدٍّ وجزر

وإذا كان تصور الإنسان للألوهية يتطور مع الوعى، فإنه يتعرض فى أحيان كثيرة لنكوص إلى الوراء، ثم يعاود التقدم، ثم يرتكس مرة أخرى، وهكذا. لكن المحصلة النهائية هى التقدم نحو التوحيد.

وفى الوقت نفسه ينطوى العقل الدينى أحيانًا على نوع من الازدواجية، بين الارتقاء فى جانب والارتكاس فى جانب آخر، فنجده يجمع أحيانًا بين التوحيد وبين الخرافات أو الوسائط أو المعاونين. لذلك يمتنع القول بأن الأديان ككل قد انتقلت تاريخيًا من مرحلة إلى مرحلة جديدة، وهذا شأن الفلسفة أيضًا، فليس ثمة قانون ثابت يحكم تطور الأديان أو الفلسفة.

أديان التعدد وأديان التوحيد
المسيحية والإسلام
(جدول -١)

أديان التعدد	أديان التوحيد
الطبيعية ـ التشبيهية	**المتعــالى**
صفات الإله	
موجودات الطبيعة	ليس كمثله شىء
صفات إنسانية	
ترتيب هرمى	توحيد مطلق
آلهة قومية	إله عالمى
ألهة محسوسة	إله معقول
عينى	مجرد
جزئى	كلى
متناهٍ	لا متناهٍ
منطق الاستدلال	
منطق الأسطورة	منطق الواقع
منطق الحس	منطق البرهان العقلى
الاستدلال بخوارق الطبيعة	الاستدلال بنظام الطبيعة
منطق الحواة	منطق عدم التناقض
المعجزات الحسية الوقتية	المعجزة البيانية الباقية
كتب تلتمس دليلًا من خارجها	كتاب يلتمس دليلًا من داخله

المسيحية والإسلام

توحيد معقد ملغز غامض	توحيد واضح صرف
يعتمد على التسليم	يعتمد على البرهان
آمِن ثم تَعَقَّل	تَعَقَّل ثم آمن

وذلك على خلاف العلم، فالعلم تراكمى، ينشأ ويتطور فى التاريخ وفق قانون التقدم. ويرجع ذلك إلى أن موضوعات العلوم تتفرع من الظواهر المادية المحسوسة الأقرب منالًا للبحث الإنسانى، أما موضوعات الأديان (الظواهر الروحية والغيبية) فهى أبعد منالًا، بحكم طبيعتها التى تتجاوز قدرات العقل الإنسانى المقيدة بعالم المحسوس. ذلك علاوة على أن الظواهر الدينية لا تحكمها الضرورة الطبيعية الحتمية التى تحكم العلم، بل تلعب فيها الحرية دورًا كبيرًا.

ومن ثم، فالظاهرة الدينية أكبر وأعقد من الظاهرة العلمية.

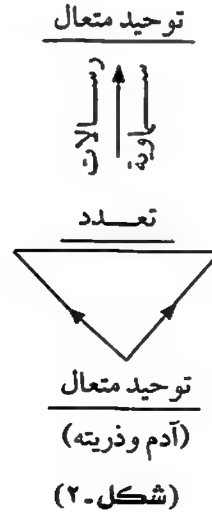
وإذا كانت البشرية قد توحدت حول العلم الطبيعى الواحد والعلم الرياضى الواحد، بعد أن وصل العلم إلى مرحلة القوانين المتفَق عليها، فإن البشرية لا يمكن أن تلتقى على الدين الواحد ذو التصور الواحد. وسيظل هذا الحلم لبعض الفلاسفة ورجال الدين مجرد وهم؛ فالخلاف بين الناس سوف يبقى ما دامت هناك حياة على وجه الأرض، بسبب تنوع الطبائع البشرية واختلاف طرق التفكير وصراع المصالح وتباين الأهواء.

وفى أحيان كثيرة، يتحول دين الوحى نفسه إلى دين وضعى، وذلك عندما يدخله التحريف ويتلون بالظروف التاريخية، وتنعكس فيه الأولويات ويغيب مقصده الكلى، ويفقد مضمونه النقى، ويتحول إلى سلطة ومؤسسة وكهنوت يركز على الطقوس والشعائر أكثر مما يركز على نقاء الضمير والفضيلة واتساق الظاهر والباطن. وقد يركز الدين على الشكلى والسلطوى والقهرى أكثر مما يركز على الجوهرى والعقلى والذاتية الحرة، نتيجة خيانة أتباعه وتغليبهم للمصلحة الذاتية تحت ضغط الصراع على السلطة الاجتماعية والسياسية. وبذلك يتحول الدين من دين وحى إلى دين وضعى، فيبدأ فى الدخول فى مرحلة الانحدار، لكى يفسح المجال لدين جديد،... وهكذا.

وبعدما يبلغ الوعى الدينى كامل نضجه، بأن يتحول التوحيد إلى عقيدة واضحة بلا أسرار، قد يدخل فى مرحلة الاضمحلال، فتطرأ على تصورات أتباعه عناصر شركية وضعية. عندها لا يكون الإنسان بحاجة إلى دين جديد؛ بل يكون بحاجة إلى فهم جديد للدين يخلصه من العناصر الوضعية فيه، أى بحاجة إلى من يجدد له أمر دينه.

القرآن الكريم يطرح الحقيقة

يؤكد القرآن الكريم أن الحالة الأولى للدين هى التوحيد، وأن هذا التوحيد لم يكن باستنباط أو تأمل أو نتيجة للخوف من المجهول أو لسبب من الأسباب الاجتماعية أو النفسية، بل كان نتيجة مباشرة لمعرفة الإنسان الأول (آدم) بالله خالقه على نحو مباشر وبدون واسطة.



(شكل-٢)

القرآن الكريم يطرح الحقيقة

ثم أعقب هذه الحالة التوحيدية حالة شركية وثنية واختلاف بين الناس فى العقائد، عندها احتاجت البشرية للأنبياء ﴿...فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ....﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة]، وإن كان القرآن الكريم لم يحدد مقدار الفترة الزمنية التى عاشت البشرية فيها على التوحيد الأول[1].

ويبين لنا القرآن الكريم أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام قد سمى كل من يأتى بعده ويؤمن بالله بـ«المسلمين» ﴿.... مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ....﴿٧٨﴾﴾ [الحج].

ويميز القرآن الكريم بين أديان باطلة ودين حق، فدين الأنبياء واحد من حيث العقيدة، أما الشرائع فمختلفة ومتنوعة.

وتظهر وحدة العقيدة فى قوله تعالى ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ

(١) روى جماعة من السلف ومنهم ابن عباس، أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كان البشر فيها كلهم على ملة الحق، وأن الشرك بالله قد حدث فى القرن الذى بُعث فيه نوح عليه السلام، ومن ثم فإنه أول نبى أرسله الله إلى قومه بالتبشير والإنذار والدعوة إلى توحيده. لكن لا يوجد دليل من القرآن والسنة الصحيحة على تحديد هذه الفترة بعشرة قرون.

ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف]، وقوله ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ... ﴿٣٦﴾﴾ [النحل]، وقوله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ... ﴿١٣﴾﴾ [الشورى].

أما شرائع الدين فتتنوع، بسبب اختلاف الظروف التاريخية ومقتضيات المصالح من عصر إلى عصر، كما قال تعالى ﴿... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ... ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة]، وقال ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ... ﴿٦٧﴾﴾ [الحج].

جغرافية الديانات

من اللافت للنظر أن «الديانات الإبراهيمية» ظهرت فى غرب آسيا، بينما تتمركز «الهندوسية وما انشق عنها» فى جنوب شرق آسيا ووسطها. ولا تنتمى هذه المجموعة إلى النمط الإبراهيمى، أى ليست على ملة إبراهيم، وإنما هى مجموعة دينية لها طبيعتها ومنطقها وتعاليمها الخاصة المباينة للدين السائر فى ذرية إبراهيم.

ويستخدم دارسو الأديان اصطلاح «الديانات الوضعية الكبرى» فى وصف الهندوسية وعائلتها، بينما قناعتنا أن لهذه الديانات أصولًا سماوية. وننطلق فى هذه القناعة من دليلين؛ الأول دليل قرآنى، إذ يخبرنا الله ﷻ أنه قد أرسل رسله ونذراءه إلى البشر جميعًا ﴿... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر]. والدليل الثانى هو ما بين الديانات الإبراهيمية والوضعية (وصفًا) من تشابه؛ فكلتا المجموعتين تشتركان فى العديد من السمات والمفاهيم[1].

---

(١) من هذه السمات والمفاهيم المشتركة للديانات:

١- الإيمان بإله واحد أزلى أبدى، خالق لهذا الوجود.

٢- أرسل الإله رسلًا يُعَرِّفون البشر بربهم، وبالغاية من خلقهم.

٣- المخاطَبون بالرسالة، هم الشعب المفضل عند الإله.

٤- توجد قصة خلق للكون والإنسان.

٥- تحتوى الديانة على قصص غيبية وأحداث مقدسة.

٦- تشتمل الديانة على شعائر وعبادات، كالصلاة والصيام.

٧- تحدد وقتًا مناسبًا للتأمل.

٨- لها أماكن مقدسة يُحَجُّ إليها.

٩- تتحدث الديانة عن حياة أخرى خالدة بعد بعث من الموت، تقترب فيها الأرواح من الإله.

١٠- تحدد الديانة نظامًا أخلاقيًا، يطلب الخالق من عباده الالتزام به (غائية)، ويحاسبهم على ذلك، إما ثوابًا أو عقابًا.

ونختم هذا الطرح لنشأة الديانات بأن **العلم مهما تقدم لن يحل محل الدين؛ لأن مجال العلم هو المتناهى**، أى المحسوس الذى يخضع للتجارب والمشاهدات، أما الدين فمجاله هو اللامتناهى الذى يخرج عن نطاق العلم. لذلك رغم أن العلم حقق تقدمًا مبهرًا فإنه لا يستطيع أن يزحزح الدين، الذى هو حاجة إنسانية أصيلة تضرب بجذورها عميقًا فى طبيعة الوجود الإنسانى.

الألوهية فى الأديان

ذكرنا فيما سبق أنه يمكن تقسيم الديانات عبر التاريخ وعبر الجغرافيا إلى مجموعات ثلاث: **ديانات طبيعية، وديانات التشبيه، وديانات التوحيد المتعالى**. والمتأمل لهذه الديانات يلاحظ أن ثمة اتفاق جذرى بينها، **فالألوهية هى الموضوع الرئيسى فيها**[1].

كما رأينا أن **تصور الألوهية** يختلف فى أديان التعدد عن أديان التوحيد وتلك التى تميل إلى التوحيد. فهى تختلف فى **طبيعة الألوهية**، وما إذا كانت متعالية أم ثانوية، واحدة أم متعددة، كما تختلف فى صفات هذه القوة وخصائصها والمبادئ التى تحكم أفعالها. كذلك يختلف تصور الألوهية من دين إلى دين داخل المجموعة الواحدة، بل يختلف فى الدين الواحد تبعًا لاختلاف أتباع الدين فى فهم النصوص المقدسة، لذا تعددت الفرق العقائدية داخل كل دين.

ومع هذا الاختلاف، تتشابه الديانات فى أن موقف الإنسان تجاه الإله الواحد لا يختلف عن موقفه تجاه الآلهة المتعددة؛ فهو موقف الضعف وإلحاح الحاجة والقلق من أحداث الحياة والتأرجح بين الخوف والرجاء. ولكن يظل هناك فرق جوهرى؛ وهو أن **التوحيد يجمع شعور الإنسان ومقصده** وينقذه من تمزق الوعى وتشتت الهم وتأرجح الوجدان؛ بحيث لا يتوجه إلا إلى الله الواحد الأحد.

وتختلف الديانات الوضعية الآسيوية بشكل جذرى عن الديانات الإبراهيمية فى نظرتها للألوهية. ويتلخص الاختلاف فى أنه يمكن أن نطلق على ديانات جنوب شرق آسيا اسم **«ديانات الطبيعة»** أو **«ديانات الحس المباشر»**، فالوعى الإنسانى لا يعرف الإله فيها إلا ممتزجًا بالطبيعة المتمردة عاجزًا عن توجيهها أو التعالى عليها، ومن ثم **فالإله غير متصف بالحرية**

(١) باستثناء بعض الفرق البوذية والطاوية والكونفوشيوسية التى لا تعتقد فى الألوهية، وهى بذلك لا ترقى إلى مستوى الدين، فبدون إله لا يكون الدين دينًا.

المطلقة! بذلك يصبح الروح اللانهائى غارقًا فى الطبيعة النهائية على نحو مباشر، أى هناك وحدة مباشرة فَجّة بين الكلى المطلق والجزئى المحدود.

ورغم أن الديانات الإبراهيمية (اليهودية والمسيحية والإسلام) تشترك فى سمات تميزها كمجموعة واحدة عن ديانات جنوب شرق آسيا، فإن الإسلام وحده يتمايز عما سواه بأنه الدين المطلق المتحرر فى النظر إلى الألوهية من التصورات الطبيعية والإنسانية. فالله تعالى ليس غارقًا فى الطبيعة، بل هو متعالٍ عليها، كما أنه لا يحل فى أى حيز أو مخلوق، ولا يتحد مع بشر فى طبيعة واحدة أو أكثر. ومع ذلك فقد نفخ الله فى الإنسان من روحه[1]، تلك النفخة التى هى منبع العقل؛ لكن ليس معنى هذا وحدة الإنسانى والإلهى، فمستويات الوجود متمايزة: الإلهى، الطبيعى، الإنسانى.

لقد خَلَّصَ الإسلام عقيدة الألوهية من كل ما علق بها من تصورات تشبهها بالبشر، أو تخلط بينها وبين الطبيعة، أو بينها وبين أى مستوى من مستويات الوجود؛ فهو ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]. وهو الذى يجب تنزيهه عن كل ما يصفه به البشر ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام].

وهو إله واحد، لامتناع التعدد عقليًّا ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء].

كذلك يجعل الإسلام العلاقة بين الله ﷻ والإنسان علاقة مباشرة دون وسائط، ويرفض إعطاء أية وظيفة إلهية لغير الله، سواء من البشر أو الجن أو الملائكة أو الأولياء أو حتى رجال الدين. وهذا هو التوحيد الخالص.

لذا، فالعقيدة الإسلامية مخالفة لعقيدة أديان الطبيعة المسيطرة على جنوب شرق آسيا، ومختلفة عن شركائها فى المنظومة الدينية الإبراهيمية، فضلًا عن بعد المسافة بينها وبين الديانات القديمة فى أفريقيا والعالم الجديد.

---

(١) نرى أن نسبة «نفخة الروح» إلى الله ﷻ، هى نسبة ملكية وليست نسبة تبعيض. مثلما أقول «قلمى»، وليس كما أقول «يدى».

ويمكن تلخيص العرض السابق فى أن الديانات بدأت بمنظور «التوحيد»، وذلك بالفطرة وبالتواصل المباشر لآدم بالإله. ثم ارتكست العقيدة الدينية، ثم عاودت التقدم، ثم ارتكست مرة أخرى، وهكذا. وقد حُسمت عمليات التقدم والنكوص بالديانات السماوية، التى قادت البشرية إلى التوحيد المتعالى ثم إلى التوحيد الإسلامى الخالص.

والآن إلى دراسة أكثر تفصيلًا للألوهية فى الأنماط الثلاثة التى ذكرناها من الأديان.

أولًا: الألوهية فى الديانات الطبيعية

الديانة الطوطمية والديانة الإحيائية

نبدأ عرضنا بأدنى درجات الوعى الدينى، وهى «الديانة الطوطمية»، التى كان لها فى العصور القديمة انتشار فى بقاع عديدة من العالم (آسيا وأفريقيا وأستراليا وفى الأمريكتين بين الهنود الحمر)، ولا تزال آثار وبقايا هذه الديانة حية، سواء ككيانات دينية مستقلة أو من خلال تَخَفيها وتسربها إلى معتقدات قطاع من المؤمنين بالديانات الكبرى فى العالم.

عبد متابعو هذه الديانة «الطوطم Totem [1]»، الذى يشير إلى أحد الكائنات أو الأشياء التى يعتبرها أبناء القبيلة مقدسة. وبالتالى يرمز الطوطم (سواء كان حيوانًا أو نباتًا أو جمادًا) إلى القوة الغيبية المقدسة التى يقع على من ينتهك حرمتها Taboo مجموعة من العقوبات. وهو أيضًا بمثابة الجد الأعلى للقبيلة، وبالتالى يرمز إلى الجماعة أو العشيرة نفسها، وأيضًا إلى قيمها ومسئولياتها الأخلاقية.

ومن البديهى أن تمتزج الديانة الطوطمية «بالديانة الإحيائية»، التى تؤمن بأن مظاهر الطبيعة كلها مسكونة بأرواح خَيِّرَة أو شريرة، يمكن التأثير فيها من خلال أقوال وحركات دينية معينة، وهذا هو أصل السحر. وبالتالى كان الاعتقاد فى الأرواح وعبادتها هو أقدم دين فى الوجود.

وتشير الاكتشافات الأثرية الحديثة فى الهند القديمة إلى أن أصغر البلدان والقرى كانت بها مبان لإقامة الطقوس، ويشير ما بها من التماثيل الأنثوية الصغيرة ـ التى تؤكد أهمية الحمل

(١) يكون الطواطم فى أغلب الأحوال حيوانًا، مثل البقرة والنسر والببغاء والجاموس والثعبان، وفى بعض الأحيان يكون من النباتات مثل شجرة الشاى، وفى أحيان أكثر ندرة يكون من الجمادات؛ مثل النجوم والكواكب والبحار.

والرضاعة - إلى عبادة آلهة أنثوية، كما يشير انتشار تماثيل الثيران والحيوانات الذكورية الأخرى إلى ديانة تقدس الخصوبة[١].

متتالية الديانات الهندية

الڤيدية - البراهمانية - الهندوسية

بعد استقرار الآريين[٢] فى الهند، نشأت معهم «الديانة الڤيدية» التى تطورت فيما بعد فأصبحت «الديانة البراهمانية»، والتى تطورت بدورها إلى «الديانة الهندوسية» الحالية. ولا يعنى ذلك حدوث ارتقاء فى الفكر الدينى الهندى؛ فحركة التطور الدينى تتضمن مدًا وجزرًا بين الارتقاء والارتداد، لذلك لا تندهش عندما تجد أن البراهمانية أنضج بكثير وأرقى من الهندوسية فى كثير من الجوانب.

وينبغى التأكيد على أن كل ديانة من الديانات الثلاث لا تلغى ما قبلها، بل تكون الديانة السابقة بمثابة العهد القديم بالنسبة للديانة الجديدة كما هو الحال فى الديانة المسيحية.

ويمكن التمييز بين الديانات الهندية الثلاث على أساس بعض المحاور الرئيسية. فكُتب «الڤيدية» وضَعَت ما يُسمى بـ«طريق النشاط أو العمل أو الجهد»، أما كتب «البراهمانية» (وأهمها الأوبانيشاد) فقد أرست «طريق التأمل والمعرفة»، بينما بينت كتب «الهندوسية» «طريقة العبادة».

لذلك فالخلاص (وهو غاية كل هندى قديمًا وحديثًا) يتم فى الڤيدية أساسًا عن طريق «الأضاحى»، فى حين يُنال فى البراهمانية بـ«التأمل والمعرفة»، بينما يتم التوصل إليه فى الهندوسية بوسائل متعددة أهمها «الإيمان والحب والولاء». وكان أتباع الڤيدية يعتقدون أن الأضاحى تُلزم الآلهة الاستجابة لكل مطالبهم، بينما يقوم أتباع الهندوسية بأداء عباداتهم وتقديم قرابينهم فى حالة من الحب للآلهة والرغبة فى عطفها دون جزم بأنها لا بد أن تستجيب.

(١) كذلك عُثر على أقنعة عديدة تشير إلى وجود رجال دين (كهنوت)، وتوحى إمكانيات الاستحمام المتطورة بالعناية بالتطهير الدينى.

(٢) كان الآريون يستوطنون شمال البحر الأسود ويطلقون على أنفسهم اسم «آرياس Aryas» الذى يعنى النبلاء. ثم غزوا الهند فى القرن العشرين قبل الميلاد، لذلك أصبحوا يوصفون الآن بـ«الهند أوروبيين»، وهم الذين تشكلت معهم الكتب الڤيدية المقدسة. وعندما دخل الآريون الهند، لم يندمجوا بالزواج مع الهنود الأصليين بل تعاملوا معهم باعتبارهم عبيدًا وخدمًا، وأوجدوا نظام التمييز الطبقى المقفل الصارم على أساس دينى.

وبينما يمارس الهندوس عباداتهم فى معابد، فإن أتباع الديانة «الفيدية» لم يعرفوا المعابد، وكانوا يمارسون عباداتهم إما فى الدار أو فى أماكن مفتوحة. وتجد المعابد الهندوسية مليئة بتماثيل الآلهة وصورها، والهندوس يقدسونها كرموز دالة على الآلهة، لكن أتباع الفيدية لم يرتبطوا بتمثال أو صورة لإله. وفى الوقت الذى تقدس فيه الهندوسية حجر اللنجا وهو صورة للقضيب الذكرى المنتصب كرمز للإله شيفا (المدمر)، كانت الديانة الفيدية تحرم ذلك وتلعن من يفعله.

الألوهية فى الديانة الفيدية

مثل الديانات الطبيعية، تظهر الألوهية فى الديانة الفيدية من خلال الظواهر الكونية والطبيعية. فالألوهية مباطنة وحالَّة فى الطبيعة مما يجعلها منزهة ومقدسة. فالإله الفيدى «فارونا» هو حارس النظام الكونى، وهو نفسه أيضًا النظام الكونى، كما أنه كذلك السماء التى تعلونا والتى تُعتَبر رمزًا للإله وعلامة على تنزهه.

ومثل الديانات الطبيعية أيضًا، تؤمن الفيدية بتعدد الآلهة، وتعطى لكل إله مهمة محددة وقدرة خاصة تناسب شكلًا من أشكال الظواهر الكونية أو الطبيعية أو الاجتماعية أو حتى المجردة (كالكلام والوعى)، ومن ثم فهى ديانة شركية. وهى فى الوقت نفسه من أقل الديانات تأثرًا بالسمات الإنسانية فى تصورها للآلهة.

وهناك نوع من التوافق بين بنية مجمع الآلهة وبين بنية الكون وأيضًا بنية النظام الاجتماعى. فالآلهة تتوزع فى مستويات كما تتوزع عناصر الكون والطبقات الاجتماعية.

وإذا كان القَدَر فى الإسلام فعل إلهى، أى مشيئة الله وسننه الكونية، أى أن القدر ليس قانونًا يسرى على الله ذاته، فالآلهة من الديانة الفيدية تخضع لهذا الناموس الكونى.

أما كيف خلق الإله الوجود وكيف نشأ الكون، فتتباين روايات الكتاب المقدس (الفيدا) تباينًا شديدًا، مما يدل على أن أصل الفيدا ليس واحدًا، بل إن هناك أيادى كثيرة ساهمت فى كتابته.

الألوهية فى الديانة البراهمانية[1]

تمثل الديانة البراهمانية مرحلة أرقى وأعمق من الديانة الڤيدية؛ حيث تخلت عن كثير من مظاهر التفكير الدينى الطفولى. وبالإضافة لذلك فقد تجاوزت البراهمانية التوحيد ونزعت نحو وحدة الوجود؛ حيث اعتبرت أن الحقيقة الأصلية الخالدة وجود واحد هو «البراهمان»، وما الآلهة وما موجودات العالم كله إلا صور لها.

ويرى حكماء البراهمانية أن عالمنا المشهود بأشيائه المتعددة المادية وغير المادية عالم غير محكم وغير متكامل، لذا لا يمكن أن يكون هو الحقيقة الأصلية الخالدة التى هى أساس كل الوجود.

ولا يمكن اعتبار البراهمان إلهًا بنفس المفهوم الذى تحمله تصورات الألوهية فى ديانات التوحيد المتعالى، بل يُنظَر إليه كحقيقة أولى غير محدودة وبالغة التجريد. فالديانة البراهمانية ترى أن «البراهمان الخالد موجود فى كل مكان؛ فى الأمام والوراء وعلى اليمين وعلى اليسار، وفى الشىء وضده. إنه ذاك الذى نُسِجَت منه السماء والأرض والجو، والعقل أيضًا، والحواس كلها». «وكما لا يختلف الماء والموج والزَبَد عن البحر، فلا فرق أيضًا بين العالم والبراهمان». «إن البراهمان يتخذ عدة صور، وهو المصدر الحقيقى لجميع الأشياء، ومع ذلك فهو بدون أجزاء، وهو فوق كل صور العالم وفوق الأزمنة الثلاثة (الماضى ـ الحاضر ـ المستقبل)». «الحقيقة أن كل شىء هو براهمان».

عقيدة آتمان Atman

وبجوار حقيقة «البراهمان» توجد حقيقة أخرى هى «آتمان». وآتمان كلمة سنسكريتية تعنى الطاقة الروحية للذات أو النفس الكلية أو مبدأ الحياة. وهى ليست مادة ولا صورة، ولا هى العقل ولا حتى الذات الفردية، إنها الوجود الصامت الكامن بداخلنا.

وتقول أوبانيشاد كانا: «الواحد الحكيم (آتمان) لا يولد ولا يموت، هو لم يأتِ من مكان، ولم يصبح أحدًا، إنه أَوَّلى دائم أبدى، لا يموت عندما يموت الجسد. إذا فكر القاتل بالقتل، وإذا اعتقد المقتول أنه مقتول، فإن كليهما لا يفهمان، هذا لا يُقتَل وذاك لا يَقتُل، هو (آتمان) الروح

(١) ظهرت الديانة البراهمانية حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، على يد مجموعة من الحكماء الذين لم يكونوا ليقتنعوا بأن الخلاص يمكن أن يأتى عن طريق الأضاحى والقرابين التى تنص عليها الديانة الڤيدية السابقة، بل يأتى الخلاص عن طريق التأمل الباطنى المجرد والتطهر من عوالق الحس والمادة.

القائمة فى قلب المخلوقات هنا. هو اللاجسدى بين الأجسام والمستقر بين اللامستقرين، إنه الروح العظيمة الموجودة فى كل شىء».

بذلك يمكن القول إن الآتمان هو المطلق الذاتى، بينما البراهمان هو المطلق الموضوعى. والحكيم البراهمانى يدرك أن كلا المطلقين غير منفصل عن الآخر، فما هو ذاتى وما هو موضوعى شىء واحد وحقيقة واحدة، وما يوجد فى أعماق الإنسان ويوجد فى الكون هما شىء واحد، أى أن براهمان هو آتمان فى نهاية المطاف[1].

الألوهية فى الديانة الهندوسية[2]

تُعتبر الهندوسية ـ كامتداد للبراهمانية ـ ديانة طبيعية تتجاوز التوحيد وتُغرق فى القول بوحدة الوجود. يقول البيرونى فى كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة»: «يؤمن الهندوس بالإله

(١) عرضنا فيما سبق العنصرين الأساسيين الإلهيين من عناصر البراهمانية (البراهمان والآتمان)، ومن أجل أن تكتمل معالم صورة عقائد البراهمانية نشير إلى أربعة عناصر أساسية أخرى فى عقيدتهم، وهى:

١ - الكارما Karma: وهى قانون الجزاء.

فالكون نظام إلهى قائم على العدل الصارم، وفيه يتم إحصاء كل ما يفعل الإنسان لينال عليه الجزاء، إما فى هذه الحياة، أو بعد الموت عن طريق التناسخ.

٢ - عقيدة التناسخ The Doctrine of Re-Incarnation:

يقضى الموت على الجسد المادى، أما الروح فتلحق بدورة التناسخ. فإذا كانت الروح لإنسان خَيِّر تقمصت جسد إنسان من طبقة أعلى (كنوع من الثواب)، وإذا كانت لإنسان شرير لحقت بجسد إنسان من طبقة أدنى أو جسد حيوان (كنوع من العقاب). وفى كل الأحوال لا يدرى الإنسان شيئًا عن حياته السابقة (أى لا يعرف إن كان قد أُثيب أو عُوقب).

٣- الانطلاق: بتكرار دورات التناسخ، يتم تطهير الروح من الشهوات واستيفاء ما عليها من ذنوب. عند ذلك تنجو الروح من تكرار المولد، ويتحقق لها الخلاص (موسكا)، وتمتزج بالإله (براهما) كما تعود قطرة المياه إلى المحيط العظيم، وهذا هو هدف الحياة الأسمى.

وأفضل سبيل للانطلاق هو الزهد والسلبية، فصالح الأعمال وأرذلها تُدخل الروح فى دورات جديدة من التناسخ.

٤ - وحدة الوجود Pantheism: انبثق الكون كله عن الله، وكذلك روح الإنسان، فهى أزلية أبدية غير مخلوقة، وهى من الإله مثل أن شرارة النار نار. وعندما تُجَرَّد الروح من جسمها المادى تعود إلى الروح الأكبر (الانطلاق).

(٢) بدأ الانتقال من الديانة البراهمانية إلى الهندوسية بشكل غير محسوس فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد. وقد جاءت الهندوسية كرد فعل لانشقاق الديانتين الجينية والبوذية عن البراهمانية؛ حيث استشعر الكهنة ضرورة تبسيط المعتقدات وجعلها أكثر حسية وتجسيدًا وإثارة، عبر مجموعة من القصص الأسطورية التى تثير الخيال الدينى عند العامة.

وتتفق التيارات الدينية المتعارضة العديدة للهندوسية فى عدد من العقائد: تناسخ الأرواح ـ قانون الكارما ـ الخلاص (موسكا) ـ تقديس البقر ـ نظام الطبقات الصارم وعلى رأسه طبقة البراهمة ـ والاعتقاد فى براهمان الإله الأكبر اللامتناهى وغير المحدود والمجرد تمامًا، ذو التجليات الإلهية الثلاثة المتمثلة فى براهما (الخلق) وفيشنو (الحافظ) وشيفا (المدمر) ـ وأخيرًا وليس بآخر الاعتقاد فى وحدة الوجود.

والهندوسية بالإضافة لإيمانها بكتبها المقدسة (الرامايانا والمهابهاراتا) فإنها لا تنكر قدسية الكتب القديمة للڤيدية (الڤيدا) وللبراهمانية (البراهمانا والأوبانيشاد)، تمامًا مثلما لا تنكر المسيحية قدسية التوراة وأسفار بنى إسرائيل.

الواحد الأزلى من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار فى فعله، القادر الحكيم، الحى المحيى، المدبر المبقى، الفرد فى ملكوته، المنزه عن الأضواء والأنداد، لا يشبه شيئًا ولا يشبهه شيء».

ويصاحب هذه النظرة شيوع عقيدة **تجسد الآلهة**، إذ يؤمن الهندوسى بأن الإله يحل ويتجسد فى هيئة أرضية، إنسانية أو حيوانية. ويمكن تشبيه هذه العقيدة بالمسيحى الورع، الذى يتوجه بالدعاء إلى العذراء أو إلى قديس من آلاف القديسين لكنه فى الوقت نفسه لا يعترف إلا بإله واحد.

وتتفق الهندوسية مع البراهمانية فى أن **«البراهما» هو الأساس**، ومنه ينبع العالم كله من أرفع مراتب الوجود إلى أدناها. وتصور الهندوسية «البراهمان المطلق» باعتباره المجرد واللاامتمايز واللامتعين تمامًا، أى لا يمكن تحديده ولا تمييزه ولا وصفه ولا تعيينه. ويفتقر هذا الغلو فى التجريد إلى مضمون خاص، ولا تقابله إية شخصية عينية، ومن ثم لا يستطيع الإدراك أن يصوغه أو حتى يفكر فيه.

ويخرج عن البراهما (المبدأ الأول والمحايد والمجرد) **ثلاثة تجليات أساسية**، هى التريمورتى Trimorti أى **الثالوث الإلهى**[1]، وهى:

- **براهما** (المذكر)، صاحب النشاط المنتج والمنجب، فاطر العالم، كبير الآلهة، إلخ. وهو أول تجليات براهما (المحايد المطلق الأعلى).
- **فشنو** (كريشنا)، الذى يحفظ ويصون، ويتجسد فى أشكال عديدة لا حصر لها.
- **شيفا**، الإله الذى يدمر.

فهو براهما (من حيث إنه خالق)، وهو فشنو (من حيث إنه حافظ) وهو شيفا (من حيث إنه مُهلِك). وهذه الصفات الثلاث كامنة فى الإنسان.

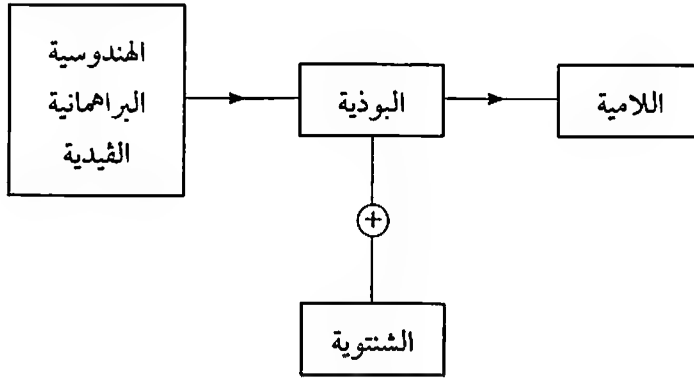
ولهذه الآلهة الثلاثة تجليات ونشاطات تفوق الحصر فى جميع المجالات الطبيعية والإنسانية.

ولا شك أن الهدف الأقصى للهندوس هو **التوحد مع البراهما الواحد**. وينال البراهمة هذا الشرف مباشرة **عن طريق الفكر**، بفضل مولدهم الإلهى كبراهمة أى كآلهة. أما الطبقات الأدنى

(١) يختلف هذا الثالوث فى الهندوسية عن أقانيم المسيحية الثلاثة (الأب - الابن - الروح القدس). فالتثليث المسيحى لا يعنى ثلاثة آلهة، بل إن هذه الأقانيم الثلاثة جوهر واحد. ففى طبيعة الإله الواحد تظهر ثلاث خواص أزلية، يعلنها الكتاب المقدس فى صورة شخصيات (أقانيم) متساوية. انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص ٢٣٢.

فيحققون ذلك عن طريق إماتة الشهوات والرغبات واللذات الحسية والتخلص من مظاهر الحياة الخارجية بل ومن كل نشاط حيوى، وذلك بعد دورات من التناسخ.

وعند الحديث فى أى مكان فى العالم عن الديانة الهندوسية، فإن عقيدة «تقديس البقر»[(١)] تظل هى أكثر العقائد ذِكرًا. ولم يأت هذا الاتجاه من فراغ؛ فتقديس البقرة هو المحور الجامع بين كل طوائف الهندوسية المختلفة. فالهندوس يعتبرون أن كل جزء من جسم البقرة يسكنه إله من الآلهة، بل إن كل إفرازاتها طاهرة ويمكن التبرك بها، حتى إذا ماتت وجب دفنها بطقوس دينية ذات جلال. وقد حاول كبار مفكرى الهندوسية المعاصرين أن يفلسفوا هذه القداسة؛ فذاك غاندى يعتبر أن حماية البقرة من أرقى مراتب التصور الإنسانى، فالإنسان بذلك يجعل نفسه متوحدًا مع كل حيوانات الأرض، من ثم فإن الاهتمام بها هو عنوان الإشفاق والرفق، وحمايتها تعنى حماية الخلائق البكماء كلها.



(شكل-٣)

الديانات الهندية واليابانية

(١) لم تكن البقرة مقدسة فقط فى الهندوسية، بل كانت كذلك فى مصر القديمة، كما كان لها منزلة خاصة عند بعض الحضارات.
ويُرجع علماء أصول السلالات البشرية تقديس البشر للحيوانات إلى ثلاثة أسباب رئيسية؛ إما لأنها نافعة، وإما لأنها سكن الآلهة وإما لأنها ممثلة لأسلاف العشيرة (طوطم). وربما نضيف سببًا آخر فى حالة الهند؛ وهو الاحتفاظ بالبقرة للزراعة والاستفادة مما تفرزه من خيرات لا غنى عنها لحياة السكان الذين يتضاعفون بسرعة.

الديانة البوذية والديانة اللامية[1]

يعتبر بوذا أن طبيعة الإله الخالق تفوق قدرة البشر عن التفكر فيها، لذلك أعلن أن لا علاقة له به، لذلك يعتقد الكثيرون أن بوذا ينكر وجود الإله الخالق.

لذلك ينظر بوذا إلى الجوهر الخالد بوصفه عدمًا، فالأصل فى الوجود هو العدم، والنهاية هى العدم. والأشياء الموجودة فى العالم ما هى إلا صور فى حالة تغير، وعند تحليلها تفقد كينونتها[2].

ويعلن بوذا أنه قد اكتشف «طريق الخلاص» من آلام الدنيا عن طريق التفكر ومجاهدة النفس، وعلى ذلك تقوم ديانته. وقد تبدلت عقائد البوذية وتنوعت مدارسها على مر الزمان. وقد بقيت البوذية على هيئتها الأصلية فى صورة «التيار الإنسانى = الهنايانا» الذى ينظر إلى البوذا باعتباره حكيمًا لا إلهًا، وينتشر هذا التيار فى الجنوب (تايلاند ـ بورما ـ سريلانكا ـ كمبوديا ـ لاوس)، أما «التيار المؤله» لبوذا فتيار متأخر ويعرف بـ«الماهيانا»، ويعتبر بوذا كائنًا إلهيًّا نزل إلى الأرض لكى يرشد الإنسان إلى الخلاص، وينتشر هذا التيار فى الشمال (التبت وفيتنام ومنغوليا ونيبال واليابان وكوريا).

(١) مؤسس البوذية هو «سيدهارتا» (٥٦٣ - ٤٨٣ ق.م)، ويُطلق عليه اسم «بوذا» أى الرجل المستنير أو الملهم أو اليقظ. وقد ارتد عن الديانة البراهمانية بسبب فوارقها الطبقية المقدسة وطقوسها المعقدة فى عبادة الآلهة والتضحية لها.

وتهدف البوذية إلى التحرر من الألم عن طريق الكمال الأخلاقى الذى يمكن بلوغه بالانسحاب من الحياة (الانعتاق الجميل) والانغماس فى النعيم الدائم (النيرڤانا). كما تقبل البوذية بعض المفاهيم البراهمانية كدورات الحياة والتناسخ والكرما.

الديانات الجينية والسيخية والمهاريشية:

مثل البوذية، تُعتبر هذه الديانات والمذاهب خروجًا عن البراهمانية.

وقد نشأت «الجينية» فى القرن السادس قبل الميلاد، وتدعو إلى التحرر من كل قيود الحياة، والامتناع عن إلحاق أى ضرر بأى حى.

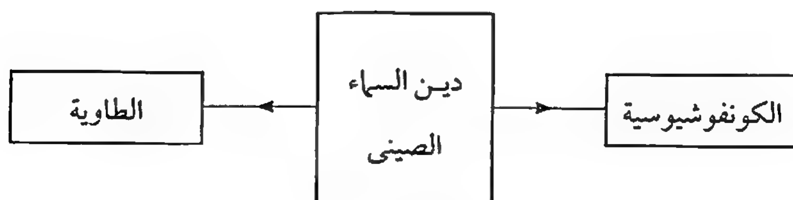
أما «السيخية» فقد أسسها ناناك (١٤٦٩ - ١٥٣٩م) الذى كون جماعة تدعو إلى دين جديد مركب من الديانتين الإسلامية والهندوسية تحت شعار (لاهندوس ولا مسلمين)، حيث تتبنى أنه لا فرق بين الله ﷻ فى الإسلام وبين فيشنو الإله الحافظ عند الهندوس. وتدعو السيخية إلى الزهد والإحسان والتأمل الذى يُمَكن من رؤية الله فى الوجود الإنسانى.

و«المهاريشية» مذهب هندى مادى ملحد، ومع ذلك له طقوس كهنوتية تهدف إلى الوصول إلى السعادة الروحية.

(٢) لما كان الجوهر هو العدم، فإن «طريق الخلاص» يكون عن طريق التوحد مع العدم والانعتاق من الحياة بكل مظاهرها (الوعى ـ العواطف ـ الإرادة ـ الشيخوخة ـ المرض ـ الموت). ويقترب الإنسان من السعادة القصوى (النيرڤانا) بمقدار تحرره من مظاهر الوجود.

وتُعتبر «**اللامية**» ديانة متطورة عن البوذية، وتشترك معها فى **الإيمان بإنسان ذى طابع إلهى** حامل للوحدة الجوهرية للمطلق. وتقيم البوذية هذه العلاقة بإنسان ميت هو بوذا، بينما تقيمها اللامية بإنسان حى هو **اللاما** (مثل الدلاى لاما فى التبت). ويُعتبر بوذا واللاما نبع العطاء الروحى، وهذا لا يعنى أن هذا الإنسان الإلهى سيد للطبيعة يمكنه التحكم فيها بالسحر والمعجزات[1]، وإن كان متميزًا عن الطبيعة بكل ما فيها من جزئيات.

«دين السماء» الصينى والديانة الكونفوشيوسية والديانة «الطاوية»:



(شكل-٤)

ديانات الصين

«**دين السماء**» هو الأقدم فى الصين، وأساسه **تكريم السماء بوصفها قوة عليا سامية**، والخوف منها وإجلال الأرواح الكائنة فى جميع أنحائها. **والسماء تدل على الكلى المجرد غير المحدد تمامًا** (شكل ـ ٤).

والإمبراطور هو الرمز المشَخَّص المهيمن على الأرض بكل ما فيها من قوى طبيعية وأرواح، وهو **وحده المرتبط بالسماء** (يقدم لها القرابين ويتضرع إليها ويقدم لها الشكر)، ومن ثم فإن كل شىء مستمد من الإمبراطور وخاضع لسيطرته المباشرة. لذلك فالعبادة ليست إلا عبادة الإمبراطور باعتباره رمزًا دينيًا ساميًا للسماء، بالإضافة إلى كونه مثلًا للأخلاق الراقية.

وقد بلور «**كونفوشيوس**» الأخلاق التى يقوم عليها دين السماء الصينى، فقدم مذهبًا أخلاقيًا مستمدًا من عناصر أخلاقية موجودة فى التاريخ الصينى. **والأخلاق فى هذا المذهب ذات طابع أبوى**؛ فهناك الواجبات تجاه الإمبراطور، وواجبات الأبناء نحو الآباء، والآباء نحو الأبناء، وواجبات الأشقاء والشقيقات تجاه بعضهم البعض.

(١) من هذا نفهم أن البوذية واللامية قضتا على «الديانة الشامانية» فى منغوليا ، والقائمة على السحر والمعجزات والشعوذة.

كذلك أسس «لاو ـ تسى»[1] «ديانة الطاو» التى تركز على المفاهيم الفلسفية الباطنية، فى مقابل مفاهيم كونفوشيوس الأخلاقية التى تميز دين السماء الصينى.

والطاو هو العقل الأصلى الذى خلق العالم، ويسوسه مثلما تسوس الروح الجسد. ويصف لاو ـ تسى العقل الأصلى قائلًا: «أنت تبصر ولكن لا تراه، وأنت تصغى السمع ولكن لا تسمعه، وأنت تبحث عنه بيدك ولكن لا تصل إليه». وهذه الجوانب الثلاثة متوحدة معًا، ليست سوى شىء واحد، يعتبره لاو الشكل المطلق والوجود الذى لا يمكن وصفه، ولا يوجد شىء أعلى منه، فأساس هذا العقل فى اللاوجود أى العدم المطلق[2].

ديانة الشنتو

الديانة الشنتوية هى مجموعة المعتقدات الدينية الأصلية فى اليابان. والمعتقد الرئيسى فيها هو الإيمان بالقوى الروحية الغامضة المسماة بـ«الكامى **Kami**» وهو شىء قريب من مفهوم الآلهة، ولفظ شنتو نفسه معناه «الطريق إلى الكامى».

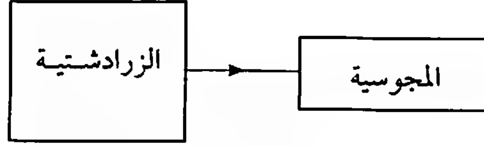
وثمة اعتقاد مبكر بأن الكامى هى أرواح الأسلاف، ثم تطور المفهوم فأصبح يدل على أرواح الكائنات الفعالة فى الوجود، وتشمل قوى كثيرة فى الطبيعة، خَيِّرَةً وشريرة، ومن أهمها «إماتراسو» إلهة الشمس التى تنير السماء. ويعبد الشنتويون الكامى من خلال جميع عناصر الطبيعة، لذلك قال أحدهم «إننا عندما نصلى نشكر كل شىء فى الوجود».

وابتداء من القرن السادس الميلادى حدث تأثير واضح للبوذية على الشنتوية، فأصبحت تؤمن بالآلهة البوذية جنبًا إلى جنب مع «الكامى». وفى هذا المزج اُستخدمت التماثيل والصور البوذية لتمثل الكامى فى بعض الأحيان، وأصبح معظم اليابانيين يقيمون الجنائز فى المعابد البوذية بينما يحتفلون بالزواج فى المعابد الشنتوية[3] (شكل ـ ٣).

(١) ولد آخر القرن السابع قبل الميلاد، قبل كونفوشيوس، وقد عاصره فى جزء من حياته.

(٢) يُطلق اصطلاح الطاو ـ سين (بمعنى أنصار العقل) على هؤلاء الذين يقضون حياتهم فى دراسة العقل (الطاو)، ويؤكدون أن الذى يعرف ماهية العقل يحوز العلم الشامل، وعلاج كل مرض، وطريق الخلاص والفضيلة الكاملة. ويصير بذلك أعلى من الطبيعة، فيستطيع الارتفاع إلى السماء طائرًا عبر الأجواء ولا يفنى أبدًا.

(٣) جرت محاولات لتخليص الشنتوية من البوذية. ففى عام ١٨٦٨ تم إعلان الشنتوية ديانة وطنية لليابان مع ظهور تيار «دولة شنتو» الذى حاول إرجاع الإمبراطور والعائلة المالكة لجذور إلهية، لكن هذا التيار تراجع مع هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية ورفض الإمبراطور العقيدة التى ترجعه لأصل إلهى.



(شكل ـ ٥)

ديانات فارس القديمة
والمناطق المحيطة بها

الديانة الزرادشتية والمجوسية[١]

الزرادشتية هى ديانة زرادشت (٦٦٠ - ٥٨٣ ق.م)، الذى دعا إلى وحدانية الله وأثبت له صفات الخير والقوة، وأكد على حكمته ورحمته ومحاربته للشر، ورفض عقائد الشرك والوثنية وقوى الفساد. يقول زرادشت مخاطبًا الإله أهورامزدا: «إننى لأدرك أنك أنت وحدك الإله وأنك الأوحد الأحد».

ويحيط بالإله حاشية من الأرواح الطيبة والملائكة متفاوتة الرتب. والملائكة كائنات نورانية لأنها من الإله نفسه، انتشرت فى ملكوته السماوى وتأتمر بأمره. ويرأس الملائكة ستة، يحملون أسماء: العقل والحكمة والتقى والسلوك الطيب والقدرة والخلود، وهذه أيضًا أسماء صفات الكمال للإله نفسه، والأرواح الطيبة والملائكة كائنات عابدة لا يتوجه إليها الزرادشتيون بالعبادة.

أما الرؤية التقليدية للزرادشتية فقد حادت عن مفهوم التوحيد الذى ذكرنا؛ فقد حولها أتباعها إلى ديانة شركية (المجوسية) تؤمن بإلهين: الأول هو أهورامزدا؛ وهو الإله المضيءالطاهر، ونقيضه هو الإله أهريمان، وهو إله الظلام، وهو نجس فى ذاته. وألوهية كلا الإلهين غير مطلقة بل كامنة فى الأشياء، فأهورامزدا لا يوجد إلا فى كل ما هو مضيء ونقى، مثلما لا يوجد أهريمان إلا فى كل ما هو قاتم ومظلم وفان ومريض.

والواقع فى الديانة المجوسية يشتمل على مملكتين، مملكة النور ومملكة الظلام، ويهدف المجوسى إلى الانتصار للأولى وتدمير الثانية.

(١) كانت الزرادشتية هى الديانة الرسمية فى العهد الساسانى فى القرن الثالث الميلادى فى فارس، وكان بجوارها عقائد أخرى مثل المانوية والمزدكية واليهودية والنصرانية. ولما جاء الإسلام اعتنقه أغلب الفرس، لكن لا يزال ثمة وجود قليل للزرادشتيين جنوبى خراسان بإيران وبومباى بالهند، وهاجر بعضهم إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وأستراليا ونيوزلاندا.

ويتوجه المجوس فى صلاتهم إلى أهورامزدا، وإلى الانبثاقات الأولى منه (الأرواح السماوية والملائكة)، وكذلك إلى أرواح السلف الطاهرة خاصة روح زرادشت، وإلى «مترا» إله العدل وقاضى الأموات، ويرفعون ابتهالاتهم أيضًا إلى مظاهر الطبيعة باسم أهورامزدا.

وقد وضعنا المجوسية فى آخر ديانات المرحلة الطبيعية؛ لأنها لا تزال تمزج بين الإلهى والطبيعى (ديانة وحدة وجود طبيعية)، وإن كانت تمتاز عن الديانات السابقة بأنها قلصت عدد الآلهة إلى اثنين. كذلك أصبح الإله المعبود أكثر تحديدًا، فهو الخَيِّر، على العكس من براهما الذى كان بلا تحديد، وعلى عكس الجوهر عند البوذية والذى كان عدمًا، لكن لا يزال هناك إله آخر يناقضه وهو إله الشر.

ثانيًا: الألوهية فى الديانات التشبيهية

تتخذ الآلهة فى الديانات التشبيهية هيئات بشرية، فتصبح كأنها بشرٌ بإمكانيات خارقة (سوبر مان)، وعادة ما تمارس هذه الآلهة قدرًا من التخصص فى الوظائف، وعادة ما تعانى بعضًا مما يعانيه البشر من نقائص.

وأهم الديانات التشبيهية؛ اليونانية والرومانية وبعض ديانات مصر القديمة[1].

الديانة اليونانية

تؤمن الديانة اليونانية بزيوس كرب للأرباب والسلطة والقانون، الذى انتصر تمامًا على كل الأقوياء والعمالقة، وتمكن من السيطرة على قوى السماء والأرض وما فيهما وما بينهما.

وقد قام الفن اليونانى بالتعبير عن آلهة اليونان فى صور جسدية حسية، فغدا للآلهة شكل البشر وجسدهم بل وغاياتهم! وبذلك تلاقى المعنى مع المادة، والعنصر الروحى مع العنصر الحسى، وتجلى الروحى الباطنى الداخلى بتمامه فى المادى الظاهرى الخارجى.

وبهذا التصور يصبح الإله محدود الأفق، ضيق المجال، يتمثل فى طابع إنسانى، ويفتقد عنصر حرية الروح؛ وبذلك أصبح القَدَر والضرورة يحكمان كل الأشياء بما فيها الآلهة.

(١) معظم ديانات مصر القديمة ديانات «طبيعية»، تستخدم مظاهر الطبيعة والحيوانات للإشارة إلى الآلهة.

وتشتمل ديانة الإغريق على اثنى عشر[1] إلهًا تُعرف بآلهة الأوليمب، كلٌ منهم مختص بظاهرة كونية أو ظاهرة إنسانية. ومن أشهر تلك الآلهة التى لا يزال الناس يعرفونها فى العصور الحديثة، «أفروديت» إلهة الحب التى أحبت «أدُونيس» الشاب الجميل فى الأساطير اليونانية الذى صار رمزًا للربيع ونمو المحاصيل. والأغلب أن الإغريق قد أخذوا عقيدة أو أسطورة أفروديت وأدونيس من الفينيقيين والكنعانيين، الذين كانوا يؤمنون بعشتاروت ومحبوبها أدونيس، ثم أخذها الرومان لاحقًا وأعطوها اسم فينوس.

وأدونيس عند الفينيقيين والكنعانيين هو إله الخصب الذى يموت، ويظل ميتًا ثلاثة أيام، ثم يسترد حياته مرة ثانية. وهكذا فهذه العقيدة تحتوى على فكرة موت الإله وبعثه، وهى مثل أسطورة العنقاء، أحد الجذور التاريخية لعقيدة موت الإله وبعثه من جديد فى بعض الديانات الأخرى اللاحقة.

الديانة الرومانية

دين يؤمن بتعدد الآلهة، وهى غالبًا الآلهة اليونانية، مع إعطائها أسماءً أخرى وتغيير وظائفها فى بعض الأحيان[2].

وهو «دين نفعى»؛ لأن أتباعه ينظرون إلى الآلهة بوصفها وسائل تحقق رغباتهم، وهم يُصَلّون إليها ويعبدونها عندما يحتاجونها ولا سيما فى أوقات الضرورة والحرب. وهو «دين سياسى» ينظر إلى الدولة بوصفها الغاية القصوى.

(١) هؤلاء الآلهة هم:
زيوس كبير الآلهة سيد السماء،
وهيرا زوجة زيوس إلهة الزواج.
وأبناؤهما:
أبولون إله الشمس، أرتميس إلهة الصيد، أفروديت إلهة الحب، أثينا إلهة العلم والحكمة والفن، آرس إله الحرب، هرمس رسول الآلهة (وهو إله مأخوذ من المصريين القدماء)، ديونيسوس إله الخمر والعنب ومقترن بالممارسات الإباحية، وهو ابن زيوس من سيميل امرأة بشرية وهى ابنة كادموس ملك طيبة.
وأيضًا كان معهم إخوة زيوس:
هادس إله الموت والجحيم، بوسيدون إله الأوقيانوس الذى يعيش فى البحار، هيفستوس إله النار.

(٢) أصبح زيوس سيد السماء عند اليونانيين هو جوبيتر عند الرومان، وهيرا زوجته أصبحت جونو، وأبولون استمر له الاسم نفسه، وأرتميس صارت ديانا، وأفروديت صارت فينوس، وأثينا صارت مينرفا، وآرس غدا مارس، وهرمس تحول إلى ميركورى، وديونيسوس تحول إلى باخوس، وبوسيدون تحول إلى نبتون، وهيفستوس تحول إلى فولكان.

وقد بلغ «اغتراب الإنسان» منتهاه فى الدين الرومانى، ليس فقط لأن الآلهة أصبحت ذات وظائف نفعية للإنسان والدولة، وإنما أيضًا لأن الإمبراطور أصبح مهيمنًا على كل القوى الإنسانية، وتمركزت فيه كل سلطات الألوهية، وأصبح يملك قدرة قَدَرية تعسفية أكثر مما تملك الآلهة.

وقد تم تكريم الإمبراطور بوصفه السلطة العليا، وعُظِّم كإله؛ لأنه هو السلطة التى تحكم الأفراد. ويعبر روجيه جارودى[1] عن هذا الوضع، فيقول: «فى الإمبراطور تركز وتفرد كل سلطان البشرية المنخلع: كل الإلهى بات محتشدًا فى هذا الكائن المحدود، ويحمل فى الوقت نفسه، شقاء وألم الفرد الذى جُرِّد من كل كينونته، من كل سلطته، من كل مستقبله».

ويضيف هيجل[2] محورًا رئيسيًّا فى الديانة الرومانية القديمة فيقول: «لقد أصبحت الثقة عمياء فى قوانين الآلهة الأزلية، ولم تعد تماثيل الآلهة سوى جثث هامدة فارقتها الحياة، ولم تعد الأناشيد الدينية سوى ألفاظ خاوية زال عنها أى مضمون روحى إيمانى، ولم يعد فى استطاعة الألعاب والاحتفالات الدينية أن تزود الوعى بذلك الإحساس السعيد بوجود وحدة بين البشر والآلهة. لقد تحولت نشوة اليقين الذاتى بالآلهة الذى لا يتزعزع (عند اليونانيين) إلى إحساس قوى بفقدان أى عنصر إلهى حقيقى، مما أدى إلى تداعى العالم الأخلاقى».

وبالرغم من جوانب التشابه بين الديانتين اليونانية والرومانية، وأهمها استعارة الآلهة اليونانية بكل ما تحمله من معانى التعدد والتجسيد البشرى وتخصص كل إله فى وظيفة دنيوية، فهناك جوانب اختلاف جوهرية جعلت من الحضارة الرومانية (وليس اليونانية) الأب الشرعى المباشر للحضارة المادية (الغربية) الحديثة. فقد ذكرنا من قبل ما يميز الديانة الرومانية من أنها ديانة نفعية، ديانة سياسية، زال عنها المعنى الحقيقى الروحى والأخلاقى للدين، وركزت على الثقة العمياء فى قوانين الطبيعة، وبذلك بلغ اغتراب الإنسان أقصى مداه. لقد كانت الحضارة الرومانية حضارة اغتراب الإنسان، تمامًا كما هى الحضارة المادية المعاصرة.

الديانات المصرية القديمة

تُعتبر الديانات المصرية القديمة أقدم من كل الديانات السابقة، وقد مرت بكل المراحل التطورية؛ من الطوطمية والإحيائية حتى التوحيد، وفضلنا أن نجعلها فى نهاية المجموعتين

(١) Roger Garaudy (١٩١٣ - ٢٠١٢). الفيلسوف والمفكر الفرنسى الكبير، كان عضوًا بالحزب الشيوعى الفرنسى، وحاول أن يوفق بين الشيوعية والكاثوليكية، واعتنق الإسلام عام ١٩٨٢، واشتهر بعدائه الشديد للصهيونية.
(٢) G.W.Friedrich Hegel :(١٧٧٠ - ١٨٣١). الفيلسوف الألمانى الشهير.

الطبيعية والتشبيهية؛ لأن دياناتها القديمة انتهت إلى مرحلة مهدت لظهور التوحيد فى الوعى الإنسانى، كما أن أول الديانات الإبراهيمية ظهرت فى مصر[١].

والأرجح أن الديانات المصرية القديمة كانت فى مراحلها الأولى سماوية، وأن النبى إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ مصرى ولد فى منف، وتُرجِع بعض الروايات العربية اسم «مصر» إلى مصر بن حام الذى نزل بها بعد الطوفان داعيًا إلى التوحيد، لذلك لم يكن التوحيد غريبًا على بعض دياناتها بالغة القدم، وإن كان توحيدًا مشوبًا بنزعة طبيعية. كما عرفت مصر التوحيد مع أخناتون، وإبراهيم، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ومن المعروف أن بعض ديانات قدماء المصريين[٢] كانت تقوم على عبادة الحيوانات، وهذا دليل على اتحاد الروحى بالطبيعى عند المؤمنين بها؛ لأن الحيوان يشتمل على دائرتى الطبيعة الحية والروح الغامضة التى لا تزال منغلقة على ذاتها. وقد تحولت أشكال الحيوانات إلى رموز، فالصقر رمز التنبؤ، وأبيس رمز الفيضان، والخنفساء رمز التوالد والنشوء. ومن اللافت للنظر المزج بين الحيوانية والبشرية فى كثير من معبودات المصريين؛ فنجد فى تمثال أبى الهول مثلًا رأس الإنسان مع جسد الحيوان، كما نجد فى الكثير من معبوداتهم رءوس الحيوانات (كالبقرة والكلب والأفعى) وقد رُكِبَّت على الجسم الإنسانى، ونرى فى ذلك مزجًا بين النزعة الطبيعية والنزعة التشبيهية.

وإذا كان بعض قدماء المصريين قد عبدوا مظاهر الطبيعة، فإنهم قد أعطوها معنى روحيًّا، فالنيل رمز الحياة، والشمس رمز العطاء.

ومن أشهر الديانات المصرية «ديانة أوزوريس» التى انتشرت خارج حدود مصر أيضًا ووصلت إلى أوروبا. وتروى الأساطير المصرية أن أوزوريس قتله أخوه «ست» ليستولى على عرشه، ولكن «إيزيس» زوجة أوزوريس، نجحت فى أن تُلَقِّح نفسها من أوزوريس الميت، ثم أنجبت «حورس» الذى حارب عمه ست وانتصر عليه، واسترد العرش السليب. وقد اعتبر المصريون القدماء ست إلهًا للشر والانتقام، على نقيض أخيه أوزوريس إله الخير والمحبة.

---

(١) المقصود تجلى الله ﷻ لرسوله موسى عليه الصلاة والسلام لأول مرة فى طور سيناء.

(٢) من المهم التأكيد على أن الديانة التى سادت مصر القديمة لم تكن ديانة واحدة، وإنما ديانات متعددة تتابعت على مر التاريخ القديم، وقد بلغ تنوعها درجة التناقض الجذرى نتيجة التبدلات والتحولات السياسية العميقة التى كانت تحدث آنذاك، وأسرع شاهد يتوارد إلى الذهن فى هذا الصدد هو ذلك الصراع بين أخناتون وإلهه الواحد آتون من جهة وكهنة آمون وآلهتهم من جهة أخرى.

وقد عبد المصريون العديد من الآلهة فى عصورهم المختلفة، وأحيانًا فى عصر واحد. وكان «رع» إله الشمس إلهًا أساسيًّا لفترة طويلة فى الحضارة المصرية القديمة، وكذلك «آمون» إله الشمس أيضًا. وفى وقت لاحق تم دمج آمون برع، وصار «آمون ـ رع» إلهًا رئيسيًّا! وكان معبده فى الكرنك أكبر المعابد فى مصر كلها.

ومن الآلهة أيضًا الإله «خنوم» فى جزيرة فِيَلة (الفنتين)، والإله «بتاح» فى ممفيس، و«تحوت» إله الحكمة فى هيرموبولس. كما عبدوا بعض الإلهات، مثل «رَنُوتَتْ» إلهة الحصاد. وكانت «إيزيس» أهم الإلهات حسب الأسطورة السابقة.

وترمز ديانات المصريين القدماء لإله الشمس بطائر العنقاء Phoenix، وهو طائر أسطورى يحترق ذاتيًّا ثم ينبعث مرة أخرى من رماده. فالشمس تزول كل مساء، وتعود من جديد فى صباح اليوم التالى. ومن المحتمل أن الفينيقيين والإغريق والعرب القدماء قد أخذوا أسطورة العنقاء من المصريين القدماء. وهى أحد جذور عقيدة موت الإله وبعثه من جديد فى بعض الديانات الأخرى.

لكن ماذا عن ادعاء بعض الفراعنة الربوبية؟

تتكون كلمة فرعون من لفظين معناهما «البيت الكبير»، وقد أُطلقت على ملوك مصر فى الفترة بين ١٥٥٤ و ١٣٠٤ق.م. وأشاع الملوك الفراعنة بمساعدة الكهنة أنهم تجسيدات أرضية بشرية للإله حورس ابن أوزوريس وإيزيس. وكأن فكرة تجسد الإلهى فى البشرى بدأت بالتجسد فى الملوك، ثم تحولت بعد ذلك إلى أشخاص من خارج السلالات الملكية فى ديانات أخرى!

والمصريون هم أول مكتشف لمفهوم خلود الروح الإنسانية بشكل فردى، وربما وصلهم من ديانة إدريس، ومعها اكتشفوا الضمير. كذلك آمنوا بفكرة الحساب الأخروى؛ والحساب هنا فردى وليس جماعيًّا، ويكون بعد الموت، وليس هناك يوم للحساب الجماعى (يوم القيامة)[1].

(١) تشرح نصوص كتاب الموتى (أقدم الكتب الدينية التى وصلت إلينا) رحلة الروح بعد الموت إلى مملكة أوزوريس، حيث تتم محاكمة الميت ومحاسبته عن أعماله، ووزن قلبه فى ميزان العدالة، فيوضع فى كفة، وفى الكفة الأخرى توضع ريشة، فإن تعادلت الكفتان، سُمح له بالانضمام إلى مملكة الخلود (مملكة أوزوريس)، وإذا خَفَّت كفة القلب التقمته ملتهمة الموتى «عممت» فيتلاشى إلى الأبد، ويكون العدم مصيره.

يُعتبر الطرح السابق لديانات مصر القديمة هو **الطرح السائد** لدى علماء المصريات وأساتذة مقارنة الأديان[1]. ويمكن تلخيصه فى أن مصر القديمة قد عرفت «**التوحيد**» منذ القدم على يد النبى إدريس ﷺ قبل أن يدخل جزيرة العرب على يد النبى الخاتم محمد ﷺ بخمسة آلاف سنة، ثم حدث الانتكاس إلى «**التعدد**» لأسباب ذكرناها عند مناقشة نظ ات «التوحيد أولًا». وقد اتخذ تعدد الآلهة عند المصريين القدماء شكل الترتيب الهـ ـ ـه الكثرة فى القاعدة، ويقل تدريجيًّا، حتى يصل إلى الإله الأكبر فى أعلى الهرم.

وهناك طرح آخر تبناه بعض علماء المصريات من الغرب، ويرى أن التوحيد الذى ظهر فى مصر القديمة ظل على حاله، أى أن **«التوحيد أولًا» استمر «التوحيد دائمًا»**. ويرى هذا المنظور أن ما تم وصفه كآلهة متعددة ليس إلا **صفات للإله الواحد الأحد**؛ فتحوت إله الحكمة ليس إلا اسم الله ﷻ الحكيم، ورَنُوتَتْ إلهة الحصاد ليست إلا اسم الله ﷻ الرزاق، وهكذا. ويرى طرح قريب من هذا أن ما أُعتبر آلهة متعددون ليسوا إلا **أسماء لملائكة** تقوم بالمهام المختلفة.

وأحسب أن **الأمر لن يحسم** بخصوص ما آل إليه حال ديانات مصر القديمة، ابتداء من عصر ما قبل الأسرات إلى نهاية حكم الفراعنة بالغزو الفارسى ثم الغزو اليونانى الرومانى لمصر، هل «توحيد دائمًا أم توحيد أولًا أعقبه آلهة متعددون»؟

الديانة الهرمسية

نقف قليلًا عند «**الديانة الهرمسية**» لأن منشأها غالبًا مصرى، خاصة إذا ما ربطنا بين إدريس وأخنوخ وتحوت وهرمس على أنهم فى الأصل شخصية واحدة[2].

والإلهيات الهرمسية فى شكلها الأخير (حيث تبتعد عن عقيدة إدريس التوحيدية) تقول بإلهين اثنين أحدهما مسخر للآخر[3]، وهما:

(١) هذا الطرح عن الأستاذ الدكتور محمد عثمان الخشت من كتابه تطور الأديان.

(٢) يقول البيرونى إن هرمس مصرى، كما ترى بعض المصادر العربية أن هرمس هو إدريس النبى. وفى رواية عن ابن عباس قال: أول نبى بُعث فى الأرض بعد آدم هو إدريس وهو أخنوخ (الطبقات الكبرى). وليس فى القرآن أو الحديث الصحيح ما يدل أو ينفى أن إدريس هو هرمس أو أخنوخ أو تحوت.

(٣) كانت الهرمسية فى بدايتها دينًا ثم تحولت إلى **تيار غنوصى (عرفانى) فلسفى**، يجمع بين مزيج من التصورات المصرية والفارسية واليونانية. ويزعم أصحاب الكتب الهرمسية أنهم ينطقون عن وحى إلهى وأن هدفهم هو خلاص الإنسان.

١- **الإلـه المتعـالى فـوق كل شـىء، الذى لا يصْـدُق عليه وصـف ولا تدركـه العقول ولا الأبصار، وبالتالى فهو لا يُعرف إلا بالسلب**؛ بمعنى سلب أية صفة عنه. وهو منزه تمام التنزيه عن أية مشـابهة بينه وبين أى شـىء آخر فى العالم، **لا يهتم بشـىء فى الكون، ولا يدخل فى علمه أى شـىء** منه لأن الكون وما فيه محفوف بالنقص. وهذا الإله منزه عن الدخـول فى أيـة علاقة مع ما هو ناقص، لذلك كان من غير الممكن التوصل إلى معرفته عن طريق تأمل الكون ونظامه، أى عن طريق العقل والحواس.

٢- **الإلـه الخالق الصانع**؛ هو الذى صنع **العالم، ويتجلى فيه، لذلك** يمكن إدراكه والتعرف عليـه بتأمـل الكـون ونظامه. من أجل ذلك يقـال إنه فى كل مكان، أينما يتجه الإنسـان ببصره يجده، فكل شىء شاهد عليه.

وفى هـذا المعنى ورد فى نص هـرمسى ما يلى: «إذا أردت أن ترى الله فانظر إلى الشمس، إلى حركة القمر، إلى تناسق النجوم، واسأل نفسك: مَن يحفظ النظام فى كل ذلك؟». ويخاطب نص آخر أحد المريدين قائلًا: «هل تقول: إن الله لا تدركه الأبصار؟! لا تتفوه بمثل هـذا الكلام، فمن هو أظهر من الله؟ **إنه لم يخلق كل شىء إلا من أجل أن يريك نفسـه فى جميع مخلوقاته**».

إن الحديث عن الإله المتعالى والإله الخالق الصانع يذكرنا بطرح الإسلام حول الذات الإلهية التى لا تُدرَك (الإله المتعالى)، والأسماء والصفات الإلهية (الخالق الصانع). لكن الفرق الجوهرى أن الإسلام يُرجع الأسماء والصفات للذات الإلهية، وينزه الله ﷻ عن إثنينية الهرمسية.

إن هذا الطرح فى الإلهيات الهرمسية يجمع بطريقة مدهشة ـ وساذجـة فى الوقت نفسه ـ بين معنيين طالما حارت العقول فى الجمع بينهما؛ وهما **التوحيد المطلق المنزه عن الامتزاج بالمخلوقات**، ويتضح ذلك فى الإله المتعالى، والثانى هو **مفهوم وحدة الوجود** الذى مر بنا فى عرضنا السابق، ويتمثل فى الإله الخالق الصانع الذى يريك نفسه فى مخلوقاته. ولا شك أن المخرج من هذا الطرح المصطنع يكمن فى ديانات التوحيد المتعالى.

ثالثًا: الألوهية فى ديانات التوحيد المتعالى

وهى الديانات الإبراهيمية؛ اليهودية والمسيحية والإسلام

الديانة اليهودية[1]

تؤمن اليهودية (التى بين أيدينا، وتُعرف باليهودية التاريخية) بالله بوصفه حاكمًا زمنيًّا للشعب المختار الذى هو شعب اليهود فقط، ولا تعتبره ربًّا لباقى الأمم والشعوب؛ حيث إنهم يعتبرون أنفسهم أسيادًا للعالم الذى لا تعدو طوائفه أن تكون خُدَّامًا لهم! ومن ثم فالله هو رب الشعب اليهودى وحده؛ اختاره ليكون له إلهًا، يختصه بفضله وحبه ورعايته، أما باقى شعوب الأرض فهى خارجة عن ملكوت الله، وتدخل فى نطاق سيطرة الأرواح والملائكة.

واليهود إذ اعتقدوا أن الإله اليهودى «يهوه» إله خاص بهم، لم يستطيعوا أن يتصوروا أن مفهوم الألوهية أكثر اتساعًا من أن يكون خاصًّا بشعب دون شعب، أو بجنس دون جنس. لذا فاليهودية تفتقر لمفهوم «رب العالمين»، وقد أخرجت من دائرتها سائر أفراد النوع الإنسانى، ولم تسمح بدخول أحد من غير جنسهم إلى ملتهم، ونظرت إلى أفرادها باعتبارهم «شعبًا خاصًّا تم اختياره من قبل الله»[2]. بذلك يصبح مذهب اليهود فى التوحيد خاص بهم وحدهم.

ومع ذلك فقد آمنت اليهودية بالله ذى الجلال والسمو، خالق الطبيعة وسيدها والأساس الأول والمطلق. وتُصور اليهوديةُ اللهَ متجردًا من الشكل، ولا ماهية له سوى الماهية الروحية المحضة المتحررة من كل رباط بالحسى والطبيعى المتناهى. وقد قدمت اليهودية (كديانة إبراهيمية) المثال النموذجى للتنزيه، فلأول مرة بالفعل تختفى فكرة التناسل (فكرة الولادة الطبيعية للوجود) لتحل محلها فكرة الخلق من قبل قوة روحية «قال الله للنور: كن، فكان!».

بهذا التسامى، لا ينتقل الله إلى العالم المخلوق، بل يبقى فى وحدته المتوحدة، دون أن تتولد عن هذا الانفصال ثنائية حقيقية؛ فما هو خارجى هو صنعته التى لا تتمتع بأى استقلال عنه. وليس الإله الواحد حاضرًا أو متجسدًا فى أشياء الطبيعة، فما هى إلا أعراض عاجزة، وأقصى

---

(١) نشأت اليهودية فى إطار الحضارة المصرية، ومن ثم فالوعى الدينى عند العبرانيين مسبوق بالوعى الدينى عند المصريين.

(٢) دفع هذا الموقف الأنانى المستحوذ على الألوهية ـ إن صح التعبير ـ بعض الفلاسفة إلى تفضيل ديانة الشرك على توحيد طفولى مثل الذى ظهر فى اليهودية المحرفة. فقد ذهب الفيلسوف الفرنسى شارل رنوفييه (١٨١٥ - ١٩٠٣)، فى مفتتح حياته الفكرية، تحت تأثير صديقه لوى مينار، مؤلف «أحلام وثنى متصوف»، إلى أن دين تعدد الآلهة أفضل بسبب تفوقه الأخلاقى على المذهب التوحيدى اليهودى ذى الطابع القومى والحصرى.

ما فى مستطاعها أن تدل عليه. بذلك ظهر عالم الطبيعة وعالم الإنسان للمرة الأولى فارغين من الألوهية. وفى نفس الوقت فقد حَلَّ الإله فى شعبه المقدس وفى أرضه المقدسة التى وعده بها. بذلك يجتمع فى اليهودية التاريخية حلول الإله فى اليهود وأرضهم المُدَّعاه، مع تنزيهه عن باقى البشر وعن الطبيعة.

ومن الملاحظ أن هذا الإله لا يطلب من شعبه - رغم الوصايا العشر - إصلاح النية الباطنة، وكل ما يؤكد عليه هو مجرد الالتزام الظاهرى بالأوامر، ومن ثم تفتقر اليهودية إلى أهم عنصر دينى. لذلك يعتبر اليهود أن الإله الذى يستمدون تعاليمهم منه حاكم زمنى (كأى ملك) لا يعمل من خلال ضمير ولا يخاطبه.

ومن الثابت الآن فى النقد التاريخى للكتب المقدسة أن كتب اليهود من أكثر الكتب تعرضًا للتحريف والزيادة والتبديل والحذف عبر عصور مختلفة، ورواياتها مليئة بالتناقض. وعلى سبيل المثال؛ إن موقف اليهودية من الآخرة غامض ويثير كثيرًا من التضارب حتى بين الفرق اليهودية ذاتها[1]. فالنصوص تحمل ثلاثة أنواع من التناقض؛ فبعضها يشير إلى بعث وحساب للجميع؛ الأخيار منهم والأشرار، بينما تشير نصوص أخرى إلى بعث للأخيار فقط، فى حين تشير نصوص ثالثة إلى فناء تام؟

والموت الذى ليس بعده بعث ليس مسئولية الله، بل مسئولية الإنسان. فقد خلق الله الإنسان للخلود لا ليموت، وحذره من الخطأ الذى إن وقع فيه كان جزاؤه الموت[2]، لكن الإنسان وقع فى الخطيئة.

(١) فى حين تنكر «فرقة الصدوقيين» القيامة والثواب والعقاب فى الآخرة، وترى أن النفس تموت مع الجسد، فإن «فرقة الفريسيين» تؤمن بخلود النفس وقيامة الجسد ووجود الأرواح ومكافأة الإنسان ومعاقبته فى الآخرة بحسب صلاح حياته الأرضية أو فسادها.

ومن الواضح أن كلا الموقفين من الآخرة، يجد سنده من العهد الجديد وليس العهد القديم!. أما النصوص التى تؤيد البعث والقيامة، فهى كثيرة، حيث جاء فى سفر دانيال: «وكثير من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار والازدراء الأبدى». وفى سفر أشعياء: «تحيا أمواتك تقوم الجثث».

وتتعارض الآيات السابقة بوضوح مع الاتجاه العقائدى فى سفر الجامعة الذى يؤكد عقيدة الفناء وإنكار اليوم الآخر، يقول: «اذهب كل خبزك بفرح واشرب خمرك بقلب طيب لأن الله منذ زمان قد رضى عملك. لتكن ثيابك فى كل حين بيضاء ولا يعوز رأسك الدهن... كل ما تجده يدك لتفعله افعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب إليها».

(٢) «وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لكن توجد شجرة أخرى بجانب شجرة المعرفة فى جنة عدن هى «شجرة الحياة»، التى كان بوسع الإنسان أن يحقق الخلود بأكل ثمارها، فلم يكن ثمة تحريم إلهى يدور حولها. إذًا فالإنسان قد خُلق غير فانٍ وغير خالد، ثم أتيح له الخيار بين ثمار الشجرتين، ثم ضللته الحية باختيار شجرة المعرفة التى هى بالفعل شجرة الموت» سيرجيمس فريزر Frazer.

كذلك شقت عقيدة تناسخ الأرواح طريقها إلى اليهودية، مع أن الفلاسفة اليهود قد هاجموها بصفة عامة، لكنها ظهرت فى مذهب القبالة Cabala [1].

وعندما تأثر فلاسفة اليهود بالفلسفة اليونانية ومن بعدها الفلسفة الإسلامية، قال موسى ابن ميمون بخلود الروح دون الجسد، زاعمًا أن هذا هو جوهر عقيدة البعث فى العهد القديم، ولم يكن الخلود عنده إلا لأرواح الصفوة العاقلة فقط. وفى موضع آخر، ذهب ابن ميمون إلى أن كل الأجسام يلحقها الفساد من جهة مادتها لا غير، أما من جهة الصورة (الروح)، فلا يلحقها فساد، بل هى باقية.

وهكذا نرى أن مسألة الآخرة فى كتب اليهود مليئة باللبس كما أنها مليئة بالتناقض.

كذلك فإن مفهوم العبادة فى اليهودية من أكثر المفاهيم إثارة للبس؛ لأن العبادة اليهودية لم يكن لها شكل محدد ثابت فى كل العصور؛ إذ تعرضت لتغير وتبدل مستمرين فى كثير من المراحل التاريخية المتقدمة والمتأخرة[2].

وفى النهاية، نؤكد أن التحليل السابق يَصْدُق على اليهودية بعد موسى (اليهودية التاريخية) وليس على (اليهودية الموسوية). ولا سيما إذا وضعنا فى حسابنا الرواية القرآنية التى تفرق بشكل حاسم بين اليهودية كدين دعا إليه موسى وبين الشعب الإسرائيلى الذى لم يغير اليهودية بعد موسى فحسب، بل حاول الضغط على موسى وهارون من أجل الاقتباس من شعائر الأمم الأخرى، وهو ما قاومه موسى بحسم. وإذا كانت اليهودية الموسوية حسب الرواية القرآنية تجمع شروط الدين، فإن الشعب الإسرائيلى بماديته ودنيويته هو الذى حولها إلى تنظيم عنصرى سياسى.

الديانة المسيحية

تحمل العقيدة المسيحية الحالية أعقد التصورات بين ديانات التوحيد، بل وبين الديانات كلها، عن الإله. فالعقيدة المسيحية السائدة حاليًّا تقوم على «عقيدة التثليث»، التى تعنى أن الله

---

(١) القبالة: هى فرقة يهودية صوفية تؤمن بالمعانى الباطنية فى الكتاب المقدس، خاصة فى أسفار التوراة. فهى تؤمن بأن هناك معانى ظاهرة ومعانى باطنة خفية، وهذه الأخيرة هى المعانى الحق. وتؤمن هذه الفرقة بالسحر والتنجيم، وهى عبارة عن تلفيق من الغنوصية والمشائية والأفلاطونية المحدثة وعلم الكلام.

(٢) على سبيل المثال: فإن جزءًا غير قليل من عباداتهم وشرائعهم يرجع إلى زمن الأسر ببابل. وثمة دراسات عديدة تقارن بين معتقدات وشرائع ما بين النهرين وبين اليهودية. وفى العصر الإسلامى دخل على اليهودية كثير من الشعائر الإسلامية، ولقد أفاض فى ذلك نفتالى فيدر فى كتابه «تأثير الإسلام فى العبادة اليهودية» إفاضة مدعمة بالنصوص والأدلة التاريخية.

واحد، وفى الوقت نفسه هو ثلاثة أقانيم أزلية متساوية فى الجوهر[١]: الآب، والابن، والروح القدس. فالآب هو الذى خلق العالم بواسطة الابن[٢]، والابن هو الذى أتم الفداء وقام به، والروح القدس هو الذى يطهر القلب والحياة. غير أن الأقانيم الثلاثة تشترك معًا فى جميع الأعمال الإلهية على السواء[٣].

وقد عَرَّفَ «قانون الإيمان المسيحى» هذه العقيدة بالقول: «نؤمن بإله واحد: الآب والابن والروح القدس إله واحد، والثلاثة متساوون فى القدرة والمجد».

وقد تعرضت الأناجيل لـ«حقيقة المسيح» وأفصحت عنها بطريقة أدت إلى نشوء مجموعة متباينة من التفسيرات، فهو تارة إله وتارة ابن الإله وتارة ابن الإنسان، وتارة أمزجة مختلفة من التفسيرات السابقة.

وتحتل «عقيدة الفداء» مكانًا جوهريًا فى المسيحية، وهى تعنى أن المسيح يفتدى المؤمن به من الإثم والخطيئة، وبذلك تم استبدال تقديم الذبائح غير العاقلة بالذبيحة الشخصية والاختيارية وهى المسيح ابن الله، فيسوع «لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخدم، وليبذل نفسه فداءً عن كثيرين». هكذا انتصر الله - فى اعتقاد المسيحية التاريخية - على الخطيئة، التى تَصَوَّرَ فيها الشيطان أنه امتلك الإنسان إلى الأبد. إذ إن المسيح المُخَلِّص قد تحمل بطريقة كاملة وضع البشر الجسدى، ثم

---

(١) متى ٢٨: ١٩.

(٢) مزامير ٣٣: ٦، وكولوسى ١: ١٦، وعبرانيين ١: ٢.

(٣) يلخص قاموس الكتاب المقدس (ص٢٣٣) عقيدة الثالوث كالآتى:

١- يقدم الكتاب المقدس من وجهة نظر المسيحيين ثلاث شخصيات يعتبرهم شخص الإله.

٢- يصف الكتاب المقدس هؤلاء الثلاثة بطريقة تجعلهم شخصيات متميزة الواحدة عن الأخرى.

٣- ليس هذا التثليث فى طبيعة الإله مؤقتًا أو ظاهريًا، بل هو أبدى وحقيقى.

٤- لا يعنى هذا التثليث وجود ثلاثة آلهة، بل إن هذه الشخصيات الثلاث جوهر واحد.

٥- الشخصيات الثلاث (الآب والابن والروح القدس) متساوون.

وكلمة ثالوث أو التثليث نفسها لم ترد فى الكتاب المقدس، والأرجح أن أول من صاغها واخترعها واستعملها هو «ترتليان» فى القرن الثانى للميلاد. ثم ظهر «سبيليوس» (الذى تعتبره المسيحية السائدة مهرطقًا مبتدعًا) فى منتصف القرن الثالث وحاول أن يفسر العقيدة بالقول: «إن التثليث ليس أمرًا حقيقيًا فى الإله لكنه مجرد إعلان خارجى، فهو حادث مؤقت وليس أبديًا»، ثم ظهر «آريوس» (الذى هو أيضًا مهرطق مبتدع من وجهة نظر المسيحية السائدة) ونادى بأن الآب وحده هو الأزلى بينما الابن والروح القدس مخلوقان متميزان عن سائر الخليقة.

ثم جاء «إثناسيوس» الذى رفض هذه النظريات ووضع أساس العقيدة المسيحية التى قبلها واعتمدها مجمع نيقية عام ٣٢٥م، ومن بعدها أصبحت هى العقيدة السائدة، وهى المشار إليها أعلاه، والتى تؤمن بالثالوث الآب والابن والروح القدس كأقانيم ثلاثة حقيقية أبدية فى طبيعة الإله. ولقد تبلورت هذه العقيدة الإثناسيوسية على يد أوغسطين فى القرن الخامس، وصارت هى عقيدة الكنيسة الفعلية من ذلك التاريخ حتى الآن.

انتصر عليه بالموت اختيارًا. وهكذا يتم إصلاح أثر الخطيئة الضار، وتُعاد البشرية لحالتها الأولى، بعد أن افتداها الله بابنه.

أما «عقيدة القيامة»، فتقول بأن المسيح بعد وقت قصير من دفنه، أنجز وعده الذى وعد به قبل موته بأنه يقوم من بين الأموات.

وفى «أعمال الرسل»، أن «الروح القدس» قد تدفقت ـ بعد رفع المسيح ـ على جماعة الرسل المشكلين لأول كنيسة، إتمامًا لوعد المسيح بإرسال المعين الذى ينوب عنه. فظهرت لهم الروح القدس كأنها ألسنة من نار، وقد توزعت وحلت على كل واحد منهم، فامتلئوا منها جميعًا. ثم عَبَّرَ كل رسول عما اعتمل فى نفسه بعد لقائه بالروح القدس، فكانت هذه التعبيرات هى الأناجيل التى فى أيدى المسيحيين الآن.

الفيلسوف كَنْت والعقيدة المسيحية

لاقت العقيدة المسيحية نقدًا شديدًا على يد «الفيلسوف كَنْت»[1]، ووقعت فى عنت لا مثيل له من جراء ذلك. حيث شكك كَنْت فى دقة الحواريين فى الرواية عن المسيح، كما شكك فى دقة كاتبى الأناجيل من غير الحواريين، وقال: إن الإيمان بهذه الكتابات يجب ألا يُفرَض باعتباره ضروريًّا للنجاة أو للخلاص[2].

بعد ذلك يوجه كَنْت ضرباته المتلاحقة لكل عقيدة من عقائد المسيحية السائدة (التاريخية). وأول تلك الضربات يوجهها لعقيدة العقائد فى المسيحية، وهى «تجسد الإلهى فى الإنسانى»، حيث يرى أن النظر إلى المثل الأعلى الأخلاقى بوصفه «إنسانًا ـ إلهًا»، يحبط المفاهيم الأخلاقية؛ فمن غير المنطقى أن نطلب من الإنسان الطبيعى أن يحتذى حذو إنسان آخر يتمتع بموهبة إلهية تؤازره، إذ بإمكان الإنسان الطبيعى أن يحتج بأنه ليس له اليقين ولا الإرادة التى يتمتع بها ذلك المثل الأعلى والتى تكفل له أن يضحى راضيًا بكل الإغراءات الدنيوية، وأن يضحى بنفسه فى سبيل ذلك الملكوت الغائب؛ ومن ثم فإن المسيح يتحول من حجة على إمكانية قيام

(١) Immanuel Kant : (١٧٢٤ – ١٨٠٤). الفيلسوف الألمانى الأشهر، وكان يسعى لإصلاح الميتافيزيقا عن طريق نظرية المعرفة.

(٢) لا شك أن تاريخ تدوين الأناجيل مشوب بالغموض وبالبعد عن زمن المسيح، بل وبغياب الأنجيل (الأصل) الذى نؤمن كمسلمين بتنزله على نبى الله عيسى عليه السلام.

الأخلاق إلى حجة على استحالتها؛ فمن المستحيل لطبيعة لها مثل هذا التفوق الإلهي أن تسقط في الخطيئة[1].

أما «عقيدة التثليث»، فيرى كَنْت أنها أيضاغير ذات فائدة أخلاقية؛ لأن المرء لن يترتب على إيمانه بأن الله ثلاثة أو حتى عشرة أقانيم أي مردود عملي في الحياة الأخلاقية، فكَنْت يعتبر أن العقيدة التي لا ينشأ عنها عمل أخلاقي لا تمثل ركنًا من أركان الدين. كذلك فإن العقل النظري المحض والعقل العملي المحض عاجزان عن تبرير أو حتى تصور هذا التثليث.

وإذا كانت «عقيدة الفداء» تحتل مكانًا جوهريًّا في المسيحية، فإن كَنْت يرفضها؛ لأنه يعتبر الخطيئة مسئولية فردية، تلزم كل إنسان أن يُكَفِّر عن نفسه لا أن يكفر عنه آخر. كذلك يرفض كَنْت فكرة «الفادي» باعتباره آتيًا لكي يخلصنا من خطيئة ارتكبها آباؤنا. فلا الخطيئة التي طُرد من أجلها آدم من الجنة هي خطيئتنا ولا الفداء نحن الذين قمنا به[2].

أما «عقيدة القيامة»، فلا يقبل كَنْت منها إلا الاسم، ويعطيها مضمونًا عقلانيًّا؛ إذ يعتبرها مجرد صورة تمثيلية ترمز لقيام الأخلاق وبداية حياة جديدة خَيِّرة في ضوئها. ويرفض كَنْت قيامة الجسد بوجه عام لعدم وجود ضرورة عقلية تحتم بقاءه إلى الأبد، فضلًا عن أن الهوية الشخصية غير مرتبطة بالجسد المادي ارتباطًا ضروريًّا.

أما «ملكوت الله» الذي يتحدث عنه المسيح في الأناجيل، فيعطي كَنْت له معنى رمزيًّا، فهو ليس عالـمًا آخر، وإنما هو ملكوت الأخلاق القائمة على العقل الذي يحكمه الدين الخالص الذي يفتح ذراعيه للإنسانية جمعاء. ومع أنه مَثَلٌ أعلى إلا أنه يمكن تحقيقه على الأرض.

ويظهر بوضوح لقارئ تاريخ الأديان أن التثليث له أصل في ديانة أوزوريس وإيزيس وحورس، بل إن صورة إيزيس وهي تحمل حورس وجدت طريقها إلى المسيحية في صورة مريم وهي تحمل عيسى عليه السلام. كما أن التثليث له نظير في الوثنية الهندوسية؛ إذ يوجد تشابه بين الثالوث الهندوسي القديم والثالوث المسيحي الأحدث. ويمكن أن نلاحظ تأثر المسيحية

(١) من كمال عقيدة الإسلام أن نبي الإسلام (عليه الصلاة والسلام) كان بشرًا رسولًا، لم يكن مَلَكًا ولا إلهًا ولا نصف إله.

(٢) ربما لسنا بحاجة هنا لتفصيل القول في أن موقف كَنْت من هذه المسألة هو موقف القرآن عينه؛ حيث يقول: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام].

بالعنصر الوثنى فى العقيدة السورية القديمة؛ فتلك العقيدة مبنية على أسطورة الإله الشاب أدونيس الذى يموت، ويظل ميتًا ثلاثة أيام، ثم يسترد حياته مرة ثانية!. وفكرة الاحتفال بقيامة الإله موجودة فى العديد من الديانات الأخرى. كما نلاحظ أن تجسد الإله فى الإنسان تعبير عن عقائد تشبيهية قديمة فى صورة جديدة. ولا شك أن الأيقونات والتماثيل وصكوك الغفران ووساطة رجال الدين بين الإنسان والله، تعتبر انحدارًا إلى الوثنية[١].

القارئ الكريم

رأينا فى هذا الفصل أن نظريات ظهور الديانات تتبنى أحد اتجاهين، الأول هو «التوحيد أولا»، أى أن البشرية بدأت بالتوحيد، الذى تكشف لها إما بالفطرة أو بالتأمل العقلى أو الوحى الإلهى، ثم سقط الإنسان فى الشرك والتعدد والوثنية، حتى ظهرت الديانات السماوية التى أعادت للدين عقيدة التوحيد نقية مكتملة. ويتبنى القرآن الكريم طرحًا مشابهًا للتوحيد أولًا، ويُرجع بدايته إلى أن آدم ـ أبو البشر ـ عليه السلام كان على تواصل مباشر مع الله عز وجل.

أما الرأى المقابل، فتمثله «النظريات التطورية» التى ترى أن الدين ـ كأى نشاط إنسانى ـ قد مر بمختلف مراحل التطور والارتقاء من أدنى إلى أعلى، بدءًا بالنظرة التعددية إلى الآلهة، مرورًا بالنظرة الهرمية، حتى وصلت الإنسانية إلى الوحدانية.

وقد بدأت ديانات الكثرة بـ «ديانات الطبيعة»، وداخلها حدث تطور من عبادة الطواطم والحيوانات وأرواح الأسلاف إلى عبادة مظاهر الطبيعة. وقد اشتملت هذه الأشكال على امتزاج واضح بين الطبيعى والإلهى.

ثم ارتقى الوعى الدينى إلى «ديانات التشبيه»، وفيها عبد الإنسان آلهة ذات صفات إنسانية، لكنها أعلى قدرة وأكثر قوة، وفى نفس الوقت تعانى بعضًا مما تعانيه الإنسانية من نقائص. وفى الحالتين (الطبيعية والتشبيهية) أصبحت الآلهة تتراتب ترتيبًا هرميًا يقف أعلاه إله أكبر.

(١) عندما اعتنقت الحضارة الرومانية المسيحية فى فترة متأخرة من تاريخها، نقلت تلك العناصر الوثنية إلى المسيحية الكاثوليكية. وقد تم التعبير عن هذا المعنى بقول صار مأثورًا: «عندما دخلت المسيحية روما... لم تتمسح روما... بل كانت المسيحية هى التى ترومت».

ويستمر الوعى الدينى فى ارتقائه، بالانتقال من المحسوس إلى المعقول، ومن المتناهى إلى اللامتناهى، ومن الجزئى إلى الكلى، ومن العينى إلى المجرد، حتى يصل إلى «أديان التوحيد المتعالى»، وفيها يرتقى الدين من التوحيد غير الخالص إلى التوحيد الخالص، ومن الإله القومى إلى الإله العالمى، ومن التوحيد المعقد الملغز إلى التوحيد الواضح الصرف.

كذلك يرتقى «منطق الاستدلال» على الألوهية من منطق الأسطورة إلى منطق الواقع، ومن منطق الحس إلى منطق البرهان العقلى، ومن الاستدلال بخوارق الطبيعة إلى الاستدلال بنظام الطبيعة، ومن المعجزات الحسية الوقتية إلى المعجزة البيانية الباقية، ومن منطق «آمِن ثم تَعَقَّل» إلى منطق «تَعَقَّل ثم آمِن». ولا شك أن تأمل العقيدة الإسلامية ومنطقها فى الاستدلال، ومقارنتها بغيرها من الديانات، خاصة الديانة المسيحية، يرينا بجلاء ما وصفناه آنفًا من صفات التوحيد المتعالى الخالص.

وقد قسمنا الديانات فى هذا الفصل إلى ثلاث مجموعات، تختلف النظرة إلى الألوهية فى كل منها:

أولًا: الألوهية فى الديانات الطبيعية:

بدأت الديانات الطبيعية بـ«الديانة الطوطمية» التى اتخذت رموزًا للآلهة من الحيوانات والنباتات والجمادات، أو أسلاف أو معان مجردة. وقد امتزجت الديانة الطوطمية بـ«الديانة الإحيائية» التى تؤمن بأن مظاهر الطبيعة كلها مسكونة بأرواح خيرة أو شريرة.

وفى الشرق الأقصى تقابلنا متتالية الديانات الهندية (الڤيدية ـ البراهمانية ـ الهندوسية)، وهى تمثل تتابعًا يقتبس أحدهما مما سبقه دون أن يقضى عليه. ويتجلى الفرق بين هذه الديانات فى كتبا المقدسة؛ فكتب الڤيدية وضعت ما يُسمى بـ«طريق النشاط أو العمل أو الجهد» أما كتب البراهمانية فقد أرست «طريق التأمل والمعرفة»، بينما تبنت كتب الهندوسية «طريق العبادة».

كذلك تتطور النظرة للألوهية فى الديانات الثلاث؛ فالإله فى «الڤيدية» حال فى الظواهر الكونية والطبيعية، لذلك كانت الڤيدية ديانة شركية تؤمن بتعدد الآلهة، وتعطى كل إله مهمة محددة.

أما «البراهمانية»، فقد تجاوزت التعدد وأيضًا التوحيد، ونزعت إلى «وحدة الوجود»،

واعتبرت أن الحقيقة الأصلية الخالدة وجود واحد وحقيقة أولى غير محدودة وبالغة التجريد، هو «البراهمان»، وما الآلهة الأخرى وما موجودات العالم كله إلا صور له.

وتُعتبر «الهندوسية» امتدادًا للبراهمانية؛ تؤمن بوحدة الوجود، بالإضافة إلى تجسد الإله. فالإله يحل ويتجسد فى هيئة أرضية، إنسانية أو حيوانية (كالبقرة)، ويخرج من البراهما ثلاث تجليات أساسية، هى البراهما (المذكر) باعتباره الإله الخالق، وفيشنو (الحافظ) وشيفا (المدمر). ولهذه الآلهة الثلاثة تجليات ونشاطات تفوق الحصر فى جميع المجالات الإنسانية والطبيعية.

وقد ارتد «بوذا» عن الديانة البراهمانية، بسبب فوارقها الطبقية المقدسة وطقوسها المعقدة فى عبادة الآلهة والتضحية لها، فأسس «البوذية»، وتبنى أن حقيقة الإله أعقد من أن ندركها بعقولنا، واعتبر أن الجوهر الخالد عدم مطلق، واهتم برسم طريق للبشر للتحرر من الألم والمعاناة.

وتطورت عن البوذية ديانة «اللامية» التى تؤمن بإنسان ذى طابع إلهى حامل لصفات الإله موجود فى كل زمان. بينما تقصر البوذية العلاقة مع الإله فى إنسان ميت هو بوذا.

أما «دين السماء» فهو الأقدم فى الصين. وأساسه تكريم السماء بوصفها قوة عليا سامية، وهى تدل على الكلى المجرد غير المحدد تمامًا. لذلك أصبح الإمبراطور هو الواسطة بين السماء والأرض، والمهيمن عليها بكل ما فيها من قوى طبيعية وأرواح.

وقد بلورت «الكونفوشيوسية» الأخلاق التى يقوم عليها دين السماء الصينى، وللأخلاق فى هذا المذهب طابع أبوى. وفى المقابل اهتمت «الطاوية» بالمفاهيم الفلسفية الصوفية فى دين السماء، وتنسب خلق العالم إلى العقل الأصلى.

وتمثل الديانة «الشنتوية» مجموعة المعتقدات الدينية الأصلية فى اليابان، وتؤمن بقوة روحية غامضة تمثل أرواح الكائنات الفعالة فى الطبيعة، وأهمها إله الشمس. وقد تأثرت الشنتوية بالبوذية وحدث امتزاج بينها ابتداء من القرن السادس الميلادى.

وتُعتبر الديانة «الزرادشتية» التى كان يدين بها أهل فارس والمناطق المحيطة ديانة توحيد، تثبت لله ﷻ صفات الخير والقوة والحكمة والرحمة، وترفض الشرك والوثنية. وحدث أن انحرفت هذه الرؤية التوحيدية، فحولها أتباعها إلى ديانة شركية هى «المجوسية» التى تؤمن بإلهين: الأول هو إله النور وهو إله طاهر، والثانى هو إله الظلام وهو نجس فى ذاته.

ثانيًا: الألوهية في الديانات التشبيهية:

تتخذ الآلهة فى الديانات التشبيهية هيئات بشرية، فتصبح كأنها بشر بإمكانيات خارقة (سوبر مان)، وعادة ما تمارس هذه الآلهة قدرًا من التخصص فى الوظائف، وعادة ما تعانى بعضًا مما يعانيه البشر من نقائص. وبهذا التصور يصبح الإله محدود الأفق، ضيق المجال، يتمثل فى طابع إنسانى، ويفتقد عنصر حرية الروح؛ وبذلك أصبح القَدَر والضرورة يحكمان كل الأشياء بما فيها الآلهة.

وتؤمن الديانة اليونانية بزيوس كرب للأرباب والسلطة والقانون، الذى انتصر تمامًا على كل الأقوياء والعمالقة، وتمكن من السيطرة على قوى السموات والأرض وما فيهما وما بينهما. وديانة الإغريق مليئة بالآلهة المعروفة بآلهة الأوليمب، وعددهم اثنا عشر إلهًا.

كذلك تؤمن الديانة الرومانية يؤمن بتعدد الآلهة، وهى غالبًا الآلهة اليونانية، مع إعطائها أسماءً أخرى وتغيير وظائفها فى بعض الأحيان.

وبالرغم من جوانب التشابه بين الديانتين اليونانية والرومانية، فهناك جوانب اختلاف جوهرية، فالديانة الرومانية ديانة نفعية، سياسية، زال عنها المعنى الحقيقى الروحى والأخلاقى للدين، وركزت على الثقة العمياء فى قوانين الطبيعة، وبذلك بلغ اغتراب الإنسان أقصى مداه. وقد جعل ذلك من الحضارة الرومانية (وليس اليونانية) الأب الشرعى المباشر للحضارة المادية (الغربية) الحديثة.

وتُعتبر الديانات المصرية القديمة أقدم من كل الديانات السابقة، وقد مرت بكل المراحل التطورية؛ من الطوطمية والإحيائية حتى التوحيد. والأرجح أن الديانات المصرية القديمة كانت فى مراحلها الأولى سماوية، وأن النبى إدريس عليه السلام مصرى ولد فى منف، كما عرفت مصر التوحيد مع أخناتون، وإبراهيم، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسى عليهم السلام..

ثم انحرف دين قدماء المصريين إلى التعدد، وأصبحت الديانات تقوم على عبادة الحيوانات، وهذا دليل على اتحاد الروحى بالطبيعى عند المؤمنين بها. وقد تحولت أشكال الحيوانات إلى رموز، فالصقر رمز التنبؤ، وأبيس رمز الفيضان، والخنفساء رمز التوالد والنشوء. ومن اللافت للنظر المزج بين الحيوانية والبشرية فى كثير من معبودات المصريين؛ فنجد فى تمثال أبى الهول مثلًا رأس الإنسان مع جسد الحيوان، كما نجد فى الكثير من معبوداتهم رءوس الحيوانات (كالبقرة

والكلب والأفعى) وقد رُكِبَّت على الجسم الإنسانى، ونرى فى ذلك مزجًا بين النزعة الطبيعية والنزعة التشبيهية.

ولعل أشهر الديانات المصرية «ديانة أوزوريس» التى انتشرت خارج حدود مصر ووصلت إلى أوروبا.

ويرى بعض علماء المصريات أن ديانة مصر القديمة التى بدأت بالتوحيد قد ظلت على التوحيد، وأن ما ذكرناه من آلهة متعددة ما هو إلا صفات للإله الواحد الأحد، أو رموز للملائكة الى تقوم بمهام الإله.

وأُشتقت من ديانة مصرية القديمة «الديانة الهرمسية»، ويشتمل مفهوم الألوهية فيها على إلهين؛ أحدهما «إله متعال» لا يصدْق عليه وصف ولا تدركه العقول والأبصار ولا يُعرف إلا بالسلب، و«إله خالق صانع» صنع العالم ويتجلى فيه.

ثالثًا: الألوهية فى ديانات التوحيد المتعالى:

تؤمن اليهودية التاريخية (التى بين أيدينا) بالإله بوصفه حاكمًا زمنيًا للشعب المختار الذى هو شعب اليهود فقط، ولا تعتبره ربًا لباقى الأمم والشعوب، حيث إنهم يعتبرون أنفسهم أسيادًا للعالم الذى لا تعدو طوائفه أن تكون خُدَّامًا لهم! ومن ثم فالإله هو رب الشعب اليهودى وحده؛ اختاره ليكون له إلهًا، يختصه بفضله وحبه ورعايته، أما باقى شعوب الأرض فهى خارجة عن ملكوت الله، وتدخل فى نطاق سيطرة الأرواح والملائكة. كما تؤمن اليهودية التاريخية بحلول الإله فى الشعب اليهودى وأرضه المقدسة (المُدَّعاه) وانفصاله الكامل عن باقى الوجود.

ويثبت النقد التاريخى أن كتب اليهود من أكثر الكتب المقدسة تعرضًا للتحريف والزيادة والتبديل والحذف عبر عصور مختلفة، وأن رواياتها مليئة بالتناقض.

وينبغى أن نؤكد أن هذا الطرح يَصْدُق على اليهودية بعد موسى، وليس على «اليهودية الموسوية» كما نؤمن بها نقلًا عن القرآن الكريم.

وتحمل العقيدة المسيحية الحالية أعقد التصورات بين ديانات التوحيد، بل وبين الديانات كلها، عن الإله. فالعقيدة المسيحية السائدة حاليًا تقوم على «عقيدة التثليث»، التى تعنى أن الله واحد، وفى الوقت نفسه هو ثلاثة أقانيم أزلية متساوية فى الجوهر: الآب، والابن، والروح

القدس. فالآب هو الذى خلق العالم بواسطة الابن، والابن هو الذى أتم الفداء وقام به، والروح القدس هو الذى يطهر القلب والحياة. غير أن الأقانيم الثلاثة تشترك معًا فى جميع الأعمال الإلهية على السواء.

وقد تعرضت الأناجيل لـ«حقيقة المسيح» وأفصحت عنها بطريقة أدت إلى نشوء مجموعة متباينة من التفسيرات، فهو تارة إله وتارة ابن الإله وتارة ابن الإنسان، وتارة أمزجة مختلفة من التفسيرات السابقة.

وتحتل «عقيدة الفداء» مكانًا جوهريًّا فى المسيحية، وهى تعنى أن المسيح يفتدى المؤمن به من الإثم والخطيئة، وبذلك تم استبدال تقديم الذبائح غير العاقلة بالذبيحة الشخصية والاختيارية وهى المسيح ابن الله، هكذا انتصر الله ـ فى اعتقاد المسيحية التاريخية ـ على الخطيئة، التى تَصَوَّرَ فيها الشيطان أنه امتلك الإنسان إلى الأبد.

وقد وجه الفيلسوف كَنْت ضربات موجعة للعقائد المسيحية (عقيدة التثليث ـ ملكوت الله ـ عقيدة الفداء ـ عقيدة القيامة) حتى أغنى ناقدى المسيحية عن بذل الجهد الكبير لتفنيد هذه العقائد.

ولا شك أن تأثر الديانة المسيحية بعقائد الحضارات المحيطة (كالرومانية والمصرية والسورية والهندية) أمر ثابت تاريخيًّا، كما يمكن تتبعه فى التشابه الكبير بين هذه العقائد والعقائد المسيحية.

لا شك أنك قارئى الكريم، بعد هذه الجولة مع نظرة الديانات المختلفة عبر التاريخ والجغرافيا للألوهية، فى شوق إلى تأمل نظرة الإسلام للألوهية ومقارنتها بما سبق.

وهذا هو موضوع فصلنا القادم بإذن الله.



الفصل الثانى

الألوهية فى الإسلام

- العقيدة الإلهية فى الإسلام
- الكون فى الإسلام
- الإنسان فى الإسلام
- صورة الله ﷻ فى القرآن والسنة
- أسماءٌ أم صفات
- الله ﷻ
- إحصاء أسماء الله الحسنى
- هل تحمل الأسماء الحسنى معانى مترادفة
- أسماء الله الحسنى بين الخصوصية والعمومية
- تصنيفات معانى أسماء الله الحسنى
  ١ - تصنيفات القدماء
  ٢ - التصنيف التفريعى
  ٣ - الجمال والجلال والكمال
- القارئ الكريم

رأينا فى الفصل السابق كيف عبد الإنسانُ الله الواحد الأحد منذ بِدء الخليقة، فآدم عليه السلام عَبَدَ الله عز وجل مكاشفة. وظل التوحيد سائدًا حتى دب الشرك فى نفوس البشر، فأرسل الله عز وجل نبيه نوحًا عليه السلام ليعيد البشرية إلى التوحيد.

وظلت البشرية بين مد وجزر فى النظر إلى الألوهية. ويمكن القول بأن هناك ثلاث محطات رئيسية مثلت نظرة الديانات إلى الإله. المحطة الأولى هى «**الديانات الطبيعية التعددية**»، التى أَلَّه الإنسان فيها موجودات الطبيعة. ثم جاءت «**الديانات التشبيهية التعددية**»، التى عبد فيها الإنسان آلهة فى هيئات بشرية. ثم ظهرت «**ديانات التوحيد المتعالى**»، المتمثلة فى الديانات الإبراهيمية، والتى عبد فيها الإنسان الإله الواحد الأحد. وبدأت ديانات التوحيد باليهودية، التى أستأثر كهانها بالإله ليكون إلهًا لبنى إسرائيل وفقط!. ثم المسيحية، التى شابتها عقائد وثنية رومانية وهندية، انحرفت بالتوحيد فيها إلى هيئة تعددية مُلْغِزَة، جعلتها من أعصى عقائد البشرية على الفهم!.

العقيدة الإلهية فى الإسلام

ثم يرتقى الوعى الإنسانى (مع الإسلام) إلى ذراه فى تصور الألوهية، فيتحول الدين من **التوحيد غير الخالص إلى التوحيد الخالص، ومن الإله القومى (نسبة إلى القوم) إلى الإله العالمى، ومن التوحيد المعقد الملغز إلى التوحيد الواضح والصرف.**

الإسلام المنهج

ومع الإسلام يتحول الدين من **الاستدلال بخوارق الطبيعة إلى الاستدلال بنظام الطبيعة، ومن استخدام منطق الحس إلى منطق البرهان.** ويصبح مبدأ عدم التناقض هو المقياس السائد للحكم على النص من داخله، بدلًا من الاعتماد على المعجزات الحسية كدليل على صحته. ويعتمد النص على نوع جديد من المعجزات هو **المعجزة البيانية**؛ أى البيان والبرهان وعدم التناقض. ثم يطالب النص بالتحقق من صحته بطريقة إضافية؛ هى **التطابق** بين ما يقوله وبين ما يدل عليه الواقع الخارجى للكون والإنسان من قوانين وحقائق.

ومع ذلك يعترف الدين بالمعجزات المؤقتة للديانات السابقة؛ لأنها كانت تخاطب أهل عصور لا يفهمون إلا الدليل الحسى الخارق، لكنه يُفَضِّل لنفسه منهجا ذا استمرارية يمكن أن يستدل به أهل العصور التالية، وهو المنهج العقلى.

هذا هو الإسلام، ومعه نصل إلى أفق جديد ومختلف للدين، فمعه ـ ولأول مرة بين الأديان ـ يتم الاحتكام إلى التجربة والعقل الصريح؛ فالإسلام يخاطب العقل الصريح، ويحتكم إلى مبادئه الفطرية ﴿...إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد]. كما إنه يستشهد بالتجربة سواء كانت إنسانية أو طبيعية أو تاريخية، ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت]، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات]، ﴿... أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف].

كذلك ينطلق الإسلام من المحسوس للوصول إلى اللامحسوس، ويعتبر الحواس الإنسانية سبيلًا من سبل الوصول إلى الحقيقة إذا أُستخدمت بشكل سليم، ولذا فإن الضالين هم الذين يسيئون استخدام حواسهم ﴿... لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ... ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

الألوهية فى الإسلام

صار للعقيدة الإلهية فى الإسلام معنى مختلف؛ فالله تعالى ليس قوميًّا ولا حصريًّا؛ فلا هو خاص بقوم دون قوم ولا هو محصور فى أمة دون أمة، بل هو عالمى ومنفتح على الطبيعة والكون والناس أجمعين، سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، مطيعين أو عصاة. فالله فى الإسلام (رب العالمين)[1]... ﴿... بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾ [الناس].

ويقوم التصور العقدى فى الإسلام على عقيدة الإيمان بالله بوصفه الموجود الحق بذاته، الذى لا يقبل العدم؛ فهو القديم الذى لا بداية لوجوده، وهو الباقى الذى لا نهاية لوجوده.

(١) يقف هذا التصور ضد التصورات العقدية الأخرى التى تنظر إلى الإله على أنه إله خاص بقوم دون قوم. ومن ثم، فإن التسامح ـ كموقف أخلاقى ـ يكمن فى عقيدة الألوهية الإسلامية، على عكس اليهودية غير الموسوية (التاريخية) التى يكشف موقفها من الألوهية عن موقف غير متسامح من الأمم الأخرى؛ لأن الإله هو إله بنى إسرائيل فقط، وهم شعبه المختار!

فهو الموجود الأول، الذى سبق وجوده كل وجود، فكان تعالى وحده ولا شىء معه، ثم خلق ما شاء من مخلوقاته؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد].

والله أزلى ليس بحادث، فلو كان حادثًا لا بد له من صانع أحدثه ومبدع أنشأه، كذلك يقتضى محدثه محدثًا آخر، ويتسلسل الأمر إلى ما لا نهاية، ولما كان هذا التسلسل غير ممكن، فإنه يُثبت أن صانع العالم قديم، وهذا ما يعرف فى تاريخ الفلسفة باسم الدليل الكوسمولوجى.

وهو أبدى لا آخر له؛ لأن من ثبت قِدمه استحال عدمه؛ ووجوب وجوده يمنع انتهاءه.

وهو واحد لا شريك له؛ لأنه لو كان للوجود صانعان ـ أو أكثر ـ لوقع بينهما تمانع وتدافع، وذلك يؤدى إلى عجز أحدهما، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهًا. فإذا انتفى إثبات صانِعَين كان واحدًا بالضرورة ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء].

والله ليس بجوهر؛ لأن جوهر الشىء تلحق به وتحل به الحوادث، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. وليس بجسم؛ لأن الجسم حقيقته الجوهر، وإذا بطل كونه جوهرًا بطل كونه جسمًا بالضرورة. وليس بعَرَض؛ لأن العَرَض لا قيام له بذاته بل هو مفتقر إلى جسم يقوم به، والله ﷻ قائم بذاته غير مفتقر إلى أى شىء.

ولا يشبه الله العالم ولا شيئًا منه؛ لأنه لو كان يشبهه للزم إما حدوثه وإما قِدَم العالم، وكلاهما منتفيان.

ولا يقال عنه «ما هو؟»؛ لأن «ما» سؤال عن الجنس ولا جنس له.

ولا يقال «كيف هو؟»؛ لأن «الكيف» يُستخبر به عن الهيئة والحال، ولا هيئة له ولا حال.

ولا يقال «كم هو؟»؛ لأن «الكم» يُستخبر به عن المقدار والعدد، ولا عدد له.

ولا يقال «متى كان؟»؛ لأن «متى» سؤال عن الزمان، ولا يجرى عليه زمان.

ولا يقال «أين؟»، لأن الذى أَيَّنَ الأين لا يقال له: أين؟

والله ﷻ ليس فى جهة ولا تحويه الجهات فى العالم؛ لأن الجهات حادثة وهو الذى خلقها، فلو صار مختصًّا بجهة بعدما خلقها لكان يتخصص بمُخَصِّص وذلك باطل.

وهو أيضًا ليس خارج العالم؛ لأنه لو كان كذلك لكان محاذيًا للعالم، وكل محاذٍ بجسم إما أن يكون مثله أو أكبر أو أصغر، وكل ذلك تقدير يحتاج إلى مقدر، تعالى عن ذلك. وترفع الأيدى إلى السماء عند الدعاء لأنها قبلة الدعاء، كالتوجه إلى الكعبة فى الصلاة، وكوضع الوجه على الأرض عند السجود، وإن لم يكن الله ﷻ فى الكعبة ولا تحت الأرض.

واستواء الله على العرش حق وصدق عند المسلمين، يؤمنون به ويعتقدونه على الوجه الذى أراده الله ولا يشتغلون بكيفيته، كما يشير الاستواء إلى القدرة.

ولا يقال عنه «لِمَ فعل؟»؛ لأن «لم» تقال لمن فعل لعلة أو حاجة أو ضرورة، وهو منزه عن ذلك. ولا يمكن للإنسان أن يحيط بطبيعة المقصد الإلهى؛ فهو لا يستطيع أن يدخل علمه، سبحانه.

والله ﷻ لا شريك له، ولا مدبر له، ولا نظير له ولا معين ولا قرين، ولا وزير له، ولا حاجب، ولا بواب، ولا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا يسار، ولا أمام، ولا وراء. ولا حَظَّ له فيما أعطى، ولا ندم على ما وهب؛ لأن هذه الأشياء من إمارات الحدوث وهو قديم منزه عن جميع الحادثات وعن التغير من حال إلى حال. وهو صمدى لا يقبل التجزؤ والانقسام، ولا والد له ولا ولد ولا صاحبة؛ لأن الوالد سبب لحدوث الولد، والولد جزء الوالد. والزوجة لمن جارت عليه الشهوة وهو ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عنها. ولا زيغ فى أحكامه ولا ميل فى قضائه وقدره؛ لأنه عادل على نحو مطلق، وهو كذلك رحمن رحيم .

الله ﷻ حى لا تأخذه سنة ولا نوم، عالِم بجميع المعلومات، كليتها وجزئياتها، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات العلا ولا فى الأرضين السفلى؛ لأنه لو لم يكن عالـمًا لكان موصوفًا بضده وهو الجهل وذلك نقص، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وهو الغنى بذاته عن جميع الموجودات، وهى المفتقرة كلها ابتداءً ودوامًا إليه. لذلك لا تصلح العبادة إلا له، ولا تنبغى لغيره.

ومن ثم، فالله ـ سبحانه ـ لا يقدره فهم؛ ولا يصوره وهم، ولا يدركه بصر، ولا عقل، ولا يبلغه علم، وكل ما خطر ببالك فهو بخلافه. وقد اتفق المسلمون الأوائل على أن الله ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله. وهو لا ينتهى إليه وَهْمٌ ولا يحيط به علم،

والله تعالى لا يعلم كيف هو إلا هو، سبحانه وتعالى. والسلف متفقون على أن البشر لا يعلمون لله حدًّا وأنهم لا يجدون شيئًا من صفاته[1].

ولا شك أن هذه العقيدة تمثل أرقى ما وصل إليه العقل من تجريد وتنزيه يليقان بالمبدأ الأول الواحد الأحد الذى ليس كمثله شيء، بعيدًا عن التجسيم والتشبيه والخلط بين ما هو إلهى وما هو إنسانى أو طبيعى.

الكون فى الإسلام[2]

الكون فى الإسلام «خاضع لمبدأ السببية Causality Principle»، وهو المبدأ الذى يقرر أن لكل ظاهرة سببًا، وأنه لا شيء يحدث من لا شيء، وكل ما يظهر للوجود فلوجوده علة، وأن الأسباب تتبعها النتائج المترتبة عليها.

والسببية من مبادئ الطبيعة وأيضًا من مبادئ الفكر. وهى مبدأ قرآنى راسخ؛ فالله ﷻ ربط الأسباب بمسبباتها، وجعل الأسباب محل حكمته فى أمره الدينى الشرعى[3] وأمره الكونى القدرى[4]. وقد جعل ـ سبحانه ـ مصالح العباد فى معاشهم ومعادهم، والثواب والعقاب، والحدود والكفارات، والأوامر والنواهى، والحل والحرمة، كل ذلك مرتبط بالأسباب قائم بها. والعبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات. والشرع كله أسباب ومسببات، والمقادير أسباب ومسببات، والقدر جارٍ عليها متصرف فيها؛ فالأسباب محل الشرع والقدر. ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع[5]، ولم نقل ذلك مبالغة بل هو حقيقة.

---

(١) قال أبو داود الطيالسى: كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبو عوانة لا يحدون، ولا يشبهون، ولا يمثلون، يروون الحديث ولا يقولون «كيف؟». فالكيف مجهول كما قال الإمام مالك.

(٢) لاستكمال تنزيه مفهوم الألوهية فى الإسلام، رأينا إلحاقه ببحثين عن الكون فى الإسلام ثم الإنسان فى الإسلام، فبضدها (خالق ومخلوق) تتمايز الأشياء.

(٣) مثاله ما يأمر به الله عباده عن طريق رسله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل].

(٤) كخلق الشمس والقمر وإنزال المطر والأمور القدرية وغيرها. كل ذلك بأسباب وآليات، يشير إليها القرآن الكريم بكلمة كن ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة].

(٥) من هذه الآيات التى ربط الله فيها بين الحوادث على أساس السببية قوله تعالى: ﴿... وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا ... ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ... ﴿٦٠﴾﴾ [النمل]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ... ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف].

وإنكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات وقدح فى العقول والفِطَر ومكابرة للحس وجحد للشرع والجزاء؛ ولهذا قال من قال من أهل العلم: **تكلم قوم فى إنكار الأسباب فأضحكوا ذوى العقول على عقولهم، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فشابهوا المعطلة...**»[1].

والله فى الإسلام هو الخالق للأسباب، وأسباب الأسباب، مهما علت، حتى نصل إليه ﷻ كسبب أول، يقول تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور].

وينظر الإسلام إلى الكون باعتباره «**محكومًا بالغائية Teleology**»، حيث يرى أن كل الظواهر تحدث من أجل غاية، وأنه لا شىء فى الكون يحدث عبثًا. فلكل شىء علل، والعلل أو الأسباب متنوعة[2].

الإنسان فى الإسلام

تتجلى فى الإسلام بوضوح «نزعة إنسانية»؛ تظهر من خلال تصوير القرآن للإنسان على أنه كائن مُكَرَّم، وأنه يظل بأفعاله جديرًا بالكرامة، ويأتى انحداره نتيجة أفعاله[3]. وتقوم النزعة الإنسانية على التوازن بين الجانب المادى والروحى؛ فلا ينبذ الإسلام متع الحياة الدنيا، مثل ديانات شرق آسيا أو غيرها من الديانات الرهبانية[4].

أما «الحرية Liberty» فهى فى التصور الإسلامى حق إنسانى أصيل. والحرية هى القدرة

---

(١) ابن القيم، شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق محمد بدر الدين أبو فراس النعسانى الحلبى (بيروت، دار الفكر، ١٣٩٨هـ) ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) فى القرآن الكريم تأكيد على الغائية، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ... ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة]. وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [الدخان]. وربط القرآن الكريم بين الحوادث على أساس العلة الغائية، مثل قوله تعالى: ﴿ ... وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة]، ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ... ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل]، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ... ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

(٣) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء]. ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين].

(٤) ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ... ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص].

على الاختيار وتحقيق الفعل أو الامتناع عنه دون خضوع لتأثير خارجى أو إكراه. **والإرادة الإنسانية حرة بحكم المولد.** وللإنسان حق ممارسة هذه الحرية ما دام لا يضر نفسه أو الآخرين وفق الضوابط الشرعية. والحرية فى الإسلام هى **الحرية الملتزمة**، وهى ضد الفوضوية التى ترجع أسسها الفلسفية إلى الفردية المطلقة والذاتية المفرطة عند الفلاسفة الماديين. وكل فرد فى الإسلام مسئول عن أفعاله ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم]، ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم].

وينص القرآن الكريم بشكل قاطع على **الحرية فى الاعتقاد**؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ... ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة]. ومع أن الدين الحق واحد، فقد **سمح القرآن بتعددية الأديان** فى قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]، بل اعتبر **الاختلاف بين الناس أمرًا طبيعيًّا وسنة من السنن الكونية**، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ... ﴿١١٩﴾﴾ [هود]. ولم تكن هذه النصوص بمعزل عن الواقع؛ بل تجلت فيه على أنحاء شتى، سواء على مستوى حركة المجتمع أو على مستوى ممارسات الدولة[1].

وفى الإسلام، تأكيد على «**مركزية الفردية الإنسانية Individualism**»، وأنها قيمة فى حد ذاتها، وأن الفرد شخصية مستقلة منفصلة عن الآخرين، وهو **غاية فى ذاته**، سواء على مستوى النظرية الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية. لذلك فالإسلام يدعو إلى تأكيد الكرامة الإنسانية الفردية، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]. ومع مركزية الفردية فى الإسلام، ثمة **توازن بينها وبين النزعة الجماعية** دون طغيان لطرف على طرف[2].

ويتعامل الإسلام مع كل فرد باعتباره «**مُعَبِّرًا عن الإنسانية كلها**» ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا

(١) أيدت تصرفات الرسول ﷺ هذه النصوص بوصفها مبدأً عامًّا وقاعدة لا يمكن خرقها؛ بل جاءت بعض هذه النصوص مؤيدة لموقف حر اتخذه الرسول نفسه، حيث يروى الطبرى عن ابن عباس: أن رجلًا من بنى سالم وابن عوف يقال له «الحصين»، كان والداه مسيحيين وهو مسلم، فسأل الرسول ﷺ أن يرغم والديه على الإسلام، بعد أن أصرا على التمسك بالمسيحية، فنهاه الرسول عن ذلك، ونزلت آية: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ... ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة:].

(٢) للفردية معانٍ سلبية وأخرى إيجابية، فإذا كانت تنتهى إلى الأنانية فهى مرفوضة فى الإسلام، باعتباره يحث على الإيثار ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ ﴿٣٢﴾ [المائدة]. كما أنه يؤكد المسئولية الفردية بجوار المسئولية الجماعية على ما هو معروف من فرض العين وفرض الكفاية[1].

صورة الله ﷻ

فى القرآن والسنة[2]

أنزل الله ﷻ القرآن الكريم على الإنسان ليُعَرِّفه بمصدره ومساره ومآله، ولا شك أن ذلك يتطلب أن يتعرف الإنسان على الغاية من خلقه، لذلك يصرح القرآن الكريم بهذه الغاية فى قول الحق ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات]. وقد اتفق معظم المفسرين لآيات كتاب الله ﷻ على أن أسمَى مقاصد ومراتب العبادة هى معرفة الله ﷻ.

ولم يترك الله ﷻ الإنسان فى الدنيا هَمِلًا، يتخبط فيها دون إرشاد باحثًا عن صفات ربه، يصيب تارة ويخيب تارة، بل لقد بث الله ﷻ صفاته فى معظم آيات كتابه المسطور (القرآن الكريم)، كما جعل الوجود كله (الكتاب المنظور) تجليات ملموسة لتلك الصفات. لذلك حَثَّنا الله ﷻ على أن نتدبر آيات القرآن الكريم ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد]. وحَثَّنا كذلك أن نتدبر آيات الوجود ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلۡأٓفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

وبذلك يكتمل تعرفنا إلى الله ﷻ من خلال إدراك صفاته بقدر ما تحتمل طبيعتنا البشرية.

ونحن فيما تبقى من هذا الفصل نتعرض بنظرة تحليلية لأسماء الله وصفاته كما وردت فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، حتى يتسنى لنا أن نقارن بها ما توصل إليه العلم من صفات الإله الخالق والحافظ والمدبر للوجود وللنفس البشرية.

(١) فرض العين هو عمل يقوم به الإنسان عن نفسه، أما فرض الكفاية فعمل يقوم به الإنسان عن نفسه وعن مجتمعه، مما يعنى المسئولية الجماعية بجانب المسئولية الفردية.

(٢) ما تبقى من الفصل مرجعه كتاب «أسماء الله الحسنى، دراسة فى البنية والدلالة» تأليف الدكتور أحمد مختار عمر (١٩٣٣ - ٢٠٠٣م) أستاذ علوم اللغة بكلية دار العلوم بالقاهرة، الناشر عالم الكتاب ١٩٩٦.

أسماءٌ أم صفات

أطلق العلماء على السمات التى تتصف بها الذات الإلهية (فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة) اصطلاح «الأسماء» تارة واصطلاح «الصفات» تارة أخرى، فهل هناك فرق بين اللفظين، أم إنهما مترادفان؟

أول ما يُلاحَظ عند تأمُّل هذا السؤال أن الاستعمال الوارد فى القرآن والسنة قد اقتصر على كلمة «الأسماء» دون «الصفات»[1]. وقد تشعبت آراء العلماء حول صحة التبادل بين اللفظين على النحو التالى:

١ - منهم من بادل بين اللفظين بحريّة، واعتبر **أسماء الله هى صفاته، وصفاته هى أسماؤه**[2]. لهذا نجد المستشرقين يقابلون الكلمة العربية «الأسماء» بكلمات متعددة تتراوح بين الأسماء والصفات منها: Names، أو Titles، أو Attributes.

٢ - **ومنهم مَن فَرَّق بين اللفظين فى المعنى، ونتج عن ذلك ظهور جماعة تنفى ثبوت الأسماء لله وتُسَلِّم بثبوت الصفات، أو العكس، وجماعة ثالثة تعترف بالأسماء والصفات لله** تعالى. ونتج عن التفريق بين مفهومى اللفظين أن ذهب بعض العلماء إلى أن أسماء الله توقيفية[3] محددة، أما صفاته فغير توقيفية وغير محددة.

والذين فرقوا بين الاسم والصفة انقسموا عند النظر إلى «الاسم» إلى فريقين:

أ) فريق - على رأسه الإمام الغزالى - يرى **أن الاسم هو اللفظ الموضوع للدلالة على المُسمى دون إشارة إلى صفة**[4]، وهذا الوصف لا يكاد ينطبق إلا على الاسم «الله» فقط.

ب) وفريق يرى **أن الاسم يشير إلى ذات وصفة** (باستثناء اسم «الله» الذى يشير إلى ذات فقط). فإذا كان من أسماء الله: الواحد، فإن من صفاته: الوحدانية، وإذا كان من أسمائه: السميع، فإن من صفاته: السمع، وهكذا.

---

(١) لذا جاءت جميع الشروح والدراسات تحت عنوان «أسماء الله» أو «أسماء الله الحسنى»، ربما باستثناء «كتاب الأسماء والصفات» للبيهقى.

(٢) يقول الإمام البغوى: أسماء الله أوصافه، وأوصافه مدائح لا يُمدح بها غيره. ويقول البيهقى: فلله ﷻ أسماء وصفات، وأسماؤه صفاته، وصفاته أوصافه.

(٣) توقيفية، أى كما جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية، مثل عليم وحكيم، ويرفض هذا الفريق أن نشتق من بعض صفات الله ﷻ وأفعاله أسماء، مثل الباعث والشافى.

(٤) فزيد مثلًا اسمه زيد، ولكن له صفات أخرى فى نفسه، منها أنه أبيض وطويل.. فلو ناداه شخص بإحدى هذه الصفات، فقد ناداه بما هو موجود فيه وموصوف به. ولا يعنى ذلك أن الطويل أو الأبيض اسم له، وإنما اسمه ما يسمى به نفسه أو أسماه به والداه.

ويتلخص الرأى الذى نركن إليه فيما يأتى:

١ - أن ما يستحق أن يُسمى «اسمًا» لله دون أن يكون «صفة» هو لفظ الجلالة «الله» وحده.

٢ - أن ما عدا لفظ الجلالة فهى صفات فى الحقيقة، وقد لوحظ فى إطلاقها كأسماء على الذات الإلهية ما تحمله من معان[1].

٣ - أن صفات الله غير محصورة ولا محدودة، وهى تشمل كل ما يليق بذاته المقدسة، وما يدل على صفاته أو أفعاله.

٤ - أن ما أُشتُهر من هذه الصفات هو المقصود بالأسماء الحسنى، وهو المقصود بالحصر بتسعة وتسعين اسمًا فى الحديث الشريف.

٥ - ما عدا لفظ الجلالة، وعدا التسعة والتسعين اسمًا المشهورة، أَولَى أن يقتصر إطلاق لفظ «الصفات» عليها، أما اعتبارها أسماء لله فهو من قبيل التوسع فى الإطلاق، والتساهل فى استخدام المصطلحات[2].

الله عز وجل

قبل أن نتقدم فى دراسة أسماء الله الحسنى وصفاته، نقف مع لفظ الجلالة، باعتباره الاسم الدال على الذات والمقصود بأوصاف باقى الأسماء.

وردت الكلمة فى القرآن الكريم ٢٦٩٧[3] مرة. وذكر الغزالى أنه اسم للموجود الحق الجامع للصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المتفرد بالوجود الحقيقى.

وقد أُختُلف فى أصل الكلمة فقيل سريانى، أو عبرانى، والصحيح أنها عربية.

كما أُختُلف فى الحكم عليها؛ أهى موضوعة أم مشتقة، وقد اختلف الذين قالوا باشتقاق اللفظ على النحو التالى:

(١) لله در ابن تيمية إذ يقول - ردًا على ابن حزم الذى يرى أن أسماء الله جامدة ليست مشتقة: «فإننا نعلم الفرق بين الحى، والقدير، والعليم، والملك، والقدوس، والغفور، وأن العبد إذا قال: رب اغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الغفور كان أحسن فى مناجاة ربه من قوله: إنك أنت الجبار المتكبر شديد العقاب»، ومعلوم أن الأسماء إذا كانت أعلامًا جامدة لا تدل على معنى لم يكن فرق بين اسم واسم.

(٢) هذا ما جرينا عليه فى باقى الفصل والكتاب مراعاة للإطلاق الشائع.

(٣) كما فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

١ - لفظ مشتق من «أَلِهَ الرجلُ إلى الرجلِ»، إذا فزع إليه من أمر نزل، فآلَهُ الرجلُ: أى أجاره وآمنه.

٢ - من «وَلِه يوله»، والولَه المحبة الشديدة، واشتقاقه من «الوله» لأن قلوب العباد تولِه نحوه.

٣ - من «أله يأله»، إذا تحير؛ لأن العقول تتحير عند التفكر فى عظمة الله، وتعجز عن بلوغ كنه جلاله.

٤ - من «أله يأله»، بمعنى عبد يعبد، والتأله التعبد، فمعناه المعبود.

٥ - من «لاه يلوه»، إذا احتجب، أو إذا ارتفع.

٦ - من «أله بالمكان»، إذا أقام فيه.

وقد أوصل بعضهم الأقوال فى معنى لفظ الجلالة إلى عشرين قولًا.

والرأى الراجح أن الله هو الاسم الذى تفرد به سبحانه، وخص به نفسه، وجعله أول أسمائه وأعظمها، وأضاف كل الأسماء إليه، فكل ما جاء سواه يكون نعتًا له وصفة.

إحصاء أسماء الله الحسنى

نسب القرآن الكريم إلى الله تعالى «الأسماء الحسنى» فى أربع آيات، هى قوله تعالى:

١ - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ...﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف].

٢ - ﴿...أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ...﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء].

٣ - ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه].

٤ - ﴿...لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ...﴿٢٤﴾﴾ [الحشر].

وقد ورد كثير من الأسماء الحسنى بصورة متفرقة فى كثير من آيات القرآن الكريم، وأخذ ذلك أشكالًا ثلاثة هى:

١ - ذِكر الاسم نصًا، ومطلقًا من أى قيد كقوله تعالى:

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة].

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة].

٢ - ذِكر الاسم مقيدًا بمتعلَّق معين، كقوله تعالى:

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴿١١٧﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ... ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأنعام].

٣ - إسناد الفعل إلى الله بشكل يسمح باشتقاق الوصف أو الاسم منه، كقوله تعالى:

﴿ ... فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ... ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة]، أُشتق منه «الباعث».

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]، أُشتق منه «الشافى».

ووردت الإشارة إلى أسماء الله الحسنى «بصورة مجملة» دون حصر فى العديد من **«الأحاديث النبوية»** التى نصت جميعها على العدد (٩٩)، ومن ذلك:

عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة»(١).

ولم تخرج سائر الروايات عن ذلك، وإن اختلفت بعض ألفاظها.

والرأى الراجح أن ما ورد فى هذه الأحاديث من سرد للأسماء التسعة والتسعين ليس من متن الأحاديث، لكنه **إضافة من الرواة استنبطوها من القرآن الكريم.**

كما ورد النص على «بعض» من أسماء الله فى «أحاديث متفرقة» مثل:

عن أنس بن مالك قال: كنت جالسًا مع النبى ﷺ فى المسجد ورجل يصلى فقال: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حى، يا قيوم، أسألك...، فقال النبى ﷺ: هل تدرون ما دعا؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: دعا باسم الله الأعظم الذى إذا دُعى به أجاب وإذا سُئل به أعطى(٢).

أما بخصوص عدد أسماء الله تعالى، وهل هى محصورة فى تسعة وتسعين أم قابلة للزيادة بحسب ما يليق بذات الله تعالى فقد انقسم فيه العلماء إلى فريقين:

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) أخرجه أبو داود، والنسائى، وابن ماجة، وصححه ابن حبان والحاكم.

الفريق الأول، يرى الالتزام بالعدد الوارد فى الحديث ويرفض الزيادة عليه، من هؤلاء الأشعرى وابن حزم[1].

وأما الفريق الثانى وهو جمهور العلماء، فيرى أنه لا يصح حصر الأسماء فى عدد معين وأن أسماء الله لا نهاية لها[2].

أما بخصوص المصادر التى ينبغى الاعتماد عليها لتحديد أسماء الله، بعد الاتجاه إلى عدم حصرها، فقد ذهب العلماء فيها ثلاثة مذاهب:

١ - فريق يرى إمكانية تسمية الله تعالى بأى اسم يليق بذاته المقدسة دون تقيد بمرجع معين[3].

٢ - اعتبر الإمام الغزالى أن الأسماء تقتصر على ما ورد، أما الصفات فلا تقف عند الإذن، بل الصادق منها مباح دون الكاذب[4].

٣ - ذهب فريق - على رأسه أبو الحسن الأشعرى - إلى قصر التسمية على ما ورد فى كتاب أو سنة أو إجماع.

وبحسب توسيع مفهوم الورود أو تضييقه زاد بعضهم فى عدد الأسماء، ونقص بعض آخر:

---

(١) يقول ابن حزم فى كتاب المحلى ما نصه: «وإن لله ﷻ تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا، وهى أسماؤه الحسنى، من زاد شيئًا من عند نفسه فقد ألحد فى أسمائه. وهى الأسماء المذكورة فى القرآن والسنة.. وقد صح أنها تسعة وتسعون اسمًا فقط ولا يحل لأحد أن يجيز أن يكون له اسم زائد؛ لأنه ﷺ قال: مائة إلا واحدًا. فلو جاز أن يكون له تعالى اسم زائد لكانت مائة اسم، ولو كان هذا لكان قوله ﷺ مائة إلا واحدًا كذبًا، ومن أجاز هذا فهو كافر.

(٢) نُقل هذا الرأى عن ابن عباس، وقَبِلَه فخر الدين الرازى الذى قال - بعد تقسيمه لأسماء الله تعالى وصفاته - ما نصه: «وعند هذا يظهر لك أن لا نهاية لأسماء الله تعالى وصفاته»، وقَبِلَه الغزالى الذى عقد فصلًا عنوانه: «فى بيان أن أسماء الله تعالى من حيث التوقيف غير مقصورة على تسعة وتسعين». ومن هؤلاء كذلك ابن كثير والقرطبى والبيهقى والنووى.

(٣) من هؤلاء الباقلانى الذى أطلق التسمية إلا ما منع منه الشرع، أو أشعر بما يستحيل معناه على الله تعالى.

(٤) استدل الغزالى على منع الإطلاق فى الأسماء بقوله: إذا كان قد ورد المنع بوضع اسم للرسول لم يسمّ به نفسه ولا سماه به ربه ولا أبوه، فذلك المنع فى حق الله أولى. واستدل على إباحة الصفات بأن ذلك نوع من الخبر، والخبر الصادق مباح، فلذلك جاز وصف الله تعالى بكل ما يليق به سواء ورد به الشرع أو لم يرد، مثال أن نقول إن الله قديم؛ لأنه كذلك، وإن لم يرد الشرع به.

أ) فمن اشترط ورود الاسم نصًا فى القرآن الكريم أو كتب الصحاح هبط بالرقم كثيرًا، ومن حاول منهم التقيد بالعدد ٩٩ تلمس الوسائل للوصول بأسماء الله إلى هذا العدد.

ب) أما من اعتمد على ورود الاسم فى قرآن أو حديث، سواء كان بلفظه أو مقيدًا بإضافة أو نحوها أو ما أُخذ بطريق الاشتقاق، فقد زاد الرقم كثيرًا وبلغ به بعضهم المئات[1].

وحول المفاضلة بين أسماء الله تعالى؛ فقد انقسم فيها العلماء إلى فريقين: فريق يرى التساوى بين هذه الأسماء، وفريق يرى تمتع بعضها بالأفضلية على بعض.

فمن الفريق الأول الطبرى والأشعرى والباقلانى الذين قالوا إنه لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض، وحملوا ما ورد فى الأخبار عن «اسم الله الأعظم» على أن المراد بالأعظم هو العظيم، وأسماء الله كلها عظيمة.

أما الفريق الثانى فيأخذ بظاهر التسمية، ويميل إلى القول بوجود اسم لله هو أعظم من باقى أسمائه. وأصحاب هذا الرأى قسمان:

أ) فقسم يرى أن الله تعالى قد استأثر بعلم اسمه الأعظم ولم يُطلع أحدًا عليه.

ب) وقسم يرى أن هذا الاسم ينبغى السعى لمعرفته، وإن اختلفوا فى تعيينه.

سبحان ربى لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى.

هل تحمل الأسماء الحسنى معانى مترادفة؟

يعتبر العلماء أنه لا يوجد اسمان من أسماء الله الحسنى يتطابقان فى المعنى. ويرجع الظن بالتطابق إما إلى اختلاف الاسمين فى الجِذْر وتقارب معناهما فيُظن ترادفهما، أو إلى اتفاق الاسمين فى الجِذْر فيُظن تكرارهما.

فمن أمثلة القسم الأول الذى يتقارب فيه المعنيان ويظن ترادفهما:

---

(١) من أمثلة هذا النوع: «الباقى» من قوله تعالى: «ويبقى وجه ربك»، و«البديع» من قوله تعالى: «بديع السموات والأرض». وممن قال بذلك البيهقى فى كتابه الأسماء والصفات الذى بلغ بعدد الأسماء ١٤٨ اسمًا.
وفى العصر الحديث ألف الشيخ أحمد الشرباصى كتابًا فى جزأين خصّص الجزء الثانى منهما للزيادات على ما جاء فى حديث الأسماء، وقد بلغت هذه الزيادات نحوًا من مائتى اسم.

وصف الله تعالى بالعفو والغفران فى مثل قوله تعالى:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾ [الحج].

فأنت تقول: عفوت عنه، فيقتضى ذلك أنك محوت الذنب والعقاب عنه، وتقول: غفرت له فيقتضى ذلك أنك سترت له ذنبه ولم تفضحه به.

وصفه تعالى بالقدرة والقهر فى مثل قوله تعالى:

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة].

﴿... ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسف].

فالقدرة تكون على صغير المقدور وكبيره، أما القهر فيدل على كبر المقدور، ولهذا يُقال: ملك قاهر إذا أريد المبالغة فى وصفه بالقدرة.

كذلك وصْفه تعالى بالخالق والبارئ والمصور: وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ... ۝٢٤﴾ [الحشر].

قال الغزالى: قد يُظن أن هذه الأسماء مترادفة، وأن الكل يرجع إلى الخلق والاختراع، ولا ينبغى أن يكون الأمر كذلك. بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود يحتاج إلى التقدير أولًا، وإلى الإيجاد ثانيًا، وأن يكون الإيجاد وفق التقدير ثالثًا.

لذلك فالله تعالى «خالق» من حيث إنه مُقَدِّر، و«بارئ» من حيث إنه موجد من عدم، و«مصور» من حيث إنه أوجد تبعًا للتقدير. وستكون لنا عودة إلى هذا المعنى فى فصول الكتاب.

كذلك وصْفَه تعالى بالودود والرحيم، فكلاهما يحمل معنى حب الخير لجميع الخلق، والإحسان إليهم والثناء عليهم. لكن الرحمة مضافة إلى مرحوم، والمرحوم هو المحتاج المضطر، لذلك تستدعى أفعال الرحيم مرحومًا ضعيفًا. أما أفعال الودود فلا تستدعى ذلك، لذلك فالإنعام بالإيجاد من عطاءات الود.

أما القسم الثانى، ففيه يتفق الاسمان فى الجِذْر ويختلفان فى الوزن (نظرًا لاختلاف الاشتقاق) فيختلف المعنى وينتفى الترادف. ومن أمثلة ذلك:

الجِذْر «حيا»: فالله «حى» فى ذاته، و«محيى» أى يخلع صفته (الحياة) على الأشياء غير الحية.

ومثله: العزيز/ المعز، الغنى/ المغنى.

الجِذْر «عَلِمَ»: فالله «عالِم» فى ذاته، وهو «عليم» مبالغة فى الصفة، و«مُعَلِّم» يخلع صفته على خلقه وفى الوقت نفسه تكثر فيه الصفة. ومثله: حاكم/ حكيم.

الجِذْر «قَدَرَ»: فالله «قادر» فى ذاته، وهو «مقتدر» مما يدل على المبالغة فى القدرة والعمل على تحصيل أصل الفعل. ومثله: عَلِيّ/ متعال، كبير/ متكبر.

والعلاقة بين بنية الاسم ودلالته من المباحث المهمة والممتعة فى الوقت نفسه.

أسماء الله الحسنى بين الخصوصية والعمومية

يمكن النظر إلى أسماء الله الحسنى من حيث الخصوصية والعمومية من زاويتين:

الأولى: صحة إطلاقها منفردة على الذات الإلهية، أو ضرورة اقترانها بغيرها.

الثانية: قصر الاتصاف بها على الذات الإلهية، أو جواز تعميمها على البشر.

فالبنسبة للنقطة الأولى، حدد العلماء عددًا من الصفات يُكره إطلاقه على الذات الإلهية دون اقتران كل منها بمضاده، ومن هذه الصفات:

الأول والآخر - المقدم والمؤخر - المحيى والمميت - المعز والمذل - الخافض والرافع - النافع والضار - القابض والباسط. وسبب اقتران هذه الأسماء:

١ - عدم وصف الله تعالى بالصفات السلبية وحدها كالإماتة، والإذلال، والخفض، والإضرار، والقبض، دون مقابِلاتِها الإيجابية التى يتطلع الناس إلى تحققها فى الذات الإلهية.

٢ - أن اقتران المتضادين يفيد الإحاطة بالشىء والتمكن منه من جميع أطرافه، وهذا أدل على القدرة والحكمة.

وهناك مجموعة أخرى من الصفات تجىء متلازمة بقصد تقوية معنى الصفة وتأكيده، وذلك حين يكون معنى الصفتين متقاربًا أو متلازمًا، ومن ذلك:

﴿... لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ[1] ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ[2]... ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر].

﴿ ...إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ[3] ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء].

(١) وقد جاء هذا الاقتران فى البسملة، وفى الفاتحة وغيرهما.
(٢) لم ترد «البارئ» فى القرآن الكريم إلا هذه المرة الواحدة.
(٣) وقد ورد اقترانهما فى القرآن الكريم وصفًا لله تعالى عشر مرات.

وأما بالنسبة للنقطة الثانية فقد لاحظ العلماء أن هناك عددًا من الصفات يختص بالذات الإلهية وحدها، ولا يصح وصف البشر بها، إما لأنها من صفات العظمة ومخالفة الحوادث فلا يصح وصف المخلوق بها، أو لأنها وإن كانت صفات محمودة فى جانب الله فهى غير محمودة فى جانب البشر. ويمكن التمثيل لهذا النوعين بالأمثلة الآتية:

- الرحمن: لا يُطلق إلا على الله تعالى، بخلاف الرحيم الذى يمكن أن يُطلق على الله وعلى غيره[1].

- الرب، إذا أُدخلت عليه الألف واللام أُختص بالله تعالى، وإن حُذفت (ال) صار اللفظ مشتركًا بين الله وعباده، فيقال: الله رب العباد، وعَلِىّ رب الدار.

- الجبار والمتكبر، فإذا كان الجبروت والتكبر فى حق الخلق مذمومًا، فهو ممدوح فى حق الله تعالى؛ لأنه سبحانه فوق كل الجبابرة، والجميع منقادون له.

- المنان، هو فى حق الله تعالى بمعنى عظيم الهبات وافر العطايا، ولكنه صفة مذمومة فى حق البشر؛ لأنها تُطلق على الذى لا يُعطِى إلا مِنَّة، وفى المَثَل: المنة تفسد الصنيعة.

هذا بالإضافة إلى العديد من الصفات التى يمتنع وصف البشر بها، مثل الأول، والآخر، والأبد، والواحد، والأحد، والباعث، والباقى، والجامع، والخالق، والخلاق، والأعلى، والغفار، والقيوم وغيرها.

أما الصفات الإلهية التى يجوز وصف البشر بها، فخير ما يمثلها تلك الصفات التى وُصف بها الرسول ﷺ، ومنها: حكم، ونور، وبرهان، ومؤمن، وشهيد، وحافظ، ورشيد، وناصر، وعزيز، ورءوف، ورحيم، وغنى، وجَواد، وفتاح، وعالم، وغيرها[2].

---

(١) ففى حين لم يرد «الرحمن» وصفًا لغير الله تعالى جاء الرحيم وصفًا للرسول فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]. وقد ذكر الزجاج أن وصف الرحمن خاص بالله سبحانه وتعالى ولا يجوز إطلاقه على غيره، وسبب ذلك أن معناه لا يصلح إلا لله تعالى، إذ هو الذى وسع كل شىء رحمة. وقد أطلقوا «رحمان اليمامة» على مسيلمة الكذاب على سبيل الاستهزاء والتهكم.

(٢) يجرى استخدام بعض هذه الأسماء فى أسماء الناس بصورة مباشرة دون سبقها بلفظ عبد، أو نحوه.

تصنيفات معانى أسماء الله الحسنى

١ - تصنيفات القدماء

فطن القدماء إلى إمكانية تصنيف أسماء الله إلى مجموعات أو منظومات دلالية حسب معانيها[١].

وقد قَسَّمَ «الإمام البيهقى» أسماء الله تعالى إلى خمس مجموعات هى:

١ - مجموعة الأسماء الخاصة بإثبات البارى والاعتراف بوجوده (ثمانية أسماء)[٢].

٢ - مجموعة الأسماء الخاصة بإثبات وحدانيته تعالى (خمس أسماء)[٣].

٣ - مجموعة الأسماء الخاصة بإثبات الإبداع والاختراع له تعالى (واحد وعشرون اسمًا)[٤].

٤ - مجموعة الأسماء الخاصة بنفى التشبيه عن الله تعالى (واحد وثلاثون اسمًا)[٥].

٥ - مجموعة الأسماء الخاصة بإثبات التدبير له تعالى فيما أبدع وفق مشيئته (خمسة وثمانون اسمًا)[٦].

---

(١) من أقدم من حاول ذلك الإمام البيهقى (٣٨٤ـ٤٥٨هـ) فى كتابه: الأسماء والصفات، والغزالى (٤٥٠ـ٥٠٥ هـ) فى المقصد الأسنى، وفخر الدين الرازى (٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ) فى كتابه لوامع البينات، شرح أسماء الله تعالى والصفات.

(٢) القديم، الأول، الآخر، الباقى، الحق، المبين، الظاهر، الوارث.

(٣) الواحد، الوتر، الكافى، العلىّ، الرفيع.

(٤) الله، الحى، العالم، القادر، الحكيم، السيد، الجليل، البديع، البارئ، الذارئ، الخالق، الخلّاق، الصانع، الفاطر، البادئ، المصور، المقتدر، الملك، المليك، مالك الملك، الجبار.

(٥) الأحد، العظيم، العزيز، المتعالى، الباطن، الكبير، السلام، الغنىّ، السبوح، القدوس، المجيد، القريب، المحيط، الفعّال، القدير، الغالب، الطالب، الواسع، الجميل، الواجد، المحصى، القوى، المتين، ذو الطَّول، السميع، البصير، العليم، العلّام، الخبير، الشهيد، الحسيب.

(٦) المدبّر، القيّوم، الرحمن، الرحيم، الحليم، الكريم، الأكرم، الصبور، العفوّ، الغافر، الغفّار، الغفور، الرءوف، الصمد، الحميد، القاضى، القاهر، القهّار، الفتاح، الكاشف، اللطيف، المؤمن، المهيمن، الباسط، القابض، الجواد، المنّان، المُقيت، الرازق، الرزّاق، الجبار، الكفيل، الغياث، المجيب، الولى، الوالى، المولى، الحافظ، الحفيظ، الناصر، النصير، الشاكر، الشكور، البر، فالق الحب والنوى، المتكبر، الرب، المبدئ، المعيد، المحيى، المميت، الضار، النافع، الوهّاب، المعطى، المانع، الخافض، الرافع، الرقيب، التوّاب، الديّان، الوفىّ، الودود، العدل، الحَكَم، المقسط، الصادق، النور، الرشيد، الهادى، الحنّان، الجامع، الباعث، المقدم، الآخر، المعز، المذل، الوكيل، سريع الحساب، ذو الفضل، ذو انتقام، المغنى، الطبيب، الشافى، الحيىّ.

وقد بين البيهقى صعوبة الفصل فى بعض الأحيان، وبالتالى إمكانية إلحاق بعض هذه الأسماء بمجموعتين أو أكثر (أربعة أسماء)[1].

وعاد البيهقى فقدم تصنيفًا عامًا إلى:

١ - صفات الذات، وهى ما اتصف به تعالى دون ضده أزلًا وأبدًا؛ كالحياة، والقدرة، والعلم، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام.

فالله دائمًا أزلًا وأبدًا: حى - قادر - عليم - مريد - سميع - بصير - متكلم، ولا يكون عكس ذلك أبدًا.

٢ - صفات الأفعال، وهى ما اتصف به تعالى وبضده ولم يكن موجودًا فى الأزل؛ كالخلق، والرزق، والإحياء والإماتة، والعفو والعقوبة.

وهى صفات ظهرت فى عالم الشهادة بعد أن لم تكن، وقد يوجد ضدها.

فالله ﷻ قد يخلق وقد لا يخلق، وقد يرزق وقد لا يرزق، قد يحيى وقد يميت، قد يعفو وقد يعاقب.

وقدم البيهقى تصنيفًا ثالثًا، قَسَّمَ فيه الصفات إلى مجموعات جزئية على النحو التالى:

١ - مجموعة العلم، وتشمل: العليم، والخبير، والحكيم، والشهيد، والحافظ، والمحصى.

٢ - مجموعة القدرة، وتشمل: القاهر، والقهار، والقوى، والمقتدر، والقادر، وذو القوة، والمتين، والغلاب.

٣ - مجموعة العظمة، وتشمل: ذو الجلال والإكرام، والعزيز، والجبار، والمتكبر، والعظيم، والمجيد.

٤ - مجموعة المشيئة والإرادة، وتشمل: الرحمن، والرحيم، والغفار، والودود، والعفوّ، والرءوف، والصبور، والحليم، والكريم، والبَرّ.

---

(١) ذو العرش - ذو الجلال والإكرام - الفرد - ذو المعارج.

وقد قَسَّمَ الإمام «الفخر الرازى» صفات الله تعالى إلى ثلاثة أقسام:

١ - صفات ذاتية، والمراد بها الألقاب الدالة على الذات، كالموجود، والقديم.

٢ - صفات معنوية، والمراد بها الألفاظ الدالة على معان قائمة بذات الله تعالى، كقولنا عالِم، وقادر، وحيّ.

٣ - صفات فعلية، والمراد بها الألفاظ الدالة على صدور فعل عن الله تعالى؛ كالخالق، والرازق، والمحيى.

كذلك قَسَّم «ابن حجر» أسماء الله تعالى من جهة دلالتها على أربعة أَضْرُب:

١ - ما يدل على الذات مجردة؛ وهو لفظ «الله».

٢ - ما يدل على الصفات الثابتة للذات؛ كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

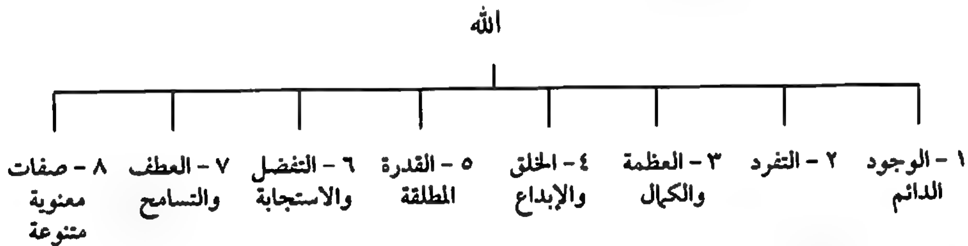
٣ - ما يدل على إضافة أمر ما إلى الله؛ كالخالق، والرازق، والقهار. فهى تضيف إليه أفعال الخلق والرزق والقهر.

٤ - ما يدل على سلب شىء عنه، كالعلىّ، والقدوس، والسلام. فهى تنزع عنه النقائص.

وما ذكرناه من تقسيمات القدماء هو ما يتناسب مع منهج كتابنا هذا، كما سيتضح خلال رحلتنا مع أسماء الله وصفاته.

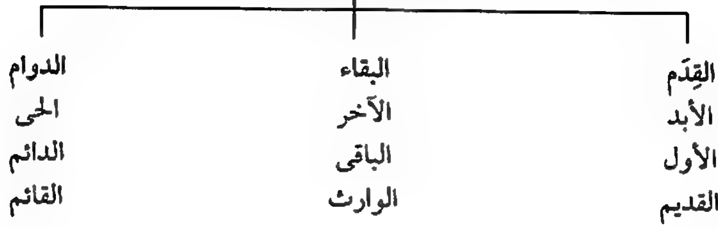
٢ - التصنيف التفريعى[١]

يقوم هذا التصنيف على دلالات (معانى) أسماء الله الحسنى، ويقوم على تقسيم الأسماء إلى ثمانى مجموعات كلية، تحتها مجموعات أخرى جزئية، على النحو التالى:

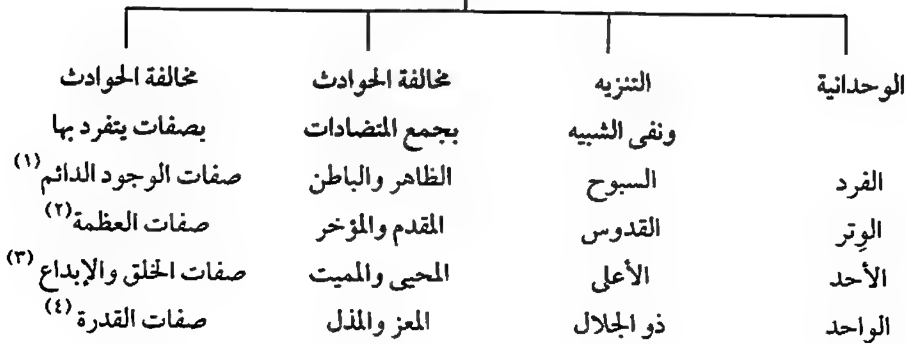


(١) وضع هذا التصنيف د. أحمد مختار عمر، أستاذ علوم اللغة السابق بكلية دار العلوم. وستلاحظ أن بعض الصفات يتكرر فى أكثر من موضع، إما لصلاحيته لذلك، أو لتعدد تفسيراته. وسنكتفى فى كتابنا بأهم الأسماء التى تقع فى كل مجموعة.

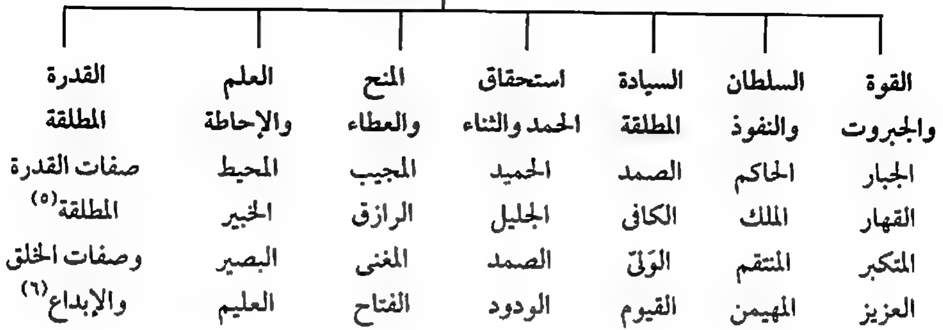
١ - الوجود الدائم



٢ - التفــرد



٣ - العظمة والكمال



---

(١) فى المجموع السابقة.

(٢) فى المجموعة التالية.

(٣) تأتى أمثلة صفات القدرة المطلقة فى المجموعة (٥).

(٤) تأتى أمثلة صفات الخلق والإبداع فى المجموعة (٤).

(٥) (٦) المجموعتان التاليتان.

٤ - الخلق والإبداع

لاعلى مثال	إعادة الخلق	صور من الخلق
البديع	المعيد	الخالق
الصانع	المحيى	المصور
المصور	الباعث	الفاطر
المبدئ	الجامع	البارئ

٥ - القدرة المطلقة

آثار عامة	الإعطاء	المجازاة	صفات متنوعة
المميت	الرازق	الحسيب	صفات المساعدة
البادئ	المعطى	المحصى	والصفح عن الذنب،
الباعث	المغنى	الديان	والتفضل،
المحيى	الباسط	الشكور	والاستجابة

٦ - التفضل والاستجابة

الإثابة	الكرم	الرعاية	الاستجابة	الهداية والإرشاد
المثيب	الجواد	الحفيظ	المعين	المبين
المجيب	الكريم	المعين	المغيث	النور
الحيىّ	المنعم	الكفيل	السريع	الهادى
	الوهاب	الوكيل	القريب	المؤمن

٧ - العطف والتسامح

المساعدة	الصفح عن الذنب	المودة والرحمة
الشافى	التواب	الودود
المعين	العفوّ	الرحمن
المعزّ	الغفور	الرحيم
المغيث	الحليم	الرءوف

٨ - صفات معنوية متنوعة

الكمال	الحق والعدل	صفات أخرى
البار	الحق	صفات الصفح
الحكيم	السلام	عن الذنب،
الحليم	العادل	والمودة والرحمة،
الرشيد	المقسط	وغيرها

٣ - الجمال والجلال والكمال

ومن التصنيفات المهمة لأسماء الله الحسنى تقسيمها إلى مجموعتين كبيرتين؛ **أسماء جمال وأسماء جلال.**

ومن **أسماء الجمال:** الرحمن، الرحيم، الحميد، الودود، الرزاق، المغنى، المجيب، الفتاح، المحيى، المعز، النافع، الباسط، المعطى، الخالق، البارئ، المصور، الشكور، الجواد، الكريم، المنعم، الوهاب، المغيث، النور، الهادى، الشافى، العفو، الغفور، الحليم.

ومن **أسماء الجلال:** المميت، المذل، الخافض، الضار، المانع، القابض، القهار، المنتقم، الجليل، المتكبر، المتعالى.

وتأتى «**أسماء الكمال**» من الجمع بين أسماء الجمال والجلال، ومنها:

ذو الجلال والإكرام؛ فهو يجمع بين الجلال وبين الكرم كصفة من صفات الجمال.

الجبار: ففيه جلال البطش بالظالمين والمتكبرين، وجمال جبر (إصلاح) حال الضعفاء والمنكسرين.

كما يتأتى استشعار الكمال فى جمع المتضادات من صفات الجمال والجلال، مثل: المحيى المميت، والمعز المذل، والنافع الضار، والقابض الباسط، والمعطى المانع.

وترجع أهمية التنبه إلى تقسيم الصفات الإلهية إلى جمال وجلال إلى أن الكثيرين يركزون على الجمال الإلهى ويصفون الله ﷻ دائمًا بأنه رحمن رحيم، لذلك يتحيرون عندما تقع فى الكون أحداث تشير إلى الجلال الإلهى، كالتسونامى، والزلازل، والبراكين، والأوبئة وغيرها. وقد كان هذا الموقف سببًا رئيسيًّا لموجات الإلحاد فى الغرب وفى بلادنا، بعد أن عجز هؤلاء، عن تفسير تلك المصائب، وأطلقوا على حجتهم هذه «مجادلة الشر والألم».

وإذا كانت اليهودية تركز على صفات الجلال الإلهى، بينما تركز المسيحية على صفات الجمال، فالإسلام يجمع بينهما. لذلك فمن لم يعرف سوى الجمال الإلهى، أو الجلال الإلهى وحده فلم يعرف الله حق المعرفة. فكمال المعرفة يأتى بإدراك جمال الله وجلاله.

ويبقى أن نقول إن أسماء الله الحسنى لا حصر لها، فبالإضافة لما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، فهناك من الأسماء ما آثر به الله ﷻ بعضًا من خلقه، ومنها ما احتفظ به فى عالم الغيب، ودليلنا على ذلك الحديث الصحيح الثابت الذى تلقته الأمة بالقبول.

«... أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك...»[1].

(١) من حديث ابن مسعود، وأبى موسى، وابن عمر رضى الله عنهم. رواه الإمام أحمد، وابن أبى الدنيا وأبو يعلى، والطبرانى وابن حبان، والحاكم، والبيهقى، وابن رجب، وغيرهم.

القارئ الكريم

رأينا فى هذا الفصل أن الوعى الإنسانى (مع الإسلام) قد ارتقى إلى ذراه فى تصور الألوهية؛ فتحول الدين من التوحيد غير الخالص إلى التوحيد الخالص، ومن التوحيد المعقد الملغز إلى التوحيد الواضح والصرف.

كذلك صار للعقيدة الإلهية فى الإسلام معنى مختلف؛ فالله تعالى ليس قوميًا ولا حصريًا؛ فلا هو خاص بقوم دون قوم ولا هو محصور فى أمة دون أمة، بل هو عالمى ومنفتح على الطبيعة والكون والناس أجمعين، سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، مطيعين أو عصاة. فالله فى الإسلام (رب العالمين)... ﴿... بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾ [الناس].

ومع الإسلام، تحول المنهج من الاستدلال بخوارق الطبيعة إلى الاستدلال بنظام الطبيعة، ومن منطق الحس إلى منطق البرهان. كما أصبح مبدأ عدم التناقض هو المقياس السائد للحكم على النص من داخله، بدلًا من الاعتماد على المعجزات الحسية كدليل على صحته، أى أنه يعتمد على نوع جديد من المعجزات هو المعجزة البيانية؛ أى البيان والبرهان وعدم التناقض. ثم يطالب النص بالتحقق من صحته بطريقة إضافية؛ هى التطابق بين ما يقوله وما يدل عليه الواقع الخارجى للكون والإنسان من قوانين وحقائق.

ويقوم التصور العقدى فى الإسلام على عقيدة الإيمان بالله بوصفه الموجود الحق بذاته، الذى لا يقبل العدم؛ فهو القديم الذى لا بداية لوجوده، وهو الباقى الذى لا نهاية لوجوده. فهو الموجود الأول، الذى سبق وجوده كل وجود، فكان تعالى وحده ولا شىء معه، ثم خلق ما شاء من مخلوقاته؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد].

وفى حق الله ﷻ، وضع الإنسان العقيدة التى تمثل أرقى ما وصل إليه العقل من تجريد وتنزيه يليقان بالمبدأ الأول الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء، بعيدًا عن التجسيم والتشبيه والخلط بين ما هو إلهى وما هو إنسانى أو طبيعى.

ولم يترك الله ﷻ الإنسان فى الدنيا هَمِلًا، يتخبط فيها دون إرشاد باحثًا عن صفات ربه، يصيب تارة ويخيب تارة، بل لقد بث الله ﷻ صفاته فى معظم آيات كتابه المسطور (القرآن الكريم)، كما جعل الوجود كله (الكتاب المنظور) تجليات ملموسة لتلك الصفات. لذلك حَثَّنا الله ﷻ على أن نتدبر آيات القرآن الكريم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]. وحَثَّنا

كذلك أن نتدبر آيات الوجود ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... (٥٣) ﴾ [فصلت].

وقد تفرد الإسلام على جميع الديانات السابقة باطلاع الإنسان بصراحة ووضوح على ما لله من أسماء حسنى وصفات عُلى، تجمع بين الجمال والجلال والكمال. وقد بذل علماء العقيدة جهودًا هائلة لتعريفنا بمعانى هذه الأسماء والصفات، ووصفوا لها تقسيمات عديدة تبعًا لدلالاتها، تُمَكِّن كل «باحث» وكل «عابد» وكل «متأمل» من الاقتراب من الله ﷻ بقدر حاجته وبقدر طاقته.

اللهم «... أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك...» وأن تقربنا من العلم بك،

سبحانك، وتعاليت عما يصفون



الباب الثاني

الألوهية

تتجلى في الخلق

لا شك أن «**عملية الخلق**» التى هى «**الإيجاد الأول**» تحتاج إلى قدرات هائلة، مما جعلها من أهم البراهين على الوجود الإلهى، ومن أهمِ الظواهر التى تتجلى فيها صفات الإله. وتقوم بدراسة عملية الخلق مجموعة من العلوم أطلق عليها العلم الحديث اسم «**علوم البدايات**».

وفى هذا الباب، نطرح ثلاثة مستويات من الخلق، نبدأها بخلق الكون فى العدم المطلق، ثم خلق الحياة التى كانت ضيفًا جديدًا تمامًا على الوجود غير الحى، مثلما كان الكون ضيفًا جديدًا على العدم. ثم نعرض فصلًا عن خلق العقل البشرى، الذى به أصبح الوجود واعيًا بنفسه، ولولاه لظل الوجود مجهولًا وفى ظلام كالعدم! وتكشف لنا دراسة العقل البشرى سمات السلوك الإنسانى التى يتمتع بها هذا الكائن المتفرد، لذلك نفرد فصلًا أخيرًا فى الباب لعرض بعض الصفات الإلهية التى تشير إليها هذه السمات.

وستكون لنا فى الفصول الأربعة القادمة وقفات تأملية، نطالع فيها ما فى مستويات الخلق هذه من دلالة على **الصفات التى ينبغى أن تتوافر فى** «**السبب الأول**» الذى قام بها. كما سنقارن ما كشفه العلم من هذه الصفات بما أطلعنا عليه القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة من صفات الإله الخالق، وبذلك نضع أيدينا على **كيف ينظر العلم إلى الإله**، ومن ثم كيف أن «**الوجود رسالة توحيد**»، وهو موضوع كتابنا هذا.

الفصل الثالث

الألوهية وخلق الكون

- كون حادث، نشأ فى عدم مطلق
- قصة خلق الكون
  - للكون بداية - أينشتين ومشكلة قِدَم الكون - من الشك إلى اليقين
- الانفجار الكونى الأعظم
  - التطوير الذكى للكون - حجية نظرية الانفجار الكونى الأعظم - فوق طاقة العلم
- السمات المعرفية لنشأة الكون
- من الكون إلى المُكَون
  - البرهان الكونى
  - برهان الضبط الدقيق
    - البنية المستقرة للكون
    - كون منضبط قابل للفهم وللتنبؤ
  - المبدأ البشرى
    - كوكبنا المتميز
- نشأة الكون فى القرآن الكريم
- صفات الألوهية وخلق الكون
  - كيف رأى سير أنتونى فلو خالق الكون
  - الله ﷻ؛ الخالق (بدأ الكون من عدم على غير مثال سابق)
  - الله ﷻ؛ الخالق - البارئ - المصور (تقدير، فإنشاء، فكمال)
  - الله ﷻ؛ الموجد، الهادى، القيوم، الحفيظ (إيجاد، فتشغيل، فمتابعة، فحفظ)
    - مع القرآن الكريم - ثبات قوانين الطبيعة
  - الله ﷻ، الحكيم
    - الحكمة تتجلى فى «تطوير الكون تبعًا لتقدير مسبق»
    - الحكمة تتجلى فى الغائية
    - الحكمة تتجلى فى الدقة والذكاء
    - الحكمة تتجلى فى الانضباط والقابلية للتنبؤ
  - الله ﷻ؛ البديع، المبدى المعيد (وجود يقوم على الخلق والإعادة)
  - الله ﷻ؛ القابض الباسط (وجود يقوم على القبض والبسط)
- القارئ الكريم

كون حادث

نشأ فى عدم مطلق

كان الثلاثة الكبار من فلاسفة اليونان القديم (سقراط، وأفلاطون، وأرسطو)[1] من المؤمنين بوجود الإله مُنشئ الكون. ولما كان العقل الفلسفى فى ذلك الحين (وحتى الآن عند الكثيرين من الفلاسفة) عاجزًا عن تصور إمكانية «الخلق من عدم»، فقد لجأ أرسطو إلى القول بـ«موجود ليس كالمادة» (لم يتشكل ولم يكتسب أية صفات) وأسماه «الهيولا Heola» (أصل الوجود)، واعتبر أن هذا الهيولا قديم أزلى، شَكَّلَ الإلهُ منه الكون، ولم يبين أرسطو كيف وُجد هذا الهيولا الأزلى!

ثم كان الفيلسوف السكندرى جون فيلوبونس[2] أول من قال فى القرن السادس الميلادى إن الكون حادِث (له بداية) وساق على ذلك البراهين الفلسفية.

وقد وَجَدَت التساؤلات التى حيرت الفلاسفة حول نشأة الكون أجوبتها ببساطة ووضوح فى «الوحى الإلهى»، بعد أن تكفل الله ﷻ ببيان أمور الغيب للإنسان، فأخبرنا أن للكون بداية، وأنه خلقه من عدم ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران]، فالخلق هو الإيجاد من عدم على غير مثال سابق، كذلك قال رسول الله ﷺ: كان الله ولم يكن شىء غيره[3].

(١) سقراط: ٤٧٠ق.م - ٣٩٩ ق.م.
أفلاطون: ٤٢٨ ق.م. - ٣٤٧ ق.م.
أرسطو: ٣٨٤ ق.م. - ٣٢٢ ق.م.

(٢) John philoponus:(٤٩٠ - ٥٧٠م)، فيلسوف يُعرف باسم يوحنا السكندرى، اهتم بالتعليق على كتابات أرسطو، وألف العديد من الكتب فى اللاهوت.

(٣) رواه البخارى.

وفى المقابل، تبنى الملاحدة عبر التاريخ تصورات متعددة تركز على أزلية الكون (قديم لا بداية له)، ومن ثم تُسقط الحاجة إلى إله خالق.

وتمر الأيام ويدلى العلم بدلوه ـ بجوار الفلسفة والدين ـ فى قضية نشأة الكون، فيقدم الأدلة القاطعة على أن الكون حادث (له بداية) وأنه نشأ فى عدم مطلق.

قصة خلق الكون

للكون بداية

لإثبات أن للكـون بداية، استند الإمام أبو حامد الغزالى فى إطار علم الكلام الإسلامى(١) إلى دليل الفلسفة والرياضيات، الذى يؤكد أن «من المستحيل أن يكون هناك قِدَم لا نهائى، أى أن الماضى لا بد أن تكون له بداية»(٢).

أينشتين ومشكلة قِدَم الكون...

وبالرغم من البرهان الفلسفى الرياضى الذى يرجع إلى ألف عام مضت على أن للكون بداية، ظل العلماء منذ الثورة العلمية ينظرون إلى الكون باعتباره قديمًا أزليًا (لا بداية له)! وحتى الثلث الأول من القرن العشرين كانت هناك عدة فرضيات تُـرَوِّج لأن الكون كان هناك دائمًا Steady State Universe، دون أية أدلة علمية.

وعندما وضع أينشتين نظرية النسبية العامة عام ١٩١٥، أظهرت حساباته أن الكون إما يتمدد أو ينكمش، مما يعنى أنه لا يمكن أن يكون أزليًا، ولا بد أن تكون له بداية(٣). وللخروج من ذلك المأزق، وضع أينشتين فى معـادلاته ثابتًا أسـماه «الثابت الكونى Fudge constant»

(١) يخبرنا «وليم لين كريج» أستاذ فلسفة الأديان بالولايات المتحدة، أن العلماء المسلمين (وعلى رأسهم الإمام أبو حامد الغزالى: ١٠٥٨ - ١١١١م) قد أصَّلوا قضية حدوث الكون واحتياجه لإله خالق بشكل واضح، وأطلقوا على العلم المختص بشرح العقيدة اسم علم الكلام (يقابل علم اللاهوت عند المسيحيين). وقـد احتفظ هـذا العلم باسمه العربى Science of Kalam بعد أن انتقل إلى الغرب عن طريق إسبانيا، ثم نال الشهرة هناك على يد الفيلسوف الألمانى «إيمانويل كانت» فى القرن الثامن عشر.

(٢) لتفاصيل الدليل الفلسفى الرياضى لأبى حامد الغزالى على أن للكون بداية راجع كتابنا «خرافة الإلحاد» ص ١٠٠، ١٠١ ـ مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٤ .

(٣) إذا كان الكون يتمدد وكان أزليًا لكان قد تبعثر، وإن رجعنا إلى الوراء لوصلنا إلى نقطة بداية لهذا التمدد. وإذا كان الكون ينكمش وكان أزليًا لكان قد انهار كُلِّيةً على نفسه.

ليتهرب به من تأثير الجاذبية! ليصبح حجم الكون ثابتًا ويصبح الكون أزليًّا، بما يتماشى مع الفهم الخطأ السائد.

ثم سمع أينشتين أن إدوين هابل[1]، قد توصل عام ١٩٢٩ إلى ظاهرة الإزاحة الحمراء للمجرات[2] Red Shift، والتى تعنى أن المجرات تتباعد وأن الكون يتمدد، مما يعنى أن له بداية. وعلى الفور زار أينشتين هابل فى مرصده فى كاليفورنيا وتأكد بنفسه من صدق ما سمعه، واعترف أن وضعه الثابت الكونى لتأكيد أزلية الكون يُعتبر أكبر خطأ علمى فى حياته.

من الشك إلى اليقين..

قبل انصرام القرن العشرين، أصبح علماء الكونيات يمتلكون أربعة أدلة قاطعة على أن للكون بداية، وهذه الأدلة هى:

أولا: أشرنا إلى ما أثبته هابل من أن المجرات تتباعد (ظاهرة الإزاحة الحمراء للمجرات)، أى أن الكون يتمدد. ولو عدنا بحساباتنا الرياضية للوراء، سنصل إلى اليوم الذى كانت فيه المسافة بين المجرات تساوى صفرًا، أى لحظة بداية الكون.

ثانيًا: من المفاهيم الأساسية فى «القانون الثانى للديناميكا الحرارية Second Law of Thermo - Dynamics» أن حرارة الكون تتناقص دائمًا من (وجود حرارى) حتى تصل إلى (عدم حرارى)، أى أن الكون يبرد (حرارته الآن ٣,٧ فوق الصفر المطلق). ولو كان الكون أزليًّا، أى قديمًا لا بداية له، لفقد حرارته كلها وفَنَى منذ زمن بعيد.

ثالثًا: عندما كان الفيزيائيان الأمريكيان فى معامل بل للتليفونات فى نيوجيرسى(آرنو بنزياس، وروبرت ويلسون) يختبران أحد المجسات الدقيقة والحساسة للموجات الميكروية Microwaves[3]، التقط المجس إشارات تشويش أكثر مما كان الباحثان يتوقعان، وظل التشويش ثابتًا ليلًا ونهارًا وعلى مدار السنة، على الرغم من دوران الأرض حول محورها وحول الشمس. كما وجد الباحثان أن التشويش يأتى من كل صوب وبالشدة نفسها، سواء من داخل مجموعتنا الشمسية أو من أماكن أخرى من مجرتنا

---

(١) Edwin Hubble: أمريكى (١٨٨٩-١٩٥٣م)، أحد أشهر علماء الفلك فى القرن العشرين، صاحب الفضل فى الاهتمام بالمجرات الأخرى غير مجرتنا.

(٢) ظاهرة الإزاحة الحمراء: إذا تحرك مصدر ضوئى بعيدًا عن الراصد فإن ألوان طيف الضوء الصادر منه يعتريها زيادة فى اللون الأحمر. وقد لاحظ هابل هذه الزيادة فى الضوء الصادر من المجرات، فأدرك أن المجرات تتباعد عنا، واستنتج أن الكون يتمدد.

(٣) فرن الميكروويف الذى نستخدمه فى طهى الطعام تشبه موجاته موجات الضوء تمامًا، إلا أن أطوالها أطول كثيرًا وتصل إلى نحو سنتيمتر واحد.

أو من خارج المجرة. لقد برهن ثبات التشويش على أن الكون متماثل فى جميع الاتجاهات، مما يعنى أنه قد نشأ بحدث هائل واحد[1].

رابعًا: تتشكل العناصر الثقيلة (كالحديد والنحاس والذهب) عن طريق اندماج العناصر الخفيفة، وقد توافرت الحرارة العالية المطلوبة لتحقيق هذا الاندماج فى النجوم المستعرات Supernova. أما العناصر الخفيفة (الهيدروجين والهيليوم) التى تتشكل من الجسيمات تحت الذرية فتحتاج إلى درجات حرارة أعلى كثيرًا، ولما كانت هذه العناصر موزعة بشكلٍ متساوٍ فى مختلف أرجاء الكون فذلك يعنى وجود هذه الحرارة الهائلة فى جميع هذه الأرجاء، أى أن الكون نشأ بحادث واحد مهول مُنتج للحرارة وليس بأحداث متكررة متشابهة فى أماكن مختلفة، وهذا الحادث لا يكون إلا الانفجار الكونى الأعظم.

هكذا أجاب العلم على القضية الفلسفية المعقدة حول «هل الكون قديم أم حادث ؟»، فقال كلمته ـ التى اتفقت مع كلمة الدين ـ بأن الكون حادث، وقد أصبح هذا المفهوم بمثابة حقيقة وبديهة علمية.

وانتقلت القضية إلى السؤال التالى: كيف بدأت نشأة الكون ؟

الانفجار الكونى الأعظم[2] The Big Bang

تُعتبر نظرية الانفجار الكونى الأعظم أكثر النظريات ثبوتًا بخصوص نشأة الكون، ويشرح ستيفن هوكنج[3] سيناريو خلق الكون بالانفجار الأعظم[4]، فيقول:

(١) **ما هو مصدر هذا التشويش الكونى الثابت؟:** لقد كان الكون المبكر ساخنًا للغاية ومتوهجًا إلى درجة البياض نتيجة للانفجار الهائل الذى بدأت به نشأة الكون، وكان ينبغى أن يصلنا هذا التوهج (ضوء) من جميع أجزاء الكون. ولما كان الكون يتمدد، فإن الضوء اعترته إزاحة حمراء كبيرة، حتى وصل إلينا على هيئة أشعة ميكروية (التشويش) بدلًا من الضوء المرئى. إنه دليل «عملى» هائل لا يُدحض على أن الكون متماثل ويتمدد ويبرد. فاستحق عليه صاحباه جائزة نوبل عام ١٩٧٨.

(٢) الترجمة الحرفية هى «الانفجار العظيم»، ونرى أن «الانفجار الأعظم» أكثر تعبيرًا عن المراد.

(٣) Stephen Hawking: عالم الفيزياء النظرية والرياضيات التطبيقية البريطانى، شغل كرسى أستاذ الرياضيات الذى كان يشغله إسحق نيوتن بجامعة كمبريدج، وُلد عام ١٩٤٢. وهو مشهور بأبحاثه فى الكون وخاصة الثقوب السوداء. اهتم بتبسيط العلوم للعامة، وقد صار كتابه «تاريخ موجز للزمن» أكثر الكتب العلمية مبيعًا فى التاريخ، فقد بيع منه نسخة لكل ٥٠٠ إنسان على سطح الأرض. وقد أصيب فى بداية شبابه بمرض Amyotrophic lateral Sclerosis الذى أدى إلى شلل تام شمل عضلات العنق والرأس، وهو يتعامل مع المحيطين من خلال أجهزة يوجهها بحركات عينيه وشفتيه!! إذ أفقده المرض القدرة على الحركة والكلام.

(٤) فى كتابيه «تاريخ موجز للزمن A Brief History of Time» عام ١٩٨٨ و«تاريخ أكثر إيجازًا للزمن A Briefer History of Time» عام ٢٠٠٥.

فى لحظة ما من الماضى (منذ نحو ١٣,٧ بليون سنة ± ٢٠٠مليون سنة) كان الكون (تبعًا للحسابات الرياضية) محصورًا فى نقطة حجمها صفر! أطلق عليها العلماء اسم «المفردة Singularity»، ثم اعتراها ما نطلق عليه «**الانفجار الأعظم The Big Bang**»، وهذه كانت البداية.

أما ماذا كان قبل الانفجار الكونى الأعظم، فيجيب ستيفن هوكنج بقوله: **إذا كنا نعلم** بعض ما حدث منذ الانفجار الأعظم (وتزداد معرفتنا مع تقدم العلم)، فإننا لا نستطيع تحديد ما كان قبل ذلك. **إن ظروف ما قبل الانفجار الأعظم لا يجب أن تشكل أى جزء من تصورنا العلمى للكون**. علينا أن نكتفى بأن نقول إن الانفجار الأعظم هو بداية الزمن، ويعنى ذلك أن الأسئلة التى تدور حول كيف تهيأت الظروف لهذا الانفجار **ليست بالأسئلة التى يتناولها العلم**[١].

وبالرغم من وجود العديد من **الثغرات والتساؤلات التى لم تُجَب** (حتى الآن) حول كيف نشأ الكون من هذه المُفردة، وبالرغم من أن الجديد الذى يكتشفه العلم كل يوم يُغَيِّر من التفاصيل، **وقد يغير من نظرية الانفجار الأعظم ذاتها ويطرح بديلًا عنها**، فإن هناك **أربع حقائق أساسية** لا تتغير فى سيناريو نشأة الكون؛ **لقد اعترى الكون الوليد**:

- **تَمَدُّد** Expansion
- **تَبَـرُّد** Cooling
- **تكثف** Condensation
- **تطور** Evolution: طاقة ← جسيمات تحت ذرية ← تكوين الذرات.

التطوير الذكى للكون[٢]..

نوجز هنا **قصة خلق الكون كما يطرحها العلم الحديث**، والتى تُظهر **ملامح التطور فى الخلق**، كما تُظهر بجلاء **ما يتسم به هذا السيناريو من ذكاء وقصد**:

(١) بالرغم من هذا القول لستيفن هوكنج، فإنه (وغيره من العلماء) قد غرقوا لآذانهم فى محاولة التوصل لما قبل الانفجار الأعظم، وطرحوا عددًا من الفرضيات التى لا تفسر شيئًا؛ كنظرية الكون الأم، والمفردة التى تنشأ تلقائيًا فى العدم.

(٢) بتصرف عن كتاب «موجز تاريخ الكون من الانفجار الأعظم إلى الاستنساخ البشرى» للأستاذ الدكتور هانى رزق.

فى اللحظة صفر، التى ترجع إلى ١٣,٧ مليار عام تقريبًا، وُجدت «المفردة Singularity» التى بدأ بها الانفجار الكونى الأعظم. وقد أخذت المفردة شكل نقطة ذات صفات تعجز قوانين الفيزياء، التى تحكم الكون الآن، أن تفسر وجودها: لا نهائية الصغر، لا نهائية السخونة، لا نهائية الكثافة، وقد توحدت فيها قوى الطبيعة الأربع فى قوة واحدة(١).

وفور حدوث الانفجار الكونى الأعظم (لحظة الخلق) تَمَدد الكون الوليد بسرعة تفوق سرعة الضوء مليار مليار مرة، وقد كانت هذه السرعة مضبوطة بإحكام (سرعة حرجة) بحيث لا تؤدى إلى تبعثر مكونات الكون، كما لا تؤدى إلى انهياره على نفسه.

ثم تشكلت الجسيمات الأولية للمادة (الكواركات(٢) والإلكترونات(٣)) من الطاقة، نتيجة لتَبَرُّد الكون الوليد. وخلال أجزاء من الثانية غاية فى الضآلة تشكلت من الكواركات البروتونات(٤) والنيوترونات(٥)، التى شكلت بعد ذلك نويات ذرات الهيدروجين الثقيل والهيليوم. ثم أَسَرَت هذه النويات الإلكترونات فى مدارات حولها لتشكل الذرات.

لم يكن للخطوات السابقة أن تحدث دون ولادة قوى الطبيعة الأربع التى وجهت عملية الخلق؛ فبعد وقوع الانفجار الكونى الأعظم والانخفاض المتوالى فى درجة حرارة الكون الوليد وُلدت (قوة الجاذبية)، التى حالت دون تبعثر نواتج الانفجار. ثم هبطت درجة حرارة الكون إلى مستوى سمح بميلاد (القوة النووية الشديدة) فترابطت الكواركات ببعضها مُكونة البروتونات والنيوترونات، كما ربطت تلك القوة هذه الجسيمات لتُكَوِّن نويات ذرات الهيدروجين الثقيل والهيليوم. وعندما هبطت درجة حرارة الكون إلى مستوى سمح بميلاد (القوة الكهرومغناطيسية) قامت هذه القوة بأسر الإلكترونات حول النويات لتُشكل الذرات الخفيفة، ووُلدت معها (القوة النووية الضعيفة)، ثم انشطرت القوتان الأخيرتان مع المزيد من هبوط درجة حرارة الكون.

لقد انتشرت مادة الكون انتشارًا متجانسًا فى أرجاء الكون، ولأسباب لم يجد لها العلم تفسيرًا

---

(١) هذه القوى هى: قوة الجاذبية، القوة النووية القوية، القوة النووية الضعيفة، القوة الكهرومغناطيسية. وسيأتى الحديث عنها بعد قليل.

(٢) جسيمات تحت ذرية، تختلف طبيعتها تبعًا لشحنتها ولونها وكتلتها ورائحتها!

(٣) جسيمات تحت ذرية، سالبة الشحنة تتخذ مدارات حول نواة الذرة.

(٤) جسيم موجب الشحنة يقع فى نواة الذرة ويتكون من ثلاثة كواركات.

(٥) جسيم متعادل الشحنة يقع فى نواة الذرة ويتكون من ثلاثة كواركات.

حتى الآن تكونت هنا وهناك جُزر صغيرة تزيد كثافة المادة فيها عن باقى نواحى الكون بفارق ضئيل جدًّا (جزء من مائة ألف جزء)، وقد شكلت هذه الجزر بذور مجرات المستقبل.

داخل هذه المجرات، نشأ الجيل الأول من النجوم، وتمت فيه اندماجات نووية متسلسلة سمحت بتكوين العديد من العناصر الكيميائية، وقد انتثرت هذه العناصر فى الكون عندما انفجرت بعض هذه النجوم (السوبرنوفا). لذلك اشتملت نجوم وكواكب الجيل الثانى والثالث، ومنها شمسنا وأرضنا، على العديد من العناصر الثقيلة.

وبذلك تطور الخلق: المفردة ← الطاقة ← المادة (كواركات وإلكترونات) ← نويات الذرات ← ذرات الهيدروجين والهيدروجين الثقيل (ديتريوم) والهيليوم ← نشأة المجرات ← نشأة الجيل الأول من النجوم ← تكون عناصر الجدول الدورى ← نشأة الجيل الثانى والثالث من النجوم ← مولد المجموعة الشمسية ← استقرار كوكب الأرض.

لقد كان اتساع الكون الهائل أمرً حتميًّا لنشأة العناصر الثقيلة التى يتكون منها كوكب الأرض، بالإضافة إلى نشأة عناصر الحياة (الكربون، الأوكسجين، النيتروجين)، إذ تكونت هذه العناصر فى الأفران النووية الهائلة التى ينبغى أن تكون متباعدة جدًّا جدًّا والمعروفة بنجوم السوبرنوفا. معنى هذا أن أجسامنا تتكون من غبار كونى تم طهيه منذ بلايين السنين فى أحد هذه المستعرات. فهل تم خلق الكون بهذا الاتساع الهائل ليكون معملًا لإنتاج عناصر الأرض، ومطبخًا لطهى عناصر الحياة؟!!

حُجية نظرية الانفجار الأعظم

هناك شبه اتفاق بين علماء الكونيات على صحة هذه النظرية، مع اختلاف فى التفاصيل. فبالإضافة إلى البراهين الفيزيائية الأربعة التى ذكرناها على أن للكون بداية، فإن كل أحداث الانفجار الكونى الأعظم التى طرحها العلماء يمكن الاستدلال على حدوثها فى الكون، كما يمكن ملاحظة وقوع انفجارات صغرى مشابهة حتى الآن، بل ويُمكن الحصول على بعض هـذه الأحـداث تجريبيًّا[1]، مثل:

(١) يُعتبر مشروع CERN أكبر مشروع فى العالم لدراسة فيزياء الجسيمات تحت الذرية. ويعرف باسم «الهيئة الأوروبية للدراسات النووية European Organization for Nuclear Research» ويقع على الحدود الفرنسية - السويسرية. ويحتوى المشروع على ستة مُسَرِّعَات للجسيمات تحت الذرية يبلغ مجموع أطوالها ٢٧ كيلو مترًا ويقع على عمق ١٠٠ متر تحت سطح الأرض. وقد أُسس المشروع عام ١٩٥٤، ويعمل به ٢٦٠٠ موظف بشكل دائم، بالإضافة إلى ٧٩٣١ عالمًا ومهندسًا ينتمون إلى ٥٨٠ جامعة تمثل ٨٠ دولة من دول العالم من بينها مصر.

- اندماج المادة ومضادات المادة.

- تكوين نويات مستقرة لبعض الذرات.

- أسر الإلكترونات حول النويات لتكوين ذرات الهيدروجين والديتريوم والهيليوم.

إن الفترة الوحيدة التى لا نستطيع محاكاتها، أو معرفة ماذا حدث فيها بدقة هى أول $\frac{1}{10^{43}}$ من الثانية من عمر الكون الوليد[1] !! ويرجع ذلك إلى أن الانفجار الكونى الأعظم حدث حيث لم يكن هناك مكان ولا زمان ولا مادة ولا طاقة، وهو وضع لا يمكن محاكاته الآن.

فوق طاقة العلم

تَبَدَّت عند حدوث الانفجار الأعظم - أى بداية خلق الكون -خمسة معالم خارقة لا تخضع للقوانين الفيزيائية السائدة الآن، ولا يمكن للعلم وحده أن يفسرها:

١ - صِغَر النقطة التى بدأ بها الانفجار «المُفردة Singularity»، وهى أصغر من طول بلانك[2]. ووفقًا لقوانين الفيزياء يستحيل وجود المُفردة بهذا الطول اللا متناهى فى الصغر.

٢- كانت المفردة لا نهائية الكثافة (تحوى كتلة الكون الحالى كله فى نقطة أصغر من طول بلانك). وهى بلا شك تفوق أعلى كثافة عُرِفت فى الكون حتى الآن، وهى كثافة النجم النيترونى.

٣- حدث الانفجار الأعظم عند درجة حرارة تجاوزت درجة حرارة بلانك[3]، تصل إلى عشرة مليار مليار مليار (10^{37}) درجة مطلقة (كلفن)[4].

٤ - تجاوزت سرعة تمدد الكون الوليد سرعة الضوء بمقدار مليار مليار مرة.

---

(١) مقام هذا الكسر يعنى (واحد) أمامه (٤٣) صفرًا، وهذا الوقت يُعرف بزمن بلانك Planck Time الذى يمثل أدنى فترة (نظريًا) يمكن أن يقع فيه حدث. إذ إنه يمثل الزمن الذى يمكن أن يقطع فيه الضوء (أسرع الموجودات) أقصر طول ممكن نظريًا، والذى يُعرف بطول بلانك.

(٢) طول بلانك: أصغر طول يمكن نظريًا أن توجد عليه المادة، وإلا تحولت إلى ثقب أسود يبتلع كل شىء يقترب منه حتى الضوء، ويساوى 10^{-33} سم.

(٣) حرارة بلانك: درجة الحرارة التى لا يمكن تجاوزها فيزيائيًا (10^{32} درجة مطلقة). ويُنسب طول بلانك وحرارة بلانك إلى عملاق الفيزياء الألمانى ماكس بلانك مؤسس نظرية الكم؛ ولد عام ١٨٥٨ وحصل على جائزة نوبل عام ١٩١٨ وتوفى عام ١٩٤٧.

(٤) الصفر المطلق (كلفن): يقل عن الصفر المئوى بمقدار ٢٧٣ درجة مئوية.

٥- كانت القوى الطبيعية الأربع متوحدة فى قوة واحدة داخل المفردة اللامتناهية الصغر. وقد أثبتت الحسابات الرياضية أن الحصول على طاقة تُوَحِّد هذه القوى فى قوة واحدة يقتضى بناء مُسَرِّع Accelerator يعادل حجم المجموعة الشمسية، فكيف توحدت القوى الأربع فى المُفردة ؟!.

إذا كان العلم عاجزًا عن تفسير هذه المعالم الخارقة، فهل لها من تفسير؟

السمات المعرفية لنشأة الكون

يشير السيناريو السابق لنشأة الكون بشكل جازم إلى عدد من «السمات المعرفية» ذات العلاقة بموضوع الكتاب (الوجود رسالة توحيد):

أولًا: بدأت نشأة الكون فى «العدم المطلق Absolute Nothingness»:

لا مكان ـ لا زمان ـ لا مادة ـ لا طاقة.

ثانيًا: بدأت نشأة الكون بخمس ظواهر خارقة للقوانين الفيزيائية المعروفة الآن[١].

ثالثًا: سار الكون:

ـ من حالة اللاانتظام المطلق[٢] وما يصاحبها من فقدان وتوزيع سيئ للطاقة، إلى حالة الانتظام والاستغلال الأفضل للطاقة (بناء المادة بدلًا من فقدان الطاقة كطاقة حرارية).

ـ ومن البنية الأبسط قليلة الفائدة، إلى البنية الأعقد المناسبة لغاية لاحقة.

ـ ومن المادة ذات الوظيفة الأقل أداءً وكفاءة، إلى وظيفة أفضل أداءً وكفاءة.

ولما كان القانون الثانى للديناميكا الحرارية يحدد أن اللاانتظام فى منظومة ما (System) يتجه إلى المزيد من التبعثر والفوضى وفقدان الطاقة ما لم ينظمه مؤثر خارجى، فإن الاتجاه إلى الأكثر انتظامًا والأعقد بنية والأكفأ أداءً ووظيفة يحتاج بشكل حتمى إلى «تدخل ذكى فعال من خارج المنظومة، لا دور للمصادفة فيه»، إذ إن المصادفة غير مرسومة المسار تطرح ملايين الاحتمالات التى لا يمكن التغلب على ما فى المنظومة من تبعثر وفوضى.

(١) ذكرناها منذ قليل.

(٢) يتم وصفها باصطلاحات «الشَوَش Chaos»، و«التبعثر Entropy».

لقد أدرك المنصفون أن ما أنشأ الكون لم يكن انفجارًا أعظم! فالانفجار حدثٌ غيرَ منضبط بالمرة تسوده الفوضى، أما ما حدث فشىء مغاير تمامًا يستحق أن نطلق عليه **«التخطيط الأعظم»**! الذى لا يقدر عليه إلا إله قوى حكيم عليم قدير.

مِن الكون إلى المُكَوِّن

تقربنا نشأة الكون التى ناقشناها سابقًا وما تعكسه من سمات معرفية من إدراك وجود إله خالق لهذا الكون، وذلك من خلال ثلاثة مفاهيم:

- البرهان الكونى Cosmic Argument
- برهان الضبط الدقيق Fine - Tunning Argument
- المبدأ البشرى Anthropic Principle

البرهان الكونى Cosmic Argument

«تدل نشأة الكون من عدم على وجود الإله الخالق»

تتصدى نظرية الانفجار الأعظم للإجابة عن التساؤلات حول «**الحادثة الأولى** First Event» فى نشأة الكون، لكنها لا تتعامل مع «**السبب الأول First Cause**»، ولا شك أن هناك فرقًا. لذلك بعد أن **عجز علماء الكون عن طرح أى تفسير مادى تلقائى معقول لنشأة الكون**، استحضر العديد من الفلاسفة والعلماء المعاصرين ما يُعرف بـ«**برهان الإيجاد أو برهان الخلق**» من علم الكلام، وأطلقوا عليه «**البرهان الكونى**»، الذى أصبح من أكثر البراهين (العلمية/المنطقـية) دلالة على وجود إله خـالق للكون. ويتكون هذا البرهان من مقدمتين واستنتاج:

أ) كل موجود له بداية، لا بد له من مصدر سابق عليه (موجِد).

ب) الكون له بداية.

إذًا: الكون له مصدر سابق عليه (موجِد).

وإذا كان هذا **البرهان** على وجود الإله الخالق قد بدأ **كبرهان فلسفى** عند علماء الكلام

المسلمين، فإن العلم الحديث قد أضاف إليه من الأدلة العلمية (أثبت أن للكون بداية) ما قفز به إلى مصاف الحقائق العلمية التى تخضع للتمحيص العلمى[1].

برهان الضبط الدقيق The Fine Tunning Argument

«تدل دقة بنية الكون وقوانينه على وجود الإله الخالق»

البنية المستقرة للكون

فى كتاب «ستة أرقام فقط Just Six Numbers»، يحدد «البارون مارتن ريز[2] » (عالم الكونيات البريطانى الكبير) ستة ثوابت عددية مرتبطة بعدة **صفات فيزيائية كونية**، مسئولة عن نشأة وحفظ الكون ثم نشأة الحياة واستمراريتها فيه. ويوضح ريز **أن أدنى تَغَيُّر فى هذه القيم يجعل من المستحيل وجود الكون بصفاته الحالية**[3]. وقد أكد مارتن ريز **أن قيم هذه الثوابت الستة لا يتوقف بعضها على بعض**، ومن ثَمَّ لا يمكن الادعاء بأن وجود أحد هذه الثوابت بالصدفة قد أدى تلقائيًا إلى وجود الثوابت الأخرى بقيمها المناسبة.

وبالإضافة إلى الثوابت الستة التى طرحها ريز فى كتابه، طرح باحثون آخرون **عشرات الثوابت الفيزيائية الأخرى التى لولاها ما كانت نشأة الكون والحياة أمرًا ممكنًا**[4].

كون منضبط قابل للفهم وللتنبؤ

أَستشهدُ كثيرًا بقول لأينشتين أثير لَدَىَّ، ولا ينبغى أن تغيب دلالاته عنا:

---

(١) هناك محاولات عديدة لتفسير كيف أن لكوننا بداية دون الاحتياج لإله خالق. وقد ثبت خطأ هذه المحاولات جميعًا. راجع كتابى «كيف بدأ الخلق» ص ٧٦ - ٧٩. الناشر مكتبة الشروق الدولية - ٢٠١٤.

(٢) Martin Rees: عالم الفيزياء الفلكية البريطانى الشهير، ولد عام ١٩٤٢.

(٣) هذه القيم هى:

١ - المعدل الحرج لتمدد الكون
٢ - كثافة مادة الكون
٣ - قوة الجاذبية بين أجرام الكون
٤ - الطاقة المتاحة للربط بين نويات ذرة الهيليوم فى الكون
٥ - النسبة بين مقدار الروابط الكهربائية وقوى الجاذبية فى جزيئات الكون
٦ - بنية الكون ثلاثية الأبعاد

(٤) من هذه الثوابت: النسبة بين جسيمات المادة ومضادات المادة - شحنة وكتلة الإلكترونات والبروتونات - سرعة الضوء - ثابت بلانك - الصفر الحرارى المطلق....

«إن أكثر الأمور استعصاء على الفهم فى الكون، أنه قابل للفهم Conprehensible»[1]، ويعلق أينشتين على هذه «القابلية» قائلًا: «قد تندهش أننى أعتبر قابلية الكون للفهم بمثابة المعجزة Miracle الغامضة أبدًا. ذلك أن كونًا فوضويًا لا يمكن إدراك أحداثه أو مساره هو النتيجة البديهية التى ينبغى أن تتبع الانفجار الكونى الأعظم. فالنظام والقابلية للفهم والتنبؤ الذى تظهره نظرية الجاذبية لنيوتن - مثلًا - شىء مبهر تمامًا، ولا يمكن توقعه من سيناريو بداية نشأة الكون، إنها معجزة تتأكد لنا يومًا بعد يوم مع تقدم العلم والمعرفة».

ويضيف بول ديفيز[2] إلى هذا المفهوم قائلًا: «إن الأكثر إعجازًا أن قابلية الكون للفهم تخضع بدقة شديدة لعلاقات رياضية». ولا شك أن البعض سيقولون إن قوانين الطبيعة منضبطة رياضيًا لأننا ببساطة لا نعتبر مفهومًا ما قانونًا طبيعيًا إلا إذا كان منضبطًا رياضيًا. ولهؤلاء نقول: إن الكثير من هذه القوانين والنظريات (كالنظرية النسبية) تم التوصل إليه بالحسابات الرياضية الدقيقة قبل ملاحظتها فى عالم الواقع، ثم اكتشفنا أن الواقع يتطابق مع حساباتنا، إذًا فالعلماء لم يختاروا ما هو منضبط فى الواقع ليجعلوا منه قانونًا أو نظرية، وهذا يُسقط حجتكم تمامًا.

ويتأمل الفيزيائى العظيم سير روجر بنروز[3] مصدر العلاقة بين الفيزياء والرياضيات قائلًا: «لا أستطيع أن أقتنع أن هذه النظريات الرائعة نشأت نتيجة لعملية انتقاء طبيعى تلقائى Natural Selection للأفكار الأنسب من بين عديد من الأفكار، ذلك أن الأفكار الأنسب هى أنسب جدًّا! The Good Ideas are Too good بحيث لا يمكن نسبتها إلى التلقائية، ولا بد أن يكون هناك عقل شديد الذكاء يربط بين الرياضيات والفيزياء، ويُمَكِّنُنا من أن نفهم عالم الفيزياء رياضيًا، حتى صار انضباط الكون من بديهيات العلم الأولية التى لا يُبحث لها عن تفسير، إنه نوع من الإيمان يمارسه العلماء».

ويؤكد المعنى نفسه الفيزيائى الكبير الحائز على جائزة نوبل يوجين وينجر[4] قائلًا: «إن اتباع العالِمَ الفيزيائى للرياضيات بدقة أمر مدهش، يُعجِز عن التفسير، ولا ينبغى إطلاقًا نسبته إلى الصدفة، وعلينا أن نتقبله كقضية إيمانية دينية.

(١) The most incomprehensible thing in the universe in that it is comprehensible

(٢) Paul Davies: عالم بريطانى، ولد عام ١٩٤٦. أستاذ الفيزياء بجامعة أريزونا، وعمل قبلها أستاذًا بجامعات كمبريدج - لندن - نيوكاسل.

(٣) Sir Roger Penrose: أستاذ الفيزياء الرياضية البريطانى بجامعة أكسفورد، ولد عام ١٩٣١.

(٤) Eugene Winger: (١٩٠٢ - ١٩٩٥م) عالم الفيزياء والرياضيات المجرىّ الأمريكى.

ويقول آلان سانداج[1]، أبو الفلك الحديث: «أرى أنه غير محتمل بالمرة أن يكون نظام الكون نشأ تلقائيًّا من الفوضى، لا بد من منظم. وإذا كان الإله بالنسبة لى غامضًا، فإنه التفسير الوحيد لَدَىَّ لهذا النظام، وأيضًا للإجابة عن سؤال لماذا انقطع العدم وبزغ الوجود.

المبدأ البشرى Anthropic principle

«لقد تم بناء الكون على هيئة تجعله ملائمًا تمامًا لنشأة الحياة وظهور الإنسان»

يؤكد الفيزيائيون المؤمنون أن ما فى بنية الكون من توافق مذهل مع متطلبات نشأة الحياة ثم مع احتياجات الإنسان دليل على «الغائية Teleology»، التى تعنى أن **الإله الخالق قد صمم الكون على هذه الهيئة ليكون مناسبًا لنشأة الحياة بصفة عامة، وظهور الإنسان بصفة خاصة. ويُعرف هذا المفهوم بـ «المبدأ البشرىّ Anthropic Principle[2]»**.

وقد عَبَّر العلماء المؤمنون عن المبدأ البشرى بصياغات دالة، فقالوا: «**كيف يستطيع كون خالٍ من الغائية أن يخلق إنسانًا تحركه الغائية والأهداف[3]**».

وقالوا: «**يبـدو أن الكون قد تم تفصيله على مقاس الإنسان** Tailor – made for man[4]».

وقالوا: «**يبدو أن الكون كان يعلم أننا قادمون[5]**».

وكلما ازدادت معارفنا عن نشأة الكون وبنيته، تَكَشَّف لنا بشكل أكبر مدى مواءمة هذه النشأة والبنية ومواءمة قوانين الكون الفيزيائية لبزوغ الحياة وظهور الإنسان. حتى يمكننا القول **إنه إذا لم يكن الإنسان فى المركز المادى للكون، فإنه بلا شك فى المركز الغائى منه[6]**.

(١) Allan Sandage: (١٩٢٦ - ٢٠١٠م) عالم الفلك الأمريكى، مكتشف النجوم النابضة Quasars، والحائز على جائزة Crafoord Prize فى الفلك، المقابلة لجائزة نوبل.

(٢) أول من استخدم هذا الاصطلاح هو «براندون كارتر Brandon Carter»، عالم الفيزياء البريطانى فى جامعة كمبردج - عام ١٩٧٣.

(٣) سير جون تيمبلتون Sir John Templeton (١٩١٢- ٢٠٠٨م)، البليونير الإنجليزى، من كبار رجال المال والأعمال، أنشأ مؤسسة وجائزة تيمبلتون (تزيد على قيمة جائزة نوبل) لتشجيع الأبحاث التى تهتم بالجوانب الروحية للإنسان. كما أسس كلية تيمبلتون فى جامعة أكسفورد.

(٤) جاء ذلك فى كتاب «مادة الكون The stuff of the universe». تأليف عالِمىّ الفيزياء الكبيرين جـون جـريبن John Gribbin، ومارتـن ريـز Martin Rees.

(٥) عالم الفيزياء فريمان ديسون Freeman Dyson .

(٦) عن كتاب The New story of science. تأليف «روبرت آجروس Robert Augros»، و«جورج ستانكيم George Stancium».

كوكبنا المتميز

إذا كان الكون قد تم إعداده لنشأة الحياة وظهور الإنسان، فمن باب أولى أن «كوكب الأرض» تم أيضًا إعداده بشكل خاص ليكون محلًا لظاهرة الحياة ومأوى للإنسان. وإذا كان من العلماء من يساوى بين الأرض وبين ملايين وربما مليارات الكواكب فى الكون، ومن ثم يتنبأ بإمكانية وجود حياة عاقلة فى العديد منها، فالكثير منهم يرون أن كوكب الأرض شديد التميز والتفرد، سواء فى صفاته، أو فى جيرانه من الكواكب، أو تابعيته لنجم الشمس المتميز، أو فى وقوعه فى موقع متميز فى مجرة متميزة[١]. ويرى هؤلاء أن الأرض كوكب لا يكاد يوجد له مثيل فى الكون، فكان جديرًا بأن يتفرد بظاهرة الحياة[٢]، وحول هذا المعنى اقرأ معى هذه المقولات لبعض فطاحل علوم الكونيات:

«هناك كوكب واحد فى الكون يمكن أن يحتوى على الحياة الذكية، لعلكم تعرفون هذا الكوكب!» جون أوكيف[٣]، الأب الروحى لأبحاث الفضاء.

«إنه كوكب فريد، الكوكب الوحيد فى هذه المجرة، وربما فى الكون كله، الذى تعمره الحياة» بيتر ورد، ودونالد براونلى[٤]، الأستاذان بجامعة واشنطن - سياتل.

«ليس هناك موزارت آخر ولا بيتهوفن آخر» دون جونسون[٥]، مدير مركز دراسات أصل الإنسان بجامعة أريزونا.

وقد درس روبن كولنز[٦] تأثير ثبات قيم الثوابت الكونية مجتمعة على إمكانية نشأة الحياة فى الكون بالصدفة، فوجدوا هذه الإمكانية تبلغ ١×١٠^{-١٢٣} وهو رقم بالغ الضآلة لا يمكن تصوره!! بل يستحيل أيضًا كتابته!؛ فلو وضعنا على كل جسيم فى الكون صفرًا فستتوقف عند $١٠^{٨٠}$ صفر فقط، وهو عدد الجسيمات فى الكون.

(١) فى هذا المعنى راجع كتاب «الكوكب المتميز The Privileged Planet» صدر عام ٢٠٠٤. والكتاب تأليف أستاذ علوم الكون «جليرمو جونزاليز Guillermo Gonzalez» بجامعة Iowa state University، وأستاذ الفلسفة «جاى ويسلى ريتشارد Jay Wesley Richard» نائب رئيس مؤسسة Discovery المهتمة بمفهوم التصميم الذكى.

(٢) سير فريد هويل Sir Fred Hoyle

(٣) John A. O' Keefe، اشتهر بدراساته حول إمكانية نشأة الحياة فى أماكن أخرى من الكون. نشر نتائج أبحاثه فى كتاب God and the Astronomers

(٤) أستاذ الجيولوجيا Peter Ward، وأستاذ الكونيات Donald Brownlee، نشرا آراءهما فى كتابهما Rare Earth

(٥) Don Johanson مكتشف أشهر حفرية من حفريات أشباه الإنسان؛ لوسى Lucy

(٦) Robin Collins: أستاذ الفلسفة الأمريكى، ذكر ذلك فى أشهر كتبه Evidence for fine tunning

ويعلق سير فريد هويل على مفهومى الضبط الدقيق والمبدأ البشرى قائلًا: «لا شىء هز إلحادى مثل إدراكى أن ليس هناك قوى عمياء فى الطبيعة كما يظن الماديون، بل إن هناك ذكاءً علويًّا يمتزج بكل من الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا».

ومن المناسب أن نذكر مثالًا للدقة التى ينبغى أن تنتهجها العشوائية حتى تسمح بنشأة الحياة؛ فذلك يشبه أن تصوب من أحد أطراف الكون سهمًا إلى عملة معدنية تقع فى الطرف الآخر (على بُعد عشرين بليون سنة ضوئية) فتصيبها! إن وثقت فى قدرتك على فعل ذلك فلتثق فى قدرة العشوائية على إنشاء الكون الصالح لنشأة الحياة!

نشأة الكون فى القرآن الكريم(1)

تَنَـزَّل القرآن الكريم فى الوقت الذى ساد فيه الاعتقاد الخطأ بأن الكون الذى نحيا فيه قديم أزلى وسيبقى إلى الأبد، وأنه كون لا نهائى لا تحده حدود. كون ساكن ثابت فى مكانه لا يتغير. وتعتبر هذه المفاهيم أن الكون نشأ من العناصر الأربعة: التراب والماء والهواء والنار، وأن السماء تدور بنجومها الثابتة كقطعة واحدة حول الأرض، وغير ذلك من الخرافات والأساطير.

فى ظل هذه المفاهيم جاء القرآن الكريم، مؤكدًا أن الكون مخلوق وله بداية، وستكون له فى يوم من الأيام نهاية. ومؤكدًا أن جميع أجرام السماء فى حركة دائبة وجَرْىٍ مستمر، وأن السماء(2) ذاتها فى توسع دائب إلى أجل مسمى. كما أن السماء والأرض كانتا فى الأصل جُرمًا واحدًا ففتقهما الله ﷻ، فتحولت مادة هذا الجرم الأول إلى الدخان الذى خُلِقَت منه الأرض والسماء.

كذلك يخبرنا القرآن الكريم أن هذا الكون سوف يُطوَى ليعود كهيئته الأولى جُرمًا واحدًا مُفرَدًا، ثم ينفتق هذا الجرم مرة أخرى إلى غُلالة من الدخان تُخلق منها أرض غير أرضنا الحالية، وسموات غير السموات التى تظلنا فى حياتنا الدنيا، وهنا تتوقف رحلة الحياة الأولى وتبدأ رحلة الآخرة.

---

(1) بتلخيص وتصرف عن موسوعة «تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم»، للدكتور زغلول النجار. ونحن نتفق مع ما ذهب إليه من تفسير لآيات نشأة الكون، وإن كنا نختلف معه فى كثير من الآيات، خاصة المتعلقة بنشأة الإنسان.

(2) لفظ «سما» فى اللغة العربية يعنى «ارتفع»، لذلك فالسماء هى كل ما نراه يعلو كوكب الأرض، والسماء الزرقاء فى الحقيقة ليست إلا انعكاسات الضوء فى الغلاف الجوى للأرض، أى أنها وجود مُدرَك وليست كرة مادية تحيط بالأرض كما كان الأقدمون يتصورون. لذلك يستخدم القرآن الكريم لفظ السماء للإشارة إلى الكون، وإذا استبدلت لفظ السماء بلفظ الكون لانسجم المعنى تمامًا مع علوم الكون الحديثة.

وقد لخص ربنا (تبارك وتعالى) عملية خلق السماء والأرض وإفنائها وإعادة خلقها في صياغة كلية شاملة منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وذلك في ست آيات[1] من آى القرآن الكريم التى تبدأ من العدم «كان الله ولم يكن شيء غيره»[2]، وذلك على النحو التالى:

١- ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ ﴾ [الذاريات].

تشير الآية إلى تمدد الكون منذ اللحظة الأولى لخلقه، وإلى أن يشاء الله.

٢- ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ ... ۝٣٠ ﴾ [الأنبياء].

تشير الآية إلى:

- ابتداء خلق هذا الكون من جرم أولىّ واحد (مرحلة الرتق[3] الأول).
- فتق هذا الجرم الأولىّ أى انفجاره (مرحلة الفتق[4] الأول).
- تشير كلمة «رتقًا» إلى أن الكون كان مفتوقًا (متباعدًا) قبل ذلك، فالرتق هو تجميع المتباعد. ويحتمل المعنى أنه كان هناك كون قبل كوننا ثم التحم، وهذا هو الرتق الأول ـ وهذا المعنى هو المطروح فى نظرية الأكوان المتذبذبة[5].

٣- ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ ﴾ [فصلت]. تشير الآية إلى:

- تحوُّل الجرم الأولىّ عند فتقه إلى الدخان (مرحلة الدخان).
- خلق الكون والأرض (للتخصيص) من الدخان الكونى (مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء).

٤- ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ

(١) ذكر د. زغلول النجار خمس آيات ، أما آيات سورة يس ٣٧ - ٤٠ فقد أضافها مؤلف هذا الكتاب.
(٢) حديث رواه البخارى.
(٣) الرتق فى اللغة عكس الفتق؛ لأن الرتق هو الضم والالتحام والالتئام سواء كان ذلك طبيعيًّا أو صناعيًّا، يقال رتقت الشىء فارتتق أى فالتأم والتحم. ووصف السماء والأرض بأنهما كانتا رتقًا عند بداية خلق كوننا يشير إلى أن هذه المرحلة أعقبت فتقًا سابقًا أى كونًا سابقًا.
(٤) الفتق: هو الفصل والشق والانشطار.
(٥) هذا الطرح لمؤلف هذا الكتاب.

لَهَآۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾
لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾
[يس].

تشير الآيات إلى بعض سمات كوكب الأرض ونجم الشمس الذى نتبعه وجُرم القمر الذى يتبعنا، فى الفترة بين نشأة الكون وانهياره، ومن هذه السمات:

- الأرض كوكب كروى.
- الشمس نجم متحرك وليست مركزًا ثابتًا للكون.
- يخضع القمر لقوانين الطبيعة، وعلى الإنسان أن يقرأ حركاته ويستفيد منها.
- لكل من الشمس والقمر فلك مستقل يتحرك فيه.
- الأجرام السماوية مسخرة لخدمة الإنسان.

٥ - ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]. تشير الآية إلى:

- حتمية عودة الكون بكل ما فيه إلى جرم ابتدائى واحد مشابه للجرم الأولىّ الذى ابتدأ منه الخلق (مرحلة الرتق الثانى أو طى السماء أو الانسحاق الشديد للكون).
- حتمية فتق هذا الجرم الثانى أى انفجاره (مرحلة الفتق للجرم الثانى).
- حتمية تحول الجرم الثانى بعد فتقه إلى غلالة من الدخان الكونى.

٦ - ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم].

تشير الآية إلى:

- إعادة خلق أرض غير أرضنا الحالية وسماوات غير السماوات التى تظللنا اليوم، وبداية رحلة الآخرة[1].

هذه الحقائق الكونية الكبرى فى خلق السماوات والأرض، لم يستطع الإنسان الوصول

(١) قد يحدث ذلك عقب انسحاق كوننا الحالى، أو عقب دورات من الانسحاق والانفجار، لكن فى النهاية ستبدأ رحلة الآخرة.

إلى إدراك شيء منها إلا في منتصف القرن العشرين أو بعد ذلك، حين تبلورت «نظرية الانفجار الأعظم»، وهي النظرية الأكثر قبولًا عند علماء الفلك وعلماء الفيزياء الفلكية والنظرية في تفسير نشأة الكون.

والقرآن الكريم يعطي هنا الصورة الكلية الجامعة لهذا الحدث الكوني العظيم، ويترك التفاصيل لجهود علماء الفلك والفيزياء النظرية الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض، والذين تجمعت ملاحظاتهم العلمية الدقيقة لتؤكد في منتصف القرن العشرين صدق ما أنزله الله (تعالى) في آخر كتبه، وعلى خاتم أنبيائه ورسله (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم) من قبل ألف وأربعمائة من السنين. هذا السبق القرآني الذي تتوافق معه تمامًا محاور نشأة الكون، والتي جاءت نظرية الانفجار الكوني الأعظم للتعبير عنها.

وسبحان ربي العلي الأعلى الوهاب.

صفات الألوهية وخلق الكون

استعرضنا فيما مضى من هذا الفصل أحدث المفاهيم العلمية حول نشأة الكون، ووقفنا مع السمات المعرفية لهذه النشأة، والتي عرجت بنا من الكون إلى المُكَوِّن. وقد استأنسنا في هذا العرض بأقوال لعلماء كبار، رصد كل منهم جانبًا من جوانب الإبداع في نشأة الكون.

وانطلاقًا من العرض العلمي السابق، حان الوقت ـ تحقيقًا للغاية من الكتاب ـ لأن نضع أيدينا على بعض صفات الألوهية التي أنتجت هذا الكون البديع.

كيف رأى سير أنتوني فلو خالق الكون

ولتكن بدايتنا مع سير أنتوني فلو Sir Antony Flew (١٩٢٣ - ٢٠١٠)، أستاذ الفلسفة السابق بجامعة أكسفورد. الذي كان متزعمًا للفكر الإلحادي طوال النصف الثاني من القرن العشرين. وعندما بلغ فلو الثمانين من عمره أعلن مفارقته لحظيرة الإلحاد إلى دائرة الإيمان، بدافع من الأدلة العلمية التي قدمتها نظرية الانفجار الكوني الأعظم وكذلك الشفرة الوراثية للكائنات الحية.

لقد أدرك أنتونى فلو أن هناك «سببًا أول» وراء منظومة الوجود (البرهان الكونى)، وهذا السبب هو المسئول عن إيجاد مادة الكون فى العدم ووضع القوانين الطبيعية التى وجهت نشأته. وكتب فلو فى كتابه «هناك إله There is a God» فصلين بعنوانين يحملان هذا المعنى. الفصل الأول بعنوان «لا شىء يأتى من العدم Nothing Comes From Nothing» ويبين فى هذا الف[illegible] أن لا شىء يأتى بشكل تلقائى فى العدم، ومن ثم لابد له من موجد. والفصل الا[illegible] [illegible]وان «من كتب قوانين الطبيعة؟ Who Wrote Laws Of Nature?» بين فيه أن قوانين الطبيعة كانت موجودة قبل نشأة الكون حتى توجه هذه النشأة، ولا شك أن هذه القوانين تحتاج إلى من يضعها ومن يُفَعلها.

وعندما هاجم الملاحدة أنتونى فلو وحاجوه بأن السبب الأول هو الطبيعة، أجابهم فلو بعرضٍ للصفات التى ينبغى أن تتوافر من السبب الأول، وأثبت أنها لا يمكن أن تتوافر إلا فى إله خالق. فكحدٍ أدنى ينبغى بداهة أن يكون السبب الأول:

١- واجب الوجود The Necessary Being: يتطلب قانون «السبب والنتيجة» أن تتسلسل فى الأسباب لأعلى حتى نصل إلى سبب أول لكل ما يتلوه من نتائج، ولا شك أنه يستحيل التسلسل فى الأسباب لأعلى إلى مالا نهاية (وهو ما يُعرف فى علم الكلام الإسلامى بـ «التسلسل يمتنع»). ومن ثم فإن تصور عدم وجود الموجد الأول يستتبعه ألا يكون لنا وللكون وجود! لذلك يصبح السبب الأول «واجب الوجود». هذا وقد فشلت كل محاولات العلماء والفلاسفة الماديين لإثبات إمكانية نشأة كون حادث دون احتياج إلى مُحدِث واجب الوجود.

٢- وجوده لا يحتاج لسبب Uncaused: إذ إن هذا السبب هو السبب الأول. كذلك لا يمكن لخالق قانون السببية أن يخضع له.

٣- أزليًّا أبديًّا Eternal: إذا كان الزمان قد خُلق مع الانفجار الأعظم، فذلك يتطلب أن يكون الموجد الأول الذى خلق الزمان سابقًا على الزمان (أزليًّا = لا بداية له).

والموجود الأزلى لا بد أن يكون أبديًّا (لا نهاية له). إذ لو كان له أجل معين لتحتم إن ينتهى أجل هذا الموجود فى مرحلة سابقة لإنشائه للكون!!

٤- غير مادى، ولا يحده مكان Non-Materialistic, Unlimited by Place : خُلِقَت المادة والمكان (مع خلق الزمان) عند حدوث الانفجار الأعظم، لذلك ينبغى أن يكون الموجد الأول ليس بمادة ولا يحده المكان، أى لا يمكن أن يكون السبب الأول الخالق للمادة والمكان مُحْتَوًى فيهما.

٥- مطلق القدرة Omnipotent: إذا كان الموجد الأول قادرًا على خلق الكون البديع من عدم، ومن خلال قوانين الطبيعة فى بعض مراحل الخلق ومخترقًا تلك القوانين فى مراحل أخرى، فلا شك أنه قادرٌ على فعل كل شىء.

٦- مطلق المعرفة Omniscint: احتاجت نشأة الكون كما يحتاج تشغيله إلى تنسيق هائل بين الموجودات، لذلك لا بد أن يكون الخالق للوجود وما فيه على معرفة تامة بموجوداته؛ بنية وتشغيلًا.

٧- قادرًا على اتخاذ القرارات Decision Maker: يعتبر الملاحدة أن بداية خلق الكون كانت عملية حدثت تلقائيًا لظروف جَدَّت. إن هذا الطرح يتطلب أن يفسروا لنا كيف تَجِدُّ ظروف فى العدم المطلق، ولِـمَ جَدَّت الظروف منذ ١٣,٧ مليار سنة فقط بعد أن تُرِكَ العدمُ أزليًا (يعرف هذا الاستدلال على الألوهية ببرهان فترة الترك). إن وجود كون له بداية، نشأ منذ فترة معينة بعد أن كان هناك عدم مطلق أزلى، يقتضى وجود «عامل مُرَجِّح Inductive Factor» يتخذ قرار قطع فترة الترك، ويُخرج الكون إلى الوجود فى هذا التوقيت.

هذا هو الحد الأدنى من الصفات التى ينبغى أن تتوافر فى السبب الأول موجد الكون كما أدركها سير أنتونى فلو، ألا ترى أن هذه الصفات لا تتوافر إلَّا فى الإله الخالق، الحكيم، القادر، القديم الأزلى. وأنها لا تتوافر فى الطبيعة التى هى محصلة الزمان والمكان والطاقة والمادة، وكلها أمور حادثة احتاجت إلى موجد.

والآن إلى المزيد من تأمل نشأة الكون، لنضع أيدينا على المزيد من السمات الأساسية التى ميزت نشأة الكون، والمرتبطة بصفات إلهية مقابلة، وأهم تلك السمات الكونية والصفات الإلهية:

سبحان ربى...

الله ﷻ: الخالق

بدأ خلق الكون من عدم على غير مثال سابق:

رأينا فى استعراضنا السابق أن نشأة الكون حدثت فى عدم مطلق، وكانت حادثًا متفردًا لم يكرر فيه الخالق عملية خلق أخرى، سواء سابقة أو مصاحبة[١].

وهذا هو المعنى الشامل لـ «الخلق» و«الخالق» كما جاء فى القرآن الكريم.

أما إذا جاءت صفة «الخالق» مصاحبة لصفات أخرى فإن معنى الخلق يكون أكثر تخصيصًا، كما سنرى الآن.

سبحان ربى...

الله: الخالق - البارئ - المصور[٢]

تقدير، فإنشاء، وفق التقدير

من البديهيات العقلية أن كل ما يخرج من العدم إلى الوجود يحتاج أولًا إلى تقدير، ثم إلى الإيجاد وفق التقدير، وقد رأينا فى عرضنا للتطوير الذكى للكون أن نشأته قد تميزت بـ:

١ - تسلسل النشأة تجاه ما ينبغى أن يكون عليه الكون بعد اكتمال خلقه، وقد تطلب ذلك وضع القوانين الطبيعية بحيث توجه نشأة الكون إلى ما هو عليه الآن.

أليس هذا دليل قاطع على وجود التقدير المسبق لنشأة الكون؟

إن هذا «التقدير المسبق» لما ينبغى أن يكون عليه الكون بعد اكتمال نشأته هو من مهام اسم الله «الخالق» عندما يأتى مصحوبًا بالبارئ المصور.

(١) حتى إذا كان خلق الكون قد تم على نمط مشابه لكون سابق (كما تشير فرضية الكون المتذبذب التى يقبلها فهمنا القرآنى)، أو مشابه لأكوان مصاحبة (كما تشير فرضية الأكوان المتعددة التى لا تتعارض مع مفاهيمنا القرآنية)، أقول إذا وُجدت أمثلة سابقة أو مصاحبة لكوننا فلن يغير ذلك من حقيقة أن كل هذه الأكوان أنشأها الله الواحد الأحد، ولا يتعارض مع مفهوم الله الخالق.

(٢) تعرضنا للفرق بين هذه الصفات الثلاث فى الفصل الثانى.

ويمكن أن نفهم فى ضوء هذا المعنى قول الحق ﷻ ﴿... فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]، (أى أحسن المقدرين)، فلا شك أن الإنسان يقدر (يخطط) لأمور عديدة ولا شك أن تقدير الله ﷻ أحسن من كل تقدير.

٢ - ظهور الكون من العدم المطلق (حيث لا زمان ـ لا مكان ـ لا طاقة ـ لا مادة) وبزوغه إلى الوجود.

وهذا **الإيجاد** فى العدم المطلق هو المقصود باسم الله «**البارئ**». وتتضح العلاقة بين «التقدير» و«الإخراج الفعلى» إلى الوجود فى قول الحق ﷻ ﴿فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ ... ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد] أى أن الوجود المعرفى (النظرى) يسبق الوجود المادى. وإذا كانت الآية تتحدث عن الابتلاء والمصائب، فإن القاعدة تنطبق على كل موجود.

وقريب من اسم الله «البارئ» اسمه «**الفاطر**» ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ... ﴿١١﴾﴾ [الشورى]. وتعنى ابتدء خلقها.

٣ - خروج الكون فى العدم المطلق إلى الوجود طبقًا للتقدير المسبق. حتى إن علماء الكون يجزمون بأن سيناريو نشأة الكون كان سينتهى حتمًا إلى نفس النتيجة الحالية لو عاد الكون إلى لحظة الانفجار الأعظم.

إن إنشاء الكون طبقًا للتقدير المسبق هو من مهام اسمه ﷻ «المصور».

وإذا قسنا هذه الصفات الإلهية على ما نعهده فى حياتنا (ولله المثل الأعلى) وجدنا أن عمل الإله المقدر الخالق يقابله عمل المهندس المصمم للعمل الهندسى، والإله البارئ يقابله عمل المهندس التنفيذى أو الإنشائى، والإله المصور يقابله عمل المهندس المعمارى.

ومن ثم، فالله ﷻ باعتباره المُقَدِّر فهو «الخالق»، وباعتباره الموجد والمخرج من العدم إلى الوجود فهو «البارئ»، وباعتباره الموجد وفق التقدير فهو «المصور».

سبحان ربى...

الله ﷻ: الموجد، الهادى، القيوم، الحفيظ

إيجاد، فتشغيل، فمتابعة، فحفظ

من أجل أن نفهم منظومة «**الإيجاد ـ التشغيل ـ المتابعة ـ الحفظ**»، فلنستعير **الكمبيوتر** كمثال نقيس عليه منظومة الوجود.

يتكون الكمبيوتر من قطع يتم تجميعها بمهارة لإخراج هذا الجهاز، ولا يعنى ذلك أن الكمبيوتر سيعمل تلقائيًّا، بل ينبغى إمداده ببرامج عديدة متنوعة تنظم عمله. وقد تعارفنا على تسمية الجهاز بـ Hardware وتسمية البرامج المنظمة Software.

وقد تم تصميم بنية الكمبيوتر بحيث يستجيب «دائمًا» للبرامج المنظمة، ولا يستعصى عليها مرة من المرات، ويختلف ذلك عن تصميم جهاز يعمل تبعًا للقوانين مرة واحدة ثم يتوقف. وهناك من الأدوات والأجهزة التى اخترعها الإنسان ما تم تصميمه ليعمل مرة واحدة ثم يتم التخلص منه Disposable، وما تم تصميمه ليتكرر استخدامه Reusable.

وإذا عدنا إلى الكون، نجد أنه يحتاج إلى **قوانين وقواعد للإيجاد والإنشاء، وقوانين وقواعد للتشغيل والتدبير، وقوانين وقواعد للحفظ والإبقاء والإدامة**. فعلى سبيل المثال:

أوجد الخالق إلكترونات الذرة بحيث تكون سالبة الشحنة، وأوجد بروتونات الذرة بحيث تكون موجبة الشحنة، ولكل منهما صفات أخرى عديدة. هذا هو **الإيجاد والإنشاء**.

وقد جعل (هدى) الخالق الشحنة السالبة تنجذب للشحنة الموجبة، هذا من **قوانين التشغيل والتدبير**. كذلك جعل الخالق شحنة الإلكترون السالبة وشحنة البروتون الموجبة والتجاذب بينهما **سمات ثابتة** فى بنية وسلوك الجسيمين، كما جعل السمات الأخرى لهما (كالكتلة والسرعة) سمات ثابتة أيضًا، وهذه هى **المتابعة والحفظ والإبقاء والإدامة والاستمرارية**. إن ذلك يعنى أن الموجودات كما لا تقوم بذاتها (إيجادًا وهداية)، فإنها لا تستمر بذاتها (متابعة وحفظًا).

ومن مظاهر الاحتياج إلى ما يحقق الحفظ والبقاء والاستمرارية والديمومة، **ظاهرة محيرة فى عالم الفيزياء**: تخبرنا فيزياء الكم المختصة بدراسة سلوك الجسيمات تحت الذرية، أن هذه الجسيمات تسلك بناء على احتمالية، أى أن أى جسيم يمكن أن يتبع السلوك أ، أو ب، أو جـ، أو...

وفى الوقت نفسه تبين الفيزياء الكلاسيكية (فيزياء نيوتن) أن موجودات العالم الظاهر (كتفاحة نيوتن والقطار المسرع والكواكب والنجوم) تسلك بناء على قوانين فيزيائية تلتزم بها تمامًا (حتمية فيزيائية) .

السؤال الذى لا يعرف الفيزيائيون له إجابة؛ كيف أن موجودات العوالم الصغيرة (Micro) التى تسلك باحتمالية، تنتج فى النهاية إلزامًا وحتمية فى العوالم الكبيرة (Macro)؟!

أى لماذا يظل الوجود دائمًا على هيئته وليس على هيئات أخرى إذا كانت جسيماته تسلك باحتمالية؟!. إن الأمر يحتاج تدخلًا مستمرًا وإلزامًا مستمرًا ومتابعةً لكى تتبع الجسيمات الصغيرة (ذات الاحتمالية) سلوكًا يؤدى إلى الحتمية التى نرصدها فى العالم من حولنا.

إذًا فتأمل الكون يكشف لنا أن نشأة الوجود لم تكن عملية وقتية حدثت فى وقت مضى وانتهى الأمر، بل إنها عملية شديدة التركيب، احتاجت لإنشاء، وتنظيم وتشغيل، ومتابعة وحفظ واستمرارية ودوام، ولكل من هذه العمليات قوانينها الفيزيائية المنظمة. وبديهى أن هذا يثبت أن منشئ الكون قادر على هذه المهام، أى أنه قادر على الإيجاد «الموجد»، قادر على الهداية للتشغيل «الهادى»، قادر على المتابعة «القيوم»، وقادر على الإبقاء وتحقيق الاستمرارية والإدامة «الحفيظ».

مع القرآن الكريم

يمكن لمتأمل آيات القرآن الكريم أن يضع يده على مفاهيم «الإيجاد» و«الهداية» فى قول الحق ﷻ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى]. فالخلق والتسوية إيجادٌ وإنشاء، والتقدير والهداية هى وضع القوانين التى تدير الوجود وهداية الموجودات لاتباعها.

وتأمل أيضًا: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه]، فإعطاء كل شىء خلقه، إيجاد وإنشاء، والهداية هى إلزام كل موجود فى الكون باتباع قوانين محكمة وسنن ثابتة، ومنها:

القوانين التى شكلت عناصر الكون

والقوانين التى تحكم عمل منظومات الكون

والقوانين التى جعلت الكون، والأرض بالتخصيص، صالحين لنشأة الحياة.

وفى علم البيولوجيا؛ القوانين التى تبنى البروتينات من الأحماض الأمينية، كما تبنى الشفرة الوراثية من الأحماض النووية. وكذلك القوانين التى تنظم العلاقة بين مختلف الكائنات الحية. وكذلك القوانين التى تحكم النظام البيئى بعناصره من نظم برية وبحرية وجوية وحيوية من نبات وحيوان.

أليس ما ذكرنا هو من تجليات اسم الله «الهادى».

وقد قبل كثير من الكافرين فى مكة قيام الإله بالإيجاد وبإدارة شئون الكون، لكنهم تنكروا لأن يكون له دور فى حفظ وإبقاء وإدامة واستمرارية الوجود. لذلك يحدثنا القرآن الكريم عن طائفة تقر بالإله الخالق الموجد الهادى، لكنها ترى أنه قد اعتزل الكون بعد أن وضع فيه القوانين التى تُسَيره، ومن ثم ينكر هؤلاء «القيومية» أى ينكرون متابعة الإله الخالق للكون بالحفظ والتدبير والرزق و... وقد قال فيهم الحق ﷻ[1]: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت].

كما يخبرنا القرآن الكريم أن من الكافرين من يقر بالقيومية (متابعة الله ﷻ خلقه بالرعاية) فقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ... ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت] لكنه ينكر أن يكون الإله قد تواصل مع البشر عن طريق الأنبياء والرسل، أى ينكرون الديانات. وهذه الطائفة تقابل «الربوبيون» بالمعنى المعاصر.

إن كلتا المجموعتين تقران بالإله الخالق الهادى للكون، وتقر المجموعة الثانية بتدبير الإله له (القيوم، المدبر) لكن هؤلاء الكافرين لا يدركون (أو يتنكرون) لاحتياج الكون لحظة بلحظة لمن يحفظه ويحقق له البقاء والاستمرار والدوام (الحفيظ).

ويصحح القرآن الكريم هذا الخطأ العقائدى للكفار، فيخبرنا فى عدة آيات أن الله ﷻ بالإضافة إلى قيامه بخلق الكون وتدبير شئونه، فإنه يقوم أيضًا بحفظه وإبقائه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ... ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر].

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة].

إنها «القيومية»، التى هى قيام الله ﷻ بتدبير أمور الكون وحفظه وإبقائه.

إنه الله ﷻ «القيوم» - «الحفيظ».

ثبات قوانين الطبيعة

وتحتاج مهمة «إيجاد - فتشغيل - فمتابعة - فحفظ» الكون إلى ثبات القوانين الطبيعية التى شاءت إرادة الله ﷻ أن يوجه بها هذه المهام.

وكما يظن الماديون أن بقاء الكون بعد إنشائه أمر بديهى تلقائى لا يحتاج لأليات خاصة،

(١) جاء هذا التساؤل أيضًا فى سور: لقمان -٢٥، الزمر - ٣٨، الزخرف -٩.

فإنهم يظنون أن وضع قوانين الطبيعة يعنى بداهة استمراريتها تلقائيًا، واستمراريتها فى حفظ وإبقاء الكون، وهذا ظن خاطئ. فثبات قوانين الطبيعة يحتاج لتدخل آنى مباشر من خالقها، كما رأينا فى مثال الإلكترون والبروتون.

لذلك ينبهنا القرآن الكريم أن ثبات القوانين الطبيعية عطاء إلهى لا يقل عن عطاء إنشائها:

﴿ ... فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر].

﴿ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ ... ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورى].

إن الآية الكريمة الأخيرة تعنى أن الله ﷻ قادر على تعطيل قانون الدفع الذى تحرك الرياح به السفن.

وهاتان الآيتان تثيران قضية ساخنة لها علاقة بموضوعنا:

نشبت بين أنصار بعض مدارس الفكر الإسلامى وبين الطبيعة خصومة شديدة! منذ اتهموها - بحسن نية - بالفوضى والعشوائية! وتعود بدايات تلك الخصومة إلى اعتقاد الأشاعرة أن تنزيه الله ﷻ وتأكيد القدرة الإلهية يتطلب الإسراف فى تأكيد عجز الذات الإنسانية وعفوية الطبيعة، فتبنوا رؤية تدميرية للعالم!

لقد نَفَى الأشاعرة أية علاقة بين الأسباب والنتائج (بلغة علم الكلام: نفوا أى رابط عِلِّى سببى بين الأحداث = نفوا العِلِّية أو السببية) ورأوا أن القول بالأسباب يتعارض مع طلاقة قدرة وأفعال الخالق، ومن ثم اعتبروا القول بالسببية شركًا! فضلًا عن اعتقادهم أن القول بالسببية يمثل خطرًا على فكرة المعجزة التى تخرق الأسباب.

ومن أجل نفى قوى وقوانين الطبيعة كأسباب مؤثرة، وضع الأشاعرة «نظرية الاقتران والعادة» التى ترى أننا نفسر تتابع حدثين (كتسخين الماء والغليان) باعتباره علاقة الأسباب بالنتائج، بينما هو فى الحقيقة مجرد اقتران، أى لا علاقة سببية بين التسخين والغليان، وأننا نحن الذين تصورنا هذه العلاقة[1]! بهذا الطرح الأشعرى، لم يعد هناك قانون ولا نظام فى الطبيعة، وبهذا غُلَّت يد العقل تمامًا، وكان ذلك إيذانًا بليل عجز العقل الإسلامى، فاستحق أن يطلق الفلاسفة على هذه النظرية اصطلاح «كارثة الأشاعرة»[2].

---

(١) لذلك صرنا نقرأ فى كتب الأشاعرة أن السكين لا تقطع ولكن القطع يحدث عند حد السكين، وأن النار لا تحرق لكن الحرق يحدث عند النار. ولم يقدم لنا الأشاعرة تفسيرًا مقنعًا لِمَ أمر الله ﷻ النار أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم، ألا يعنى ذلك أن الحق ﷻ لو تركها دون أمر لأحرقت! أى أن الإحراق من خصائص النار التى وضعها الله فيها.

(٢) من المثير للدهشة أن ديفيد هيوم (أكبر فلاسفة الإلحاد فى القرن الثامن عشر) يقول أيضًا بعدم فاعلية الأسباب، ويوافق على مفهوم الاقتران والعادة، وذلك ليثبت عشوائية الوجود وعدم خضوعه للقوانين ليدعم مفاهيمه الإلحادية. معنى ذلك أنه يتفق مع الأشاعرة فى النظرة إلى الأسباب وإن كان يتضاد معهم فى الهدف!

وفى المقابل، تبنى المعتزلة[1] «مذهب الطبائع» الذى يقول بأن الله ﷻ قد مَيَّزَ كل شيء بطبيعة ثابتة يحدث الفعل بمقتضاها، كالإحراق للنار والرِّىّ والإغراق للماء. لقد وضع المعتزلة بذلك فرقًا جوهريًّا بين عالم الطبيعة الحتمى وعالم الإنسان الحر المختار، ولم يسقطوا فى هوة نفى الحرية الإنسانية بناء على حتمية قوانين الطبيعة كما فعل فلاسفة أوروبا. وقد سُميت هذه المقابلة بين مذهب الطبائع ونظرية الاقتران والعادة بـ «دراما المعتزلة والأشاعرة».

ومن الأشاعرة، يقول بمذهب الطبائع الإمام أبو حامد الغزالى[2]، كما يمد ابن خلدون (الأشعرى) مذهب الطبائع من عالم الطبيعة إلى عالم العمران والإنسان، فيرى أن المجتمعات البشرية تخضع فى حركتها لقوانين اجتماعية. كذلك تبنى الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مذهب الطبائع، وعرضاه عرضًا عميقًا. وبخلاف الغزالى وابن خلدون نجد الأشاعرة جميعًا ينهالون بنقد عنيف على مذهب الطبائع ويصمون القائلين به بالشرك!.

وإذا كان علماء الكلام المعتزلة لم يتورطوا فى اتهام الطبيعة بالفوضى والعشوائية، فإنهم سقطوا فى خصومتها حين أعلنوا صراحة أنهم يستخدمون الطبيعة فقط من أجل إثبات وجود الله، وليس لدراستها وتحليلها وفهمها للسيطرة عليها والانتفاع بها، إذ إن الطبيعة ـ عند هؤلاء ـ مجرد حامل لأفعال الإرادة الإلهية. بذلك أصبح استخدام الطبيعة عند المعتزلة استخدامًا رأسيًّا يرقى بنا إلى ما فوق الطبيعة، ونحن نرحب بذلك بشرط أن نقرنه باستخدام أفقى يجعلها عالمًا حيًّا للإنسان، يسكن فيه ويتواصل فيه مع الآخرين ليحقق رسالته وخلافته.

وتتفاقم المشكلة، ويختفى النظر فى الآفاق واستثمار الطبيعة، ويصبح الواجب الشرعى بديلًا عن الواجب النظرى، وتتضخم الشعائر والعقائد (هل يؤمن المؤمن بخمسين أم بعشرين عقيدة؟). لقد ضمر الفكر الموضوعى وتقلصت العلوم التطبيقية والطبيعية، وتم التمثيل بالطبيعة وهدمها.

لذلك يُرجع البعض انتكاسة الحضارة العربية إلى محنة المعتزلة التى تلاشى فيها فكرهم وسطوتهم، ولولاها لكان للتقدم العلمى فى القرن التاسع الميلادى فى الدولة الإسلامية شأن آخر أى شأن.

المصالحة

فى العصور الوسطى، استمد رجال الكنيسة فى أوروبا سلطانهم من أنهم أقدر البشر على قراءة وفهم الكتاب المقدس، بينما أصر العلماء على أنهم أقدر على قراءة كتاب آخر لا يقل عن الأناجيل عظمة ودلالة على قدرة الرب وبديع صنعه، إنه كتاب الطبيعة المجيد، أو قل توراة الطبيعة[3].

قبل ذلك بمئات السنين رأينا أبا الهذيل العلاف والنَّظَّام وابن الهيثم والبيرونى وابن رشد يجمعون

---

(١) أصحاب المدرسة العقلية فى الإسلام.

(٢) فى أحد رأيين للغزالى.

(٣) أطلق اصطلاح «توراة الطبيعة» عالم اللاهوت بارومر. وتوافقًا مع هذا المعنى نشر جون راى (١٦٩١م) كتابًا بعنوان «حكمة الرب كما تتجلى فى أفعال الخلق»، ثم نشر وليم بالى (١٧٤٣ - ١٨٠٥م) كتابه «اللاهوت الطبيعى».

بين العلوم الطبيعية كعلوم تطبيقية وبين دلالتها على وجود الله وعلى التوحيد. لقد كنا الأسبق فى الانتقال الجدلى بين قراءة الكتاب المقدس وقراءة كتاب الطبيعة (كتاب الله المسطور وكتاب الله المنظور)، فوصلنا إلى تعقبل الطبيعة وتطبيع العقل. لكن ما جدوى الأسبقية التاريخية؟!. لقد جعل العلم الغربى الطبيعة والعقل صنوين، بينما يكشف العربى المسلم المعاصر عن عجز مؤسف وتخلف مشين عن مجرد مواجهة الطبيعة.

والمطلوب للمصالحة مع الطبيعة أن يدرك الفكر المُقَلِّد أن الله ﷻ هو الذى وضع الخصائص فى الأشياء، وهو الذى ينظم العلاقة بينهما بقوانين الطبيعة، أى أن يدرك المخاصمون للطبيعة اتساق مذهب الطبائع مع الإرادة الإلهية.

إن المصالحة تتحقق عندما نصبح وسطًا بين طرفين؛ طرف يتنكر للطبيعة والحس، أغرق فيه المُقَلِّدون، وطرف يقدس الطبيعة والحس؛ أغرق فيه الماديون. إن الحق ﷻ يمزج بين الطرفين ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]، فالآية الكريمة تبين أن الحس (سنريهم) والطبيعة (الآفاق والأنفس) سيصبحان الباب الواسع للإيمان. أى أن براهين الألوهية ستنطلق من تأمل الطبيعة والتفكر فيها. وهذا ما تدعو إليه أستاذتنا د. يمنى طريف الخولى[1] فى دعوتها «نحو علم كلام جديد».

وفى ذلك يقول الفيلسوف الكبير محمد إقبال: «كان أفلاطون وفيًا لتعاليم أستاذه سقراط، فقدح فى الإدراك الحسى؛ لأن الحس فى رأيه يفيد الظن ولا يفيد اليقين. وما أبعد ذلك من تعاليم القرآن الذى يعد السمع والبصر من أنعم نعِمَ الله على عباده». وأنا أضيف أن القرآن الكريم (فى الآية السابقة) قد جعل من الآفاق والأنفس «دليل صحة» على النص المقدس.

سبحان ربى...

الله ﷻ: الحكيم

إن الإله لا يلعب النرد

١ - الحكمة تتجلى فى «تطوير الكون تبعًا لتقدير مسبق»

يكشف تأمل مراحل نشأة الكون التى عرضناها أن كل مرحلة كانت على علاقة سببية وثيقة بالمرحلة السابقة لها وأيضًا بالمرحلة اللاحقة، إن ذلك يثبت أن نشأة الكون كانت تبعًا لـ«تطوير تم تقديره مسبقًا».

---

(١) د. يمنى طريف الخولى: أستاذة فلسفة العلوم، ورئيسة قسم الفلسفة بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة. لها العديد من المؤلفات والكتب المترجمة فى هذا المجال.

ويتضح «التطوير» فى اتِّباع الكون السيناريو الذى ذكرناه؛ بِدْءًا من المفردة ثم الطاقة ثم المادة، وانتهاءً بالأجيال الثلاثة المتتالية من النجوم ثم نشأة كوكب الأرض.

ويتضح «التقدير المسبق» فى عدة جوانب؛ منها:

- اتِّباع عملية نشأة الكون لقوانين وقوى الطبيعة، مما يعنى أن هذه القوانين والقوى وُجِدَت قبل كل مرحلة من مراحل هذه النشأة. فعندما نقول أن تمدد نواتج الانفجار الكونى قد أدى إلى تَبَرُّد تلك النواتج، ثم أدى التَبَرُّد إلى تكثف الطاقة إلى مادة، فذلك يعنى ببساطة وجود مُسبق لقانونين طبيعيين محددين:

التمدد ← تَبَرُّد

التَبَرُّد ← تكثف

- صحب تكثف الطاقة إلى مادة، نتيجة هبوط درجة حرارة مكونات الانفجار الأعظم، ميلاد متتالٍ مُوَجَّه بدقة رهيبة لقوى الطبيعة الأربع: قوة الجاذبية، ثم القوة النووية الشديدة، ثم القوتان الكهرومغناطيسية والنووية الضعيفة.

- ذكرنا فى استعراضنا لبرهان الضبط الدقيق عددًا من الأمثلة للثوابت الكونية التى احتاج كل منها لضبط دقيق فى حدود «قيمة حرجة»، لو تم تجاوزها بالزيادة أو النقصان بقدر ضئيل للغاية لما نشأ الكون.

تقطع هذه الأمثلة بالتصميم والحكمة التى وجهت نشأة الكون، والتى ينبغى أن يكون وراءها إله «حكيم».

٢ - الحكمة تتجلى فى الغائية

نمهد لحديثنا عن «الغائية» بمثال من عالم الكمبيوتر، يقرب لنا المقصود بهذا المفهوم.

لاشك أن مخترع جهاز الكمبيوتر كان لديه «غاية» فى ذهنه ـ لا تخفى علينا الآن ـ وراء اختراع الجهاز.

ومن أجل تحقيق هذه الغاية وضع المخترعُ التصميمَ العام لجهازه، ثم وضع تصميم كل قطعة وعلاقتها بالقطع الأخرى، ثم بدأ فى تصنيع أجزاء جهازه وتجميعها بناء على هذا التصور، ليخرج لنا ابتكاره الرائع هذا.

وعندما نستخدم الكمبيوتر، لا يجرؤ أحد منا أن يدعى أن العبقرى صانع الجهاز لم يكن لديه غاية/ غائية وراء صنع جهازه (وهو ما يدعيه الملاحدة الماديون بالنسبة لخلق الكون)! والمحصلة أن الغائية هى **«الأصل والبداية» التى تسبق كل شىء، وإدراكها هو «آخر المطاف»**.

ذكرنا منذ قليل أن كل مرحلة من مراحل خلق الكون كانت على علاقة سببية وثيقة بالمرحلة السابقة لها وأيضًا بالمرحلة اللاحقة، وذكرنا أن ذلك يثبت أن نشأة الكون كانت تبعًا لـ«تطوير ثم تقديره مسبقًا». إن ذلك يعنى أيضًا أن كل مرحلة كانت تمهيدًا للمرحلة اللاحقة لها، أى أن **المرحلة اللاحقة كانت «غاية» للمرحلة السابقة**، وذلك فى إطار **غاية واحدة أساسية** وهى أن يخرج الكون إلى الوجود. وهذا أحد معانى «الغائية»، أى أن يكون هناك غاية من وراء الشىء.

كذلك ذكرنا أن **«المبدأ البشرى»** يعنى أن الإله الخالق قد صمم الكون بحيث يكون مناسبًا لنشأة الحياة ثم ظهور الإنسان. وذلك يعنى وجود غاية وراء بناء الكون على هذه الهيئة، وتلك الغاية هى **إعداد المسرح لخلق الحياة والإنسان**. وهذا مستوى ثان للغائية.

وإذا كان ظهور الإنسان أحد الغايات من خلق الكون على هذه الهيئة، يصبح من البديهى أن لخلق الإنسان غاية. وإذا كان العلم يثبت المستوى الأول للغائية (تطوير تم تقديره مسبقًا)، وكذلك المستوى الثانى (المبدأ البشرى)، **فإن العلم غير قادر على أن يمدنا بالمستوى الثالث من الغائية وهو (الغاية من خلق الإنسان)، وتلك الغاية تنفرد الرسالات السماوية ببيانها**. وفى هذا المعنى يؤكد القرآن الكريم أن وراء خلق الإنسان غاية وحكمة، فيقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]. ثم يحدد القرآن تلك الغاية بأنها عبادته ﷻ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، والعبادة هنا بمعناها الشامل الذى يعنى معرفة الله ﷻ.

ووجود هذه المستويات من «الغائية» يعنى وجود **«الحكمة»** فى عملية الخلق، والحكمة فى هذا الموضع هى إحدى تجليات اسمه ﷻ **«الحكيم»**، الذى له تجليات فى مواضع أخرى عديدة نتعرض لبعض منها فيما بعد.

وبناء الكون على هذه الهيئة ليكون مسرحًا ملائمًا لنشأة الإنسان هو أحد معانى **«التسخير»** التى يحدثنا عنها القرآن الكريم، وهى تسخير السموات والأرض من أجل أن تكون صالحة لـ**«نشأة الإنسان»**. ويأتى بعد ذلك المعنى الآخر للتسخير، وهو تسخير السموات والأرض من أجل أن تكون صالحة لـ**«معيشة الإنسان»** فى حياته الدنيا، وسنتعرض لهذا المعنى فى الباب القادم.

٣ - الحكمة تتجلى فى الدقة والذكاء

وتتجلى حكمة منشئ الكون أيضًا فيما يميز نشأة الكون من «**دقة هائلة**» تجلت بوضوح فيما عرضناه تحت عنوان «**برهان الضبط الدقيق**».

كذلك تتجلى الحكمة فيما يظهر فى الكون من دلالات «**الذكاء المطلق**». انظر إلى قول الفيزيائى العظيم سير روجر بنروز حول القوانين الدقيقة التى وجهت نشأة الكون، يقول: «**لا بد أن يكون هناك عقل شديد الذكاء يربط بين الرياضيات والفيزياء، ويُمَكِّنُنا من أن نفهم عالم الفيزياء رياضيًا، حتى صار انضباط الكون من بديهيات العلم الأولية التى لا يُبحث لها عن تفسير، إنه نوع من الإيمان يمارسه العلماء**».

ويؤكد المعنى نفسه الفيزيائى الكبير الحائز على جائزة نوبل يوجين وينجر قائلًا: «**إن اتباع العالَم الفيزيائى للرياضيات بدقة أمر مدهش، يُعجز عن التفسير، ولا ينبغى إطلاقًا نسبته إلى الصدفة، وعلينا أن نتقبله كقضية إيمانية دينية**».

وقد عبر د. جيمس جيمس الفلكى البريطانى الكبير عما فى الكون من دقة وذكاء بقوله: «**ما دام الكون كونًا منطقيًا فلابد أن خلقه كان عملًا فكريًا**».

ولا شك أن هذه «**الدقة الهائلة**» و«**الذكاء المطلق**» لا يكونان إلا تجليات لاسم الله «**الحكيم**».

٤ - الحكمة تتجلى فى الانضباط والقابلية للتنبؤ

فى استعراضنا العلمى السابق لانضباط الكون، استشهدنا بمقولات لـ آلان سانداج وأينشتين، من المناسب أن نكررها هنا:

يقول آلان سانداج، (أبو الفلك الحديث): «أرى أنه غير محتمل بالمرة أن يكون نظام الكون نشأ تلقائيًا من الفوضى، لا بد من منظم. وإذا كان الإله بالنسبة لى غامضًا فإنه التفسير الوحيد لَدَىَّ لهذا النظام، وأيضًا للإجابة عن سؤال لماذا انقطع العدم وبزغ الوجود؟

وفى قول لأينشتين أثير لَدَىَّ، ولا ينبغى أن تغيب دلالاته عنا:

«**إن أكثر الأمور استعصاء على الفهم فى الكون، أنه قابل للفهم Conprehensible**»، ويعلق أينشتين على هذه «القابلية» قائلًا: «قد تندهش أننى أعتبر قابلية الكون للفهم بمثابة المعجزة

Miracle الغامضة أبدًا. ذلك أن كونًا فوضويًا لا يمكن إدراك أحداثه أو مساره هو النتيجة البديهية التى ينبغى أن تتبع الانفجار الكونى الأعظم. فالنظام والقابلية للفهم والتوقع الذى تظهره نظرية الجاذبية لنيوتن - مثلًا - شيء مبهر تمامًا، ولا يمكن توقعه من سيناريو بداية نشأة الكون، إنها معجزة تتأكد لنا يومًا بعد يوم مع تقدم العلم والمعرفة».

ونضرب ثلاثة أمثلة لانضباط الكون وقابليته للتنبؤ:

١ - عند حساب قوى الجاذبية بين أجرام الكون وُجد أن المادة المرصودة غير كافية لتفسير مقدار هذه القوى. ونتيجة ليقين العلماء بانضباط الكون، فقد افترضوا كمصدر للجاذبية الإضافية وجود مادة لم يتم رصدها بعد، أطلقوا عليها «المادة المعتمة Dark Matter». وحدث الشيء نفسه بالنسبة لطاقة الكون، فافترض العلماء وجود «طاقة معتمة Bark Energy» لم يتم رصدها بعد، تفسر وجود الطاقة الزائدة فى الكون.

٢ - عند دراسة مدارات كواكب المجموعة الشمسية والقوى التى تتحكم فى هذه المدارات، أظهرت حسابات علماء الفلك ضرورة وجود كوكب ما خارج مدار كوكب أورانوس حول الشمس. واعتمادًا على الحسابات الرياضية توقع الفلكيون عام ١٨٤٦ وجود كوكب نبتون **Neptune** وأيضًا أكبر أقماره ترايتون **Triton**، ولم يتم التأكد من وجود الكوكب وأقماره الأربعة عشر بالمراصد إلا بعد أكثر من مائة وأربعين عامًا.

٣ - عندما وضع العالم الروسى مندليف عام ١٨٦٩ الجدول الدورى للعناصر تبعًا لتسلسل الوزن الذرى والرقم الذرى لكل عنصر، توقع وجود بعض العناصر التى لم تُكتشف بعد، بل وتوقع أيضًا خصائص تلك العناصر. وبالفعل تم تباعًا اكتشاف العناصر: سكانديم، جاليوم، تكيشيوم، وجيرمانيوم.

سبحان الله، أ إلى هذا الحد يبلغ انضباط الكون وقابليته للتنبؤ؟.

ويتجلى هذا الانضباط والقابلية للتنبؤ فى أحداث كونية يومية؛ كإدراكنا لمواضع الكواكب فى المستقبل، وتوقعنا للخسوف والكسوف، وإدراك الحسابات الفلكية لميلاد أهلة الشهور العربية، ومواقيت الصلاة، وغيرها وغيرها.

ونكرر هنا أيضًا ما استشهدنا به على **انضباط الكون رياضيًا**: يقول بول ديفيز: «**إن الأكثر إعجازًا أن قابلية الكون للفهم تخضع بدقة شديدة لعلاقات رياضية**». هكذا يُظهر انضباط الكون وقابليته للتنبؤ مدى حكمة مُنشأه، التى هى من تجليات اسمه ﷻ «الحكيم».

ورد اسم الله ﷻ وصفته «الحكيم» بمعنى العادل فى التقدير، المحسن فى التدبير، ذو الحكمة البالغة، الذى يضع كل شىء فى موضعه، ولا يعرف كنة حكمته غيره سبحانه.

وقد وردت صفة الله «الحكيم» فى القرآن الكريم ٩٧ مرة، مما يدل على أهميتها بين أسمائه الحسنى وصفاته العُلى، وجاءت فى معظم الآيات مقرونة بصفتى «العزيز» و«العليم».

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر].

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٨﴾ [النور].

ولرفعة شأن «الحكمة» فقد علمها الله ﷻ لأنبيائه (وخاصة لمحمد ﷺ) تمامًا مثلما علمهم الكتاب الكريم، وقد جاء ذكر ذلك ثمانى مرات فى القرآن الكريم، منها:

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨﴾ [آل عمران].

﴿... وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ ... ۝١١٣﴾ [النساء].

وقد أخبرنا الله ﷻ أنه قد خص من يشاء من عباده بنصيب من الحكمة، وما ذلك بعطاء قليل ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ... ۝٢٦٩﴾ [البقرة].

اللهم آتنا من حكمتك واجعلنا من أولى الألباب.

سبحان ربى...

الله ﷻ: البديع، المبدى المعيد

وجود يقوم على الإبداع والبدء والإعادة،

بعد وقوع الانفجار الأعظم، وبمرور الوقت، بدأ غاز الهيدروجين والهيليوم فى تكوين تجمعات منفصلة على شكل سُحب أخذت تتكثف بشدة تحت تأثير جاذبيتها، لتبدأ تفاعلًا نوويًا اندماجيًا يُحوِّل المزيد من ذرات الهيدروجين إلى هيليوم مع إطلاق الطاقة الزائدة على هيئة حرارة وتوهج. وعندما توازنت قوى الجاذبية داخل هذا الفرن النووى مع قوى التمدد الناشئة عن الحرارة الناتجة، استقر النجم وأصبح «نجمًا ناضجًا - Mature Star».

ويستمر الاندماج المتسلسل داخل نجوم الجيل الأول منتجًا باقى عناصر الجدول الدورى.

ثم تنفجر بعض نجوم الجيل الأول (السوبرنوفا ـ Supernova)، محدثة سحابة كونية هائلة، تُسمى «سحابة الجيل الثانى»، تحتوى على بعض العناصر الثقيلة التى تكونت من الاندماجات النووية داخل النجم المنفجر.

ويتكرر نفس سيناريو الانفجار والتكثف لينشأ عنه الجيل الثالث من النجوم.

وتُعتبر شمسنا التى تكونت منذ حوالى ٧, ٤ بلايين سنة، إحدى نجوم الجيل الثانى أو الثالث. وعندما بردت بعض بقايا السحابة التى كونت الشمس (١: ١٠٠٠ من كتلة الشمس) شكلت كواكب المجموعة الشمسية، والتى منها كوكبنا الأرض.

ترينا متتالية خلق الجبل الأول ثم الثانى ثم الثالث من النجوم نمطًا من النشأة يتمثل فى البدء ثم الإفناء ثم إعادة الخلق. والمتأمل لهذه المنظومة من الخلق، يلاحظ أن الأجيال اللاحقة لا تشبه تمامًا الأجيال السابقة، بل هناك دائمًا إضافة أو تعديل، كما لاحظنا فى الفرق بين نجوم الجيل الأول ثم الثانى ثم الثالث من النجوم. ويعنى ذلك أن المنظومة ليست تقليدًا لما سبق، ولكن هناك دائمًا «جديد»، يعكس إبداعًا فى الخلق، فالإبداع هو الجديد الذى لم يسبقه مِثْل.

وهذه المنظومة من الخلق (البِدْء، والإعادة، والإبداع) ليست قاصرة فقط على إنشاء الأجرام السماوية، لكنها تمتد لتشمل كل ما فى الكون (الظواهر الكونية، والكائنات الحية)، ولهذا حديث لاحق.

وتعكس هذه المنظومة ما ينبغى أن يكون عليه السبب الأول الخالق للكون من قدرة على الإبداع والبِدْء والإعادة.

وفى هذا المعنى يقول الحق ﷻ: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ... ﴿٦٤﴾﴾ [النمل].

أى أنه ﷻ «المبدى» «المعيد».

والفعلان المضارعان «يبدأ» و«يعيد» يعنيان أن البدء والإعادة عملية متكررة فى حياتنا الحالية، وليست قاصرة على إعادة الخلق يوم القيامة بعد إفناء حياتنا الدنيا.

ويقول الحق ﷻ كذلك: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة].

أى أنه ﷻ الخالق للسموات والأرض بإبداع، أى دون تكرار أو مشابهة.

سبحانه الله ﷻ «البديع» «المبدى» «المعيد» ...

الله ﷻ: القابض الباسط

وجود يقوم على القبض والبسط

رأينا كيف نشأ الكون بالانفجار الأعظم، وفيه تَمَدَّد الكون الوليد بسرعة فاقت سرعة الضوء مليار مليار مرة. وما زال الكون يتمدد بسرعة حرجة مضبوطة بحيث لا يتناثر أشلاءً ولا ينهار على نفسه.

وقد عَبَّر القرآن الكريم عن هذا التمدد الذى هو سمة أساسية فى نشأة الكون بقوله:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذريات].

وهذا التمدد (التوسعة ـ البسط) يبين أن خالق الكون ينبغى أن يتسم بصفة «**الباسط**».

ويلازم عملية بسط الكون عمليات مقابلة فى الاتجاه العكسى (القبض = الانكماش). ونلاحظ ظاهرة القبض فيما يعترى العديد من نجوم الكون من تَبَرُّد بعد استهلاكها لوقودها النووى، فتبدأ فى الانهيار على نفسها.

كما نلاحظ فى النجوم النابضة Pulsating Stars تناوب عمليتى التمدد والانكماش (القبض والبسط).

كذلك من السيناريوهات الراجحة المطروحة لنهاية كوننا وفنائه، هو أن يعتريه **انكماش أعظم** Big Crunsh بعد أن تفنى الطاقة التى تدفع عملية تمدده. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ... ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء].

وهذه الأمثلة من الانكماش والانهيار فى الكون تبين أن خالقه يتسم بصفة «**القابض**». وليس غريبًا أن تتلازم الصفتان «**القابض الباسط**» فى عدة مواضع من القرآن الكريم.

وسنتعرض فى الفصل القادم وما يليه لصفة «القابض الباسط» فى نشأة الكائنات الحية وبنيتها وفيما يعترى النفس البشرية من تقلبات مزاجية.

سبحان ربى...

الخالق... البارئ... المصور...

الموجد... الهادى... القيوم... الحفيظ

الحكيم...

البديع... المبدى... المعيد...

القابض... الباسط...

تقدست أسماؤه وتنزهت صفاته

القارئ الكريم

رأينا فى هذا الفصل كيف أثبت العلم أن لكوننا بداية من عدم.

ورأينا أن نشأة الكون قد صحبتها **خمسة معالم خارقة لا يمكن للعلم وحده أن يفسرها.** فقد كانت «المفردة» التى بدأ بها الانفجار الأعظم لا متناهية الصغر ولا متناهية الكثافة، وقد صحب الانفجار الأعظم حرارة هائلة تجاوزت الحرارة القصوى المسموح بها فيزيائيًّا مليارات المرات، كما تمدد الكون الوليد بسرعة تجاوزت سرعة الضوء بمليارات مليارات المرات. وأخيرًا فقد كانت القوى الطبيعية الأربع (التى وجهت نشأة الكون والمسئولة عن بقائه) متوحدة فى قوة واحدة داخل المفردة، وهو ما يحتاج لبناء مُسَرِّع يتجاوز حجمه حجم المجموعة الشمسية.!!

ورأينا أن الفوضى والتبعثر اللذين أعقبا الانفجار الكونى الأعظم **قد انتظمتا فى منظومات شديدة الانضباط**، وهو ما يحتاج لمنظم دقيق من خارج المنظومة كما يبين القانون الثانى للديناميكا الحرارية.

وهل يكون هذا المنظم إلا الله «**الحكيم**» «**العليم**» «**القدير**»...

وقد عرجت بنا هذه النشأة «**من الكون إلى المُكَوِّن**»، إذ تشير بسماتها الخارقة إلى ثلاثة مفاهيم أساسية تُعتبر بمثابة المقدمات المنطقية التى **تدل جميعها على وجود الإله الخالق**:

البرهان الكونى؛ وينطلق من نشأة الكون من عدم.

برهان الضبط الدقيق، وينطلق عن دقة بنية الكون وقوانينه.

المبدأ البشرى؛ وينطلق من أن الكون مبنى على هيئة تجعله ملائمًا تمامًا لنشأة الحياة وظهور الإنسان.

إن الاستنتاج المنطقى من هذه المقدمات لا يكون إلا وجود الإله الخالق.

كذلك تتفق نشأة الكون التى ذكرناها مع الصورة الكلية الجامعة لهذا الحدث الأعظم كما جاءت فى القرآن الكريم، والذى ترك التفاصيل لجهود علماء الفلك والفيزياء النظرية.

بعد ذلك، عرجنا إلى صفات الألوهية كما تبينها أحدث المفاهيم العلمية حول نشأة الكون.

فبدأنا بنظرة سير أنتونى فلو (زعيم الإلحاد السابق) إلى الصفات التى ينبغى أن تتوافر فى السبب الأول (الإله) الخالق للكون، والتى لا يمكن أن تتوافر فى الطبيعة العمياء. وهذه الصفات هى: واجب الوجود، وجوده لا يحتاج لسبب، أزلى أبدى، غير مادى ولا يحده مكان، مطلق القدرة، مطلق المعرفة، قادر على اتخاذ القرارات.

سبحان ربى ﷻ...

ثم قمنا بجولة عبر الزمان والمكان، نتدبر فيها بعض ما تشير إليه نشأة الكون من صفات ينبغى أن تتوافر فى السبب الأول المنشئ للكون.

كانت صفات «الخالق» «البارئ» «المصور» أول صفات إلهية يشئ بها تدبر نشأة الكون. فأى عمل إنشائى، يحتاج فى البداية إلى التصميم (تقدير)، ثم إلى إخراجه إلى أرض الواقع تبعًا لهذا التصميم. وهذا ينطبق على الكون، فالله ﷻ هو «الخالق» باعتباره المقدر والمصمم للكون، وهو «البارئ» من حيث أنه مخرجه إلى أرض الواقع، وهو «المصور» الذى أخرج الكون تبعًا للتقدير.

جاءت بعد ذلك صفات «الموجد» «الهادى» «القيوم» «الحفيظ». فقد بينا أن منشئ الكون ينبغى أن يكون قادرًا على الإيجاد (الموجد)، قادرًا على الهداية للتشغيل (الهادى)، قادرًا على المتابعة (القيوم)، وقادرًا على الإبقاء وتحقيق الاستمرارية والإدامة (الحفيظ).

ولا شك أن صفة «الحكيم» هى أوضح الصفات التى يكشفها خلق الكون، حيث تتجلى الحكمة فيما مَيَّـزَ عملية الخلق من تطوير النشأة تبعًا لتقدير مُسبق وغائية تتجلى فى مراحل

الخلق. وتتجلى الحكمة أيضًا فيما احتاجته عملية الخلق من دقة وذكاء، وكذلك فيما ميز بنية الكون من انضباط وقابلية للتنبؤ. وهذا ما حدا أينشتين لأن يقول مقولته الشهيرة: «**إن أكثر الأمور استعصاء على الفهم فى الكون، أنه قابل للفهم** Conprehensible».

وتأتى بعد ذلك صفات «**البديع**» «**المبدى المعيد**»، التى لمسناها فى خلق النجوم من متتالية الجيل الأول ثم الثانى ثم الثالث، أى هى أجيال متلاحقة يبدأ فيها الخالق الخلق ثم يعيده، مع وجود إضافة فى البنية تجعل كل جيل إبداع غير مسبوق.

وأخيرًا وليس آخرًا، وقفنا مع صفتى «**القابض الباسط**» الحاكمة لآلية توسع الكون وانبساطه، كما تحكم تمدد وانكماش النجوم النابضة.

هكذا قادتنا دراسة نشأة الكون، إلى التحقق ببعض الصفات التى ينبغى أن يتمتع بها منشئ الكون، والتى هى بعض صفات ربنا ﷻ.



الفصل الرابع

الألوهية وخلق الحياة

- ماهية الحياة
  - أكذوبة الخلية البدائية
- تعقيد ظاهرة الحياة
  - الإعجاز من خلال الأرقام
  - السمات الوجودية للحياة
    - أولًا: الحياة = المعلومات
    - ثانيًا: الحياة منظومة ذكية
    - ثالثًا: الحياة ونظام التشفير ومعالجة المعلومات
    - رابعًا: القدرة على التشكيل
    - خامسًا: للكائنات الحية هدف متأصل فى بنيتها
    - سادسًا: ذاتية التحكم
    - سابعًا: العمل كوحدة واحدة
    - ثامنًا: القدرة على التكاثر
    - تاسعًا: الموت
- نشأة الخلية الحية
  - عجز الصدفة
  - أين الحقيقة؟
- سر أسرار بيولوجيا الحياة: المكون المعرفى
  - وصفة صناعة الحساء
  - من أين جاءت المعلومات
- لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له
  - التحدى
  - الحياة والروح
- العجز عن الإدراك إدراك
- صفات الألوهية وخلق الحياة
  - الله ﷻ؛ المحيى (الحياة أعظم النقلات فى تاريخ الطبيعة)
  - الله ﷻ؛ المحيى المميت (الموت مخلوق له آلياته، تمامًا كالحياة)
  - الله ﷻ؛ الخالق الحكيم - العليم الخبير (الحياة منظومة معلوماتية ذكية)
  - الله ﷻ؛ الخالق - البارئ - المصور (تقدير فإيجاد)
  - الله ﷻ؛ الظاهر الباطن (العلم الإلهى - الشفرة الوراثية - البنية المادية)
  - الله ﷻ؛ الواحد (وحدة النسيج تعنى وحدة الخالق)
  - الله ﷻ؛ الحفيظ - الوارث (علاقة تبادلية بين الحفظ والوراثة)
  - الله ﷻ؛ الغنى - الصمد (المستغنى الذى يُلتجأ إليه)
- القارئ الكريم

ماهية الحياة

مثل كل المفاهيم الأساسية الأولية، لا يمكن وضع تعريف محدد للحياة، بل نتعرفها من خلال مظاهرها وسماتها. لذلك تتم دراسة الحياة على مستويين؛ الأول هو «المستوى البيولوجي Biological»، وهو مستوى سطحي يشمل بنية الخلية الحية وتركيبها الكيميائي، كما يشمل وظائفها التي يقوم بها. ويشبه ذلك وصفنا للوحة فنية بأنها عبارة عن ألوان زيتية وُضعت على قطعة من القماش ويحيط بها إطار مُذَهَّب، أو كما نصف الصورة في شاشة التليفزيون بأنها تتكون من Pixels[1].

أما المستوى الثاني لداسة الحياة فهـو «المستوى الوجودي Ontological»، وهو يقابل المعاني والمشاعر التي تحملها لوحة الفنان أو العمل التليفزيوني. وهذا المستوى يختلف تمامًا عن المستوى البيولوجي، فهو يدرس السمات الأعمق لنشاط الخلية الحية والتي تختلف عن وظائفها البيولوجية المعتادة، كالذكاء والشفرة الوراثية والغائية، وهي السمات الأقرب لحقيقة الحياة.

وعندما نسأل المتخصصين عن أصل الحياة، يسارع معظمهم بالحديث عن المواد الكيميائية والظروف الفيزيائية التي سبقت ظهور الكائنات الحية، ويطرحون النظريات لتفسير نشأة الوظائف البيولوجية للخلية، لكنهم لا يتعرضون لأصل الحياة بالمستوى الوجودي؛ وهو كيف اكتسبت جزيئات المادة غير الحية السمات الوجودية المميِّزة للخلية الحية.

أكذوبة الخلية البدائية

لا شك أن الخلية الحية هائلة التعقيد. ويخبرنا عالِم الوراثة مايكل دينتون[2] أن النقلة من المادة غير الحية إلى الخلية الحية هي أهم وأعظم النقلات في تاريخ الطبيعة، فالفرق بين أقرب الموجودات إلى الحياة، وهي البللورات، وبين الخلية الحية فرق هائل. ويرى دينتون أن الشواهد كلها تشير إلى أن الخلية الحية قد ظهرت من البداية مكتملة، بل وقادرة على القيام بكل الوظائف التي تقوم بها أرقى الثدييات (عدا الإنسان) كالتكاثر والحركة والتنفس والاغتذاء

(١) البِكْسِل: أصغر عنصر منفرد يمكن تمثيله والتحكم في خصائصه من مكونات الصورة على الشاشات الرقمية.
(٢) Michel Denton: عالِم البيولوجيا الأسترالي المهتم بالوراثة البشرية، ولد عام ١٩٤٣.

والإخراج.... ومن ثم، لا يمكن القول بوجود «الخلية البدائية البسيطة Primitive Cell» التى نشأت تدريجيًا ثم تطورت عنها الكائنات، بل إن الخلية الأولية (كالبكتريا التى لا نواة لها) أكثر تعقيدًا من الناحية الوظيفية من الخلايا المتميزة التى تخصصت (كالخلايا العضلية والخلايا الجلدية)!!

ويؤكد هذا المعنى جاكو مونود[1] البيولوجى الحائز على جائزة نوبل قائلًا: ليس عندنا أى تصور عن خلية بدائية كما يدعى الدراونة، إن أبسط الكائنات الحية بدأت مكتملة.

تعقيد ظاهرة الحياة

الإعجاز من خلال الأرقام

تحتوى أصغر خلية بكتيرية على ١٠٠ ألف مليون ذرة ($١٠^{١١}$)، بينما تحتوى الخلية المتخصصة فى الكائنات عديدة الخلايا (كالإنسان) على ١٠ مليون مليون ذرة ($١٠^{١٣}$).

ويبلغ طول سلسلة الدنا DNA [2] فى الخلية البشرية الواحدة ٢,٠٤ متر، وبذلك يكون طول سلاسل الدنا DNA فى خلايا جسم الإنسان البالغ (عددها قرابة ١٠٠ ألف مليار خلية) = ٢,٠٤ × $١٠^{١٤}$ × $١٠^{-٣}$ = ٢,٠٤ مليار كيلومتر ! وهذه السلسلة تقطع المسافة من الأرض إلى الشمس قُرابة ١٣٦٥ مرة!

ويرث الإنسان من كل من الأب والأم ٦ بيكو جرام (الجرام = ١٠٠٠ مليار بيكو جرام) من الدنا، موجودة فى رأس الحيوان المنوى ومثلها فى البويضة. وهذه الكتلة الضئيلة جدًا من الدنا هى التى تتوارثها البشرية منذ نشأتها وحتى الآن، وهى المسئولة عن المحافظة على الجنس البشرى.

ويحمل الجرام الواحد من الدنا معلومات تعادل ما يحمله مليون مليون قرص مضغوط .C.D، ويحمل دنا كل خلية $١٠^{١٢}$ Bits من المعلومات (يتكون كل حرف من حروف اللغة من ٨ Bits تُسمى One Byte). كذلك فإن مقدارًا من الدنا فى حجم رأس الدبوس يمكن أن يحمل كمية من المعلومات تفوق بليون فلاشة سعتها ٤ جيجا. ومن ثم فالدنا أكثر المنظومات المعروفة سعةً فى حفظ المعلومات.

كذلك فإن الخلية - التى يشغل ٢٠٠ منها ما تشغله نقطة حرف الـ«ب» - تحوى ١٠٠ مليون جزىء بروتينى من ١٠٠,٠٠٠ نوع. وإذا نظرنا إلى جزىء واحد من البروتينات، وليكن الهيموجلوبين مثلًا، نجد أنه يحتوى على ٥٣٩ حمضًا أمينيًا، تمثل تكرارًا للعشرين نوعًا من الأحماض الأمينية التى يحتوى

(١) Jacques Monod: (١٩١٠ - ١٩٧٦) عالِم البيولوجيا الفرنسى الشهير.

(٢) الدنا DNA مادة حمضية موجودة داخل نواة كل خلية من خلايا الكائنات الحية (حمض نووى). يتكون الدنا فى الإنسان من سلسلتين من ٣,٥ بليون زوج من القواعد النيتروجينية (النيكلوتايدات). ويحمل الدنا المعلومات المطلوبة لبناء بروتينات الخلية وكذلك الصفات المطلوب توريثها للذرية، وأيضًا توجه انقسام الخلية وتكاثرها. وتتواجد هذه المعلومات فى الدنا على هيئة الجينات والكروموسومات، وتعرف بالشفرة الوراثية.

عليها جسم الإنسان. وبحسبة رياضية بسيطة نجد أن عدد الترتيبات المحتملة التى يمكن أن تتراص فيها تلك المئات من الأحماض الأمينية لبناء جزىء الهيموجلوبين يعادل الرقم ١ وعلى يمينه ٦٢٠ صفرًا، غير أن ترتيبًا واحدًا هو المناسب كى يؤدى هذا الجزىء وظيفته بكفاءة فى نقل الأوكسجين فى دم الإنسان، بل إن وجود خطأ فى حمض أمينى واحد كفيل بأن يُنتِج جُزيئًا يعمل بطريقة مَعيبة خطيرة أو لا يعمل على الإطلاق.

بعد تراص الأحماض الأمينية لتكوين السلسلة الببتيدية، تأتى أهم عملية فى تخليق جزىء البروتين، وهى الطريقة التى تلتف بها هذه السلاسل. إن هذه العملية هائلة التعقيد؛ فإذا وضعنا المعلومات المطلوبة للف سلاسل جزىء من البروتينات (يتكون من مائة حمض أمينى مثلًا) فى سوبر كمبيوتر ليقوم بهذه العملية بمحاولات عشوائية، فإنه سيستغرق حوالى ١٠ ^١٢٧^ سنة! بينما يتم ذلك فى الخلية فى جزء ضئيل من الثانية. ولو تمت هذه العملية على صورة غير صحيحة فقد تُنتج سمًا قاتلًا، بدلًا من أن تُنتج مادة حية.

لذلك، فإن إمكان تَكَوّن جزىء البروتين بالصدفة يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة على المادة الموجودة فى سائر أنحاء الكون، حتى يمكن للتوافقات العشوائية المثمرة أن تحدث. وتستغرق هذه المحاولات مدة أطول من عمر الكون (تحتاج حوالى ١٠ ^٢٣٤^ سنة !)، كما تحتاج لمسرح تتم فيه يبلغ امتداده ١٠ ^٨٢^ سنة ضوئية (أكبر من حجم الكون الذى يبلغ قطره ٢×١٠ ^١٠^ سنة ضوئية).

ألا يحق لنا أن نسخر من الماديين القائلين بنشأة الحياة عشوائيًّا، ونقول لهم بتهكم «**يا محاسن الصُدَف!!**».

السمات الوجودية للحياة

ذكرنا فى بداية الفصل، أن النظر إلى الخلية بالمنظور البيولوجى (على شدة تعقيده) كالنظر إلى لوحة الموناليزا لليوناردو داڤنشى باعتبارها كمية من الأصباغ التى تلطخ قطعة من القماش ويحيطها إطار مُذَهَّب. ومن أجل الاقتراب من فهم حقيقة الحياة، ينبغى تجاوز هذه «النظرة البيولوجية»[1] إلى «المنظور الوجودى **Ontological**». فالحياة والكائنات الحية تميزها عدة سمات وجودية، تعجز النظرة البيولوجية عن تفسير نشأتها، وأهم هذه السمات:

أولًا: الحياة = المعلومات Life = Information

سنقوم بعد قليل بعرض وتحليل مفهوم «المعلومات»، باعتبارها السمة المحورية للحياة، تحت عنوان: «سر أسرار الحياة: المكون المعرفى».

(١) الصفات البيولوجية للحياة: مثل الحركة والاغتذاء والإحساس والإخراج...

ثانيًا: الحياة منظومة ذكية Life is Intelligent

إن النظر إلى ظاهرة الحياة من خلال المستوى الفيزيائى والكيميائى فقط يضللنا (بل يعمينا) تمامًا عن حقيقتها. إن الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات التى تتكون منها مادة الخلية الحية تُنتج بخلطة معينة قطعة من الفحم الذى نشعله فى الشيشة!، والمكونات نفسها شكلت خلايا مخ أينشتين! إن خلايا أمخاخنا ترصد الواقع من حولها وتتفاعل معه بمشاعر مختلفة، وتتفجر فيها ظاهرة العقل الذى يستوعب كل ذلك ويتذوقه، فيسعد به أو يأنف منه، إنها نفس الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات التى تُكَون الفحم والحجارة والحديد، إنها ليست إلا مجالات الطاقة.

كيف أمكن لمجالات الطاقة أن تتشكل لتُخرج لنا الكائن الحى بصفاته البيولوجية وسماته الوجودية التى نتحدث عنها؟ وكيف تتزايد هذه الصفات والسمات تعقيدًا من الكائنات الدنيا إلى الكائنات الأكثر رُقيًا؟ وهل كانت مجالات الطاقة للمواد غير الحية تحمل بشكل كامن الصفات والسمات التى تميز الكائنات الحية، ثم ظهرت هذه الصفات والسمات وقت ظهور الحياة ؟ إذا كان الأمر كذلك فما الذى أظهرها؟! أم أن الصفات والسمات البيولوجية والوجودية أُضيفت إلى مجالات طاقة المادة غير الحية فدبّت فيها الحياة؟!

أسئلة كَأْدَاء يناطحها الماديون المنكرون للإله الخالق فتُبلِى رءوسَهم.

مما سبق، ندرك أن نظرة الماديين إلى ظاهرة الحياة وإلى الطبيعة بصفة عامة باعتبارها وجودًا يخلو من الذكاء نظرة قاصرة للغاية. وإذا كنا نُعَرِّف الذكاء بأنه القدرة على معالجة وتخليق المعلومات، فإن ظاهرة الحياة وكذلك الطبيعة ليست إلا شبكات متصلة من النظم الذكية التى تظهر لنا فى أربعة مستويات:

١- ذكاءٌ مُنطَمر (خفى) Embedded Intelligence: وتمارسه النظم الذكية التى تتبع قوانين فيزيائية معينة، لكنها ليست ذاتية التصرف. ومثالها الذَرَّة وأمواج البحر.

٢- ذكاءٌ ذاتى Autonomous Intelligence، أو ذكاء نشط Active Intelligence: وتمارسه الكائنات الحية. فهى موجودات مستقلة، ترعى نفسها وتتكاثر، وتتفاعل مع الوجود وتتعلم منه وتؤثر فيه.

٣- ذكاءٌ مدرِك لذاته Self-Aware Intelligence: وهو خاص بالإنسان، الذى يتميز بأنه مدرك لنفسه، قادر على التفكير المجرد وله حرية اختيار.

٤- الذكاءُ المطلق Infinite Intelligence: وهو مصدر الثلاثة أنواع السابقة من الذكاء، وهو من صفات الإله الخالق ﷻ.

ويؤكد «سير جون مادوكس» رئيس التحرير السابق لمجلة «الطبيعة Nature»، أن الحياة قد خرجت منذ حوالى ٣,٧ بليون سنة فى أبسط صورها (البروكاريوتات) وهى تحمل كل الصفات البيولوجية والسمات الوجودية للحياة، لقد تفجرت الحياة، بكل ما فيها من ذكاء، هكذا فجأة. ويضيف مادوكس؛ يبدو أن طبيعة الحياة وكيفية ظهورها سيظل سر الخلق المحير.

ثالثًا: الحياة ونظام التشفير ومعالجة المعلومات

Coding System and Information Processing

تعتمد جميع الكائنات الحية على منظومة شديدة الذكاء، هى «نظام التشفير Coding System ومعالجة المعلومات Information Processing»[١].

فالمعلومات الخاصة ببناء البروتينات وبكيفية عمل الخلية، وكذلك صفات الكائن الحى التى سيتم تمريرها إلى الأجيال التالية، تكون «مشفرة» فى دنا DNA جينات الخلية باستخدام أربعة أحرف[٢] تتراص بترتيب رياضى مختلف.

ويتم نقل المعلومات من الجينات الموجودة بنواة الخلية إلى الريبوزومات فى السيتوبلازم، ويقوم بهذه المهمة الحمض النووى الرنا المِرْسال m RNA (يقابل الأسلاك التى تنقل الشفرة فى نظام التلغراف). وتقوم الريبوزومات بفك الشفرة وفهم محتواها

(١) يشرح «ديفيد بيرلنسكى David Berlinski» (عالِم الرياضيات والفلسفة) المقصود بهذا النظام، فيقول: إن نظم التشفير هى نظم تربط بين شيئين أو بين نظامين باستخدام الرموز. من أجل أن نفهم ذلك، فلنتأمل شفرة موريس Morse Code (التلغراف) التى تقوم على خطوات ثلاث: التشفير ـ نقل المعلومة ـ فك الشفرة.
فالمرسِل يُحَوِّل حروف الكلمات التى يريد إرسالها إلى رمزين (نقاط وشُرَط)، ويتم التعبير عن جميع الحروف بهذين الرمزين بطريقة رياضية (عملية التشفير Coding).
(أ =.ـ   ط =..   و =...   وهكذا).
ثم تُحَوَّل هذه الرموز إلى إشارات كهربائية يتم نقلها عن طريق الأسلاك إلى مكان المستقبِل، الذى يقوم بفك الشفرة وترجمتها إلى معناها الأصلى Decoding.

(٢) هذه الحروف الأربعة هى أربعة مركبات كيميائية، من مجموعة تُعرف بـ «النكلوتايدات Nucleotides = القواعد النيتروجينية»، ويُرمز إليها بالحروف A - T - C - G.

Translation = Decoding، واستعمال هذا المحتوى المعلوماتى فى ترتيب الأحماض الأمينية لتكوين البروتينات المختلفة التى تقوم بمعظم وظائف الخلية[١].

إن هذه الشفرة الوراثية الموجودة فى جميع الكائنات الحية، من أدناها (البكتريا) إلى أرقاها (الإنسان)، لا يمكن أن تكون «محصلة كَمِّية» للصفات الفيزيائية والكيميائية لعناصر مكوناتها، ليس فقط لما عليه هذه المكونات من تعقيد فى البنية والوظيفة، لكن لأن مكونات هذه الشفرة تعمل بصورة تكاملية متناغمة تحتم أن تكون قد انبثقت إلى الوجود متكاملة منذ الخلية الأولى، ولم يتم التوصل إليها تدريجيًا.

إنها «الحياة» الذكية وراء نظام التشفير المبهر، ويعبر الفيزيائى الكبير بول ديفيز عن ذلك فى دقة وبساطة بقوله: «إن استخدام نظام التشفير فى كتابة وتفعيل لُغَتَىّ الحياة (الأحماض النووية والبروتينات) ثم فى نقل المعلومات بينها يُعتبر أمرًا شديد الإلغاز، بل يُعتبر معجزة، إذ كيف تستطيع تفاعلات كيميائية لا بصيرة لها أن تقوم بهذا التنسيق؟!».

رابعًا: القدرة على التشكيل Morphogenesis [٢]

ليس الدنا مستودعًا للمعلومات فقط، بل إنه يقوم بتوجيه آلية بناء البروتينات (الدنا ـ الرنا ـ الريبوزومات)، أى تحويل المعلومات إلى وجود مادى ثلاثى الأبعاد. وتقوم نظم أخرى

(١) نضرب مثالًا لنظام التشفير ومعالجة المعلومات، يُظهر ما فى هذا النظام من ذكاء، ويقربنا أكثر من فهم طبيعة الحياة: يستعين العازفون لسيمفونية بيتهوفن الثالثة (البطولة) ـ كمثال ـ بشيئين أساسيين، الآلات الموسيقية التى صُنعت بمهارة عالية من خاماتها الأولية، والنوتة الموسيقية التى كُتبت بمهارة باستخدام لغة أبدعها موسيقيون نبغاء. هل نقول إن الآلات الموسيقية والنوتة الموسيقية هى جوهر هذا العمل الموسيقى الفذ، أم أنه الذكاء والموهبة والقدرة التى تجلت فى عدد من المراحل:

١ - الفنان الموسيقار المعجزة «بيتهوفن» الذى أبدع السيمفونية.

٢ - مبتكر نظام النوتة الموسيقية، التى هى فى جوهرها تحويل النغمات التى فى عقل الفنان المبدع إلى رموز يُدَوِّنُها بين خطوط السلم الموسيقى «شفرة»، ليقرأها ويفك شفرتها العازف، ويُخرجها إلى الوجود على هيئة نغمات يجسدها لنا من خلال آلته الموسيقية.

٣ - الصانع الماهر الذى صنع الآلات الموسيقية فى صبر وأناة، حتى إن بعضها يباع بمئات الآلاف من الجنيهات.

٤ - العازف الماهر الذى تدرب لسنوات طويلة (تبدأ عادة من طفولته)؛ ليُطَوِّع الآلة الموسيقية لإخراج هذه النغمات الساحرة.

٥ - مستمعون يمتلكون آذانًا موسيقية؛ ليتذوقوا النغمات التى تنساب من حولهم.

وبالقياس على هذا المثال، نجد أن الدنا DNA هو «المسودة الحية Living blue print» لنشاط الخلية، وهو فى ذلك يقابل النوتة الموسيقية. بينما تقابل الريبوزومات العازفين، فهى تقوم ببناء البروتينات التى تقابل اللحن المعزوف.

(٢) الترجمة الشائعة لاصطلاح «Morphogenesis» هى «التصوير»، لكننا نعتقد أن الترجمة إلى «تشكيل» أقدر على توصيل المعنى.

فى الخلية بتوجيه هذه البروتينات لإخراج الشكل النهائى للكائن الحى[1]، عن طريق استخدام عائلة من البروتينات الفائقة التى تُسمى «المُشَكِّلات البروتينية Morphogenic Proteins».

ويمكن أن نوضح «عملية التشكيل Morphogenesis» بمثال يُقَرِّب الصورة: إنه نظام لتحويل كلمات نخطها على أوراق نَصِف فيها بدقة هيئة إنسان إلى إنسان حقيقى (من لحم ودم)! أليس هذا من أساسيات ظاهرة الحياة؟

خامسًا: للكائنات الحية هدف متأصل فى بنيتها = الغائية Purposefulness

من السمات الأساسية المميِّزة للحياة أن للكائنات الحية غرضًا أو هدفًا متأصلًا فى بنيتها، وهو «المحافظة على وجودها»، وهو هدف لم يكن موجودًا فى المادة غير الحية التى نشأت منها هذه الكائنات. وعندما لاحظ أرسطو هذه العلاقة، عَرَّف الحياة بأن يكون الشىء حريصًا على وجوده.

ويعين على تحقيق هذا الهدفَ الأساسى أهدافٌ أخرى ثانوية تدفع الكائن الحى وتوجهه فى حياته، وأهمها بلا شك التكاثر الذى يخدمه الجنس، ثم هناك الاغتذاء والحركة والإخراج وغيرها. وقد جُعل هدف «المحافظة على الوجود» وكذلك الأهداف الثانوية التى تخدمه فطرة غريزية، حتى أصبحت الحياة سمة قوية هادرة تفرض نفسها فى الكائنات الحية!

سادسًا: ذاتية التحكم Autonomous

تحتاج السيارة الأتوماتيكية المزودة بكمبيوتر متقدم إلى من يصممها ويُصَنِّعها، ثم تحتاج إلى من يمدها بالطاقة، ومن يُشَغِّلها ويختار لها الوجهة ويقودها إليها. أما الكائن الحى فقد زوده مصممه الذكى (الله ﷻ) بالقدرة على التكاثر فلا يحتاج إلى من يُصَنِّعه، كما أمده بالآلية اللازمة للحصول على الطاقة من الغذاء والأكسجين، ووضع أهدافًا متأصلة فى بنيته لتوجهه لفعل وتحصيل ما فيه منفعته، كل ذلك دون احتياج إلى عون خارجى.

كذلك إذا قارنا الكائن الحى بالروبوت (الإنسان الآلى) الذى يُتوهم فيه التحكم الذاتى، وجدنا أن هذه الآلة تحتاج إلى من يقوم بتصنيعها وبرمجتها وإمدادها بالطاقة وصيانتها. لذلك يصبح «التحكم الذاتى» سمة شديدة الخصوصية والدلالة على الحياة.

(١) كأن تحدد بنية كل عضو وهيئته وموضعه. مثلًا الكُلى تتكون من كذا وكذا، وهيئتها كشكل حبة نبات الفاصوليا، وتقع الكليتان فى موضع كذا من البطن. وهكذا كل أعضاء جسم الكائن الحى.

سابعًا: العمل كوحدة واحدة Unity

تقوم جميع الأنشطة البيولوجية والسمات الوجودية بخدمة الكائن الحى باعتباره كيانًا واحدًا. وإذا كان يسهل تصور حدوث هذا الأمر فى الكائنات وحيدة الخلية، فهو يصعب كثيرًا فى الكائنات عديدة الخلايا. فهذه الكائنات تنشأ كخلية واحدة (البويضة المخصبة = الزيجوت) تنقسم إلى ملايين وربما مليارات الخلايا، ثم تقوم كل مجموعة من هذه الخلايا بالتمايز لتصبح نسيجًا ثم عضوًا محددًا، وتعمل هذه الأنسجة والأعضاء فى تناغم لتشكل وتخدم هذا الكائن الذى يشعر أنه وحدة واحدة. ومهما بلغ العلم من تقدم، فستظل وحدة الكائن الحى على المستوى البيولوجى وعلى المستوى الوجودى مُحَمَّلة بالأسرار[1].

ثامنًا: القدرة على التكاثر Replicable

التكاثر آلية أساسية للحياة، فلولاه لتلاشى الفرد الأول من كل نوع من الكائنات الحية بالموت، لذلك كانت نشأة التكاثر لازمة من أجل المحافظة على الأنواع من خلال الصغار.

وقد بدأ تكاثر الكائنات الحية بأسلوب لا جنسى، يُنتج كائنات مماثلة تمامًا فى جيناتها للكائنات الأصلية، وما زال هذا التكاثر سائدًا فى الكائنات الأولية كالبكتريا والفطريات. ثم ظهر التكاثر الجنسى الذى تختلط فيه جينات الأم مع جينات الأب، فتُخرج كائنات ذات بنية جينية جديدة تحقق تنوعًا هائلًا فى أفراد النوع الواحد.

وما زال ظهور التكاثر الجنسى الذى تطلب تمايز الكائن إلى جنسين (ذكر وأنثى)، كما تطلب ظهور ظاهرة الشيخوخة والموت (كما سنرى بعد قليل)، من الأسرار البيولوجية التى لا يعرف لها العلم تفسيرًا.

تاسعًا: المـوت Death

كانت الخلايا البكتيرية التى تتكاثر «لاجنسيًّا» عن طريق الانقسام الثنائى البسيط لا تعرف الموت الطبيعى! ولم تكن لتموت إلا بعامل مميت، كحرارة مرتفعة أو برودة شديدة أو إشعاع أو....

(١) حتى نـدرك مدى تعقيد هـذه السمة، وأنها ليست أمرًا بديهيًّا، نشير إلى أن المرضى المصابين بتلف معين فى الفـص الجدارى الأيمن من المخ قد يعانون عدم القدرة على التعرف على أحـد أعضائهم (كالذراع مثلًا) باعتباره جزءًا مـن أجسادهم، وربما اعتبروه ثعبانًا مثلًا، وتُعرف هذه الحالة المرضية بـ «متلازمة الكف الغريبة» Allien hand Syndrome أو Hemineglect

ثم كان ظهور «**التكاثر الجنسى**» وما صاحبه من تخصيص أعضاء معينة للتكاثر، ومعه نشأت ظاهرة الموت الطبيعى الذى يعقب هِرَم وشيخوخة الكائنات، ولا شك أن ذلك احتاج إلى نشأة آليات للموت. وقد كان ذلك منذ قرابة ٨٠٠ مليون سنة، أى أن الحياة ظلت سائدة دون موت طبيعى قرابة ثلاثة بلايين عام!

وقد كان نشوء الموت حتميًّا للحفاظ على الكائنات عديدة الخلايا، بل وعلى الحياة على كوكب الأرض ككل! وذلك لما يحققه من:

١- استبعاد الأفراد الهَرِمَة أو التى ظهرت فيها طفرة ضارة.

٢- إفساح المكان لأفراد جدد، فلو أُتيح البقاء لكل الأفراد التى تكونها أنثى واحدة من حيوان نجم البحر مثلًا (من الرخويات)، فإن نجوم البحر الناشئة ستملأ المحيط الأطلسى بكامله بعد سبعين عامًا !

٣- إعادة تدوير Recycling مواد الطبيعة التى تتألف من عدد ثابت من الجسيمات تحت الذرية لسد حاجة الكائنات الجديدة، فقد تحدد عدد الكواركات والإلكترونات التى تشكل المادة منذ الثانية الأولى من الانفجار الكونى الأعظم!

٤- يتم تكوين الكثير من أعضاء الجسم عن طريق موت بعض الخلايا، كما يحدث من اختفاء الأغشية الجلدية بين أصابع الجنين لتشكيل هذه الأصابع.

سبحان الله... أللموت كل هذه الفوائد؟!

نشأة الخلية الحية

ينظر العلم الحديث إلى أى موجود باعتباره مكونًا من شقين: مكون مادى ومكون معرفى. لذلك ينبغى عند التصدى لدراسة نشأة الخلية الحية أن نبحث عن مصدر هذين المكونين.

ويمكن النظر إلى نشأة (**المكون المادى**) للخلية كمثلث، أحد أضلاعه هو **نشأة البروتينات** التى هى الوحدات البنائية لمعظم مكونات الخلية الحية، وضلعها الثانى هو **نشأة الدنا وآلية التشفير** التى يقوم بها، أما الضلع الثالث فهو **نشأة غشاء الخلية** المعجز الأعجوبة الذى يحيط بها. وسنناقش **المكون المعرفى** للخلية الحية بعد قليل.

عجز الصدفة

يُشَبِّه الفيزيائى الكبير سير فريد هويل فرصة تشكل جزىء بروتينى واحد عشوائيًّا بمرور إعصار على مخزن للخردة فتتبعثر محتوياته لتشكل طائرة نفاثة من طراز بوينج ٧٤٧ [١] ! وقد أثبتت الحسابات استحالة تَكَوّن جزىء بروتين واحد بالصدفة (مثل الهيموجلوبين) خلال عمر الكون كله، فما أدراك بآلاف الجزيئات البروتينية التى تحتاجها الخلية الحية؟!

ويُعبر فرانسس كولنز[٢] عن دهشته من ظهور الحياة خلال مائة مليون سنة فقط بعد أن بردت الأرض، ويقول: **إن كل ما طرح من آليات لا يفسر شيئًا.**

وبالرغم من عدم تعاطفه مع المعجزات، يقول سير فرانسس كريك[٣]: **يبدو أن الحياة قد نشأت بمعجزة، أو أنها جاءت إلى الأرض من كوكب آخر[٤]**. لا تتعجب قارئى الكريم، ففرانسس كريك أحد العلماء الأمناء الذين لم يقتنعوا بإمكانية نشأة الحياة على كوكب الأرض بالعشوائية، ففضلوا ترحيل المشكلة برمتها إلى حيث لا نستطيع دراستها، وكأنهم يقولون لنا **لا تتعبوا أنفسكم فى البحث**. لكن فرانسس كريك كان أمينًا مع نفسه عندما ترك الباب مفتوحًا للتدخلات الإلهية حين وصف نشأة الحياة بأنها **قد تكون معجزة**.

(١) طرح العلم الحديث عدة صعوبات تعترض تكوين جزىء البروتين من الأحماض الأمينية بالصدفة. أول هذه الصعوبات هى تكون السلاسل الببتيدية Peptide Chains عن طريق اتصال الأحماض الأمينية، ففرصة تَكَوّن سلسلة ببتيدية واحدة من ١٠٠ حمض أمينى بالعشوائية هى $١٠^{-٦٠}$ وهى فرصة ضئيلة للغاية، كما أنها تتعارض مع القانون الثانى للديناميكا الحرارية الذى يرى أن المنظومات تسير إلى مزيد من الفوضى ما لم ينظمها منظم. ويخبرنا الفيزيائى بول ديفيز أنه فى ظروف نادرة للغاية يمكن أن تسير المنظومة إلى البناء بدلًا من الفوضى، لكن ذلك يحتاج محلولًا من الأحماض الأمينية يشغل الكون كله للحصول على سلسلة ببتيدية واحدة قصيرة!
أما الصعوبة الأكبر فى تشكيل جزىء البروتين فهى أن تلتف السلسلة الببتيدية بشكل متفرد شديد التعقيد لتُكَوِّن هذا الجزىء. إن فرصة أن يحدث ذلك بالصدفة فى سلسلة طولها مائة حمض أمينى هى $١٠^{-١٣٠}$، أما احتمالية تكون البروتينات المطلوبة لخلية واحدة فتبلغ ١×١٠^{-٤٠٠٠٠}.

(٢) Frencis Collins: عالم البيولوجيا الجزيئية ورئيس مشروع الجينوم البشرى، يؤمن بالتطور الموجه، ألف عدة كتب أشهرها «لغة الإله». يشغل الآن منصب عميد كلية الدراسات العليا بالفاتيكان. ولد عام ١٩٥٠.

(٣) Francis Crick: (١٩١٦ - ٢٠٠٤) الحاصل على جائزة نوبل مشاركة، لمساهمته فى اكتشاف بنية الدنا وطريقة أدائه لوظيفته.

(٤) فَسَّرَ بعض العلماء ظهور الحياة على كوكب الأرض بأن الفضاء الخارجى ملىء ببذور الحياة (من أين جاءت؟!!) التى تبدأ فى النمو عند الوصول إلى الكوكب المناسب. وادعى هؤلاء أن هذه البذور قد غزت الأرض محمولة على النيازك، متجاهلين أن الحرارة الهائلة والإشعاع الذى ستتعرض له هذه الكائنات الدقيقة كفيلة بالقضاء على جميع أشكال الحياة. لذلك قال آخرون: إن كائنات عاقلة من كواكب أخرى قد حملت معها هذه البكتريا داخل سفن الفضاء! وبعد ذلك بدأ التطور الداروينى! وتعرف هذه الفرضية بانتشار البذور **Panspermia Theories**

لذلك أصبح من يتمسك بمنظور العشوائية والصدفة فى تفسير نشأة الحياة لا يُثبت إلا جهله الشديد بقوانين الصدفة وأيضًا بعلم البيولوجيا. لذلك فإن معظم العلماء الماديين المهتمين بأصل الحياة (منذ ستينيات القرن العشرين) يرفضون منظور الصدفة ويكتفون بالاعتراف بعجزهم عن التفسير، وإن كان عوام البيولوجيين ما زالوا يعتقدون أننا لو تركنا الأحماض الأمينية معًا لعدة ملايين من السنين فستبزغ الحياة!!

أين الحقيقة

يحدد بول ديفيز جوهر الحياة قائلا: «الحياة ليست مجرد تنظيم، بل إنها تنظيم ذاتى توجهه الخلية من داخلها». فإذا كانت تيارات الحمل[1] (مثلًا) عبارة عن تنظيم يحدث من تفاعل العوامل الخارجية (الطاقة الحرارية) مع خصائص الماء، فإن تنظيم الخلية الحية يتم من داخل الخلية (الجينات ـ العوامل المنظمة للجينات ـ غشاء الخلية ـ ...).

ويضع ستيفن ماير[2] يده على كبد الحقيقة، فيقول: ليس الأهم لتفسير نشأة الحياة معرفة مصدر مكوناتها المادية، ولكن الأهم هو معرفة مصدر المعلومات المطلوبة لتشكيل الخلية. فالحياة ليست ظاهرة كيميائية لكنها ظاهرة معلوماتية. وهذا ما سنوضحه الآن.

سر أسرار بيولوجيا الحياة

المكون المعرفى

قَرَّبنا ستيفن ماير من سر الحياة حين ذكر أن الحياة ليست «ظاهرة كيميائية»، لكنها «ظاهرة معلوماتية». فما معنى ذلك؟

نبدأ طرحنا بأن المعلومات مطلوبة لنشأة الخلية الحية وقيامها بوظائفها على مستويين:

المستوى الأول: المعلومات اللازمة لتشكيل مكونات الخلية الحية ثم ربطها ببعضها. وتكمن هذه المعلومات فى تصميم الخلية ككل، وفى تصميم كل جزء من أجزائها، وفى إخراج

(١) تيارات الحمل هى حركة جزيئات الماء فى أشكال نصف دائرية فى أثناء تسخينها وقبل الوصول إلى الغليان.

(٢) Stephen Meyer: أستاذ فلسفة العلوم الأمريكى، من أعمدة مفهوم التصميم الذكى ومؤسسة ديسكفرى. ولد عام ١٩٥٨م.

هـذه الأجـزاء إلى الوجود، وفى تجميعها بالنسـب المطلوبة، وفى إيجاد التناسـق بين هذه الأجزاء وبين مصدر المعلومات ومصدر الطاقة.

المسـتوى الثانى: المعلومات التى تحملها الشـفرة الوراثية فى الدنا DNA، والمسـئولة بشكل كبير عن نشاطات الخلية المختلفة.

ولنقترب الآن من فهم معنى «المعلومات».

وصفة صناعة الحساء...

فى كتاب «المعلومات وأصل الحياة»[1] يلفت برند أولاف كوبر (أستاذ الفلسفة الطبيعية الألمانى) نظرنا إلى أنه من أجل أن نصنع حساءً جيدًا لا يكفى أن يكون لدينا مكونات الحساء ومصدر الطاقة فقط، بل لا بد أن يكون عندنا وصفة الصنع بتفاصيلها. لذلك فإن الاقتراب من معرفة أصل الحياة لا يتحقق إلا إذا عرفنا مصدر المعلومات التى يحتاجها بناء الخلية والتى تحملها الشفرة الوراثية.

وفى مقال بمجلة العلوم (ديسمبر ٢٠٠٣) يقربنا جاكوب بنكيمستين[2] من القضية بطرح مثير للاهتمام فيقول: إذا سألت معظم الناس عن أصل العالم المادى لقالوا (المادة والطاقة)، لكن إذا كنا قد استوعبنا ما تعلمناه فى المدرسة والجامعة عن الفيزياء لأدركنا أن العالم يتكون فى المقام الأول من «معلومات»، وأن المادة والطاقة عنصران إضافيان. انظر إلى الروبوت الذى يقوم بتجميع القطع المختلفة بمصنع السيارات، لا شك أن ما يمدونه به من قطع معدنية ولدائن سيصبح بلا قيمة ما لم يوجد برنامج الكمبيوتر الذى يغذى الروبوت بالمعلومات.

ويخبرنا ستيوارت كوفمان[3] العالِم المهتم بأصل الحياة «إذا أخبرك أى إنسان أنه يعرف كيف نشأت الحياة على كوكب الأرض منذ حوالى ٣,٧ بليون سنة فإنه إما جاهل غبى أو محتال. لقد تبدلت النظرة الآن إلى الحياة، فلم يعد أحدٌ من البيولوجيين المحترمين يعتقد أن المادة والطاقة يمكن أن تعـطيان حـياة! بـل هـى المعلومات». إن مشكلة الدراونة أنهم ما زالوا يطرحون مفاهيم دارون (منتصف القرن التاسع عشر) ـ التى تجهل أهمية المعلومات ـ فى القرن

(١) كتاب Information and the Origin of Life لمؤلفه Bernd- Olaf küpper
(٢) Jacob D. Benkemstein عالم الفيزياء النظرية المكسيكى، من مؤسسى مفهوم الثقوب السوداء. ولد عام ١٩٤٧.
(٣) Stuart Kauffman: أستاذ البيولوجيا الأمريكى الشهير. ولد عام ١٩٣٩.

الحادى والعشرين. لا شك أن دارون لو كان معنا لَمَا قال بالتطور العشوائى لتفسير تنوع الكائنات، ولا بالتطور الكيميائى لتفسير ظهور الحياة.

من أين جاءت المعلومات...

والسؤال المعجز فى صعوبته (والمذهل فى بساطته فى الوقت نفسه) الذى يواجه الدراونة هو: **كيف استطاعت الطبيعة، دون توجيه ذكى، أن توفر المعلومات الهائلة المطلوبة لنشأة الحياة،** والتى تبلغ ملايين الـBits[1] فى أبسط الكائنات (البكتريا)؟ من أين جاءت هذه المعلومات إذا كانت العشوائية قد عجزت تمامًا عن الحصول على مقولة شكسبير To be or not to be that is the question (التى تحتوى على ٤٠٠ Bits فقط) فى أثناء إجراء التجارب على مفهوم الصدفة باستخدام الكمبيوتر؟

ويجيب عن هذا التساؤل سير أنتونى فلو[٢]، أستاذ الفلسفة البريطانى بقوله: «**مهما اختلف سيناريو الحياة، فستظل هناك الحاجة إلى مصدر فائق الذكاء لكل ما يوجد فى الخلية الحية من معلومات**». ويضيف «دين كينيون[٣]» (حُجة البيولوجيا الجزيئية): «**لقد أصبحنا الآن فى مواجهة أعظم الدلائل فى الوجود على وجود الإله الخالق، إنها المعلومات المطلوبة لظاهرة الحياة**».

وعندما استشهدت بهذين القولين فى إحدى المناظرات، سألنى مناظرى: **ما القول إذا توصل العلماء إلى تشكيل الحياة صناعيًّا داخل المعمل؟** أجبته من فورى: سيكون ذلك دليلًا قويًّا على وجود الإله الخالق للحياة! إذ إن الأمر قد حدث فى المعمل **بجهود العلماء** الذين يتوفر لهم الذكاء والمعلومات والإمكانيات، ولم يحدث عشوائيًّا بالصدفة!!

مثال

إذا تأملنا «**موتور السيارة**»، وجدنا **أن السر الذى يجعله يعمل بكفاءة يكمن فى تصميم وصناعة كل جزء من مكوناته العديدة.** فكل جزء من الموتور تمت صناعته من سبيكة ذات

(١) Bit= الوحدة الأساسية لقياس المعلومات. والـByte يساوى ٨ Bits

(٢) تَزَعَّم حركة الإلحاد طوال النصف الثانى من القرن العشرين، ثم أعلن إيمانه بدافع من البراهين العلمية بأن هناك إلهًا، بعد أن بلغ من العمر ثمانين عامًا.

(٣) Dean Kenyon: أستاذ البيولوجيا بسان فرانسيسكو، كان من الدراونة المتحمسين، ثم أصبح من أكبر أنصار مفهوم التصميم الذكى. عرض قناعاته الأخيرة فى كتابه: Biochemical Predestination، الذى صدر عام ١٩٦٩. ولد عام ١٩٣٩.

مواصفات معينة، وله هيئة وقياسات محددة بدقة تبلغ جزءًا من الألف جزء من المليمتر؛ وقد صُنعت أجزاء الموتور بناء على مواصفات يسميها أصحابها «**المُكَوِّن المعرفى**» أو «**سر الصنعة** The Know How»، كل ذلك من أجل أن تتناسق وتتناغم كل قطعة مع القطع الأخرى فى عملها. وما أن نزود الموتور بكارت المعلومات (إذا كان موتورًا إلكترونيًّا) ثم نمده بالطاقة، حتى يدب فيه النشاط. إن هذا السر هو ما يرفع قيمة الموتور الذى لا يزيد ثمن ما فيه من مواد أولية على بضع عشرات من الجنيهات ليباع بعشرات الآلاف من الجنيهات.

ويمكن تطبيق هذا المثال على الخلية الحية، فمكونات الخلية (بروتينات، وأحماض نووية، ودهون، وكحوليات، وسكريات و...) قد صُممت **بدقة هائلة بحيث يتناغم عملها مع بعضها بشكل مذهل**. فهل خلق الله ﷻ كلًّا من هذه المكونات بحيث إذا جُمعت إلى بعضها على هيئة معينة وبنسب معينة ومدت بالمعلومات وبالطاقة دبت فيها الحياة؟ إن معنى ذلك **أن الحياة كامنة فى كل جزء من المادة غير الحية!**

لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له...

نحن الآن أمام مفهومين لتفسير معجزة الحياة. الأول هو مفهوم «**المكون المعرفى**» والثانى هو مفهوم «**النفخة الغيبية**» كسرٍ للحياة. ولا شك أن المفهوم الثانى لن يمارس دوره إلا فى خلية استوفت بنيتها المادية ومكونها المعرفى. إننى أرى فى **كلا الاحتمالين كمالًا للإعجاز الإلهى، فليست النفخة الغيبية بأكثر دلالة على الإله الخالق من بعث الحياة فى الخلية من خلال مكونها المعرفى**.

ولنسترسل مع طرحنا قليلًا؛ إذا استطاع العلماء أن يُصَنِّعوا أجزاء الخلية الدقيقة، ويجمعوها إلى بعضها فقامت الخلية بمهامها الحيوية، هل نقول إنهم قد خلقوا الحياة.. **ألا يتعارض ذلك مع قولنا بأن الله ﷻ هو الخالق وهو المحيى؟**

للإجابة عن هذا الطرح الافتراضى، نعود إلى مثال موتور السيارة. إن من يفكك أجزاء الموتور ويقلدها ويجمعها (الهندسة الرجعية) لا يكون قد اخترع الموتور، لكنه قَلَّدَه. ومن باب أَولَى فإن المصانع التى تقوم بتجميع الأجزاء المستوردة للموتور تكون قد جَمَّعَت الموتور، ولا نقول إنهم اخترعوه، **فالموتور قد تم اختراعه مرة واحدة وانتهى الأمر**.

على من يريد أن يخترع موتورًا أن يُنشئ **شيئًا جديدًا بآليات جديدة**. فمثلًا كان هناك **الموتور البخارى** الذى يمد الآلة بالطاقة من الخارج، ثم أُخترع **موتور الاحتراق الداخلى** الذى

يقوم بإنتاج الطاقة فى داخله، ثم أُخترع الموتور النفاث. كل من هذه الموتورات اختراع جديد تمامًا، أو شبه جديد.

كذلك الحياة، فإن مكونات الخلية الحية بتفاصيلها وآليات عملها وشفرتها الوراثية قد تم خلقها وانتهى الأمر. فإذا قام العلماء بتجميع هذه الأجزاء (المخلوقة بالفعل بجميع خصائصها) فدبت الحياة فى الخلية، فسنقول إنهم قاموا بتجميع الخلية الحية، ولا ينبغى أن نقول إنهم قد خلقوا الخلية[1].

التحدى

ولكن، ألم يتحدَّ الله ﷻ الكفار مجتمعين أن يخلقوا ذبابًا؟ ألا يعنى ما ذكرنا أنهم قد يستطيعون ذلك؟ سؤال قد يخطر على بالك.

وصلنا إلى أن ما يحاول العلماء القيام به هو تجميع الخلية الحية، وليس خلق الخلية ولا حتى تقليدها. فإذا أرادوا أن يخلقوا ذبابًا (والخلق هو الإيجاد من عدم على غير مثال سابق) عليهم أن يخترعوا منظومة جديدة تمامًا للحياة، مثل أنواع الموتورات التى تحدثنا عنها. عليهم أن يُنشِئوا مواد أولية جديدة من العدم، عليهم أن يخترعوا ويُفَعِّلوا القوانين التى تحكم هذه المواد الأولية وهذه المنظومة الجديدة. عند ذلك يكونون قد خلقوا منظومة حية، ولا أظنهم يفعلون.

ولنضرب مثالًا آخر يوضح المقصود. فلننظر إلى القصيدة الشعرية، إن بنية اللغة هى الحروف التى تتكون منها الكلمات، ثم تُكَون الكلمات أبيات القصيدة. كذلك تحكم اللغة قواعد من النحو والصرف وبنية الجملة، كما يحكم الشعر ما نعرفه عنه من بحورٍ وعَروضٍ وقوافٍ وغيرها.

إن ما يقوم به الشاعر أنه يستخدم كل هذا لُيخرج لنا إبداعه الشعرى الجديد. إن ما يفعله العلماء الآن أقل من ذلك بكثير، إنهم لم يخترعوا لغة جديدة، ولم يستخدموا اللغة الموجودة بالفعل لتأليف قصيدة جديدة، إنهم يحاولون نسخ قصيدة مكتوبة بالفعل.

(١) من الضرورى فهم هذا المعنى لدحض «الهوجة» التى أعقبت قيام عالم البيولوجيا الجزيئية «كريج فنتر» بتركيب الشفرة الوراثية لإحدى الخلايا البكتيرية، تبعًا لما هو موجود فى الطبيعة.
لقد قام فنتر بتجميع جزء من مكونات الخلية البكتيرية، وليس أكثر من ذلك.
لتفاصيل الموضوع راجع كتابنا «كيف بدأ الخلق» الفصل الرابع، الناشر مكتبة الشروق الدولية ـ ٢٠١٤ الطبعة الثانية.

بل إذا استطاع العلماء - جدلًا - صياغة شفرة وراثية جديدة تمامًا، فإن ذلك يعنى أنهم قد صاغوا قصيدة جديدة مستخدمين نفس لغة الحياة. سيكونون قد استخدموا نفس المواد (الطوب - الأسمنت - الحديد - الرمل) لبناء فيلا بطراز جديد، مستخدمين نفس قوانين البناء. إن العالَم أصبح الآن مليئًا بأصناف جديدة من النباتات والحيوانات التى توصل إليها العلم عن طريق التهجين وعن طريق الهندسة الوراثية من أجل الحصول على إنتاج أفضل، ولم يُثر ذلك اندهاشنا، ولم يَدَّع أحد أنه قد خلق كائنًا حيًّا جديدًا.

الحياة والروح

لا ينبغى أن ننهى هذا العرض لمفهوم الحياة دون أن نبين مفهومًا مهمًا، وهو أن «الحياة غير الروح» التى يخبرنا القرآن الكريم فى مواضع متعددة أن الله ﷻ قد نفخها فى آدم وفى مريم بل وفى أجنة الإنسان جميعًا. إن هذه النفخة هى الروح وليست الحياة! نعم هناك فرق بينهما.

فالروح خصوصية للإنسان تَمَيَّز بها عن جميع الكائنات واستحق بها الخلافة من الله ﷻ فى الأرض. أما الحياة فهى ما تحدثنا عنه فى هذا الفصل، وهى سمة جميع الكائنات الحية، تختلف بها عن المواد غير الحية؛ لذا يجب أن ننتبه إلى هذا الفرق جيدًا عند النظر فى آيات القرآن الكريم.

إذن يمكن القول إن للإنسان روحين[1]؛ روح حيوانى وهو الحياة التى تشاركنا فيها جميع الكائنات الحية، وروح مدرِك وهو نفخة إلهية نتميز بها عن سائر مخلوقات الله ﷻ.

ولهذين الروحين علاقة بالموت. انظر إلى قول الحق ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر]. نفهم من الآية أن التَوَفى عملية تحدث للإنسان فى حالتين؛ عند النوم وعند الموت، أى أن التَوَفِّى شىء آخر غير الموت. وفى ضوء هذا الفهم نرى أن الإنسان عند النوم تفارقه الروح المدركة مع استمرار الحياة فى جسده، أما عند الموت فتجرى عليه عمليتان، عملية بيولوجية هى الموت الذى يجرى على سائر الكائنات الحية، وعملية التَوَفِّى التى يقوم فيها المولى ﷻ عن طريق ملك الموت باسترداد وديعته (الروح المدرك) التى شَرَّفَ بها الإنسان.

(١) هذا الطرح للإمام أبى حامد الغزالى، فى كتاب إحياء علوم الدين، باب العلم.

العجز عن الإدراك إدراك

يواجه البيولوجيون والفلاسفة الماديون عند دراستهم لأصل وماهية الحياة مأزقًا علميًّا فلسفيًّا لا يُـحسدون عليه، وهو مأزق ذو جوانب متعددة لم يقدموا تفسيرًا لأى منها:

١ - التعقيد الهائل فى بنية أجزاء الخلية (غشاء الخلية ـ الميتوكوندريا ـ الريبوزومات...).

٢- التعقيد المبهر فى بنية ووظيفة جزيئات الحياة (الدنا ـ الرنا ـ البروتينات). وحتى لو تمكن العلم من تصنيع هذه الجزيئات فى المعمل، فالعلم يقوم بذلك تبعًا لدقائق بنية هذه الجزيئات كما خلقها الله ﷻ.

٣- مصدر المعلومات فى الخلية. وهذه تشتمل على طريقة تشكيل كل جزىء من جزيئات المادة الحية، وتوجيه عمله وتحديد تفاعله مع باقى الجزيئات، وكذلك الشفرة الوراثية التى يحملها الدنا.

وهذا التعقيد الهائل والمبهر وهذه المعلومات هى سر الصنعة للخلية الحية The Know How

وحتى نتصور صعوبة الموقف الذى يواجهه الماديون عند محاولة تفسير هذه المعضلات، فلنطالع آراء أقطاب البيولوجيا والفيزياء فى العالم:

- يقول «آندرو كنول»[١] (الأستاذ بجامعة هارفارد):

إذا أردنا تقييم آخر ما توصل إليه العلم حول نشأة الحياة، وجدنا أننا:

١- ما زلنا لا نعرف متى بدأت الحياة بالتحديد !

٢- ما زلنا لا نعرف تحت أية ظروف ظهرت الحياة !

٣- ما زلنا لا نعرف كيف بدأت الحياة على هذا الكوكب !

هذا بخصوص الجوانب المادية لنشأة الحياة، فكيف نفسر السمات الوجودية الأعقد منها؟ وما مصدر «المكون المعرفى» الهائل الذى هو السر البيولوجى للحياة؟

(١) Andrew Knoll: تولى منصب أستاذ التاريخ الطبيعى والحفريات بجامعة هارفارد وهو فى الثلاثين من عمره. من أشهر كتبه كتاب «الحياة على كوكب حَدَث: الثلاثة بلايين سنة الأولى من الحياة Life on a young planet». ولد عام ١٩٥١.

- ويقـول عـالم الفيزياء النوويـة «جيرالد شرويـدر»[1]: إن مجرد وجود الظـروف الملائمة لنشـأة الحياة، لا يفسر لنا كيف نشـأت. نسـتطيع أن نقول (على أحسن تقدير): إن هذه الظروف «سـمحت» بنشـأة الحياة واسـتمرارها على كوكبنا. ولكن **كل قوانين الطبيعة التى نعرفها مجتمعة لا يمكن أن تفسر نشأة الحياة من المادة غير الحية.**

- ويقـول «**أنطونيو لازكانو**»[2] (رئيس الجمعية الدولية لدراسـة أصـل الحياة): من الأمور المنطقيـة والعلميـة التى ينبغى أن نقر بها، أن الحياة ما كانت لتنشـأ دون «**الآليـة الوراثيـة Genetic mechanism**» التى هى فى حقيقتها نظام للتشفير ومعالجة المعلومات، تلك الآلية المسـئولة عن اختـزان المعلومات ونقلهـا إلى الأجيال التالية، مـع إمكانية حدوث بعض التغيرات فيهـا (تطور)، والقادرة كذلك على تحويل المعلومـات إلى وجود مادى ثلاثى الأبعاد. **كيف اكتسبت المادة غير الحية هذه الآلية؟ لا ندرى**[3].

ويقربنا عالم الفسيولوجيا الكبير «جورج والد»[4] (الحائز على جائزة نوبل) من الحقيقة حول أصل الحياة فيقول:

«بالرغم من أنها كانت صدمة لتفكيرى العلمى فى البداية، إلّا أنه ينبغى أن أقر بوجود «الذكاء والتصميم Intelligence and Design» وراء بناء الكون حتى يكون ملائمًـا لظهور

(١) Gerald Schroeder: أمريكى، حصل على الدكتوراه فى الفيزياء النووية والكونيات عام ١٩٦٥ من MIT. ويعمل أستاذًا بالجامعة العبرية فى القدس. وهو من المهتمين بالعلاقة بين العلم والروحانيات، ومن أشهر كتبه God of Science

(٢) Lazcano Antonio: أستاذ البيولوجيا المكسيكى، ومن أشهر كتبه The origin of life

(٣) فى مقابل هذه الأمانة العلمية، نجد البعض يدعى أن الفكر المادى قد قدم شيئًا ذا قيمة لتفسير نشأة الحياة، وفى الحقيقة إنه لم يقدم شيئًا يحترم العقل. انظر إلى بعض أقوال إمام الملاحدة الـجُـدد ريتشارد دوكنز، لترى مدى تهربه وتهافت استدلالاته وعجزها عن طرح أى تصور علمى حقيقى بخصوص معضلة نشأة الحياة وماهيتها. يقول دوكنز، فى مناسبات مختلفة:

- بدأت الحياة نتيجة حدوث تفاعلات كيميائية، أدت إلى توافر الظروف الحيوية التى سمحت بالانتخاب الطبيعى!
- ما أن تَكَوَّن الجزىء الوراثى «الدنا DNA»، حتى بدأ التطور بالانتخاب الطبيعى!
- كيف حدث هذا؟ يؤمن العلماء بالقدرة السحرية للأرقام الكبيرة (عدد الجزيئات، والزمن الممتد) على إنتاج أى شىء!
- كل ما نحتاجه جزىء سحرى وفسحة من الوقت!

ألا ترى معى أنه بهذا الهُراء السحرى يمكن أن تَدَّعى حدوث أى شىء فى أى مكان وزمان.

(٤) George Wald: أمريكى (١٩٠٦ - ١٩٩٧). عمل أستاذًا لوظائف الأعضاء بجامعة هارفارد. حصل على جائزة نوبل عن أبحاثه فى شبكية العين.

الحياة واستمرارها على كوكبنا. والأعقد من ذلك، نشأة الحياة نفسها، ثم خروج الكائنات الحية، التى تتدرج فى الترقى حتى تصل إلى المخلوق العاقل القادر على التوصل إلى الاكتشافات العلمية وابتكار الفن والتكنولوجيا وعلى طرح التساؤلات. أما إذا أنكرنا الذكاء والتصميم، واعتبرنا أن الحياة قد نشأت بالصدفة، فقد اخترنا التفسير الأصعب».

كذلك أدرك عالم البيولوجيا الكبير «جورج تشيرش[1]» الإعجاز الإلهى فى الخلق فقال: تشبه إنجازات البشرية منذ العصر الحجرى وحتى الآن ضوء الشمعة إذا ما قارناه بأكبر النجوم المتفجرة فى الكون. أين نحن مما فعله الإله الخالق؟ نحن لم نوجِد الطاقة والجسيمات تحت الذرية من العدم، نحن لم نصمم الانفجار الأعظم، نحن لم نصمم الحياة والكائنات الحية والمخ البشرى. كل ما نفعله أننا نحاول تقليدها.. لا، نحن نحاول التعامل معها.

صفات الألوهية وخلق الحياة

إذا أردنا أن نوجز نظرة العلم لماهية الحياة لندرك جوانب الإعجاز الإلهى فى خلق الكائنات الحية، نقول:

يُرجع العلم الحديث الحياة للتوافق المذهل والتناغم بين بنية وسمات مختلف جزيئات المادة الحية، وكذلك القوانين التى تحكم سلوك هذه الجزيئات. ويغذى هذه المنظومة مصدر للطاقة، ويوجه ذلك كله أرشيف هائل من المعلومات تحمله الشفرة الوراثية للخلية الحية. إن العلم ينظر إلى الحياة باعتبارها المُكَوِّن المعرفى (سر الصنعة) فى ذلك كله.

وإذا كان القرآن الكريم يخبرنا عن النفخة الروحية الإلهية (السر الغيبى) التى مُيز بها الإنسان فصار كائنًا عاقلًا مريدًا، كما صار بها خليفة من الله فى الأرض، فإن عجز العلم عن التوصل إلى مصدر العقل البشرى يدعم هذا الطرح الدينى. وإذا انتقلنا من الروح إلى الحياة، وجدنا أن الدين لم يخبرنا شيئًا عن مصدر الحياة، وفى الوقت نفسه لم يستطع العلم حتى الآن إثبات أو نفى وجود «سر غيبى» يمازج المكون المادى والمكون المعرفى للخلية الحية. وحتى إذا ثبت عدم وجود هذا السر وثبت أن الحياة تكمن فقط فى المكون المعرفى، فإن جوانب الإعجاز الإلهى فى خلق الحياة ستظل على إعجازها وتحديها.

(١) George Church: عالم الوراثة الأمريكى والأستاذ بجامعة هارفارد، ابتكر العديد من تقنيات البحث فى مجال البيولوجيا الجزيئية. ولد عام ١٩٥٤.

سبحان ربى...

الله ﷻ، المحيى

الحياة أعظم النقلات فى تاريخ الطبيعة

لقد كانت ظاهرة الحياة ضيفًا جديدًا تمامًا على الوجود المادى مثلما كان هذا الوجود ضيفًا جديدًا على العدم المطلق الذى سبقه. وقد عبر عالم البيولوجيا الأسترالى مايكل دايتون عن خطورة هذه الخطوة بقوله: لقد كان بزوغ الحياة أهم وأعظم النقلات فى تاريخ الطبيعة. ولا شك أن نشأة الحياة تُجَلِّى بشكل عام صفة أساسية لخالق الحياة، الله ﷻ، وهذه الصفة هى «المحيى».

ولاشك أن الحياة ظاهرة هادرة كاسحة! فما من مكان فى الأرض إلا وفيه أشكال متنوعة من الحياة، سواء فى فوهات البراكين شديدة الحرارة مرتفعة الضغط أو فى القطبين شديدى البرودة، وفى وجود الأوكسجين أو غيابه، وفى البيئة شديدة الحموضة أو شديدة القلوية، وفى المياه والأراضى شديدة الملوحة، فى كل مكان تجد الحياة فى كوكب الأرض.

وقد أجرى العلماء تجاربهم على حيوان الإسفنج، فقاموا بفرم قطعة منه حتى صارت كالدقيق، ثم تركوها فى بيئة ملائمة، فإذا بكل هباءة من هذا المسحوق تنمو لتصبح قطعة كبيرة من الإسفنج!. وعندما أخذ العلماء عقلة من نبات وزرعوها، نمت بحيث أصبح طرفها الأسفل جذرًا وطرفها الأعلى سوقًا وأوراقًا، وعندما قلبوا العقلة أصبح الطرف الأسفل الجديد هو الجذر والأعلى هو السوق والأوراق!

وأظهرت حسابات العلماء أن زوجًا من الأسماك الرخوية Jelly Fish إذا سُمح له بالتكاثر دون موت أى من صغارها أو فقده، لمدة سبعين سنة، فإنها ستملأ المحيط الأطلنطى!

وما أشد الجهود التى نبذلها نحن الجراحين حتى نقضى على الحياة! المتمثلة فى البكتيريا التى تلوث الجروح (تعقيم، مطهرات، مضادات حيوية...)، وما أشد إصرار ظاهرة الحياة على أن تصمد أمام كل جهودنا، فنجد أن بعض الجروح قد دب فيها الالتهاب البكتيرى.

ترينا الأمثلة السابقة أن ظاهرة الحياة ظاهرة هادرة، تُجَلِّى لنا اسم الله ﷻ «المحيى» الذى يتجلى فى دوام وثبات هذه الظاهرة. وسنرى فى الفصول القادمة أنه يتجلى أيضًا فى التنوع الهائل

بين الكائنات الحية، وأيضًا فى الكم الهائل من البذور والبويضات والحيوانات المنوية التى تضمن بها الكائنات الحية الحفاظ على نوعها.

ولا شك أن جيرالد شرويدر كان يشير بكل قوة إلى اسم الله «المحيى» حين قال: «إن كل قوانين الطبيعة التى نعرفها مجتمعة لا يمكن أن تفسر نشأة الحياة من المادة غير الحية».

سبحان ربى...

الله ﷻ: المحيى المميت

الموت مخلوق له آلياته، تمامًا كالحياة

اقترنت ظاهرة الحياة منذ بدايتها بالموت، فكانت البكتريا التى تتكاثر بالانشطار الثنائى البسيط تموت نتيجة لعامل خارجى مميت، أما الشيخوخة الموت الطبيعى فلم تعرفه ظاهرة الحياة إلا مع ظهور الكائنات التى تتكاثر جنسيًّا.

إن الموت هو إحدى سمات الخلق التى تقوم على «الإنشاء والإفناء». وتظهر هذه السمة أيضًا فى نشأة جنين الإنسان، فنجد مثلًا طورًا بدائيًّا من الكُلى يظهر ويقوم بوظيفته ثم يضمر، ليظهر طور وسط يعمل ثم يضمر، ثم يظهر طور الكُلى النهائى.

وتتجلى هذه الظاهرة أيضًا فى خلايا أعضاء الكائنات الحية، فلكل خلية عمر معين (١٢٠ يومًا لكرات الدم الحمراء) تموت بعده ويتم تعويضها بخلايا أخرى.

ونلتقى بظاهرة الإنشاء والإفناء فى تاريخ الكائنات الحية. فالديناصورات التى سادت كوكبنا لعشرات الملايين من السنين، ولم تكن لتسمح بظهور الثدييات الكبيرة، قد انقرضت منذ قرابة ٦٣ مليون عام نتيجة (غالبًا) لارتضام نيزك هائل بكوكب الأرض، وقد سمح هذا الانقراض بظهور وسيادة الثدييات الكبيرة التى جاء الإنسان على رأسها.

ويرجع الموت الطبيعى للخلايا إلى وجود تراكيب كيميائية فى أطراف الكروموسومات (تُعرف بالتيلوميرات Telomers)، وهى مسئولة عن تحديد عدد مرات انقسام الكروموسوم، أى تحدد عمره وبالتالى عمر الخلية. كذلك وُضعت لموت الكائن ككل آلياته الخاصة، التى أهمها ما يصاحب الشيخوخة والهِرَم من أمراض وتحلل فى أعضاء الكائن الحيوية؛ كالمخ والقلب والرئتين والكليتين.

يبين ذلك بوضوح أن الموت الطبيعى ليس مجرد انعدام الحياة! لكنه نشاط بيولوجى له

أسبابه وآلياته سواء على مستوى الخلية أو مستوى الكائن الحى، لذلك كما خلق الله ﷻ الحياة فإنه خلق الموت! ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك].

وبذلك تُجَلِّى ظاهرة «الإنشاء والإفناء» فى الكائنات الحية صفة الإله الخالق «المحيى المميت».

وقد كشفت لنا علوم البيولوجيا أن إنشاء الحياة «المحيى» وإنهاءها «المميت» يشتمل على عدد من الأركان والسمات الوجودية، التى يمكن أن نرصد من خلالها عددًا من الصفات الإلهية الأخرى، وأهمها:

سبحان ربى...

الله ﷻ: الخالق الحكيم ـ العليم الخبير

الحياة منظومة معلوماتية ذكية

مكتوبة بلغة الدنا، وتعتمد على نظام تشفير ومعالجة المعلومات

يقول فرانسس كولنز فى كتابه «لغة الإله Languge of God» معلقًا على إعلان نتائج مشروع الجينوم البشرى[1]: «**لقد أراد الإله أن يعلمنا اللغة التى خلق بها الحياة**».

(١) كانت فكرة التوصل إلى معرفة تتابع القواعد النيتروجينية Sequencing فى الدنا، وحدود كل جين ووظائفه فى جينوم الإنسان فكرة بعيدة المنال، بل بمثابة حلم، بل أوهام. وذلك أن التوصل إلى أن قاعدة نيتروجينية واحدة وهى «جوانين» قد حلت محل قاعدة أخرى وهى «سيتوزين» كمسبب لمرض خلقى يصيب الأطفال ويُعرف باسم «الأنيميا المنجلية ـ Sickle cell anaemia» قد استغرق من فرانسز كولنز ١٨ شهرًا. ١٨ شهرًا من أجل قاعدة واحدة، فكم سيستغرق التوصل لتتابع ثلاثة بلايين ونصف زوج من القواعد!!
ومع ذلك بدأ المشروع عام ١٩٩٠ تحت رئاسة جيمس واطسون (الحائز على جائزة نوبل، بالمشاركة، للتوصل إلى بنية الدنا DNA) لمدة عامين، ثم تولاه (بعد وفاة واطسون) عالم البيولوجيا الجزيئية «فرانسز كولنز **Francis Collins**» بعد أن تردد لفترة فى قبول هذا العمل الذى سيحدث مرة واحدة فى تاريخ البشرية.
وقد عمل فى هذا المشروع أكثر من ألفى عالم فى ٢٠ مركزًا فى ٦ أقطار من العالم، على مدار ٧ أيام أسبوعيًا لمدة ٢٤ ساعة يوميًّا! ومنذ عام ١٩٩٩، تطورت تكنولوجيا تحديد تتابع الدنا حتى تم إنجاز المشروع فى وقت قياسي!.
وفى الوقت نفسه الذى كان فرانسز كولنز يقود المشروع التابع للحكومة الأمريكية، كان هناك عالم بيولوجى كبير يقوم بالعمل نفسه لحساب شركته الخاصة من خلال معمل أبحاثه الذى يجوب به العالم على سطح يخت! هذا العالم هو «كريج فنتر **Craig Venter**» (الذى نجح فيما بعد فى تجميع أول شفرة وراثية صناعية). لذلك وقف كلاهما على جانبى الرئيس الأمريكى كليتون وهو يذيع البيان التاريخى فى ٢٤ يونيو ٢٠٠٤، الذى أعلن فيه التوصل للنتائج البدائية للمشروع.
وكان الإعلام الأمريكى يقارن دائمًا بين يخت فنتر الفاخر وبين الدراجة المتواضعة التى يركبها كولنز وهو متوجه لعمله!

وقد رأينا فى استعراضنا للشفرة الوراثية للخلية الحية كيف أنها تحوى كمًا هائلًا من المعلومات المسئولة بشكل مباشر عن نشاطات الخلية وتكاثرها وتوريث صفات الكائن إلى الأجيال التالية. وعندما أُعلنت نتائج مشروع الجينوم البشرى شغل ما تم التوصل إليه من معلومات ما يعادل سبعين ألف من صفحات صحفنا اليومية!

ورأينا أيضًا أن تراكم كم المعلومات المطلوب لتشكيل جزىء بروتين واحد من بروتينات الخلية بالصدفة والعشوائية يحتاج إلى كون يفوق كوننا الحالى بمليارات المرات، سواء فى اتساعه أو عمره أو كتلة مادته!!

ومما يزيد الأمر إدهاشًا أن هذا الكم المعلوماتى الهائل مسجل بلغة تشتمل على أربعة حروف فقط. وهذه العلاقة بين الكم المعلوماتى وعدد حروف اللغة يفوق القدرة التعبيرية لأية لغة عرفها الإنسان!

وعندما انتقلنا من الكم المعلوماتى إلى أسلوب معالجة المعلومات، وجدنا أن الخلية الحية تستعمل نظامًا شديد التعقيد يفوق أرقى نظم التشفير التى درسها الإنسان، فبالإضافة إلى حفظه للمعلومات (أرشيف)، فهو نظام يحول المعلومة النظرية إلى مادة حية، وينظم انقسام الخلية، مع توريث صفاتها للأجيال التالية.

إذا تأملنا وقفاتنا السابقة مع الشفرة التى أنشأ بها الله ﷻ منظومة الحياة، وهى لغة الدنا DNA، تأكد لنا أن الحياة بالفعل منظومة ذكية.

ولما كنا نُعَرِّفُ الذكاء بأنه القدرة على معالجة وتخليق المعلومات، فإن ظاهرة الحياة ليست إلا شبكات متصلة من النظم الذكية، التى نرصد منها فى الخلية الحية مستويين من الذكاء:

١) ذكاء منطمر (خفى): وعليه تتوقف بنية الخلية وخصائص مركباتها، فهو يعكس الخصائص والقوانين الفيزيائية التى تخضع لها هذه المركبات. وتشارك المادة غير الحية الخلية الحية فى هذا المستوى من الذكاء.

٢) ذكاء ذاتى (ذكاء نشط): باعتبار أن الكائن الحى (والخلية الحية) موجود مستقل، يرعى نفسه ويتكاثر، ويتفاعل مع الوجود المحيط، ويتعلم منه ويؤثر فيه.

ومن أكثر الأمثلة دلالة على ما تعكسه الشفرة الوراثية من ذكاء ذلك المثال الذى ضربه

أحدهم حين قال: إذا عثر كارل ساجان[1] على قرص مضغوط CD يحتوى على الشفرة الوراثية لكائن حى داخل نيزك هبط من الفضاء إلى الأرض، فإنه سيجزم أن هذا الـ CD يدل على وجود كائنات ذكية فى الفضاء الخارجى. أما عندما يجد ساجان الشفرة الوراثية داخل الخلايا الحية للكائنات فإنه ينسبها إلى الصدفة والعشوائية!!

ويؤكد جيرالد شرويدر هذا المعنى أيضًا بقوله: «إن كل قوانين الطبيعة التى نعرفها لا يمكنها مجتمعة أن تفسر نشأة الحياة»، لا شك أن الأمر يحتاج إلى حكمة وذكاء.

إن ما ذكرناه من أن الحياة منظومة معلوماتية ذكية تتمتع بمستويى الذكاء الذين ذكرناهما، يؤكد أنه لا يمكن أن تنشأ الحياة إلا من خلال ذكاء مطلق **Infinite Inelligence**، يتمتع به السبب الأول الخالق المحيى، سبحانه الإله «الخالق الحكيم».

وحول هذا المعنى يقول سير أنتونى فلو، أستاذ الفلسفة البريطانى: مهما اختلف سيناريو الحياة، فستظل هناك الحاجة إلى مصدر فائق الذكاء لكل ما يوجد فى الخلية الحية من معلومات. ويضيف «دين كينيون» (حُجة البيولوجيا الجزيئية): «لقد أصبحنا الآن فى مواجهة أعظم الدلائل فى الوجود على وجود الإله الخالق».

كذلك من السمات الأساسية المميِّزة للحياة أن للكائنات الحية غرضًا أو هدفًا متأصلًا فى بنيتها، وهو «المحافظة على وجودها»، وهو هدف لم يكن موجودًا فى المادة غير الحية التى نشأت منها هذه الكائنات. وعندما لاحظ أرسطو هذه العلاقة، عَرَّف الحياة بأن يكون الشىء حريصًا على استمرارية وجوده.

ويعين على تحقيق هذا الهدفَ الأساسى أهدافٌ أخرى ثانوية تدفع الكائن الحى وتوجهه فى حياته، وأهمها بلا شك التكاثر الذى يخدمه الجنس، ثم هناك الاغتذاء والحركة والإخراج وغيرها. وقد جُعل هدف «المحافظة على الوجود» وكذلك الأهداف الثانوية التى تخدمه سلوك غريزى، حتى أصبحت الحياة سمة قوية هادرة تفرض نفسها فى الكائنات الحية!

إن هذه السمة لا يمكن أن تكون صادرة عن مصدر أول لاغائية له من الخلق. ففاقد الشىء لا يعطيه. من ثم فإن هذه السمة تعكس ما يتميز به الإله الخالق من «غائية»، التى هى أحد مظاهر صفته «الحكيم».

---

(١) Carl Sagan: (١٩٣٤ ـ ١٩٩٦) عالم الفلك الأمريكى «اللاأدرى» الشهير، عمل مستشارًا لوكالة أبحاث الفضاء الأمريكية NASA ـ أعد البرنامج التليفزيونى الأشهر «الكون» الذى شاهده أكثر من ٦٠٠ مليون إنسان فى ٦٠ دولة. وكان من المهتمين بدراسة وجود الحياة خارج كوكبنا الأرض.

ولا شك أن الكم المعلوماتى الهائل الذى تحمله الخلية الحية يعكس مصدرًا علميًّا بحق. فإذا كان البيولوجيون يعتبرون أن مجرد قراءة هذه المعلومات (إعلان نتائج مشروع الجينوم البشرى) هو أكبر إنجاز بيولوجى لمدة ألف سنة قادمة، فما أدراك بخلقها وتدوينها ومعالجتها. لا شك أن هذا المحتوى المعلوماتى للشفرة الوراثية من أكبر ما يشير إلى اسم الله ﷻ «العليم».

وإذا كان وصف «الخبير» يشير إلى العلم بالمستور وما خفى من العلوم، فلا شك أن خالق الشفرة الوراثية (الجينوم) التى ظلت خفية عن الإدراك لمليارات السنين جدير بهذا الوصف، بل عندما انكشفت تلك الشفرة كان ذلك لحفنة صغيرة من العلماء، حتى إن معظم المتخصصين فى البيولوجيا الجزيئية لا يدركون دلالاتها. ذلك بالإضافة إلى علوم أخرى عديدة مرتبطة بنشاط الخلية ما زالت خافية علينا[1].

سبحان ربى...

الله ﷻ: الخالق - البارئ - المصور

تقدير فإيجاد

تأملنا هذه المنظومة عند حديثنا عن خلق الكون، وذكرنا أن الله ﷻ خالق باعتبار التقدير، وبارئ باعتبار الإخراج من العدم إلى الوجود، ومصور باعتبار أن الإنشاء يكون تبعًا للتقدير.

وتتجلى هذه المنظومة بوضوح فى ظاهرة الحياة. فقد قَدَّرَ الله ﷻ كيف تكون الحياة، ووضع العلم بآلياتها فى الشفرة الوراثية للكائنات الحية، فأصبحت هذه الشفرة تحوى التقدير الإلهى للكائنات، أى هى تجليات اسمه ﷻ «الخالق» بمعنى المُقَدِّر.

ويقوم الجينوم (الشفرة الوراثية) والبروتيوم والأنترأكتوم بإخراج هذا التقدير إلى الوجود المادى، ومن ثم تكشف لنا عملية الإيجاد هذه عن اسمه وصفته «البارئ».

ولا شك أن الإخراج إلى الوجود المادى يكون تبعًا لما تم تقديره، وتكون النتيجة هى عملية «التشكيل أو التصوير»، التى تخرج الكائن الحى على هيئته المُقَدَّرة مسبقًا، تلك العملية التى ندرك من خلالها صفته واسمه ﷻ «المصور».

(١) كعلوم البروتيوم الخاصة بالبروتينات وعلوم الإنترأكتوم، الخاصة بدراسة التنسيق بين مكونات الخلية المختلفة.

ويُعتبر خروج بعض الكائنات للحياة وقد أصابها تشويه خِلقى خللًا فى التصوير، عندها يكون الإيجاد (البنية) مخالفًا للتقدير (الشفرة الوراثية). إن ذلك ينبه العقول اليقظة إلى أن عملية التصوير ليست أمرًا بديهيًّا مضمونًا، لكنها تجليات لقدرة الإله الخالق المتمثلة فى اسمه «المصور».

وعندما أتأمل قول الحق ﷻ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحديد]، لا تقف بى الآية عند حدود ما ينزل بنا من مصائب، لكن أجدها قاعدة عامة تنطبق على الخلق كله؛ إننى أجد تطابقًا عجيبًا للآية مع ما أطلعنا الله ﷻ عليه من آليات ظاهرة الحياة، فالبناء المادى للكائن الحى موجود كمكون معرفى فى الشفرة الوراثية لهذا الكائن من قبل أن يخرج إلى الوجود. سبحان الله ﷻ.

ثم يعرج بى المعنى، فأجد أن أسرار الحياة موجودة فى علم الله الأزلى، ثم يوضع منها ما شاء الله ﷻ فى الشفرة الوراثية باللغة التى أراد الخالق أن يُنشئ بها الحياة، ثم تخرج إلى الوجود المادى «البارئ» على الصورة التى قدرها الله «المصور» ﷻ.

سبحان ربى...

الله ﷻ: الظاهر - الباطن

العلم الإلهى - الشفرة الوراثية - البنية المادية

عندما توصل الفيزيائى العظيم إسحق نيوتن إلى «مفهوم الجاذبية» وإلى القانون الذى يحكم سلوكها، كتب لأحد أصدقائه قائلًا: من الأشياء العجيبة التى لا أجد لها تفسيرًا، أن يتبادل جسمان متباعدان الجذب دون أن يكون لأحدهما اتصال مباشر بالآخر.

يشير نيوتن بذلك إلى أنه وإن كان قد توصل إلى مفهوم الجاذبية والقانون الذى يحكمها، فإنه لا يدرى شيئًا عن آلياتها وحقيقتها. إن ذلك يعنى أن للمفاهيم والظواهر المختلفة «ظاهرًا» هو مظهرها وتأثيرها و«باطنًا» هو حقيقتها.

ويخبرنا الله ﷻ أنه عَلَّمَ الإنسان ظاهر الأشياء (الأسماء) الذى يستفيد منه ويسخره لمنفعته، أما حقيقتها (المسميات) فلم يُعْلمه عنها شيئًا ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ ... ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة].

وينطبق هذا المفهوم على كل المعارف، ومنها الشفرة الوراثية للكائنات الحية. فظاهر هذه الشفرة هو كل ما ذكرنا عنها منذ بداية الفصل، ويقابله (كمثال) الوصف الذى تعرضه ثلاثية

نجيب محفوظ للحياة فى مصر فى الربع الأول من القرن العشرين. أما باطن الشفرة (حقيقتها) فتمثله الحياة الحقيقية بشخصياتها، وهى بعيدة عن الثلاثية كتابة وتمثيلًا.

هذا هو «المفهوم المطلق» لثنائية «الظاهر - الباطن»، وفيها يمثل كل ما يمكن للإنسان أن يرصده ويتوصل إليه الجانب الظاهر من المعارف، وهو من تجليات صفته ﷻ «الظاهر». ويمثل كل ما لا يمكن أن يتوصل إليه الإنسان الجانب الباطن للمعارف، ولا شك أن تلك الحقائق الباطنة لا تكون إلا تجليًا لإله قادر على حفظ وتدبير المعرفة الباطنة، ولا يكون ذلك إلا إلهًا متصفًا بصفة «الباطن»، ففاقد الشىء لا يعطيه.

وهناك «جانب نسبى أساسى» لثنائية «الظاهر الباطن»، تُعتبر الخلية الحية تعبيرًا صريحًا عنه. فالخلية تقوم بترجمة الشفرة الوراثية (المكون المعرفى) إلى «بنية مادية»، أى«عملية تجسيد المعلومات»، فتبدأ بتشكيل المركبات المادية المختلفة فى الخلية، وأهمها البروتينات، وتقوم بالتنسيق بينها. ثم تقوم الشفرة الوراثية بتوجيه بناء الأنسجة المختلفة، ثم الأعضاء التى تشكل الأجهزة المختلفة، التى تمثل فى مجموعها جسم الكائن الحى. وتسمى عملية التجسيد تلك بـ«التشكيل» أو «التصوير» Morphogenesis

ويمكن تشبيه عملية التشكيل بتحويل شخصية قصصية أتقن المؤلف وصفها فى قصته إلى شخص من لحم ودم بهذه الهيئة. ولا شك أن هذه المهمة من أهم سمات الحياة: تحويل المعلومة إلى بنية. وبذلك يتحول ما كان باطنًا (المكون المعرفى) إلى الظهور، ولا شك أن هذا الإظهار من تجليات اسمه وصفته «الظاهر».

نستنتج من ذلك أن كل معرفة تُعتبر «باطنًا» لما يتبعها و«ظاهرًا» لما يسبقها. فكما رأينا، تُعتبر الشفرة الوراثية «باطنًا» بالنسبة لبروتينات الخلية التى هى تجسيد مادى لهذه الشفرة، وهى كمكون معرفى «ظاهر» لبعض العلم الإلهى بخصوص هذا الكائن.

وهناك جانب نسبى آخر لثنائية «الظاهر - الباطن»، فبعض المعارف يكون «باطنًا» فى مرحلة ما من تاريخ العلم ثم يصبح «ظاهرًا» بعد أن يكتشفه العلماء، ومثال ذلك التوصل إلى بنية الدنا DNA وطريقة أدائه لوظائفه عام ١٩٥٢. وفى الوقت نفسه ما زال الكثير من علوم الخلية الحية مستورًا (باطن) عن العلم البشرى، فمنذ سنوات قليلة بدأ العلماء يهتمون بعلوم البروتيوم[١] والإنترأكتوم[٢] التى تمثل أغوارًا شديدة العمق لظاهرة الحياة.

(١) بدأ استخدام هذا الاصطلاح لأول مرة عام ١٩٩٤.
(٢) بدأ استخدام هذا الاصطلاح لأول مرة عام ١٩٩٩.

سبحان ربى...

الله ﷻ: الواحد

وحدة النسيج تعنى وحدة الخالق

منذ أن نشأت الحياة وحتى الآن (طوال ٣,٨ بليون سنة) وهى تستخدم منظومة واحدة لحفظ المعلومات ومعالجتها، وهى الشفرة الوراثية التى تعتمد على جزىء الدنا DNA. وتعتمد لغة هذه الشفرة على أربعة حروف فقط لم تتغير طوال عمر الحياة على الأرض.

وتتوارث البشرية (وجميع الكائنات) منذ نشأتها وحتى الآن نفس الجزىء من الدنا DNA الذى كان موجودًا فى خلايا أول البشر. سبحان الله ١٢ بيكو جرام (الجرام = ١٠٠٠ مليار بيكو جرام) تتوارثها البشرية منذ نشأتها وحتى الآن، وهى المسئولة عن المحافظة على الجنس البشرى!

و«الخلية الحية» هى «وحدة النسيج» التى تقوم عليها الحياة بأسرها، ابتداء من الكائنات وحيدة الخلية إلى الكائنات عديدة الخلايا التى منها الديدان والحشرات والفقاريات والإنسان (١٠٠ ألف مليار خلية)، وأيضًا أضخم الكائنات على كوكبنا؛ الحيتان (مائة ضعف عدد خلايا الإنسان)، وغيرها.

وإذا كانت الوحدة تتجلى فى «بنية» **الكائنات** (وحدة النسيج = الخلية الحية)، فإنها أيضًا تتجلى فى «وظيفة» **الكائنات**، فالكائنات الحية كلها تمارس النشاطات البيولوجية نفسها والسمات الوجودية للحياة[1].

وتتجلى الوحدة أيضًا فى «كينونة» **الكائن الحى**. فالبرغم من أن جميع خلايا الكائنات عديدة الخلايا مصدرها خلية واحدة (الزيجوت)، فإنها تتمايز وتتخصص لتشكل كل مجموعة منها أنسجة وأعضاء تمارس كل منها وظائف معينة، وتعمل هذه الأنسجة والأعضاء فى تناغم لتخدم هذا الكائن الذى يشعر أنه وحدة واحدة. والمدهش أن البكتريا (خلية واحدة) تمارس جميع ما تمارسه هذه الكائنات من نشاطات.

وقد ظلت الكائنات الحية تتكاثر **تكاثرًا أحادى** الجنس طوال ثلاثة بلايين عام، لا يحتاج فيه

---

(١) ذكرنا هذه النشاطات والسمات عند دراسة ظاهرة الحياة فى بداية الفصل.

الكائن لفرد آخر لإتمام تكاثره والمحافظة على نوعه. ومنذ ثمانمائة مليون عام ظهر التكاثر ثنائى الجنس الذى يعتمد على الزوجية، فتحتاج إناثه لذكوره لإتمام التكاثر والمحافظة على النوع.

وقد ظل التكاثر أحادى الجنس موجودًا حتى الآن، ويعكس صفة «الواحد»، وعندما ظهر التكاثر ثنائى الجنس كان ذلك تجسيدًا أكبر لهذه الصفة! فالتكاثر الجنسى أظهر احتياج كل جنس إلى الآخر، مما يعنى «افتقار» المخلوقات مقارنة «باستغناء» الإله الواحد، وفى الوقت نفسه فإن أصل زوجىّ الكائنات ثنائية الجنس أصل واحد. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ... ﴿١﴾﴾ [النساء].

ولا يتجلى احتياج الكائنات للجنس الآخر فى إتمام التكاثر وحسب، لكن يتجلى أيضًا فى ائتناس كل جنس بالجنس الآخر. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم].

فى ذلك كله تظهر صفة الله ﷻ «الواحد» بوضوح وجلاء عند تأمل ظاهرة الحياة.

سبحان ربى...

الله ﷻ: الحفيظ ـ الوارث

علاقة تبادلية بين الحفظ والوراثة

يعتبر معظم البيولوجيين أن نشأة وظيفة التكاثر تقترن بداهة بنشأة الحياة، بينما الحقيقة أن نشأة الحياة شيء والتكاثر شيء آخر. لأبين المقصود مما أقول أطرح سؤالًا:

إذا سايرنا الدراونة فى أن الحياة نشأت عشوائيًا نتيجة لتكون جزيء الدنا DNA بالصدفة، فمن الطبيعى أن تختفى الحياة التى تعتمد على هذا الجزيء العشوائى بمجرد موت الخلية الحية الأولى. سؤالى هو: لماذا تم تشكيل جزيء الدنا بحيث يكفل عملية التكاثر كما يكفل حياة الخلية؟ أى لماذا اقترن ظهور الحياة بآلية استمرارها؟

إن ذلك لا يعنى إلا شيئًا واحدًا، وهو أن مُنشئ ظاهرة الحياة حريص على بقائها واستمراريتها وحفظها. هكذا يعكس التكاثر المصاحب لظاهرة الحياة صفة الإله الخالق «الحفيظ».

وتتجلى صفة «الحفيظ» أيضًا فى النشاطات البيولوجية المصاحبة للحياة. فما كان للحياة أن تستمر دون أن تتمتع الخلية الحية بالقدرة على الاغتذاء والحركة والتنفس والإخراج وغيرها.

وحرصًا على حفظ الحياة، خُصَّت الكائنات الحية بغزارة هائلة، سواء فى عدد الكائنات أو فى عدد الخلايا الجنسية المُنشأة لها. فالرجل يقذف فى المرة الواحدة ملايين الحيوانات المنوية من أجل أن ينجح أفضلها فى تخصيب بويضة المرأة. كذلك يحتوى مبيض المرآة على أضعاف عدد البويضات التى تستخدمها طوال حياتها. وإذا تأملنا هذه الظاهرة نجد الكثرة الهائلة لعدد البيض الذى تضعه الأسماك، وكذلك الصغار التى تلدها الأرانب، وهكذا...

وإظهارًا لصفة الله ﷻ «الحفيظ»، جاءت ظاهرة «انقراض» الكائنات الحية، فبضدها تتمايز الأشياء. وذلك حتى لا يظن البعض أن بقاء الكائنات أمر بديهى يصحب نشأتها. لا... إن للحفظ آلياته، بعضها ذاتى كالتى ذكرناها منذ قليل، وبعضها خارجى بيئى إذا تبدل انقرضت الكائنات.

وكما أراد الإله «الخالق» «المحيى» الحفاظ على ظاهرة الحياة من خلال التكاثر، الذى أظهر لنا صفة «الحفيظ»، فقد أراد أيضًا أن يصاحب التكاثر ظاهرة «التوريث»، الذى يُجلِّى صفة «الوارث». وفى الوقت نفسه يؤدى «التوريث» إلى «المحافظة» على الكائنات على هيئتها.

فالكائنات التى تتكاثر لا جنسيًّا ترث صفات سلفها بشكل كامل متطابق، أما الكائنات التى تتكاثر جنسيًّا فتحصل على نصف مورثاتها (جيناتها) من الأم ونصفها من الأب.

ولا يشمل التوريث الصفات البنائية الجسدية فقط بل والكثير من الصفات السلوكية وأيضًا بعض الأمراض والاستعدادات المرضية!

إن المتأمل لهذه الظاهرة التوريثية فى البيولوجيا يدرك أن وراءها خالقًا «محيى» جعل الوراثة من سمات خلقه، كانعكاس لتمتع الإله ﷻ بهذه الصفة ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء].

وقد أخبرنا الله ﷻ أنه لا يتجلى بصفته الوارث فى توريث الممتلكات والصفات الوراثية فقط، بل أيضًا الجنة التى يهبها بكرمه لمن يستحقها ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم].

سبحان ربى...

الله ﷻ: الغنى - الصمد

المستغنى الذى يُلتجأ إليه

رأينا أن الحياة ليست مجرد مجموعة من المنظومات التى تعمل فى تناغم، فالسيارة والكمبيوتر والهاتف ينطبق عليها هذا التعريف. لذلك فالأهم أن نضيف إلى التعريف اصطلاح «ذاتية التحكم». نعم إن الكائن الحى «موجود مستغنٍ» عن التحكم الخارجى. فإذا كانت السيارة تحتاج لمن يصنعها، ويشغلها، ويمدها بالوقود والماء والزيت، فإن الكائن الحى ليس كذلك؛ فهو يتكاثر ذاتيًا ويعمل ذاتيًا ويحصل على احتياجاته ذاتيًا.

ومن البديهى أن هذه الذاتية وهذا الاستغناء ينبغى أن يكون نتاج مصدر يتمتع بالاستغناء، ومن ثم تُجلى ظاهرة الحياة صفة الاستغناء التى يتمتع بها الإله الخالق.

وندرك صفة استغناء الخالق المحيى ﷻ فى اسمه تعالى «الغنى» الذى لا يعنى فقط صاحب الغنى (بمعنى الثروة) لكنه يشير إلى «الاستغناء» عمن سواه. ودليلنا على ذلك قوله ﷻ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ...﴿٧﴾﴾ [الزمر]. أى إنه مستغنٍ عنكم، فالله مستغن بذاته وصفاته وأسمائه عن خلقه.

كذلك اسم الله «الصمد»، فإنه يشير إلى الذى يُقصَد فى الحوائج ولا يحتاج إلى غيره. ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

ومن ثم يجلِّى استغناء الكائن الحى صفة «استغناء» الله ﷻ، وسبحانه «الغنى» «الصمد» ﷻ.

القارئ الكريم

الحياة ظاهرة شديدة التعقيد، وقد ظهرت الخلية الحية الأولى مكتملة منذ البداية، ولا شك أن هاتين السمتين (شدة التعقيد + الاكتمال الأَوَّلِىّ) تثبتان عجز العشوائية والصدفة عن تفسير نشأة الحياة.

ويقوم العلماء بدراسة ظاهرة الحياة على مستويين؛ الأول هو «المستوى البيولوجى»، وهو

مستوى سطحى يشمل بنية الخلية الحية وتركيبها ووظائفها التى تقوم بها. والمستوى الثانى هو الأكثر عمقًا، وهو «المستوى الوجودى» الذى يشمل عددًا من السمات أهمها:

- **الحياة = المعلومات**: لقد أدرك العلم أن أى موجود (كظاهرة الحياة) يتكون أساسًا من «معلومات»، ويُنظَر إلى المادة والطاقة باعتبارهما عنصرين إضافيين.

لذلك ليس المطلوب لتفسير نشأة الحياة معرفة مصدر مكوناتها المادية، ولكن مصدر المعلومات المطلوبة لتشكيل الخلية. **فالحياة ليست ظاهرة كيميائية لكنها ظاهرة معلوماتية.**

- **الحياة منظومة ذكية**: ينظر العلم الحديث للخلية الحية باعتبارها مجموعة من الشبكات المتصلة من النظم الذكية القادرة على معالجة وتخليق المعلومات، وتحتاج هذه النظم إلى ذكاء أعلى يديرها ويوجهها.

- **الحياة ونظام التشفير ومعالجة المعلومات: يُعتبر استخدام نظام التشفير فى كتابة وتفعيل لُغَتَىَ الحياة (الأحماض النووية والبروتينات) ثم فى نقل المعلومات بينها أمرًا شديد الإلغاز، بل يُعتبر معجزة، إذ لا تستطيع تفاعلات كيميائية لا بصيرة لها أن تقوم بهذا التنسيق.**

- **القدرة على التشكيل**: ليس الدنا مستودعًا للمعلومات فقط، بل إنه يقوم أيضًا بتوجيه آلية **بناء البروتينات** (الدنا ـ الرنا ـ الريبوزومات)، أى **تحويل المعلومات إلى وجود مادى ثلاثى الأبعاد**. وتقوم نظم أخرى فى الخلية بتوجيه هذه البروتينات لإخراج **الشكل النهائى** للكائن الحى، عن طريق استخدام عائلة من البروتينات الفائقة التى تُسمى «**المُشَكِّلات البروتينية** Morphogenic Proteins».

- **للكائنات الحية هدف متأصل فى بنيتها (الغائية)؛** وهو «**المحافظة على وجودها**»، وقد جُعل هذا الهدف وكذلك الأهداف الثانوية التى تخدمه **سمات غريزية**، حتى أصبحت الحياة سمة قوية هادرة تفرض نفسها فى الكائنات الحية!

- **ذاتية التحكم**: إذا قارنا الكائن الحى بالروبوت (الإنسان الآلى) الذى يُتوهم فيه التحكم الذاتى، وجدنا أن هذه الآلة تحتاج إلى مَن يقوم بتصنيعها وبرمجتها وإمدادها بالطاقة

وصيانتها. لذلك يصبح «التحكم الذاتى» سمة شديدة الخصوصية والدلالة على الحياة.

- **العمل كوحدة واحدة:** تعمل أنسجة الجسم وأعضاؤه فى تناغم لتشكل وتخدم الكائن الحى الذى يشعر أنه وحدة واحدة. ومهما بلغ العلم من تقدم، فستظل وحدة الكائن على المستوى البيولوجى وعلى المستوى الوجودى مُحَمَّلة بالأسرار.

- **القدرة على التكاثر:** التكاثر آلية أساسية للحياة، فلولاه لتلاشى الفرد الأول من كل نوع من الكائنات الحية بالموت، لذلك كانت نشأة التكاثر لازمة من أجل المحافظة على الأنواع من خلال الصغار.

- **الموت:** كانت الكائنات الأولية تتكاثر بالانقسام المتتالى إلى ما لا نهاية، ولا تعرف الموت إلا إذا أصابها عامل مميت من البيئة المحيطة. لقد كان نشوء الموت الطبيعى حتميًّا للحفاظ على الكائنات عديدة الخلايا، بل وعلى الحياة على كوكب الأرض ككل! وذلك لما يحققه من فوائد.

هذه هى السمات الوجودية المميزة والمصاحبة لظاهرة الحياة، والتى ترينا أن الحياة ليست **فقط بضع وظائف بيولوجية يمارسها الكائن الحى، بل هى ظاهرة بالغة التعقيد أحوج ما تكون لمصمم حى ذكى يقف وراء نشأتها ووراء استمرارها.**

لذلك يقول عالم الفيزياء النووية «جيرالد شرويدر»: إن مجرد وجود الظروف الملائمة لنشأة الحياة، لا يفسر لنا كيف نشأت. نستطيع أن نقول (على أحسن تقدير): إن هذه الظروف «سمحت» بنشأة الحياة واستمرارها على كوكبنا. **ولكن كل قوانين الطبيعة التى نعرفها مجتمعة لا يمكن أن تفسر نشأة الحياة من المادة غير الحية.**

وباختصار يُرجع العلم الحديث الحياة للتوافق المذهل والتناغم بين بنية وسمات مختلف جزيئات المادة الحية، وكذلك القوانين التى تحكم سلوك هذه الجزيئات. ويغذى هذه المنظومة مصدر للطاقة، ويوجه ذلك كله أرشيف هائل من المعلومات تحمله الشفرة الوراثية للخلية الحية. إن العلم ينظر إلى الحياة باعتبارها المُكَوِّن المعرفى (سر الصنعة) فى ذلك كله.

من الحياة إلى المحيى

إذا كان سر الحياة يكمن فى المكون المعرفى للخلية الحية وفى ما يميز الوظائف البيولوجية والسمات الوجودية للحياة من ذكاء، فلا شك أن ذلك يحتاج إلى قدر هائل من العلم والحكمة والقدرة. لذلك كان حتمًا أن يتصف السبب الأول الخالقة لظاهرة الحياة وللكائنات الحية بصفات «المحيى» «الحكيم» «العليم» «الخبير».

لقد قَدَّرَ الله ﷻ كيف تكون الحياة، ووضع العلم بآلياتها فى الشفرة الوراثية للكائنات الحية، فأصبحت هذه الشفرة تحوى التقدير الإلهى للكائنات، أى هى تجليات اسمه ﷻ «الخالق» بمعنى المُقَدِّر.

ويقوم الجينوم (الشفرة الوراثية) والبروتيوم والإنترأكتوم بإخراج هذا التقدير إلى الوجود المادى، ومن ثم تكشف لنا عملية الإيجاد عن اسمه وصفته «البارئ».

ولا شك أن الإخراج إلى الوجود المادى يكون تبعًا لما تم تقديره، وتكون النتيجة هى عملية «التشكيل أو التصوير»، التى تُخرج الكائن الحى على هيئته، تلك العملية التى ندرك من خلالها صفته واسمه ﷻ «المصور».

وإذا كانت كل معرفة تُعتبر «باطنًا» لما يتبعها و«ظاهرًا» لما يسبقها، فإن الشفرة الوراثية تُعتبر «باطنًا» بالنسبة لبروتينات الخلية التى هى تجسيد مادى لهذه الشفرة، وهى كمكون معرفى «ظاهر» لبعض العلم الإلهى بخصوص هذا الكائن.

وإذا كانت الوحدة تتجلى فى «بنية» الكائنات (وحدة النسيج = الخلية الحية)، فإنها أيضًا تتجلى فى «وظيفة» الكائنات، فالكائنات الحية كلها تمارس نفس النشاطات البيولوجية والسمات الوجودية للحياة. وتتجلى الوحدة أيضًا فى «كينونة» الكائن الحى، الذى يشعر أنه وحدة واحدة.

كذلك ظل التكاثر أحادى الجنس موجودًا ويعكس صفة «الواحد»، وعندما ظهر التكاثر ثنائى الجنس كان ذلك تجسيدًا أكبر لهذه الصفة! فالتكاثر الجنسى أظهر احتياج كل جنس إلى الآخر، مما يعنى «افتقار» المخلوقات مقارنة «باستغناء» الإله الواحد، وفى الوقت نفسه فإن أصل زوجَىّ الكائنات ثنائية الجنس أصل واحد.

وتتجلى صفة الإله الخالق «**الحفيظ**» فى عملية تكاثر الكائنات الحية، فهى التى تحفظ نوع الكائن، وتظهر أيضًا فى النشاطات البيولوجية التى تحفظ الفرد. ويصاحب هذه الصفة صفة «**الوارث**» التى تتجلى فى توريث الأجيال التالية للصفات البنائية الجسدية والصفات السلوكية، وأيضًا بعض الأمراض والاستعدادات المرضية.

ولما كانت من أهم سمات الكائن الحى أنه «**ذاتى التحكم**» أى أنه «**موجود مستغنٍ**»، فإن ذلك يحتاج إلى موجد يتمتع بالصفة نفسها، لذلك فإن ربنا هو «**الغنى**»، ولما كنا نستمد استمرارية وجودنا من عطائه، كان هو المقصود فى الحوائج ولا يحتاج إلى غيره، لذلك كان ربنا هو «**الصمد**» أبدًا.

إذا كان ما استعرضناه من سمات بيولوحية ووجودية هو أهم ما يميز الحياة، وتُجلى هذه السمات (ويقف وراءها) ما استعرضناه من أسماء إلهية، فلا شك أن صفة «**المحيى**» هى الصفة الجامعة لكل هذه الصفات. ولما كان الموت سُنّة كونية تجرى على كل الكائنات الحية، ولها آلياتها كما أن للحياة آلياتها، فإن صفة الخالق «**المميت**» تقف وراء هذه الظاهرة.

فسبحان ربى «**المحيى**» «**المميت**».



الفصل الخامس

الأُلوهية وخَلْق الإنسان

- الإنسان بين الداروينية والخلق الخاص
- المخ والعقل
- بالعقل صرنا بشرًا
  - نظرية العقل
  - معضلة الوعى
  - الإدراك - الفهم - التفكير
  - حرية الإرادة والقدرة على الاختيار
  - كائن خيالى يتنقل عبر الزمن
  - الإيمان بالسببية
  - حب الاستطلاع والبحث
  - السلوك الاجتماعى الإنسانى
  - الإدراك خارج الحس
- العقل واللغة
  - نشأة اللغة
  - اللغة مبرمجة جينيًا فى أدمغتنا
  - الانفجار اللغوى الأعظم
- العقل وتذوق الجمال
  - للعقل قوانينه لتذوق الجمال والفن
- العقل والمسألة الأخلاقية
  - الأنانية، الإيثار، الضمير
  - إنسان فاضل رغم أنف الدراونة
- منظومة الألوهية - الدين - الأخلاق
  - كائن عاطفى، خلوق، متدين
  - والآن إلى كلمة البيولوجيا
  - مع علوم النفس والأعصاب
- العقل والمشاعر الروحية
  - المخ/ العقل والدين فى تكامل
  - المخ/ العقل والعبادات
- إعداد العقل للفهم
  - أ - مصدر مفاهيمنا الأولية
  - ب - قدرة عقولنا على فهم ما يحيطنا
  - جـ - لماذا نصدق عقولَنا؟!
- القارئ الكريم

رأينا فى الفصلين السابقين كيف أن آليات نشأة الكون والحياة تُجَلِّى عددًا من صفات الله ﷻ وأسمائه الحسنى. ومع وصولنا إلى خلق الإنسان تتجلى هذه الصفات والأسماء بشكل أكبر.

نعم، فالإنسان خليفة من الله، أعطانا من صفاته، وأمرنا أن نتخلق بها. أليس الله ﷻ هو القائل: «يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا...[1]».

وفى ذلك قال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم لا يُرحَم[2]».

ألا يدل ذلك على تمتع الإنسان بالصفات الإلهية، لا شك أن ذلك فى إطار المحدودية البشرية، كيفًا وكمًا.

لذلك سنتعرض فى هذا الفصل لنشأة الإنسان، وما يميزه من ملكات عقلية وشعورية وروحية عما دونه من كائنات، مع إبراز ما تحتاجه تلك النشأة وهذه الملكات من عناية إلهية.

وفى الفصل القادم، سنرصد بعض الصفات الإلهية من خلال تأمل ما احتاجه خلق الإنسان من قدرات يتحلى بها السبب الأول. كما نتأمل ما يميز الإنسان من صفات (وظيفية وسلوكية) ينبغى أن تتوافر فى خالقها؛ ففاقد الشىء لا يعطيه. ولا شك أن وجود هذه الصفات فى الإنسان من لوازم خلافته من الله فى الأرض، فلابد للمستخلَف من أن يتمتع ببعض صفات وصلاحيات المستخلِف.

الإنسان

بين الداروينية والخلق الخاص

لقد أصبح العلم المعاصر يتفق مع الديانات فى النظر إلى الإنسان باعتبار أنه يتكون من شقين؛ الجسد المادى الذى يشابه فيه الإنسان القردة العليا إلى حد كبير، والملكات العقلية والروحية التى يتسع بخصوصها البون بينهما اتساعًا هائلًا.

---

(١) حديث قدسى، صحيح مسلم رواه أبو ذر.

(٢) رواه البخارى.

وإذا كان الدراونة يعتبرون أن كلًّا من الجسد المادى والملكات العقلية والروحية للإنسان قد نشآ بالتطور العشوائى عن كائنات أدنى، بينما يختلف معهم فى ذلك التصور الدينى، فقد أصبحنا فى مواجهة ثلاثة أزواج متتالية من التساؤلات فى مجال خلق الإنسان:

أ) أخلقٌ تطورى من كائنات أدنى أم خلق خاص مباشر؟

ب) إذا ثبت الخلق التطورى؛ هل كان يشمل الجسد المادى والملكات العقلية، أم أن الملكات العقلية للإنسان كانت ضيفًا جديدًا تمامًا على عالم الأحياء.

جـ) إذا ثبت الخلق التطورى؛ هل كان تطورًا عشوائيًّا أم تطويرًا موجهًا من قِبل إله خالق حكيم؟

إن قناعتى الحالية المستمدة من العلم الحديث ومن فلسفة العلوم ومن القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة تجاه هذه التساؤلات هى:

أولًا: لا يستطيع العلم فى مجال علوم البدايات (ومنها خلق الإنسان) التوصل إلى «حقائق علمية»، فالحقائق العلمية تحتاج لبراهين رياضية وعقلية وأدلة رصدية وأدلة تجريبية، وكلها لا تتوافر لمفهوم التطور.

ثانيًا: يُعتبر القول بالتطور (بلغة الأدلة العلمية) لجوءًا إلى أفضل التفسيرات **Inference to the best explanation**، وهذا أسلوب علمى يلجأ إليه المتخصصون عند التعامل مع العلوم التاريخية (التى منها التاريخ الطبيعى = البيولوجيا). وفى هذا الأسلوب يبحث المتخصصون عن أفضل التفسيرات التى تجمع بين مالديهم من شواهد.

ثالثًا: إذا كان البيولوجيون يعتبرون أن «التطور البيولوجى» هو أفضل التفسيرات للشواهد التى تقدمها علوم الحفريات والتشريح المقارن والأجنة والبيولوجيا الجزيئية، فإن الكثير من هذه الشواهد تم دحضه، وإن كان القول بالتطور ما زال هو أفضل التفسيرات التى تربط بين ما لدينا من شواهد.

رابعًا: لا يزال الوقت مبكرًا بخصوص الجزم بوقوع التطور البيولوجى، وعند حدوث ذلك فإن العشوائية لن تكون هى آلية التطور. فقد أثبت العلم ببراهين ترقى إلى مستوى «الحقائق العلمية» عجز العشوائية عن قيادة قاطرة التطور، كما أثبت أن التطور (إن كان قد وقع) فإنه يحتاج إلى تصميم وتوجيه ذكى. ومن ثم لن يكون هناك تفسير لوقوع التطور إلا القول بالتدخل الإلهى، وهذا ما وصفه فرانسز كولنز (رئيس مشروع

الجينوم البشرى) بقوله: مَن الذى يحجر على الإله فى أن يستخدم آلية التطور فى الخلق. وهذا الطرح هو ما تتبناه المدرسة المعروفة بالتطوير الموجه أو التطوير الإلهى.

خامسًا: تخص الشواهد التى تشير إلى وقوع التطور البيولوجى الجسد المادى للإنسان، أما ملكاته العقلية والروحية فقد «أثبت العلم» أنها «انبثاق»، أى ظهور جديد تمامًا على عالم الأحياء، وليست تطورًا تدريجيًّا عن القدرات العقلية للرئيسيات. وهذا الاستنتاج ليس جديدًا بتاتًا، فقد قال به عالم البيولوجيا ألفريد والاس المعاصر والنظير لداروين، وأرجعه إلى النفخة الإلهية المباشرة.

ويتوافق قول العلم والفلسفة بانبثاق العقل البشرى مع المفهوم القرآنى بأن الروح الإنسانى نفخة (أى خلق خاص) نسبها الله ﷻ لنفسه.

سادسًا: نشارك الكثيرين من علماء الإسلام[1] الرأى بأن التطور إذا ثبت كآلية لخلق جسد الإنسان فإن الآيات القرآنية الخاصة بخلق الإنسان يمكن تأويلها فى ظل مفهوم التطوير الإلهى، وذلك دون التعارض مع الثوابت القرآنية من أن الله ﷻ هو خالق الإنسان بقدرته وحكمته، وأنه خلقه من الماء ومن مادة الأرض فى أحسن تقويم.

سابعًا: عند طرح مفهوم التطور البيولوجى كآلية لخلق الإنسان لا ينبغى الزج بكل من العلم والدين فى صراع، ويتحقق ذلك من خلال الالتزام بأربع قواعد أساسية:

أ) ذكرنا أن العلم لا يستطيع أن يقدم حقائق علمية فى علوم البدايات. كذلك فإن آيات

(١) الرازى والجاحظ وابن مسكويه وابن خلدون وإخوان الصفا. ومن المعاصرين الأئمة حسين الجسر وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ونديم الجسر والشعراوى ود. عبد المعطى بيومى وسيد قطب والقرضاوى، ومجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.
وقد ورد مفهوم التطور فى كتابات الكثيرين من العرب قبل داروين بما يقرب من ألف عام. منها كتابات ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦م)، وابن مسكويه (٩٣٢ - ١٠٣٠م)، ورسائل إخوان الصفا (القرن التاسع الميلادى)، والجاحظ (٧٧٦ـ٨٦٨م) الذى ذكر فى كتابه الحيوان أن الكائنات تتصارع فيما بينها من أجل البقاء، وأن البيئة تؤثر فى الكائن الحى، فتحدث فيه تحولًا وتجعله نوعًا آخر، أى أن بعضها يُشتق من بعض.
لقد توصَّل هؤلاء إلى «مفهوم التطور» من تأمل آيات القرآن الكريم وتأمل ما فى الكائنات الحية من آيات. وقد كان طرح هؤلاء لهذا المفهوم واضحًا قويًّا مصحوبًا بالاستدلالات المقنعة، مما حدا العالم والكيميائى والفيلسوف والمؤرخ الأمريكى «جون ويليام درابر John William Draper» (١٨١١ - ١٨٨٢م) المهتم بالتطور البيولوجى إلى الحديث عن «نظرية التطور المحمدية Mohammedian Theory of Evolution» التى سبقت نظرية داروين بأكثر من ألف عام، وقد طرح فهمه هذا فى كتابه «تاريخ الصراع بين الدين والعلم History of Conflict Between Religion and Science».

خلق الإنسان فى القرآن الكريم من الآيات المتشابهات (وليست من المحكمات) التى تقبل أكثر من تفسير، وهذا ظاهر بوضوح لمن يراجع التفسيرات المشهورة. أى أن كلًّا من العلم وفهمنا الدينى لا يملك الحقيقة المطلقة فى مجال خلق الإنسان.

ب) العقائد الدينية مصدرها النصوص المقدسة للقرآن الكريم والصحيح من أحاديث رسول الله ﷺ، ولا تُستمد من المفاهيم العلمية.

جـ) لا ينبغى تحكيم مفاهيمنا الدينية فى النظريات العلمية تصديقًا أو تخطيئًا، فالمنهج العلمى له خطواته وأدواته ومقاييس حجيته، التى ليس منها تحكيم المفاهيم الدينية.

د) وبالمثل لا ينبغى محاكمة المفاهيم الدينية على منصة العلم، فلكل مجاله.

ثامنًا: ينبغى عند تناول قضية خلق الإنسان أن ندرك أن لكل من الدين والعلم مقاصده. فالدين يركز على الحكمة والقدرة الإلهية (الغاية Why)، وقرب العلاقة بين الإله الخالق والإنسان، وتميز الإنسان وتفرده ورسالته فى الدنيا ومآله فى الآخرة. أما العلم فيكتفى بالبحث فى آليات الخلق (الكيفية How)، ولم يدعِ العلم أكثر من ذلك، بل إن الله ﷻ قد أمرنا بذلك ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ... ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت]. ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية].

الخلاصة: مما سبق، يمكننا أن ننظر إلى نظرية داروين (الداروينية) باعتبار أنها تتكون من شقين أساسيين:

أ) حدوث تنوع الكائنات الحية عن طريق التطور من الكائنات الأدنى إلى الكائنات الأعلى، وذلك انطلاقًا من سلف مشترك.

ب) حدث التطور البيولوجى بأسلوب عشوائى دون احتياج إلى تدخل ذكى.

وقناعتنا العلمية الحالية، هى أن التطور البيولوجى لا يمكن إثباته كحقيقة علمية، لكنه (حتى الآن) أنسب التفسيرات لما تجمَّع من شواهد تقدمها علوم متنوعة، وفى الوقت نفسه فإن الكثير من هذه الشواهد قد تم دحضه، ويمكن القول إن الأدلة على التطور تتزايد فى جانب (مثل البيولوجيا الجزيئية) وتتهاوى فى جانب (مثل سجل الحفريات). لذلك ما زال العلم فى حاجة للكثير من البحث من أجل حسم الخلاف بين الدراونة وبين الخلقويين القائلين بالخلق الخاص.

أما بخصوص العشوائية كآلية لحدوث التطور فهى مرفوضة علميًا تمامًا. ومن ثم فنحن نطلق على مفهوم «التطور العشوائى» اصطلاح «الداروينية»، بينما يُعتبر القائلون بقبول التطور ورفض العشوائية هم التطوريين، وهؤلاء يؤمنون بمفهوم التطوير الإلهى أو التطور الموجه.

وفى سياق كتابنا هذا الذى يتناول إدراك الصفات الإلهية من خلال تأمل الآفاق والأنفس، لا نرى فارقًا ذا بال بين القول بالخلق بالتطوير الإلهى أو بالخلق الخاص، فالله ﷻ ... الحالتين.

المخ والعقل

الإنسان ظاهرة غامضة، يقف العلم الحديث عاجزًا حيال معظم مفرداته الإنسانية التى نرصدها ملاحظةً وتجريبًا. إن كلًّا من التشابه والتباين الشديدين بين الإنسان وبين الحيوان له دلالته الهامة فى فهم حقيقة العقل الإنسانى. وتشهد الدراسات المتخصصة بوجود أصول أخرى لـ «الظاهرة الإنسانية» غير الأصل الحيوانى، وفى الوقت نفسه يعجز العلم المعاصر عن تحديد تلك الأصول.

يمكننا أن نعتبر أن «التعقل» هو السمة الجامعة التى تميز الإنسان عما سواه من الكائنات. وإذا كان الماديون يعتبرون أن التعقل هو النشاطات العقلية التى تُمارَس عن طريق المخ، فإننى أوافقهم أن للمخ دورًا فى هذه النشاطات، وأضم إليها أيضًا المشاعر الروحية، بعد أن أثبت العلم الحديث دور المخ الرئيسى فى تذوق هذه المشاعر.

وإذا كان المخ جهازًا ماديًّا يتكون من شبكات من الخلايا العصبية بالغة التعقيد والتفاعل[1]، تتعامل كلها بلغة واحدة هى النبضة الكهروكيميائية، فهل يرجع النشاط العقلى وشعورنا بذواتنا (الوعى) إلى كهرباء وكيمياء المخ، التى هى فى النهاية أيونات صوديوم وبوتاسيوم فى حركة دائبة عبر جدار الخلية العصبية؟! كيف تُمَكِننا حركة هذه الأيونات من أن نبنى الحضارة المعاصرة بما فيها من إنجازات علمية هائلة وإبداعات فنية؟! بل كيف تُمَكِننا حركة هذه الأيونات من أن ندرك «المفاهيم المجردة Concepts»، مثل قولنا: «إن الإنسان هو ذلك الكائن السامى الباحث عن المَعنَى، المُحِب للجمال، المنبهر بالمجهول، والمتطلع إلى الحق والحقيقة والخير والعدل»؟!

إن الفرق بين المخ والعقل كالفرق بين نُطق الكلمة ومعنى الكلمة. فالنطق آليه من عالم

(١) يتكون المخ من مائة مليار خلية، يربط بينها مليارات المليارات من الوصلات!

الطبيعة المادية، إنه عبارة عن صوت مستمر تُخرجه الحنجرة على هيئة ذبذبات واهتزازات فى الهواء، ثم يُحدِث الحلق واللسان والشفتان تَقَطُّعاتٍ فى هذا الصوت، لتُشَكِّله على هيئة حروف وكلمات، إن الأمر كله فيزياء، هذا هو نطق الكلمات. أما المعنى فهو شىء آخر، فقد يكون تعبيرًا عن الحب أو إعلانًا للحرب أو أى مفهوم آخر، **إن معنى الكلمات شىء خارج عن هذه الآليات المادية وعن تركيب الكون المادى.**

بالعقل صرنا بشرًا...

نقوم الآن باستعراض سريع للملكات العقلية التى يتميز بها الإنسان عما سواه من الكائنات، وجعلته أهلًا لأن يخاطبه الله ﷻ ويكلفه ويحاسبه، أهلًا لأن يصبح خليفة من الله فى الأرض.

نظرية العقل Theory Of Mind

هناك شبه اتفاق بين علماء النفس والتربويين على أن **«نظرية العقل[1]» (القدرة على تصور ما يدور فى عقل الآخر) تُعتبر الفرق العقلى الجوهرى بين الإنسان وغيره من الكائنات.**

وهناك اتفاق بين المتخصصين على أن معظم الحيوانات (خاصة العليا منها) تشارك أطفالنا الصغار فى أنها تدرك ما يدور فى عقولها، ويُعرف هذا فى فلسفة العقل بـ **«المستوى الأول من الإدراك (الانتباه) First Order Intentionality»**. وحول سن الرابعة يبدأ أطفالنا فى إدراك بعض ما يدور فى عقول الآخرين، وهو ما لا تقدر عليه باقى الرئيسيات، ويمكن تسمية ذلك **«المستوى الثانى من الإدراك»**. فتبدأ الطفلة فى وضع سيناريوهات تخيلية تفكر فيها بعقلية الآخر، فتدعى أن عروستها قادرة على شرب فنجان الشاى، فتقدمه لها وإن كان فارغًا. وعندما يخبرنا أطفالنا بشىء غير حقيقى (يكذبون) يكون فى داخلهم شعور بأن الآخر قد لا يصدقهم، لقد انتبهوا إلى أن للآخر عقلًا يقبل ويرفض[2].

(١) الأصح أن تُسمى «نظرة حول العقل».

(٢) يعتقد روبن دنبر Robin Dunbar (رئيس مركز أبحاث علم النفس التطورى والسلوك البيئى بجامعة ليفربول ببريطانيا) أن الشمبانزى قادر على بعض ممارسات المستوى الثانى من الإدراك (كأن يعرف أن الذكر الآخر يريد أن يهاجمه)، لذلك يعتبر البعض أن قدرات الشمبانزى العقلية فى مستوى عقل طفل فى الرابعة من عمره. ولا شك أن فى هذا القول كثيرًا من التجاوز، فكل الكائنات مهما كانت بدائية يمكنها أن تستشعر تهديد الآخر، فهو بالنسبة لها أمر فطرى وليس عقليًا.

وبعد وصول الإنسان سن البلوغ، يمكن أن تمتد به القدرة على الإدراك إلى سبعة مستويات متصاعدة، يدرك فيها أن الآخر يدرك ما يفكر فيه شخص ثالث، وأن هذا الثالث يدرك ما يفكر فيه شخص رابع، وهكذا. ويعتقد الباحثون أن الإنسان ذا القدرات العقلية المتوسطة يستطيع أن يدرك حتى المستوى الخامس، بعدها، يفقد القدرة على التسلسل مع مدركات الآخرين العقلية تجاه قضية ما.

معضلة الوعى Conciousness

يشعر كل منا أن هناك ذاتًا تمثله شخصيًّا، تقبع داخل جمجمته وتنظر إلى العالم، وكأن هناك قزمًا صغيرًا يتربع فى أدمغتنا ويرصد الوجود من حولنا. ولا شك أن هذا القزم سيحتاج إلى قزم أصغر يقبع داخل دماغه ليرصد له الوجود، وهذا القزم سيحتاج لقزم ثالث، وهكذا...!

إن الوعى هو القدرة على التأمل فيما حولنا وفيما بداخلنا. إنه يقف وراء الأحاسيس والأفكار والمشاعر والرغبات والمعتقدات وحرية الاختيار؛ إنه ما يجعلنا نشعر بأننا أحياء.

ويمكن تشبيه الوعى بالفرق بين الإنسان المستيقظ والإنسان النائم. عندما تستيقظ من النوم، ألا تشعر أنك كنت غائبًا أو معدومًا، ثم بدأت تدرك ما حولك: تتعرف على من يوقظك، أين أنت، فيم كنت تفكر قبل النوم، الالتزامات التى عليك القيام بها هذا الصباح. لقد عدت إلى مسرح الحياة، لقد أصبحت واعيًا.

ويمكن تشبيه الوعى بالتيار الكهربائى الذى لا يعمل الكمبيوتر إلا به؛ إذ تتلاشى قدرات الكمبيوتر إذا تم فصل التيار الكهربائى عنه، ويصبح كالمنضدة الموضوع فوقها!

إن المعضلة الكبرى التى تواجه العلماء والفلاسفة هى؛ كيف ننتقل من نظام كهروكيميائى كالذى يمارس به المخ نشاطاته، إلى استشعارنا الذهنى غير المادى بذواتنا وبما حولنا؟ كيف يترجم الدماغ موجاتٍ ذات أطوال معينة تسقط على شبكية العين إلى الوعى باللون الأزرق مثلًا؟...

يُبَسِّط الماديون الأمر ليحتفظوا به داخل الإطار المادى، فيدعون أن ازدياد التعقيد فى بنية المخ قد أدى إلى «انبثاق» وعينا بذواتنا وبما حولنا. إن هؤلاء يُشْبِهون مَن يبحث فى إجراء تعديل تكنولوجى يُمَكِّن جهاز تشغيل الـD.V.D من أن يصبح «واعيًا» و«مستمتعًا» بما يذيع من موسيقى؟!

الفلسفة تُدلى بدلوها

لا شك أن ظاهرة العقل الواعى تجد الإجابة عنها فى سلاسة ويُسر فى الديانات، وتتمثل فى كلمة واحدة هى «الروح». ولكن هل تتفق الفلسفة والعلم مع الدين فى وجود مثل هذا الجوهر غير المادى للإنسان؟

يخبرنا الفيلسوف «دافيد شالمرز David Chalmers»[١] أنه قد تصدى لهذه القضية اتجاهان رئيسيان: الاتجاه المادى الفيزيائى الذى يعتبر أن الوعى ظاهرة مادية من نَتَاج المخ، وأن كهرباء وكيمياء المخ يمكن أن يُفَسِّرا عمليات التعقل وما يمارسه الإنسان من وعى ومشاعر وأفكار مجردة، ومن ثم فليس هناك شىء آخر خارج المخ.

أما الاتجاه اللامادى، فيرى أن الوعى وباقى عمليات التعقل ظاهرة غير فيزيائية غير مادية، وإن كانت على اتصال بالظواهر الفيزيائية. ويرى هذا الاتجاه أن هناك عقلًا مسئولًا عن هذه الظواهر يختلف تمام الاختلاف عن المخ، فالمخ ينتمى إلى عالم المادة، بينما ينتمى العقل إلى عالم غير مادى لا ندرك حقيقته. وبالرغم من أنه من «الشكاكين»، فإن شالمرز يرفض الاتجاه المادى الفيزيائى.

وقد أخذ بعض كبار العلماء يتحدثون عن العجز الكامل للنشاط الكهروكيميائى لخلايا المخ عن تفسير العقل الإنسانى. ومن ثَمَّ يطالبون بتوسيع تصوراتنا العلمية، لتشتمل على نوع من «المجالات فوق المادية Supernatural Fields»، تكون هى المسئولة عن العقل. لذلك يؤكد فرانكلين هارولد أن «الفكر المادى الطبيعى Naturalism» قد فشل فى فهم وتفسير الظواهر الثلاث الكلية، وهى: الكون ـ الحياة ـ العقل، ويرى أنه ينبغى النظر إلى هذه الظواهر باعتبارها ظواهر فوقية Epiphenomena.[٢]

الإدراك ـ الفهم ـ التفكير

عندما كنت طالبًا فى المرحلة الثانوية، سَأَلَنا مدرس الفيزياء ذات يوم:

إذا سقطت شجرة فى غابة ليس فيها إنسان ولا حيوان، هل تُصدِر الشجرة صوتًا؟! وبعد أن

(١) أستاذ الفلسفة الأمريكى الشهير ومدير مركز أبحاث العقل، طرح هذا المفهوم فى بحث قيم بعنوان: الوعى ومكانته فى الطبيعة «consciousness and its place in nature»، نُشر لأول مرة فى كتاب فلسفة العقل (عام ٢٠٠٢) Philosophy of mind, classical and contemporary readings

(٢) كتاب «مسار الخلية ـ The way of the cell» (نشر عام ٢٠٠٣) تأليف «فرانكلين هارولد Franklin Harold»، أستاذ الكيمياء الحيوية والبيولوجيا الجزيئية بجامعة كلورادو.

احترنا فى إجابة هذا السؤال الخادع، أجابنا قائلًا: لا، لن تصدر الشجرة إلا موجات، أمَّا إدراك هذه الموجات كأصوات، فيحتاج إلى أمخاخنا، ففيها المراكز التى تُحَوِّل الموجات إلى أصوات وإلى صور وإلى روائح وهكذا. وقد أُعجب المدرس بذكائى حين عَلَّقت على إجابته قائلًا: إذا لم يكن هناك إنسان ولا حيوان يُدرِك وجود الموجات فلن تكون هناك غابة!

ومن المعلومات المدهشة والصادمة فى نفس الوقت أن المخ البشرى تطرقه قرابة ٤٠٠ مليار معلومة BIT فى الثانية الواحدة، ولا يدرك منها إلا ألفى معلومة فقط!. كذلك فإن العين البشرية تدرك ما يعادل ١,٥ متر من أطوال الموجات الكهرومغناطيسية الموجودة فى الأرض إذا مثلناها بخط يبلغ طوله ١٥٠ مليون كيلو متر! ما أشد محدودية قدرة المخ البشرى على إدراك ما حولنا[١].

وإذا كانت وظيفة «الإدراك» التى يقوم بها المخ ليست قاصرة على الإنسان، إذ تحدث فى معظم الحيوانات. فإن خصوصية المخ البشرى تتجلى فيما يعقب الإدراك من فهم وتفكير.

الفهـم

بالرغم من المقدار بالغ الضآلة الذى يدركه المخ مما يطرقه من معلومات، وبالرغم من عِظَم المُشتِتات حولنا، يقوم المخ من خلال هذا القدر الضئيل للغاية من معلومات بتكوين تصور متناسق للعالم المحيط بنا[٢]. ومن أجل الوصول إلى هذا التصور، زُوِّدَ المخ بعدد من «الآليات» الفطرية (الغريزية) التى تعمل فى تجانس تام من أجل أن نظل الكائن الواعى المدرك، الذى يفهم ويحلل ويُؤَوِّل العالم من حوله.

التفكير

ربما كان من أفضل تعريفات التفكير أنه «قدرة العقل على التعامل مع الرموز (بشكل مفتوح) مع الالتزام بالقواعد»، ولكن ما معنى (بشكل مفتوح)؟ فلنجب بمثال؛ يلتزم العنكبوت عند نسج شباكه بقانون توتر الأوتار المشدودة[٣]، لكن هل يعرف العنكبوت هذا القانون؟!

(١) Evolve Your Brain, Joe Dispenza, P.352

(٢) لتصور مدى صعوبة هذه المهمة تأمل هذه المقارنة الطريفة: إذا نَظَرَت طفلة إلى قطة بيضاء ذات بقع برتقالية، ثم عُرِضَت عليها وسادة بيضاء بها بقع برتقالية، وكلب أسود، فإن الطفلة ستدرك أن الكلب أقرب إلى القطة، بينما سيُرَجِّح الكمبيوتر أن الوسادة أقرب إلى القطة لتشابه ألوانها!. كيف فهم مخ الطفلة العلاقة بين القط والكلب متجاوزًا التشابه اللونى الظاهر بين القطة والوسادة الذى خُدِع به الكمبيوتر؟!

(٣) Tension of stretched strings Law = Hook's Law

بالرغم من أن العنكبوت لا يعرف القانون، فإنه يلتزم بتطبيقه بخطوات عملية ثابتة عند نسج شباكه، ولا يستطيع أن يستخدمه فى أغراض أخرى. هذا بخلاف الإنسان؛ فالمهندس يدرس قانونًا ما فى علم الفيزياء، ويستطيع تطبيقه فى استخدامات لا حصر لها (وهذا معنى بشكل مفتوح)، وهذا من أهم نشاطات التفكير. وربما تلاحظ أن معظم المعارف الإنسانية تقع بين هذين الطرفين؛ الإدراك العنكبوتى المحدود، والفهم المجرد القابل للتطبيق المتعدد المفتوح.

وإذا كان العقل الواعى يقوم بوظيفتين عقليتين فى تتابع متلاحق؛ إدراك ما حولنا، ثم فهم ما نُدرك، فإن هذه الأنشطة الثلاثة المتتابعة (الوعى ـ الإدراك ـ الفهم) هى أعمدة عملية التفكير التى هى أهم خصوصيات الذكاء الإنسانى. هل ما زال أحد يعتقد أن هذه العمليات العقلية عمليات عشوائية؟!

حرية الإرادة والقدرة على الاختيار

يمكن تعريف حرية الإرادة بأنها قدرة الإنسان على الاختيار بوعى بين بدائل، فى الوقت الذى يمكنه فيه أن يقوم باختيار آخر.

من الغريب أن بعض المدارس الدينية والفلسفية والنفسية تَدَّعى أن الإنسان مُجْبَر فى جميع تصرفاته. وهى بذلك تتفق مع بعض البيولوجيين الذين يرون أن هناك «حتمية بيولوجية»، أى أن السلوك الإنسانى تفرضه جيناتنا، وتتفق كذلك مع المدرسة التربوية التى تؤمن بـ«الحتمية التربوية»، التى ترى أن السلوك محصلة لأسلوب التربية والتنشئة، وفى النهاية يرى كل هؤلاء ألا إرادة للإنسان ولا حرية اختيار[1].

إن قضية «هل الإنسان مُسَيَّر أم مُخَيَّر» التى شغلت الفكر الإنسانى كثيرًا ـ وما زالت ـ ما كان ينبغى لها أن تُطرح! فسلوكنا اليومى تجاه ما يمر بنا من مواقف خير شاهد على حرية الإرادة؛ فأنت ببساطة تستطيع أن تستكمل قراءة هذا الفصل من الكتاب أو أن تغلقه، لذلك نعتبر أن حرية الاختيار هى إحدى أهم السمات المميزة للجنس البشرى. ولا شك أن نفى

(١) انطلاقًا من قناعة علم النفس بإرادة الإنسان الحرة، يشترط القانون الجنائى لإدانة متهم بارتكاب جريمة ما توافُر أربعة شروط: أن يكون قادرًا على تخيل بدائل أخرى للفعل المطروح، وأن يكون قادرًا على الامتناع عن الفعل، وأن يكون واعيًا بنتائج فعله على المدى القريب والبعيد، وأخيرًا أن يكون راغبًا فى النتائج التى ينتج عنها الفعل. هل هناك تأكيد لأهمية حرية الإرادة أكثر من ذلك؟!

الاختيار يعنى أن كل الديانات هُراء، فهى تقوم على الثواب والعقاب تبعًا لاختياراتنا الحرة، لذلك حرص الإسلام على تأكيد حرية الإرادة الإنسانية[1].

كذلك نجد أفرادًا يُقْدِمون «بإرادتهم» على التضحية بحياتهم من أجل الآخرين، كما يحدث فى المعارك العسكرية أو عند انتشار الأوبئة الفتاكة. قد تقول إن هؤلاء يُقْدِمون على مثل هذا السلوك طلبًا للاستشهاد فى سبيل الله ﷻ فيدخلون الجنة، أى أن إيمانهم قد دفعهم لذلك. لكننا نجد من هؤلاء من لا يكون على دين، قد يقول الملحد ربما يكون إيمانهم بالمُثل العليا (كالإيثار) هو الذى دفعهم لهذا الفعل. حتى وإن اتفقنا مع الملحد فى هذا التفسير، فلا شك أن قرار هؤلاء عندما اختاروا الموت (الذى يعنى الفناء بالنسبة لهم) من أجل الآخرين قد تَغَلَّب على حب البقاء (الذى هو أقوى غرائز الإنسان)، وبذلك يكونون قد مارسوا قدرًا هائلًا من حرية الاختيار[2].

كائن خيالى يَتَنَقَّل عبر الزمن

هناك كائن واحد لديه القدرة على تصور البدائل، وتوقع الأفضل والأسوأ، وتقدير النتائج مُسبقًا والتخطيط لتحقيق أفضلها، هذا الكائن هو الإنسان القادر على انتزاع نفسه من الواقع وطَرْح التساؤل: كيف يبدو الحال لو كان الأمر على غير ما هو عليه الآن؟. إن ذلك يتطلب أن يكون الإنسان قادرًا على تصور عالم خيالى، وقد تمكن الإنسان بذلك من بناء الحضارات وتحقيق التقدم التكنولوجى والعلمى والفكرى.

ويقف هذا الخيال وراء العلم والأدب والفلسفة والدين. فالعلم يقوم على التساؤل؛ لماذا صار العالم على ما هو عليه الآن، بينما كان يمكن أن يكون غير ذلك؟ إن العلم يقوم على البحث عن إجابة لهذه الـ«لماذا؟». كذلك يقوم الإبداع الأدبى على تصور أحداث خارج حياتنا اليومية، سواء كانت من نفس نمط هذه الحياة أو كانت حياة افتراضية مختلفة. كما تُمكننا القدرة على تصور عالم مختلف من وضع التصورات حول عالم روحى متسام، وحول وجودنا قبل النشأة الإنسانية وحياتنا بعد الموت؛ إن هذه القدرة تُعين على الإجابة عن الأسئلة الوجودية المحورية التى شغلت الفلسفة ونزلت الديانات لتجيب عنها.

---

(١) يخبرنا القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس].
﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان]. ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد].
﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... ۝٢٩﴾ [الكهف].
(٢) لا شك أن تمتع بعض البشر بـ(خُلُق الإيثار) من المعضلات التى يعجز الملاحدة عن تفسيرها.

وترتبط بكون الإنسان كائنًا خياليًّا مَلَكة أخرى مهمة، وهى «الانتقال العقلى عبر الزمن Mental time travel»، وتعنى القدرة العقلية على استرجاع أحداث مضت، وكذلك تصور ما يمكن أن يحدث فى المستقبل. وقد ثبت أن هذه الملكة ـ مثل الخيال ـ صفة إنسانية لا تتمتع بها الحيوانات.

الإيمان «بالسببية»

لا يحتمل الإنسان أن يقف عاجزًا كالأبله تجاه الأحداث الهامة التى تمر بحياته؛ كالموت والمرض، بل وتجاه كل ما يقع حوله، كهبوب الرياح وسقوط المطر واشتعال النار وخمودها. لذلك كان الإيمان بأن وراء كل حدث سببًا أمرٌ ضرورى من أجل تفسير الأحداث، جليلها وبسيطها، لإشباع نهم الإنسان العقلى، وليصبح للعالم من حولنا معنى. كذلك أصبح الإيمان بالسببية الدافع الأكبر للبحث عن السبب الأول وراء الوجود، وهو ما يعرف «بدليل الإيجاد» أو «البرهان الكونى» الذى نستشهد به على وجود الإله.

حب الاستطلاع والبحث

ليس البحث فى الوسط المحيط سمة قاصرة على الإنسان، فكل الكائنات تبحث. النباتات تبحث عن الضوء، والحيوانات تبحث عن الغذاء، والميكروبات يبحث بعضها عن الضوء والبعض الآخر عن الأوكسجين، وكلها تتحرك بعيدًا عن العوامل الضارة. ومع ذلك اقترح بعض البيولوجيين تسمية الإنسان بـ«الإنسان الباحث Homo quaevens» قياسًا على اسمه البيولوجى الحالى «الإنسان العاقل». فبماذا نحن متميزون فى البحث عن باقى الكائنات؟.

إن الفرق بين بحث الإنسان ومَنْ سواه من الكائنات الحية فرق شاسع؛ فبحث الإنسان ليس بدافع الضرورة والفائدة المباشرة (كباقى الكائنات)، ولكن من باب حب الاستطلاع والشغف بالمعرفة وغريزة الإيمان بالسببية[١].

(١) ليست هناك فائدة عملية مباشرة لاستكشاف منابع النيل، أو إنزال رجل على القمر، أو... كذلك ما الذى دفع أسلافنا للخروج من أفريقيا إلى آسيا وأوروبا، منذ فترة تراوحت بين ٩, ١مليون - ٠٠٠, ١٠٠ سنة. وما الذى دفعهم للارتحال من آسيا جنوبًا وعبور المحيط الهندى للوصول إلى أستراليا منذ حوالى٠٠٠, ٥٠ سنة. وما الذى دفع آخرين منذ ٠٠٠, ١٦ - ٠٠٠, ١٢ سنة لعبور سيبريا والوصول إلى آلاسكا ثم الأمريكتين. لماذا تَحَمَّل أسلافنا مخاطر تلك الهجرات؟.

وفى دراسة شيقة قام بها فريق من الباحثين فى جامعة لندن عام ٢٠٠٦، وجدوا أن مناطق معينة تتنشط فى المخ عند اتخاذ قرارات المخاطرة والمغامرة، بينما تتنشط مناطق أخرى عند اتخاذ القرارات المحافظة. وقد وجدوا أن مناطق=

السلوك الاجتماعى الإنسانى

إذا كان العقل البشرى قد جعل الإنسان أكثر الكائنات ذكاءً، بكل ما ترتب على ذلك من مهارات عقلية، فإنه قد أمده أيضًا بصفة أخرى لا تقل أهمية، وهى أنه أكثر الكائنات اهتمامًا بالسلوك الاجتماعى.

وإذا كان المثال الأوضح للسلوك الاجتماعى الغريزى هو مملكة النمل، التى يُنظَر إليها ككائن واحد ضخم، فكذلك يمكن اعتبار أن المجموعات البشرية تسلك ككائن واحد، لكل فرد فيها دوره (كما أن لكل عضو فى جسم الإنسان دوره) من أجل تحقيق أهداف المجموعة، لذلك فإننا نوصف ـ مثلًا ـ بأننا «الشعب المصرى». وبالرغم من ذلك يبقى الفرق الجوهرى بين الحيوانات وبين البشر هو الوعى العقلى لكل إنسان بدوره فى خدمة الجماعة، لذلك استحق العقل البشرى أن يوصف بأنه «العقل الاجتماعى العميق»[1].

الإدراك خارج الحس[2]:

يتمتع الإنسان بالقدرة على إدراك أشياء خارج قدرة حواسه الخمس، يخرق فيها حدود الزمان أو المكان! وليس لذلك من تفسير مادى. ومن هذه الظواهر:

١ - ظاهرة الرؤية المُسْبقَة = ظاهرة الشعور بالأُلفة Deja Vu Phenomenon

إنها ظاهرة معروفة فى علم النفس، بل لقد عشناها كلنا أو معظمنا.

وتعنى الرؤية المُسبقَة، أننا قد نَمُر فى حياتنا بموقف ما، ونشعر تجاهه بالألفة، وبأننا قد عايشنا هذا الموقف بملابساته وتفاصيله من قبل، وغالبًا ما نشعر أنه قد سبق واطَّلَعنا فى أحد أحلامنا على ما سوف يحدث من تفاصيل الموقف[3] !!

= المخاطرة مقارنة بمناطق الالتزام أكبر فى مخ الإنسان عما سواه من الرئيسيات. وذلك يفسر لماذا يُفَضِّل الإنسان جمع معلومات جديدة (استكشاف) على الاكتفاء والالتزام بما عنده من معلومات تكفل له السلام.

(١) يعترض أندرو ويتن (أستاذ علم النفس التطورى ببريطانيا) على الذين يعتبرون أن أممًا كالنحل والنمل أكثر اجتماعية منا نحن البشر، مستدلين على ذلك بأن تجمعاتها أكثر عددًا، وأن كثافة مجتمعاتها أعلى وتعاملاتها ألصق، وأن توزيع المسئوليات بينها أكثر صرامة. ويعتبر أندرو ويتن أن أهم سمة للنشاط الاجتماعى الإنسانى هى «العمق»، ويُرجعه إلى ما يُطلق عليه اسم «العقل الاجتماعى العميق».

(٢) Extra-Sensony Perception

(٣) لقد بَسَّطَ الماديون الأمر ليخرجوا من هذا المأزق، فعَللوه بأنه مجرد «تَوَهُّم Illusion» نشعر به فى لحظتها. كما فسر آخرون الظاهرة بأن أحد نصفى المخ قد أدرك الموقف قبل النصف الآخر بجزء ضئيل جدًا من الثانية، وعندما أدرك النصف المُتأخر الموقف، شعر الإنسان بالألفة تجاه ما يجرى.

ولتقييم هذه التأويلات المادية يقوم البعض، ومنهم كاتب هذه السطور، بتدوين أحلامهم المُفَصَّلة، حتى إذا مر بهم =

٢ – ظاهرة الرؤيا الصادقة

ظاهرة أخرى لا شك أنها مرت بالكثيرين منا أيضًا، أسجل هنا أحد أمثلتها:

روت لى زوجتى أنها رأت فى أحد أحلامها أن الجزء الأيمن من مؤخرة رأس ابننا حليق، بعدها بيومين، كنت وزوجتى عائِدَين إلى المستشفى التى أعمل بها، فإذا بالأطباء يخيطون لابننا جرحًا أصابه فى رأسه، وقد حلقوا له هذا الجزء بالتحديد من فروة الرأس!. لا شك أن الحادثة تتجاوز فى تفاصيلها إمكانية الحدوث بالصدفة، كما يدعى الماديون.

ألا تثير هاتان الظاهرتان التساؤل حول كيف يُدرك المخ المادى أمرًا لم يحدث بعد، بتفاصيله! هل تستطيع النبضة الكهروكيميائية للخلايا العصبية اختراق حاجز الزمان إلى المستقبل؟!

٣ – ظاهرة التواصل عن بُعد Telepathy

قد تشعر الأم (أو أى إنسان) فى لحظة ما بقلق شديد وبأن قلبها قد انقبض قلقًا على ابنها المسافر عبر البحار، ثم تعرف فيما بعد أن حادثًا وقع لهذا الابن فى تلك اللحظة. ألم يحدث مَرَّة أن فكرت فى شخص معين، وبعدها ببرهة دق جرس الهاتف وإذا به يتحدث إليك؟ إن مثل تلك الحوادث أكثر من أن يحصيها عدًا، فما تفسير اختراق حاجز المكان واطلاع عقولنا على واقعة تحدث بعيدًا عنا؟.

٤ – خبرات الذين اقتربوا من الموت Near Death Experiences

أظهَرت بعض الدراسات الموثَّقَة حول هذا الموضوع أن إدراك الإنسان يستمر بعد خمود المخ عن العمل! ويمتد إدراكه إلى بعض الأمور الغيبية[1]!

هل تعنى خبرات الذين اقتربوا من الموت أن هناك ذاتًا مستقلة عن المخ، لها قدرات إدراكية عالية، وهى مصدر شعور الإنسان بذاته، وهى مصدر العقل، وأن هذه الذات تظل على وعيها عندما يكاد عمل المخ أن يتوقف.

إن كل ما يقدمه العلماء الماديون من تفسيرات لظواهر الإدراك خارج الحس لا يروى

= موقف استشعروا فيه وجود «رؤية مُسْبَقَة» رجعوا إلى ما دَوَّنُوه، وكثيرًا ما وجدت تطابقًا كاملًا بين هذه المواقف التى أعايشها وبين أحد الأحلام المُدَوَّنَة،إذًا فهى ليست توهمات.

(١) اشتملت إحدى أهم هذه الدراسات على ٦٣ مريضًا أُصيبوا بنوبات قلبية شديدة أُعلن إثْرها وفاتهم إكلينيكيًا، لكنهم تماثلوا للشفاء، وحكوا أمورًا عجيبة. ذكر البعض أنهم شعروا أنهم مفارقون لأجسادهم ويطوفون فوقها ويشاهدون الأطباء والممرضات وهم يتعاملون مع جسدهم المُسَجَّى، ثم إذا بهم يهبطون ليدخلوا مرة أخرى فى أجسادهم! وذكر بعضهم أنه شاهد نفقًا طويلًا مظلمًا وفى آخره دائرة من النور. وذكر أحدهم أنه رأى حذاءً رياضيًا لونه أحمر مُلقى فوق سطح المستشفى، وقد ثبت صحة ذلك! لقد ذكروا أمورًا شاهدوها وانطبعت فى ذاكرتهم، فى فترة اعتقد الأطباء فيها أن عمل المخ قد توقف.

نُشرت هذه الدراسة فى المجلة العلمية المحترمة Resuscitation. وقُدمت نتائج الدراسة عام ٢٠٠١، أمام اجتماع علماء المخ والأعصاب والرعاية المركزة فى The California Institute of Technology

ظمأ[1]، بل إن المنصفين منهم يُقِرُّون بعجزهم عن تفسير كيف تنبثق القدرات العقلية والشعور بالذات عن المخ المادى، فما بالك بالإدراك خارج الحس. لا شك أن هذه الظواهر التى يتم فيها خرق الزمان أو المكان تضع العلم المادى فى موقف حرج، فكيف تفسر النبضة الكهروكيميائية التى هى لغة المخ هذه الظواهر غير المادية التى حيرت العلماء والفلاسفة، ولا شك أن ذلك يدفعنا لأن نستدعى لها تفسيرات غير مادية غير تقليدية.

فى سياحتنا السابقة مع الملكات العقلية للإنسان اخترنا من السمات المعرفية والسلوكية ما يُظهر أن الفوارق العقلية بين الإنسان وباقى الكائنات فوارق نوعية وليست كَمية، ومن ثم يثبت استحالة أن تكون نشأة العقل عملية مادية عشوائية، بل تتطلب اللجوء إلى تفسيرات غيبية.

لقد أصبح الإنسان يتميز بطفرة معرفية «نوعية» عن باقى الكائنات. لقد صار إنسانًا عندما أصبح قادرًا على أن يصيغ معارفه على هيئة تساؤل منهجى:

«مَنْ» «فعل» «ماذا» «لمن»، و«متى» و«أين» و«لماذا»؟

who did what to whom; when,where and why?

ومن هذه السمات العامة للعمليات العقلية ننتقل إلى مناقشة أربع من أهم خصوصيات العقل البشرى، وهى اللغة وتذوق الجمال والمنظومة الأخلاقية والتسامى الروحى.

وباللغة نبدأ...

العقل واللغة...

تمثل «اللغة» فرقًا جوهريًا بين الإنسان وغيره من الكائنات، فهى تضع داخل المخ مقابلًا للوجود، فتُمكن الإنسان من أن يكون له تاريخ وأن يعيش الحاضر وأن يخطط للمستقبل. كما تُعتبر اللغة وسيلة أساسية للتفكير خصوصًا فيما يتعلق بالمفاهيم المجردة، ذلك بالإضافة طبعًا إلى دورها كأهم وسائل التواصل. ومن ثمَّ، فإن تخلف لغة أمة ما عن مواكبة العصر يؤدى إلى تخلف مواز فى الفكر والحضارة.

(١) يتحدث علماء الفيزياء الحديثة عن «ظاهرة التعالق Entangelment»، التى تعنى حدوث تبادل لحظى للطاقة بين المنظومات المرتبطة ببعضها. ويلجأ البعض لهذه الظاهرة لتفسير الظواهر فوق الحسية التى يتم فيها قطع المسافات الكبيرة، كالتواصل عن بعد، لكن تظل الظواهر التى يتم فيها اختراق الزمان خارج إطار التفسيرات الفيزيائية.

وينبغى أن نميز بين مفهوم التواصل بصفة عامة وبين اللغة بصفة خاصة. إن التواصل هو نقل المعلومات عن طريق الكلام أو الكتابة أو الإشارات أو السلوك أو أى طريقة أخرى، وتستطيع الحيوانات التواصل مع أفراد جنسها بوسائل مختلفة، كرقصات النحل وروائح الحيوانات وغيرها... أما اللغة، فهى مهارة (أو فعل أو القدرة على) التعبير عن الأفكار والمشاعر والمدركات، وكذلك التواصل مع الآخرين عن طريق نطق أو كتابة الكلمات، أو عن طريق الإشارات.

نشأة اللغة:

احتاجت نشأة اللغة عند الإنسان إلى ثلاث ملكات[1]:

١ - الترميز: تسمية الأشياء والمفاهيم.

وتعتبر «القدرة على الترميز» أول المهارات التى تحتاجها اللغة وتميز الإنسان عن غيره من الكائنات، وبها يطلق الإنسان اسمًا على كل موجود أو مُدرَك، سواء كان ماديًا أو غير مادى.

٢ - تحديد القواعد التى تحكم بناء الجملة.

أما «تركيب العبارات أو بناء الجمل»، فهو النمط الذى تتصل به الكلمات مع بعضها. وللغات البشرية القدرة على تكوين أعداد هائلة من الجمل، سواء تم صياغتها من قبل أو جمل جديدة تمامًا. وبدون قواعد تركيب العبارات تتحول اللغة إلى كلمات مبعثرة ليس لها دلالة.

وباختصار؛ فاللغة عبارة عن الكلمات (الرموز) بالإضافة إلى القواعد التى تحكم استخدامها.

٣ - نشأة آلية إخراج الأصوات.

وحتى تكتمل اللغة كوسيلة للتواصل مع الآخرين، يبقى أن نخرجها على هيئة كلام منطوق. قد ثبت أن مراكز المخ الكلامية والممر الصوتى البشرى المسئولين عن إخراج الأصوات قد وجدتا لمئات الآلاف من السنين قبل أن ننطق كلماتنا. ويُرجع آيان تاتيرسل[2] ذلك إلى: «التصميم الذكى والتطوير الإلهى».

(١) خلال القرن العشرين، اهتمت دراسات «علوم اللغويات Linguistics» بجوانب الكلام الثلاثة؛ «الصوتيات أو إخراج الأصوات phonetics» و«معانى المفردات Semantic» و«تركيب العبارات أو بناء الجملة Syntax».

(٢) عالم البيولوجيا والأنثروبولوجيا الأمريكى أيان تاتيرسل Ian Tattersell، أمين متحف الأنثروبولوجيا فى المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى بمدينة نيويورك.

اللغة مبرمجة جينيًّا فى أدمغتنا!

يستخدم الإنسان اللغة بشكل مرتجل وبلا وعى، حتى يبدو التفكير فى ماهيتها أمرًا لا معنى له. ولكن منذ ستينيات القرن العشرين اعترى فهمنا للغة البشر تغييرات ثورية، فقد ثبت أن ملكة اللغة البشرية مبرمجة فطريًّا (جينيًّا) فى بنية أدمغتنا **Hard-wired**. ويقف وراء هذه المدرسة أبو علم اللغويات الحديث فى جامعة إم آى تى MIT ناعوم تشومسكى[1]، فقد أثبت أن اللغات البشرية ـ بالرغم من تباينها الظاهرى الكبير تشترك فى نفس القواعد النحوية العميقة. وانطلاقًا من هذا المعنى، أضاف تشومسكى مفهومين جديدين لعلوم اللغويات:

المفهوم الأول هو «الأجرومية (النظام) الخلاقة Generative Grammar». لقد أثبت تشومسكى (ما أكدته دراسة خرائط المخ فيما بعد) أن الطفل يولد ومخه مُعَد لتكوين جمل صحيحة ذات معنى. فبمجرد تلقيه بعض المفردات وبعض العبارات يصبح قادرًا (بالقياس عليها) على تكوين ما لا نهاية له من الجمل صحيحة التركيب.وتتم هذه العملية فى مرحلة مبكرة من العمر، وتصبح هذه اللغة هى «اللغة الأم».

والمفهوم الثانى هو «الأجرومية (النظام) العالمية Universal Grammar». فقد أثبت تشومسكى أن الجنس البشرى بأكمله يتفاعل مع اللغة بطريقة متماثلة على اختلاف أصوله ولغاته، وأن البشر يصنعون جُمَلَهم بطريقة متشابهة تُطَوَّع وتخضع جزئيًّا للظروف المحيطة. ومن أمثلة هذا التشابه، أن الجملة تتركب من فعل وفاعل ومفعول به، وأن للأحداث زمنًا ماضيًا ومضارعًا ومستقبلًا، وغيرها[2].

الانفجار اللغوى الأعظم:

يؤكد ناعوم تشومسكى، حجة علوم اللغة فى القرن العشرين، استحالة أن تكون اللغة تطورًا عشوائيًّا لأى من وسائل التواصل عند الرئيسيات، ويعتبرها شيئًا جديدًا تمامًا ظهر عند الإنسان.

(١) Noam Chomsky: ولد فى ديسمبر عام ١٩٢٨، وشغل منصب أستاذ كرسى اللغة فى جامعة إم آى تى، وتعد أعماله الأكثر أهمية فى مجال «نظرية اللغة» فى القرن العشرين، بل وامتد تأثيرها إلى علم النفس. وتشومسكى، إلى جانب تخصصه، عالم فى الرياضيات والفلسفة وعلم النفس، وهو أيضًا إنسان مثقف صاحب اتجاه سياسى يتسم بالتعاطف مع بلاد الجنوب عمومًا (خصوصًا مع القضية الفلسطينية) وبمهاجمة الرأسمالية الأمريكية المتوحشة بصفة خاصة.

(٢) عَبَّر أحد كبار علماء اللغة عن هذا التشابه بقوله: «إذا زار عالم لغويات من كوكب المريخ الأرض، فسيستنتج أنه ما عدا بعض الكلمات غير ذات المعنى، فإن أهل الأرض جميعًا يتكلمون لغة واحدة».

وقد أسمى نظريته فى نشأة اللغة نظرية الانفجار اللغوى الأعظم The Big Bang Theory Of Human Language، محاكاةً لنظرية الانفجار الكونى الأعظم الذى أوجد الكون من عدم.

ويلجأ تشومسكى لتفسير نظريته إلى اصطلاح يستخدمه التطوريون الماديون كثيرًا لتفسير ما يستحيل تفسيره ماديًا (كظاهرة الحياة)، وهو الانبثاق **Emergence**، فما أن وصل المخ البشرى إلى تعقيده الهائل حتى «انبثقت» منه اللغة. وإذا كنا نتفق مع تشومسكى فى أن اللغة شىء جديد تمامًا ظهر فجأة عند الإنسان، فنحن نختلف معه فى اعتباره أن الانبثاق حدث تلقائيًا. ذلك أن اصطلاح الانبثاق يصف البزوغ المفاجئ للظاهرة، لكنه لا يحدد آلياتها.

العقل وتذوق الجمال

قرأت حكمة هندوسية قديمة، تربط بين الإحساس بالجمال وبين الألوهية، تقول الحكمة: «**لقد أُعطى الإنسانُ الحسَّ الجمالى، الذى يجعله يتفاعل مع الجمال، ويرى اللمسة الإلهية فى كل ما حوله**». وقد أدركت هذه العلاقة بشكل أوضح بعد أن أثبتت البحوث الحديثة أن الحس الجمالى ليس أمرًا مكتسبًا وليس إفرازًا للحضارة الإنسانية، ولكنه ملكة فطرية غريزية.

للعقل قوانينه لتذوق الجمال والفن

يقول خبير علوم المخ والأعصاب (وأيضًا الفن) العالِم الفذ راماشاندران[1]:

لقد شغلتنى قضية الإحساس بالجمال وتذوق الفن، وعلاقة ذلك بنشاط المخ، فى الفترة الأخيرة. ومفتاح الإجابة عن هذه التساؤلات هو كلمة «رازا **Rasa**» التى تتردد كثيرًا فى الفن الهندى، وهى كلمة باللغة السنسكريتية يصعب ترجمتها، لكنها تعنى تقريبًا «**التوصل إلى جوهر الشىء، وعرضه بأسلوب يثير مشاعر ومزاج المشاهد**»، **فكيف يتوصل الفنان إلى ذلك الجوهر ليقوم بعرضه؟ وكيف يضع المشاهد يده عليه عند تأمل العمل الفنى ليتذوقه؟ هذا هو الفن.**

---

(١) V. Ramachandran: ولد فى الهند عام ١٩٥١. يوصف راما شاندران بأنه ماركوبولو علوم المخ والأعصاب (الرحالة والمستكشف الشهير فى العصور الوسطى) وبأنه بول بروكا العصر الحديث (مؤسس علوم المخ والأعصاب).

ليست مهمة الفن نقل نسخة مماثلة تمامًا للوجود، وإلا لكفانا أن نسير فى الدنيا نتأمل ما حولنا. ولكان التصوير الفوتوغرافى هو أرقى الفنون. ولكن على العكس؛ إن مهمة الفن هى تغيير صورة الوجود، أو التركيز على إحدى جزئياته، لتحقيق الإمتاع (وأحيانًا القرف!) للمشاهد، وكلما حقق الفنان ذلك تصاعدت رجفة الاستمتاع بالجمال وكان الفنان قديرًا. وقد توصل راماشاندران إلى عدة سمات (أو قوانين) لا بد أن يلتزم بها الفنان (أو مصمم الأزياء) من أجل أن يحقق للمشاهد من الإمتاع والإثارة الجمالية مالا تحققه الرؤية الواقعية[1].

ولا يعنى التوصل إلى هذه القوانين والآليات فقدان البعد النفسى والروحى للجمال والفن. فإدراكنا لآليات الحب وممارسة الجنس لا يلغى البعد النفسى والروحى لهما، كذلك فإن تعمقنا فى دراسة دقائق علوم اللغة لا ينتقص من استمتاعنا بقصائد الشعر وإبداعات الأدب، كما أن إدراكنا أن الماس يتكون من الكربون وتَوَصُّلْنا إلى خطوات تكوينه فى باطن الأرض عبر ملايين السنين لا ينتقص من استمتاع النساء به. كذلك لا يعنى وجود قوانين وآليات فطرية لتذوق الفن غياب دور التنشئة والحضارة.

فسبحان الخالق الذى شكل المخ البشرى وزوده بالآليات التى تمكنه من تذوق ما أودع فى الكون من جمال. إن نشأة الحس الجمالى للإنسان بشكل شديد التعقيد وخضوعه لقوانين دقيقة، ومغاير تمامًا لما عليه غريزة تذوق الجمال فى الحيوانات، لدليل قاطع على التصميم الذكى الذى لا يقدر عليه سوى إله خبير حكيم قادر.

(١) المدهش أن عالم الفيزياء العبقرى المسلم «الحسن بن الهيثم ٩٦٥ - ١٠٤٠م» حدد مقاييس موضوعية لتذوق الجمال قبل راماشاندران بألف عام. انظر إليه وهو يقول:
«يدرك النظر الجمال من خلال كل صفة من صفات الإبصار، بل إن كل صفة تُشعر بنوع مختلف من الجمال»، ويؤدى «امتزاج هذه الصفات» إلى استشعار أنواع أخرى من الجمال أكثر تركيبًا:
«فموضع الأشياء» يضفى عليها جمالًا، كما أن «ترتيبها» يضفى عليها جمالًا آخر. ومثال ذلك حروف الكتابة التى يبزغ جمالها من موضعها وترتيبها، فصارت بذلك فنًا من الفنون.
كذلك فإن «انفصال الأشياء» يعطيها جمالًا، لذلك فالنجوم المتناثرة تبدو أكثر جمالًا من نجوم مجرة درب التبانة المتزاحمة، لذلك أيضًا فإن البراعم والأزهار المنتشرة فى المروج تكون أكثر جمالًا من تلك المجتمعة فى باقات.
وفى الوقت نفسه فإن «الامتداد» يعطى جمالًا، لذلك فالمروج الخضراء الممتدة أمام البصر (وكذلك مياه البحر) أجمل من تلك التى تقطعها المنازل والطرقات. وفى الوقت نفسه فإن «امتداد اللون الأخضر» لتلك المروج أجمل من المناطق التى تتباين ألوانها».

العقل والمسألة الأخلاقية

الأنانية، الإيثار، الضمير[1]

عندما يجلب أمر ما لأنفسنا اللذة والسرور فإننا نشعر تجاهه برغبة تحملنا على البحث عنه والقيام به، وعندما يسبب لنا المعاناة أو الألم فإننا نشعر نحوه ببغض يدفعنا إلى الفرار منه وتحاشيه. وتُسمى هذه الدوافع بـ «**الميول الأنانية**»، وشعارها «**كل شيء لى ولو كان ذلك على حساب الآخرين**».

ومن الناس من يتصفون برقة العاطفة فيتألمون لآلام الآخرين ويُسَّرون لسرورهم، ويسعون للتخفيف من آلامهم وجلب السرور لهم، ويُسمى ذلك بـ «**المشاركة الوجدانية**». وإذا احتاج الأمر إلى التضحية كان ذلك إنكارًا للذات، وأُطلق عليه «**الإيثار**». وهؤلاء يكون شعارهم: «**كل شيء للآخرين ولو كان ذلك على حسابى**».

وعندما نبلغ سن الرشد، يتشكل لنا «ضمير» يُشعرنا أن عملًا ما واجب التنفيذ، وآخر واجب الترك، وثالث مباح. فإذا فعلنا (أو تركنا) ما هو واجب شعرنا بلذة الرضا الأخلاقى، وإذا قصرنا فى ذلك شعرنا بألم تبكيت الضمير. ومن ثم يصبح «**وحى الضمير**» هو المصدر الثالث للسعادة والشقاء. وهؤلاء يكون شعارهم: «**إرضاء الضمير أولًا وقبل كل شىء**».

والإنسان المتزن تحكمه الدوافع الأخلاقية الثلاثة: الأنانية، والإيثار، والضمير. وتمثل هذه الدوافع أساس ما يُعرف عند الفلاسفة بـ «**المسألة الأخلاقية**»، التى تتلخص فيما يلى: **تنبعث فينا طموحات مختلفة، فكيف نسلك تجاهها؟ أنتبع الميول الأنانية، أم نستجيب لعاطفة الرحمة والإيثار أم نسعى إلى طمأنينة الضمير؟**.

وتأتى **الديانات** لتنظم العلاقة بين هذه الدوافع التى وضعها الإله فى فطرة البشر؛ تحثنا على الفاضل منها، وتنهانا عما هو دنيء. والديانات فى حكمها على الشيء بين فضل ودناءة تخضع لمقاييس «**مطلقة**» يحددها الإله.

(١) عن كتاب «المشكلة الأخلاقية والفلاسفة»، تأليف أندريه كريسون، وترجمة الشيخ د. عبد الحليم محمود. دار المعارف.

إنسان فاضل رغم أنف الداروني

تقلب الدراسات الحديثة المائدة على الداروني! فقد ثبت أن الإنسان لا يلتزم بـ«**الصراع من أجل البقاء**» بل يسلك في المقام الأول بناءً على دوافعه الأخلاقية حتى في أحلك الظروف. من أقوى الدراسات تلك التي قام بها «صامويل مارشال» المؤرخ الرسمي للجيش الأمريكي[1]، والتي أظهرت أن ثلاثة من كل أربعة جنود أمريكيين (٧٥٪) لم يطلقوا نيران أسلحتهم بشكل مباشر لقتل أحد الأعداء حتى وهم معرضون للخطر، بل جعلهم رادعهم الأخلاقي الرافض للقتل يترددون، وقد عُرفت هذه النسبة بـ«**معدل مارشال لإطلاق النار في الحروب**».

وقد مَثَّل هذا الرادع الأخلاقي مشكلة كبيرة للجيش الأمريكي! فَبَدَّلَ المسئولون من أسلوب التدريب على إطلاق النار في أثناء الحروب، بحيث يصبح أمرًا تلقائيًا وعشوائيًا عند مجرد التعرض للخطر، كما احتاج الأمر إعداد الجنود نفسيًا من أجل تشجيعهم على القتل. بذلك انخفضت هذه النسبة عن الحرب الكورية وحرب ڤيتنام حتى وصلت إلى ١٠٪ في حرب العراق. هكذا يحولون الإنسان إلى وحش.

منظـومـة

(الألوهية - الدين - الأخلاق)

يعتمد الإسلام في بناء المنظومة الإيمانية (الألوهية - الدين - الأخلاق) على آليات ثلاث، هي «**الفطرة والرسالة والعقل**».

وتبدأ المنظومة بأن يخبرنا القرآن الكريم أن الله ﷻ قد وضع «فطرة» الدين والإيمان به في النفس البشرية ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ... ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم]. وكان ذلك بغير واسطة من مَلَك مُقَرَّب أو نبي مُرسل، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .... ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]. وتقف هذه الفطرة وراء شوق الإنسان وشغفه للبحث عن الإله الحق والدين الحق. ويشير القرآن

(١) Samuel Lyman Atwood Marshall: (١٩٠٠ - ١٩٧٧م)، المؤرخ الرسمي للجيش الأمريكي في أثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها من حروب. ألف أكثر من ٣٠ كتابًا عن سلوك الجنود في أثناء الحرب، وأشهرها Men Against fire

الكريم إلى أن الفطرة تكاد تصل بالإنسان إلى الهداية وإن لم تصله الديانات السماوية ﴿... يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ... ﴿٣٥﴾ ﴾[النور]، أى أن نور الوحى يضاف إلى نور الفطرة لتكتمل إنارة طريق الهداية للإنسان.

ثم يأتى دور «الرسالات السماوية» لتُعرِّف الإنسانَ بربه وبدينه، وتُذكِّره بالميثاق الذى وضعه الله ﷻ فى فطرته ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ويخبرنا القرآن الكريم أن الله ﷻ لم يترك أمة دون أن يرسل لها مَن يُعرِّفها أمر الدين ﴿...وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[فاطر].

وبعد الفطرة والرسالة يأتى «العقل»، فنجد القرآن الكريم يكرر الدعوة إلى التعقل قُرابة الخمسين مرة، ويؤكد فاعلية العقل بقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ ... ﴿٥٣﴾ ﴾[فصلت]. ويبين القرآن أن من يعطل مَلَكة العقل ويحرم نفسه من عطائها يصير كالأنعام أو أضل، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾[الفرقان].

كائن عاطفى، خَلوق، متدين

تصف كارين أرمسترونج[(١)] الإنسان فى كتابها «تاريخ الإله A History of God» بأنه كائن روحى، وتقترح للجنس البشرى اسمًا آخر هو **Homo-religious (الإنسان الدَّين)**، بالإضافة إلى **اسمه البيولوجى Homo-sapiens (الإنسان العاقل)**. وتؤكد د. أرمسترونج بذلك أن المفاهيم **الدينية فطرية عند الإنسان.** فما هى صفات الإنسان ومستجدات العلم التى تقف وراء رؤية كارين أرمسترونج؟:

يخبرنا إدوارد ويلسون[(٢)] (أستاذ البيولوجيا الاجتماعية فى جامعة هارفارد) أن الإنسان عاطفى بطبعه، وأن هذا الحس مُسَجَّل فى جيناتنا.

(١) Karen Armstrong: مفكرة إنجليزية مهتمة بالأديان، تدور كتاباتها حول اتفاق الأديان الرئيسية فى المفاهيم الأساسية، وتعتبر أن الحل الجذرى لجميع مشكلات الإنسانية هو «أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك». ودعت فى فبراير ٢٠٠٨ إلى تشكيل مجلس عالمى للتوفيق بين المسلمين والمسيحيين واليهود. وهى شديدة الاهتمام والاحترام للإسلام، وقد أصدرت عنه عدة مؤلفات عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ولدت عام ١٩٤٤.

(٢) Edward O.wilson: من المهتمين بالفلسفة والأديان وحقوق الإنسان. حصل على جائزة بوليتزر العالمية مرتين. يُعتبر كتابه وحدة العلوم Consilience من أحسن ما كُتب عن العلاقة بين البيولوجيا والطبيعة الإنسانية. ولد بالولايات المتحدة عام ١٩٢٩.

كما يخبرنا جيمس واطسون[1] فى كتابه DNA، أن المفاهيم الأخلاقية Moral Codes مدموغة فى جينات الإنسان منذ نشأته، وقبل وجود الديانات.

كذلك يخبرنا روبرت وينستون[2]، رئيس الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم فى كتابه «الفطرة البشرية» أن الحس الدينى جزء من بنيتنا النفسية، وأنه مسجل فى جيناتنا، وأنه يتراوح قوةً وضعفًا من إنسان لآخر.

ويؤكد مايكل شيرمر[3] (رئيس تحرير مجلة الشَّكَّاك) أن الشعور بثنائية الجسد والروح أمر فطرى مزروع فينا منذ ولادتنا. ويؤيد نفس المعنى بول بلوم[4] (أستاذ علم النفس بجامعة ييل بالولايات المتحدة) قائلًا: «إننا كائنات ثنائية (جسد وروح)، دُمِغَ فى جيناتنا (HardWired) الإيمان بحياة أخرى تحيا فيها الروح بعد مغادرة الجسد الفانى. إن هذا الإيمان هو أصل الفطرة الدينية»[5].

ولا شك أن هناك علاقة فطرية قوية بين عناصر هذا الثالوث: كَوْن الإنسان مخلوقًا عاطفيًّا، وتبنيه للمفاهيم الأخلاقية، واستجابته للمشاعر الدينية.

والآن إلى كلمة البيولوجيا

توصل دين هامر[6] (رئيس وحدة أبحاث الجينات بالمعهد القومى للسرطان بالولايات المتحدة) إلى أن الإنسان يرث مجموعة من الجينات التى تجعله مستعدًا لتقبل مفاهيم الألوهية والدين **God Gene Hypothesis**.

(١) James watson: ولد بالولايات المتحدة عام ١٩٢٨، والتحق بجامعة شيكاغو وعمره ١٥ عامًا. حصل على الدكتوراه فى علم الوراثة عام ١٩٥٠. حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٢ (مشاركة مع فرانسيس كريك وموريس ويلكنز) لتوصله إلى اكتشاف تركيب جزىء الدنا DNA، وما زال يعمل فى مختلف مجالات الأبحاث البيولوجية.

(٢) Robert Winston: إنجليزى، يعمل كأستاذ وعميد معهد أمراض وجراحة النساء والتوليد بلندن، وله أبحاث مشهورة فى مجال أطفال الأنابيب والحيوانات المنوية والخلايا الجذعية. وهو كاتب وإعلامى شهير. ولد عام ١٩٤٠.

(٣) Michael Shermer: أمريكى، أستاذ الاقتصاد بجامعة كلاريمونت، مهتم بالفلسفة والعلوم. يرأس تحرير مجلة Skeptic التى تصدرها جمعية Skeptics التى تضم ٥٥,٠٠٠ عضو، وتهتم بتنقية العلم مما يحيط به من ضلالات. ولد عام ١٩٥٤.

(٤) Paul Bloom: يعمل كأستاذ لعلم النفس بجامعة ييل، مهتم بكيف نتعرف على العالم المحيط. ولد عام ١٩٦٣ بكندا.

(٥) جاء هذا الطرح فى كتابه: Descartes baby: How the Science of child development explains what makes us Human الذى نُشر عام ٢٠٠٤.

(٦) Dean Hamer: ولد عام ١٩٥١ بالولايات المتحدة.

وقد خرج هامر بهذا المفهوم بناء على الأبحاث التى أجراها على جينات السلوك، وعلى دراسات بيولوجيا الأعصاب وعلم النفس، ونشر نتائج هذه الأبحاث فى كتابه «جين الألوهية The God Gene: How faith is Hardwired in our genes»، عام ٢٠٠٤ [١].

وكما تتوقع، واجه كتاب دين هامر «جين الألوهية» معارضات من بعض الأوساط العلمية. وربما يرجع ذلك إلى اسم الكتاب الذى استفز الماديين، بالرغم من أن ما يطرحه من مفاهيم علمية ليس بجديد!، فقد طرحها من قبل علم النفس وعلوم المخ والأعصاب[٢].

وإذا كان الماديون يؤمنون أن كل سلوكيات ومشاعر الإنسان تحكمها الجينات (الحتمية الجينية)، فلماذا يستبعدون ذلك مع السلوكيات والمشاعر الدينية؟! إن ما فعله دين هامر (وهو ليس متدينًا) أنه توصل إلى الجينات المسئولة عن التوجهات الدينية، وهو ما يتمشى مع منظومة الماديين، فما وجه اعتراضهم؟!

مع علوم النفس والأعصاب

قبل كتاب دين هامر بعشرين سنة، طرح د. كلود كلوننجر[٣] (أستاذ علم النفس والطب النفسى وعلوم الوراثة بجامعة واشنطن) «نظرية المزاجات والأخلاق الوراثية Temperament And Character Inventory» والتى صارت من المفاهيم الثابتة فى الأوساط العلمية. فى هذه

(١) من أهم الجينات المسئولة عن هذا الاستعداد هو الجين المعروف بـ VMAT2. هذا الجين مسئول عن تكوين ناقل كيميائى بالمخ يُعرف باسم Vesicular monamine transporter، ومسئول عن تحديد مستوى عدد من الناقلات الكيميائية التى تنظم عمل المخ (السيروتونين - الدوبامين - النورأدرينالين). كما أن له دورًا فى توجيه نشأة مراكز المخ المسئولة عن المشاعر الروحية والمفاهيم الغيبية.

(٢) كرد فعل للكتاب، طرحت مجلة تايم Time فى عدد ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٤ موضوعًا مهمًا بعنوان «جين الألوهية»، تؤكد فيه أن الشعور بالإله، والرغبة فى التوجه إليه بالعبادة، وكذلك الشعور بوجود النعيم والعذاب فى حياة أخرى بعد الموت، أمور فطرية عند البشر، فى كل الحضارات عبر التاريخ وعبر الجغرافيا.
ومن أوضح الأمثلة على ذلك، اهتمام الفراعنة الشديد بالموت والتحنيط وما بعد الموت. ويظهر ذلك فى المعابد الضخمة وفى رسوم المقابر الفرعونية، وكذلك البرديات مثل كتاب الموتى. وقد أظهرت الدراسات اهتمامًا مشابهًا عند القدماء فى الهند والصين وأمريكا الجنوبية وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا والسويد.

(٣) Claud Robert Cloninger: وُلد فى الولايات المتحدة عام ١٩٤٤. وهو رائد فى أبحاث الجينات وبيولوجيا الأعصاب والطب النفسى والأمراض النفسية، وقد شغل منصب الأستاذية فى هذه التخصصات، وشغل أيضًا منصب مدير مركز الصحة النفسية فى جامعة واشنطن. وهو الناشر الرئيسى لعدد من المجلات العلمية المحترمة فى الطب النفسى والوراثة، واشترك فى تأليف أربعة كتب وأكثر من ٤٠٠ بحث علمى.
وقد كُرِّم كلوننجر بالعديد من الجوائز ، منها العضوية مدى الحياة فى الأكاديمية الأمريكية للعلوم، وحصل عام ٢٠٠٩ على جائزة اتحاد الأمراض النفسية الأمريكى لجهوده لفهم الإنسان بشكل متكامل (جسم - عقل - نفس - روح).

النظرية، طرح كلونِنجر ثلاث مجموعات من الأخلاق الوراثية (تمهد جيناتنا للتخلق بها) تحدد ميول البشر الإنسانية والأخلاقية والروحية. وهذه الأخلاق هى:

١- مصداقية الذات Self-Directedness: وتشمل وضوح الأهداف Purposefulness، وكَوْن الإنسان أهلًا للثقة Reliable (وهى صفات خاصة بذات الإنسان).

٢- التعاون Cooperativeness: ويشمل استعداد الإنسان لمساعدة الآخرين Helpful وتَحَمُّلهم Tolerant والعزوف عن الانتقام Non-Revengeful (وهى صفات تحكم تعامل الإنسان مع الآخرين).

٣- تجاوز الذات (السمو النفسى) Self-Transcendence: ويشمل الميول الروحية Spiritualness والإبداع Creativity وإنكار الذات Self - forgetfulness والبعد عن المادية Non-Materialism (وهى صفات خاصة بالمفاهيم العلوية).

وإذا تأملنا هذه المجموعات الثلاث من الأخلاق، وجدنا أنها تمثل «الأساس النفسى» لفطرة التدين وفطرة المنظومة الأخلاقية فى الإنسان، ثم تقوم «التربية» بتنمية هذه التوجهات.

وتقوم جينات معينة (فى الجنين وفى مرحلة الطفولة) بتكوين الدوائر العصبية المسئولة عن هذه الصفات فى المراكز الخاصة بالتعلم وبالمفاهيم المُسْبَقَة فى القشرة المخية الحديثة Neocortex، التى يتميز بها الإنسان عن باقى الثدييات.

الذكاء الروحى (الوجودى)

تَطَرَّق اهتمام علماء النفس فى السنوات الأخيرة إلى أنواع من الذكاء غير تلك المسئولة عن القدرات العقلية للتحصيل الدراسى، فظهرت عدة نظريات فى هذا المجال، أهمها نظرية الذكاء المتعدد Multiple Intelligence Theory [1] لهاورد جاردنر. وقد أثبتت نظرية جاردنر وجود عدة أنواع وليس نوعًا واحدًا من الذكاء الإنسانى، يشكل كلٌّ منها نَسَقًا مستقلًا خاصًّا به، ويشغل كلٌّ منها مركزًا مستقلًا فى المخ تم تحديده بالفحوصات الإشعاعية الحديثة.

طرح جاردنر فى نظريته ثمانية أنواع من الذكاء[2]، ثم أَتْبَعها بما أطلق عليه اسم «الذكاء

(١) قدّم هذه النظرية هوارد جاردنر Howard Gardner الأستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة لأول مرة عام ١٩٨٣، فى كتاب بعنوان «أُطر العقل»، واستمر فى تطويرها لما يزيد على عشرين عامًا.

(٢) أنواع الذكاء الثمانية هى: الذكاء اللغوى، الذكاء المنطقى - الرياضى، الذكاء المكانى، الذكاء الموسيقى، الذكاء الجسمى - الحركى، ذكاء العلاقة مع الآخرين، ذكاء فهم الذات، الذكاء التصنيفى.

الروحى «Spiritual Intelligence»، وقد وجد هذا الاصطلاح معارضة كبيرة ممن يعتبرون أن كل ما ينسب إلى الروح ليس بعلم! فاستبدله جاردنر باصطلاح «الذكاء الوجودى Existential Intelligence» ووصف فيه كل ما نسبه إلى الذكاء الروحى، وهو يهتم بالقضايا فوق الحسية وبالقضايا الأساسية للوجود الإنسانى(١).

مراكز التدين فى المخ

فى كتاب «أشباح فى المخ Phantoms in the Brain» يبين د. راماشاندران (أستاذ ورئيس مركز أبحاث بيولوجيا المخ والأعصاب بجامعة كاليفورنيا) أن الإيمان بأمور ما وراء الطبيعة منتشر فى جميع الحضارات القديمة والحديثة، مما يحتم علينا أن نبحث عن أصوله البيولوجية فى المخ، فلا شىء يميز الإنسان عن باقى الكائنات مثل هذا الأمر. ولدراسة ذلك تم تأسيس علم جديد باسم Neuro - Theology (٢)، ويختص بدراسة الأسس البيولوجية العصبية للروحانيات.

ومن المهتمين بهذا العلم د. آندرو نيوبيرج و د. يوجين داكويلى(٣). وقد أجرى العالمان أبحاثهما على الرهبان البوذيين والراهبات الفرانسيسكان فى أثناء تأملاتهم وصلواتهم، وتوصلا

(١) مكونات الذكاء الروحى:
١- الوعى بالذات: معرفة معتقداتى، وموقعى من الوجود، ودوافعى العميقة.
٢- إدراك أن العالم المادى جزء من حقيقة أكبر، تربطنا بها علاقات.
٣- القدرة على طرح الأسئلة المعرفية النهائية، والقدرة على فهم الإجابة عنها.
٤- القدرة على التسامى على المفاهيم المادية، إلى مستوى أرقى وأسمى وأعمق.
٥- الحياة تبعًا للمبادئ والعقائد والـمُثُل.
٦- أخذ المفاهيم الروحية فى الاعتبار فى تعاملاتنا اليومية.
٧- امتلاك قناعة شخصية تجاه الأمور، وإن اختلفت مع الأغلبية.
٨- التواضع، وإدراك حجمنا الحقيقى فى العالم، والشعور بأننا أفراد من فريق.
٩- قبول الآخر المختلف عنا.
١٠- الاستجابة لنداء الفطرة لمساعدة الآخرين.
١١- الاستقامة الأخلاقية، والتمسك بالعفة والطهر.
١٢- الشعور بأن سعادتى تنبع من داخلى، وليس من الإنجاز العملى أو المادى.
١٣- نفاذ البصيرة وقوة الحدس.

(٢) كذلك تم تأسيس علم Geno-Theology لدراسة الأسس الجينية للروحانيات. ويجمع العلمين علم Bio-Theology الذى يدرس الأسس البيولوجية للروحانيات.

(٣) Andrew Newberg: أستاذ الأشعة التشخيصية ومدير مركز أبحاث المخ والدراسات الروحية بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة. و Eugene D'Aquili أستاذ الأمراض النفسية بنفس الجامعة. وسُجلت نتائج الأبحاث فى كتابَى «لماذا يأبى الإله أن يختفى؟» Why God Won't go away? 2001، و«كيف يُغيِّر الإيمان بالله المخ؟» How God Changes your Brain? 2009

إلى أن المشاعر الروحية تصحبها تغيرات حقيقية (أمكن ملاحظتها وتسجيلها وتصويرها) فى نشاط الجهاز الحوفى Limbic System المسئول عن الانفعالات، وكذلك فى القشرة المخية فى المنطقة المسئولة عن الاستيعاب والإدراك Oriention Association Area [(١)]. وفى المقابل، يؤدى تنشيط هذه المراكز من الخارج إلى الإحساس بمشاعر روحية فياضة. معنى ذلك أن المشاعر الروحية ليست مجرد أوهام أو تخيلات بل إن لها مراكزها العصبية فى المخ. لذلك يؤكد الباحثان، أن المخ البشرى قد تم تشكيله بحيث يستجيب للمشاعر الدينية[(٢)].

بذلك أصبح الاستنتاج الذى لا مفر منه أن المخ البشرى وكذلك جيناتنا قد تم إعدادهما للتعامل مع المنظومة الإلهية والدينية.

العقل والمشاعر الروحية

المخ/العقل والدين فى تكامل[(٣)]

من أهم ما يتميز به المخ/ العقل الإنسانى وجود العديد من الآليات التى تخدم المنظومة الدينية. أولها، الدافع الفطرى الغريزى للبحث فى قضايا الألوهية والدين، مع القدرة العقلية على إدراك هذه المفاهيم. يأتى بعد ذلك أن للعقل الإنسانى رغبة فطرية فى تجسيد الأفكار والمشاعر، رغبة تقف وراءها مراكز ودوائر عصبية. فنحن نرى الموسيقيين، مثلًا، يحركون أصابعهم باللحن الذى يتخيلونه، كما نتمايل نحن عند الاستماع إلى معزوفة موسيقية تُطربنا. من هنا جاءت رغبة المخ/ العقل فى تجسيد المعتقدات الدينية على هيئة طقوس، خاصة المفاهيم المهمة للإنسان؛ كالموت والبعث والتواصل مع عوالم الغيب.

وعادة ما تكون الطقوس الدينية مصحوبة بشحنات انفعالية، نتيجة لتأثير الإيقاع الصوتى والحركى للطقوس (كالركوع والسجود وحركات اليدين فى الصلاة) على الجهاز الحوفى

(١) تقع عند التقاء فصوص المخ: الجدارى والصدغى والخلفى.

(٢) إن هذا التوافق بين بنية الدين وبنية المخ البشرى يمتد إلى بيولوجيا الجسم الإنسانى، وينعكس بشكل إيجابى على صحته الجسدية والعقلية والنفسية. وحول هذا المعنى يقول أندرو سيمز Andrew Sims، عالِم الفيزياء بمركز «الطب الخلوى Cellular Medicine» بنيو كاسل بإنجلترا: إن «الآثار الإيجابية» للإيمان الدينى والروحانيات على الصحة الجسدية والعقلية والنفسية من أهم أسرار علم النفس والطب بصفة عامة. وإذا كانت الأبحاث العديدة والمكثفة التى أجريت فى هذا المجال قد أشارت إلى نتائج سلبية على الصحة لوجَدْتَ الأخبار تملأ الصفحات الأولى فى جميع صحف العالم.

(٣) هذا المفهوم نقلًا عن نتائج أبحاث أندرونيوبرج، التى تحدثنا عنها منذ قليل.

والجهاز العصبى اللاإرادى والقشرة المخية[1]. ويشارك فى هذا التنشيط ـ مع الإيقاع ـ عوامل أخرى، كهيبة المكان، والصوم، والتنفس المنتظم فى أثناء الذِّكر، ورائحة البخور، وغيرها، وكلها عوامل تُشعر الإنسان بالرهبة التى يمازجها السكون والشعور بالورع والنشوة الدينية.

أما دور القشرة المخية فى هذا السيناريو فحيوى للغاية؛ إذ يمتزج ما فيها من أفكار ومعتقدات مع الانفعالات السابقة، وبذلك تصبح الطقوس أداة لتحويل المعتقدات النظرية إلى تجربة شعورية ذاتية.

المخ/ العقل المتسامى

كذلك تم إمداد المخ البشرى بآليات تعين العقل على التسامى الروحى، فمن أهم مراكز قشرة مخ الإنسان المنطقة المعروفة بـ«منطقة تربيط التشكيل OAA»[2] المسئولة عن إدراكنا لذواتنا وللوجود من حولنا[3]. وتقوم الطقوس الدينية بتسكين العقل الواعى وتَسْكين الحواس، فتقل المُدْخَلات المُنَشِّطة لمنطقة تربيط التشكيل OAA مما يؤدى إلى خمود نشاطها، ويُعرَف ذلك بـ«الإغلاق Deafferentiation»، مما يؤدى إلى فقدان التمييز بين «أنا» و«الوجود». ومع استمرار الطقوس تنشط آليات الإغلاق بشكل أكبر، حتى يتلاشى الإحساس بالذات وبالوجود من حولنا[4]، فيصل المرء إلى ما يُسميه العُبَّاد بـ«الفناء»، وعادة

(١) الجهاز الحوفى limbic system هو المسئول عن نشاطاتنا الانفعالية، والجهاز العصبى اللاإرادى ANS هو المسئول عن وظائفنا اللاإرادية، والقشرة المخية Cerebral Cortex مسئولة عن نشاطاتنا العقلية وأفكارنا ومعتقداتنا.

(٢) Orientation Association Area

(٣) تُعتبر منطقة تربيط التشكيل Orientation Association area = OAA الواقعة فى الجزء الخلفى من الفص الجدارى للمخ أهم المناطق التى لها دور فى المشاعر الروحية. وتوجد هذه المنطقة فى كلٍّ من نصفى المخ، وهما مختلفتان فى الوظيفة لكنهما متكاملتان؛ فالمنطقة اليسرى مسئولة عن تحديد وإدراك صورة ثلاثية الأبعاد لجسدنا المادى، واليمنى مسئولة عن تحديد موضع جسمنا وعلاقته بالوجود المحيط. وبالتالى فالمنطقتان تحولان المعلومات الحسية الخام إلى صورة حية لأجسامنا (الذات) وللوجود من حولنا (المحيط).

وإذا كان إدراكنا لـ«الذات» و«الوجود» إنجازًا مخيًّا، تقوم به منطقة تربيط التشكيل، فإن ذلك لا يعنى أن ليس للذات والوجود من حولها وجود حقيقى، بل ذلك يعنى أن هذه المنطقة تستقبل صورة الواقع وتجعلنا نستشعره، وأنها لا تُشَكِّل الذات والوجود من عدم.

(٤) يمكن أن نحصل على نفس التأثيرات من أى إيقاع رتيب يصاحب التركيز على شىء نقوم به، كسماع الموسيقى وقراءة الشعر، وهدهدة الطفل، والصلاة. كذلك فإن الإيقاعات المنتظمة السريعة؛ كالجرى لمسافات طويلة وممارسة الجنس والهتاف مع آلاف الأشخاص فى مباراة لكرة القدم مثلًا، يمكن أن تؤدى إلى تنشيط عملية الإغلاق والشعور بالتوحد مع الآخرين.

ما يصحب ذلك مكاشفات لعوالم غيبية، وشعور بالتوحد مع تلك العوالم، وأحيانًا مع الإله المستوِى على عرشها، وهو ما يُعرف بـ«وحدة الشهود/ الوجود»[(١)].

مما سبق نجد أن بنية المخ البشرى مجهزة تمامًا للتعامل مع بنية الدين، ويظهر ذلك فى عدة مستويات، تبدأ بـ:

- وجود الشوق الفطرى إلى مفاهيم الألوهية والدين.
- القدرة على الفهم العقلى للوحى السماوى.
- ثم الرغبة الفطرية فى تجسيد المفاهيم العقلية، وتحويل المفاهيم النظرية العقلية للعقيدة إلى تجارب شعورية ذاتية.
- ثم القدرة على إغلاق دوائر الشعور بالذات وبالوجود المادى مع استحضار مشاعر التسامى والتواصل مع العوالم الغيبية.

والسؤال المحورى هنا هو: كيف تم إعداد المخ بهذه الهيئة ليكون ملائمًا تمامًا لبنية الديانات؟ أو كيف تم صياغة الديانات لتكون ملائمة تمامًا لبنية المخ البشرى؟

ليس لدى الدراونة الماديين إجابة عن هذا التساؤل.

وقد أظهرت أبحاث نيوبرج، أن العبادات (بما فيها من صلاة وذكر وتأمل وصيام

(١) يختلف المتدينون فى قبول تلك المعانى الصوفية البليغة، والتى تدور حول أن العابد قد تمر عليه أحوال يتلاشى فيها شعوره بذاته (الفناء)، وقد يشعر كأن كل ما فى الوجود قد تلاشى، وأنه لم يعد ثَمَّ إلا الله ﷻ. عند ذلك يستشعر «كأن» الوجود هو الله، والله هو الوجود (وحدة شهود). وقد يشعر أن الله ﷻ قد حل فى هذا الوجود، أى تلبس به (حلول)، أو أنه قد اتحد به (اتحاد).

أُصدِقك القول، قارئى الكريم، كانت هذه المفاهيم (فى مرحلة من حياتى) تشعرنى بالنشوة، فقبلتها، باعتبار أنها مشاهدات لقوم من الخواص المتميزين غاب عنهم إدراكُهم للوجود، فى لحظات سُكر وفناء، فلم يعودوا يشاهدون إلا الله. أما حقيقة الأمر فنأخذها من العقيدة والشريعة التى تؤكد على مفهوم الإثنينية: «رب» و«عبد» ـ «خالق» و«مخلوق».

ويوضح الإمام عبد الحليم محمود (شيخ الجامع الأزهر الأسبق، والقطب الصوفى الكبير) أن الخطأ الذى جعل للكثيرين مآخذ على الصوفية، هو أن بعض الفلاسفة المتصوفين قد اعتبروا أن ما يشاهده الصوفية (وهم فى حال سكرهم) من غياب لذواتهم وللوجود المادى، هو حقيقة الوجود (أى لا موجود «بحق» إلا الله، فالله هو الوجود والوجود هو الله)، فقالوا «بوحدة الوجود» التى يقول بها الهندوس، وصاغوا فى ذلك النظريات الفلسفية التى هى خروج عن العقيدة والشريعة الإسلامية، فالوجود ليس ذات ﷻ، لكنه خلق من خلقه.

وقراءة للكتب المقدسة) تشتمل على الكثير من الآليات التى وصفها العلماء المتخصصون لتحسين صحتنا الجسدية والعقلية والنفسية، ولتحقيق السكينة والسمو الروحى. كذلك فإن التوجه إلى الله ﷻ بصفته الرحمن الرحيم يؤدى إلى المزيد من السكينة والسمو. أما العبادة التى تُرَكِّز على الخوف من الله ﷻ ذى البطش الشديد، وكذلك التطرف الدينى، فيؤديان إلى تلف الكثير من الدوائر العصبية المخية، ومن ثم إلى الشقاء النفسى والأمراض العضوية والشيخوخة المبكرة.

المخ/العقل والعبادات

أُنهى حديثى عن المشاعر الروحية والتسامى بسؤال سألنى إياه ابنى الأصغر عام التحق بالجامعة، قال:

لماذا تشتمل الديانات السماوية على عبادات؟ ألا يكفى أن تكون هناك عقيدة فى الإله نؤمن بها، ثم نلتزم بمكارم الأخلاق وحسن معاملة الآخرين، وكفى، مثل كثير من ديانات الشرق الأقصى؟

وقتها، أجبت ابنى بما كان فى جعبتى، وقلت له: **إن أهمية العبادات بالنسبة للديانات ترجع إلى أنها:**

أولًا: دليل على طاعة المؤمن لأوامر الله ﷻ، حتى وإن لم نعرف لها تفسيرًا. مثل عدد الركعات فى كل صلاة، وأن يكون بعضها سرًّا وبعضها جهرًا. ومن ثَمَّ فهى دليل على صدق العبودية لله ﷻ.

ثانيًا: للعبادات فوائد شخصية واجتماعية هامة. فالصلاة - مثلًا - تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصوم ترقية للنفس وإشعار بمعاناة الفقراء، والزكاة تكافل اجتماعى....

هاتان الفائدتان من أهم مقاصد الشريعة، وكنت أعرفهما منذ صباى. ولكننى بعد أن اطلعت على نتائج أبحاث أندرونيوبرج وغيرها استشعرت أن ما قلته لابنى كان قاصرًا، فنقلت إليه الإضافات التالية:

ثالثًا: العبادات تجسيد لمعتقداتنا ومشاعرنا، وهذه فطرة لها آلياتها فى المخ/ العقل، وتُعتبر خطوة هامة لتعميق معتقداتنا.

رابعـًا: العبادات ـ بما تحويه من طقوس ـ تُحَول العقيدة من مفاهيم عقلية نظرية إلى تجارب ذاتية ومشاعر وأحاسيس.

خامسًا: عندما تؤدى ممارسة العبادة إلى إغلاق مناطق الشعور بالذات وبالمحيط، يستشعر الإنسان قدرًا كبيرًا من التسامى، قد يصل إلى التواصل الحقيقى مع الوجود الغيبى المتوحد المطلق.

لقـد جَعَلَتنى تلك الحقائق فخورًا بأننى من الحريصين على ممارسة طقـوس دينهـم.

إعداد العقل للفهم

إذا كانت التفسيرات المادية تعجز الداروينية عن تقديم تفسير لوجود الآليات المسئولة عن بزوغ الملكات العقلية للإنسان، فإن «المفاهيم العقلية الأولية» التى ينطلق منها العلم تُعتبر أشد استعصاء على التفسير بالنسبة للنظرة المادية/ الطبيعية وأكثر دلالة على الإله الخالق، وأهم هذه المفاهيم:

أ ـ مصدر مفاهيمنا الأولية

تأمل المفاهيم التالية:

- لا يستطيع الإنسان أن يتواجد فى مكانين فى وقت واحد.
- الجزء أصغر من الكل.
- النقيضان (مثل النور والظلام، والسخونة والبرودة) لا يجتمعان.
- لكل نتيجة سبب.

لقد اختلف المتخصصون ما بين من يرى أن مثل هذه المفاهيم فطرية ولا تحتاج لتفسير، وبين منكر لمفهوم الفطرية ويعتبر أنها مفاهيم مكتسبة. ولا شك أننا نتفق مع الطرح الأول فى فطرية بعض المفاهيم، لكننا نرفض ـ من منظور قانون السببية ـ ألا يكون لوجودها فى عقولنا تفسير كما يدعى الماديون، فالمنظور الدينى يقدم فى سلاسة ويسر التفسير المقبول، وهو أن هذه المفاهيم قد تم برمجتها فطريًا فى عقولنا من قِبل إله حكيم قادر.

ب ـ قدرة عقولنا على فهم ما يحيطنا

أشعر بالنشوة كلما قرأت مقولة أينشتين المشهورة: «**إن أكثر الأشياء استعصاء على الفهم فى الكون أنه مفهوم**».

فإذا كان العقل البشرى لم يُشَكِّل الكون، كما لم يحدد قدرته على الفهم، فمن هاتين المقدمتين ينبزغ **سؤالان يُعجزان العلم المادى**:

كيف يدرك النشاط الكهروكيميائى لأدمغتنا حقيقة ما يحدث حولنا؟

وكيف تستطيع **معادلة رياضية** تدور فى عقل عالم رياضيات أن تصف وتتنبأ بما يحدث فى الكون خارج أدمغتنا؟

فلنُبَسِّط الأمر بمثال: إذا زار كائن فضائى كوكبنا، واستمع إلى **عالم فى الفيزياء** يتحدث عن **درجات الحرارة** فى المنظومات المختلفة (الجو المحيط، السوائل، جسم الإنسان ـ وهذه **تقابل الكون**) ثم شاهد فى أحد معامل الأبحاث جهازًا أُعد بدقة لقياس الحرارة (ترمومتر ـ وهذا **يقابل أدمغتنا**)، ألن يربط الزائر بين هذه المنظومات وبين وجود وتصميم ميزان الحرارة، أم سيعتبر أن كلًّا منهما وجود قائم بذاته ليس له علاقة بالآخر؟

ليس لهذا التناسق والتناغم والتكامل بين أدمغتنا وبين الكون من تفسير إلا أن الخالق ﷻ الذى صمم وأنشأ الوجود قد نَسَّقَ بين بنية الوجود وسلوكه وبين أدمغتنا.

جـ . لماذا نُصَدِّقُ عقولَنا ؟!

يقوم العلم على الثقة فيما تتوصل إليه عقولنا من معارف، **فهل تم تصميم عقولنا قصدًا لتمكننا من معرفة الحقيقة ثم الاقتناع بها؟**.

تمهيدًا للإجابة عن هذا التساؤل، نطرح ما يقدمه الدراونة حول هذه القضية: يعتبر الفكر الداروينى أن **الدافع التطورى لنشأة العقل ليس تحصيل المعرفة والوصول إلى الحقيقة إطلاقًا**، ولكن المساعدة فى المنافسة من أجل البقاء! لذلك يعتبر هؤلاء أن الأفكار والمعارف التى ليس لها علاقة مباشرة بالبقاء ليست إلا مفاهيم جانبية مصاحبة لوظائف العقل التى تخدم البقاء، ويعتبرونها «**ظواهر عضوية عصبية تكيفية**»[1] مثل إشاراتنا العفوية بأيدينا عندما نتحدث فى موضوع!

---

(١) Adaptive Neurophysiological Phenomena

وقد طرح عالِم الوراثة البريطاني هالدون[1] سؤالًا جوهريًا حول هذا المفهوم منذ زمن طويل قائلًا: إذا كانت الأفكار في عقولنا تنتج من آلية غير موجهة غير عاقلة، وهي حركة الذرات في أمخاخنا (نشاط كهروكيميائي)، فلماذا نثق فيما تخبرنا به؟!

ويوجه الفيلسوف الأمريكي الشهير ألفن بلانتنجا[2] طعنة نافذة لطرح ريتشارد دوكنز الإلحادي حين يقول: «إذا كان دوكنز مصيبًا في أننا نتاج عملية طبيعية عشوائية لا عقل لها، فإنه بذلك يعطينا مبررًا قويًا للشك في كفاءة قدراتنا العقلية المعرفية، ومن ثم الشك في أي معارف تنتجها عقولنا بما فيها علم دوكنز وإلحاده. إن دوكنز بذلك يضع علمه وإيمانه بالمذهب المادي في دائرة الشك وفي صراع عقلي ليس له علاقة بالإله». إن الإلحاد بذلك يفقدنا تمامًا الثقة في أي برهان أو دليل على صحته، ويسمح لنا بأن نعتبره مجرد توهمات متعارضة.

ومن التحديات الكبرى أمام التفسيرات المادية/ الطبيعية لبزوغ العقل البشري أن ما يمتلكه الإنسان من ذكاء يتجاوز كثيرًا مهام العقل الوظيفية والحياتية والجنسية، مما يعني أن نشأته تقع خارج قدرات التطور الدارويني العشوائي، إذ إن هذا التطور لا يعطي الإنسان قدرات احتياطية كامنة وليس له رؤية مستقبلية..

ونختم الفصل بحقيقة دامغة يطرحها الفيلسوف الألماني الكبير روبرت سبينان[3] إذ يقول: إن الإلحاد الجديد لا يضعنا في خيار بين الإله والعلم كما يدعي، بل بين الإيمان بالإله وبين التخلي عن قدرتنا العقلية على فهم الكون. فببساطة إذا لم يكن هناك إله (كمصدر عاقل حكيم لأمخاخنا العاقلة الحكيمة) فلن يكون هناك أساس منطقي للثقة بعقولنا، ومن ثم لا ثقة في العلم، بل لا ثقة في الحقيقة . بذلك يفقد العلم والحقيقة مصداقيتهما وضمانتهما.

لذلك يبقى القول بالتصميم الذكي الذي وراءه إله حكيم قادر هو التفسير الأبسط والأنسب لكل الشواهد العلمية عن ملكات الإنسان العقلية، والتي هي إحدى النوافذ التي نطل منها على صفات الله ﷻ. وهذا ما سوف نناقشه في الفصل القادم.

---

(١) J.B.S. Haldone: (١٨٩٢ - ١٩٦٤م).

(٢) Alvin Plantinga: (ولد عام ١٩٣٢). الفيلسوف المسيحي الأمريكي الكبير، اشتهر بمناظرته للملاحدة.

(٣) Robert Spaenann: من كبار الفلاسفة الألمان المسيحيين الداعين لحقوق الإنسان. ولد عام ١٩٢٧.

القارئ الكريم

من أهم ما قصدنا إليه فى هذا الفصل إظهار أن حقيقة الإنسان تكمن فى العقل/ الروح، وأن الجسد الإنسانى وإن كان مُكَوِّنًا أساسيًّا من مكونات الذات الإنسانية[1]، فإنه يأتى فى منزلة لاحقة. ومن العجيب أن النظريات العلمية التى تعرضت لنشأة الإنسان قد اهتمت بنشأة الجسد الإنسانى، ولم تولى نشأة العقل إلا أدنى اهتمام.

وإذا كانت الداروينية (التطور البيولوجى العشوائى) هى الطرح الأكثر قبولًا فى الأوساط العلمية لتفسير نشأة الإنسان، فقد أثبت العلم (وإن أنكر الماديون) أن الصدفة والعشوائية تعجز عن قيادة قاطرة التطور. لذلك فقناعتنا أنه لو أثبت العلم وقوع التطور البيولوجى فإن ذلك سيكون حتمًا بتوجيه إلهى، وهو الطرح الذى تتبناه المدرسة المعروفة بالتطور الموجه أو التطوير الإلهى.

وسواء كان خلق الإنسان (وباقى الكائنات) خلقًا خاصًا مباشرًا أو خلقًا تطوريًّا موجهًا، فالاختلاف ليس كبيرًا بالمَرَّة، فالله ﷻ هو الخالق فى الحالتين.

الملكات العقلية الإنسانية

كذلك بينا فى الفصل عجز الآلية الكهروكيميائية للمخ عن تفسير نشاطاتنا العقلية، ذلك أن المخ ينتمى إلى عالم الطبيعة المادية بينما ينتمى العقل إلى عالم المعنى المجرد، ومن ثم فالفرق بين المخ والعقل كالفرق بين نطق الكلمة ومعنى الكلمة.

ولا شك أن «الفكر المادى الطبيعى Naturalism» قد فشل فى فهم وتفسير الظواهر الثلاث الكلية، وهى: الكون ـ الحياة ـ العقل، لذلك ينبغى النظر إلى هذه الظواهر باعتبارها ظواهر فوقية Epiphenomena.

ولعل قدرة الإنسان على تصور ما يدور فى عقل الآخر (وهو ما أُطلق عليه نظرية العقل) هو الفرق العقلى الجوهرى بين الإنسان وغيره من الكائنات.

وإذا كان **العقل الواعى** يقوم بوظيفتين عقليتين فى تتابع متلاحق؛ **إدراك ما حولنا، ثم فهم ما نُدرك**، فإن هذه الأنشطة الثلاثة المتتابعة (الوعى ـ الإدراك ـ الفهم) هى **أعمدة عملية**

(١) تعتبر النظرة المادية أن الإنسان ليس إلا جسدًا وفقط. وتتبنى النظرة الدينية أن الذات الإنسانية تتكون من خمسة عناصر: الجسد ـ القلب ـ العقل ـ النفس ـ الروح.

التفكير التى هى أهم خصوصيات الذكاء الإنسانى. هل ما زال أحد يعتقد أن هذه العمليات العقلية عمليات عشوائية؟!

ولا شك أن حرية الاختيار هى إحدى أهم السمات المميزة للجنس البشرى. ولا شك أن نفى الاختيار يعنى أن كل الديانات هُراء، فهى تقوم على الثواب والعقاب تبعًا لاختياراتنا الحرة، لذلك حرص الإسلام على تأكيد حرية الإرادة الإنسانية.

كذلك كان الإيمان بأن وراء كل حدث سببًا أمرٌ ضرورى من أجل تفسير الأحداث، جليلها وبسيطها، لإشباع نهم الإنسان العقلى، وليصبح للعالم من حولنا معنى. كذلك أصبح الإيمان بالسببية الدافع الأكبر للبحث عن السبب الأول وراء الوجود، وهو ما يعرف «بدليل الإيجاد» أو «البرهان الكونى» الذى نستشهد به على وجود الإله.

وتضع ظواهر الإدراك خارج الحس التى يتم فيها خرق الزمان أو المكان العلم المادى فى موقف حرج؛ فكيف تفسر النبضة الكهروكيميائية التى هى لغة المخ هذه الظواهر غير المادية التى حيرت العلماء والفلاسفة، ولا شك أن ذلك يدفعنا لأن نستدعى لها تفسيرات غير مادية غير تقليدية.

ولا شك أن «اللغة» هى أدق المقاييس للنشاطات العقلية التى يمارسها الإنسان، وقد أثبت العلم استحالة أن تكون اللغات البشرية قد نشأت تطورًا عن وسائل التواصل عند أقرب الثدييات شبهًا بالإنسان (الرئيسيات وخاصة الشمبانزى).

لذلك لم يجد المنكرون للخلق الإلهى المباشر للعقل الإنسانى إلا القول بأن نشأة اللغة كانت «انبثاقًا» بعد أن بلغ المخ البشرى قدرًا هائلًا من التعقيد، حتى إن ناعوم تشومسكى وضع نظريته فى نشأة اللغة انطلاقًا من هذا المعنى، وأطلق عليها اسم «نظرية الانفجار اللغوى الأعظم». ولم يجد الفيلسوف العظيم كارل بوبر مفرًا من الإقرار بأن مفهوم الانبثاق عند الماديين يكاد يُطابق مفهوم الخلق عند المتدينين.

كذلك فإن نشأة الحس الجمالى للإنسان بشكل شديد التعقيد وخضوعه لقوانين دقيقة، ومغاير تمامًا لما عليه غريزة تذوق الجمال فى الحيوانات، لدليل قاطع على التصميم الذكى الذى لا يقدر عليه سوى إله خبير حكيم قادر.

والإنسان المتزن تحكمه الدوافع الأخلاقية الثلاثة: الأنانية، والإيثار، والضمير. وتمثل هذه الدوافع أساس ما يُعرف عند الفلاسفة بـ «المسألة الأخلاقية»، التى تتلخص فى أن الإنسان يسلك تجاه طموحاته المختلفة تبعًا لدوافع ثلاثة: الميول الأنانية، عاطفة الرحمة والإيثار، والسعى وراء طمأنينة الضمير.

وتأتى الديانات لتنظم العلاقة بين هذه الدوافع التى وضعها الإله فى فطرة البشر؛ تحثنا على الفاضل منها، وتنهانا عما هو دنىء. والديانات فى حكمها على الشىء بين فضل ودناءة تخضع لمقاييس «مطلقة» يحددها الإله.

وقد أثبت العلم الحديث أن منظومة (الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق) التى تنطلق من جوهر غيبى فى الإنسان (وهو الروح عند المتدينين)، تشارك فيها أيضًا آليات بيولوجية. فقد توصل العلم إلى ما أُطلق عليه «جينات الألوهية» التى تشارك فى التوجهات الروحية للإنسان، كما أثبت وجود مركزين للتدين، أحدهما فى المخ الانفعالى والآخر فى المخ المدرك للإنسان. وقد أدى ذلك إلى تميزنا بما يُطلَق عليه الذكاء الروحى (الوجودى).

إن هذا الإعداد البيولوجى لأدمغتنا، لتشكل منظومة (الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق) هو ما حدا كارين أرمسترونج لأن تطلق على جنسنا البشرى اسم (الإنسان الدَّيِّن).

من العقل إلى الألوهية والدين

ولعل من أعظم الإنجازات الحديثة لعلوم المخ والأعصاب توصلها إلى أن بنية المخ/ العقل البشرى مجهزة تمامًا للتعامل مع بنية الدين، ويظهر ذلك فى عدة مستويات، تبدأ بـ:

- وجود الشوق الفطرى إلى مفاهيم الألوهية والدين.
- القدرة على الفهم العقلى للوحى السماوى.
- ثم الرغبة الفطرية فى تجسيد المفاهيم العقلية، وتحويل المفاهيم النظرية العقلية للعقيدة إلى تجارب شعورية ذاتية.
- ثم القدرة على إغلاق دوائر الشعور بالذات وبالوجود المادى مع استحضار مشاعر التسامى والتواصل مع العوالم الغيبية.

والسؤال المحورى هنا هو؛ **كيف تم إعداد المخ بهذه الهيئة ليكون ملائمًا تمامًا لبنية الديانات؟ أو كيف تم صياغة الديانات لتكون ملائمة تمامًا لبنية المخ البشرى؟**

ولعل من أكثر المفاهيم العقلية إثارة للحيرة، والتى ليس لها تفسير مادى، مما لا يترك مجالًا إلا الإيمان بألوهية خلق العقل البشرى:

- تمتع عقولنا بعدد من المفاهيم الأولية التى ليس لنشأتها من تفسير مادى.
- التناسق والتناغم بين بنية الكون وبين قدرة عقولنا على فهمه.
- ثقتنا فيما تتوصل إليه عقولنا من معارف.

إن الإلحاد الجديد لا يضعنا فى خيار بين الإله والعلم كما يدعى، بل بين الإيمان بالإله وبين التخلى عن قدرتنا العقلية على فهم الكون! وإذا سقطنا فى هذا المستنقع فإن العلم والحقيقة يفقدان مصداقيتهما وضماناتهما.



الفصل السادس

الإنسان المرآة

- أيها الإنسان... مَن أنت؟
  - الإنسان كما يراه د. عبد الوهاب المسيرى
  - الإنسان فى القرآن الكريم
- صفات الألوهية وخلق الإنسان
  - الله ﷻ: الخالق
  - الله ﷻ: الهادى الوهاب
  - الله ﷻ: الواحد
  - الله ﷻ: كل شيء عنده بمقدار
  - الله ﷻ: الحكيم
  - الله ﷻ: المؤمن، ألزم نفسه بالسببية
  - الله ﷻ: العليم الخبير - المحصى المحيط
  - الله ﷻ: المتكلم
  - الله ﷻ: القوى القادر - الذى لا تأخذه سنة ولا نوم
  - الله ﷻ: السميع البصير
  - الله ﷻ: جميل يحب الجمال
  - الله ﷻ: الظاهر الباطن
  - الله ﷻ: البديع - السلام
  - الله ﷻ: المريد
- صفات الألوهية والسلوك الإنسانى
  - تخلقوا بأخلاق الله
- صفات الجمال
  - منظومة السكينة واللطف والرفق
  - منظومة الشكر
  - منظومة الإعزاز
  - منظومة التجاوز
  - منظومة النفع والعطاء
  - منظومة السلوك الاجتماعى
  - منظومة الحُكم
  - معجزة الأمومة
- صفات الجلال
  - أولًا: صفات الأفعال المقترنة
  - ثالثًا: صفات الجلال الذاتية
  - ثانيًا: صفات الجلال الفعلية
  - رابعًا: صفات جمال وجلال
- من عرف نفسه عرف ربه
- القارئ الكريم

تناولنا فى الفصل السابق نشأة الإنسان (جسدًا وعقلًا)، ووقفنا على جوانب تَميزه التى تثبت أن خالقه هو الله ﷻ، سواء تبنينا مفهوم الخلق التطورى الموجه أو مفهوم الخلق الخاص المباشر.

وفى هذا الفصل، نتناول ما تُجَلِّيه هذه النشأة من صفات ينبغى أن يتحلى بها السبب الأول الخالق للإنسان. كما نتناول أهم الصفات السلوكية للإنسان بالتحليل، كباب لإدراك المزيد من الصفات الإلهية، التى تقف بلا شك وراء نشأة هذه السلوكيات الإنسانية. فما ينبغى للصفات السلوكية للإنسان أن تنشأ إلا كتجلٍ لصفات مشابهة فى السبب الأول المانح لها، ففاقد الشىء لا يعطيه. ولا شك أن السلوك الإنسانى المتفرد امتداد مباشر لطبيعة الإنسان المتفردة أيضًا (جسد طينى وعقل نورانى).

تنزيه ثم تشبيه

قبل أن ننطلق فى الفصل لتحقيق هذه الغاية، ينبغى أن نؤكد أن المشابهة بين الصفات الإلهية والصفات البشرية تكون فى إطار إدراك المخالَفة الكاملة بينها كيفًا وكمًا، بالإضافة إلى أن الصفات الإلهية ذاتية بينما تكون الصفات البشرية مستعارة.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المشابهة وهذه المخالفة بقوله ﷻ: ﴿...لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]، فبدأ بتنزيه الإله ﷻ إثباتًا للمخالفة (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ)، ثم عَرَجَ إلى التشبيه (وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ). وهو ما يشرحه علماء العقيدة بقولهم: نَزِّه ثم شَبِّه.

فسبحان ربى الذى ليس كمثله شىء...

أيها الإنسان ... مَن أنت؟

الإنسان كما يراه د. عبد الوهاب المسيرى

من التجارب المدهشة فى الانتقال من الإلحاد إلى الإيمان تجربة أستاذنا الدكتور عبد الوهاب المسيرى[1] رحمه الله. فقد كان العنصر الحاسم فى انتقاله من عالم المادية الضيق إلى عالم الإيمان الرحب هو إدراكه لحقيقة الإنسان. انظر إليه وهو يحدثنا عن هذه الحقيقة:

لعل العنصر الحاسم فى انتقالى من عالم المادية الضيق إلى عالم أكثر رحابة، هو «تبلور النموذج الإيمانى الكامن فى وجدانى منذ الصغر وتحوله إلى النموذج الحاكم». يذهب هذا النموذج إلى أن:

الإنسان كائن حر يصنع التاريخ

جزء من الطبيعة ومستقل عنها ولا يمكن أن يُرَدَّ إليها

كائن له منتاجاته الحضارية التى تمنحه خصوصيته القومية والإنسانية

إنه الإنسان الإنسان/ الربانى (عكس الإنسان الطبيعى/ المادى)

ويضيف د. المسيرى: بذلت محاولات شتى لإبقاء هذا النموذج داخل إطار مادى، حتى لا «أسقط» فى الميتافيزيقا. ولكن ما حدث هو العكس تمامًا، بعد أن أدركت أن عالمنا يحتوى على المحدود (المادى) واللامحدود (الذى لا يمكننا الإحاطة به بالرغم من إدراكنا لمظاهره). **وإذا كان اكتشافى للشر فى النفس الإنسانية ومحاولة تفسيره قد ألقى بى فى مستنقع المادية، فإن اكتشافى للخير فى النفس الإنسانية عاد بى إلى عالم الإنسانية والإيمان.**

عندها أحسست بما حولى من ثنائيات تحتاج لتفسير: ثنائية المادة واللامادة، الطبيعة وما ليس بطبيعة، الإنسانى وغير الإنسانى. ولتفسير هذه الثنائيات كان لا بد من الإقرار بثنائية أساسية تفرزها: **ثنائية عالم الصيرورة (الأمر الواقع) ونقطة ما تقع خارجه (نقطة ثابتة منزهة متجاوزة)**

(١) الأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيرى (١٩٣٨ - ٢٠٠٨) رحمه الله، ولد بمدينة دمنهور بمصر.
أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة عين شمس، وعالم الاجتماع والمفكر الإسلامى. له عشرات المؤلفات وأشهرها «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - نموذج تفسيرى جديد»، وقد خرجت فى ثمانية مجلدات.
ولى كتاب عن رحلة المسيرى الفكرية، صدر بعنوان «ثمار رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية، قراءة فى فكره وسيرته» نيو بوك - الطبعة الخامسة ٢٠١٥. وعن هذا الكتاب ننقل تعريف د. المسيرى للإنسان.

هى نفسها ضمان ثبات الإنسان وانفصاله عن الطبيعة، هذه النقطة هى «الإله». استقر فى يقينى أنه لا يمكن تفسير ظاهرة الإنسان المستقل عن الطبيعة إلا بوجود الخالق ﷻ، المفارق للطبيعة/ المادة. لهذا أرى أنه حينما أعلن نيتشه موت الإله فإنه كان يعلن ـ فى واقع الأمر ـ موت الإنسان. فإذا مات الإله ـ على حد قول نيتشه ـ كان على الإنسان أن يعيش فى عالم مادى طبيعى، شىء مصمت، ويتحول هو نفسه إلى كائن طبيعى مادى يقف «شيئًا» بين الأشياء، أى أنه هو الآخر يموت، وهذا ما عبَّرت عنه الآية الكريمة فى قوله تعالى: ﴿... نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ...﴿١٩﴾﴾ [الحشر].

المعراج: عرج بى الإنسان/الإنسان إلى الله

وهكذا، بدلًا من الوصول إلى الإنسان من خلال الله (أن أعرف سمات الإنسان من خلال الكتب السماوية)، وصلت إلى الله من خلال الإنسان، ولا يزال هذا هو أساس إيمانى الدينى، وهو ما أسميه «الإنسانية الإسلامية» التى تنطلق من رفض الواحدية المادية وتصر على ثنائية الإنسان والطبيعة/ المادة، ونصعد منها إلى ثنائية الخالق والمخلوق. وبالرغم من أن عملية مقاومة الإيمان من جانبى دامت ما يزيد على ربع قرن، فقد تحول الإيمان بالتدريج إلى رؤية شاملة للكون، وإطار للإجابة عن كل التساؤلات.

وتقوم الصورة التى كَوَّنْتها عن الإنسان وقادتنى للإيمان على العناصر التالية:

أولًا: تُعَبِّر إنسانية الإنسان عن نفسها من خلال مظاهر عديدة، من بينها النشاط الحضارى (علم الاجتماع الإنسانى - الحس الخُلُقى - الحس الجمالى - الحس الدينى).

ثانيًا: الإنسان كائن عاقل قادر على استخدام عقله، وقادر على تطوير منظومات أخلاقية غير نابعة من البرنامج الطبيعى/ المادى الذى يحكم جسده واحتياجاته المادية وغرائزه، وهو قادر على الالتزام بها وقادر أيضًا على خرقها. لذلك فالإنسان هو الكائن الوحيد الذى لا يستجيب مباشرةً للمثيرات وإنما يستجيب لإدراكه لهذه المثيرات وما يُسقطه عليها من رموز وذكريات.

ثالثًا: الإنسان كائن صاحب إرادة حرة برغم الحدود الطبيعية والتاريخية التى تَحُدُّه. وهو كائن واع بذاته وبالكون، قادر على تجاوز ذاته الطبيعية/ المادية وعالم الطبيعة/ المادة.

رابعًا: الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتميَّز كل فرد فيه بخصوصيات لا يمكن محوها أو تجاهلها. فالأفراد ليسوا نسخًا متطابقة يمكن صبها فى قوالب جاهزة وإخضاعها جميعًا لنفس القوالب التفسيرية، فهو ظاهرة متعددة الأبعاد ومركبة غاية التركيب ولا يمكن اختزاله إلى بُعد واحد من أبعاده أو إلى وظيفة واحدة من وظائفه البيولوجية أو حتى إلى كل هذه الوظائف.

خامسًا: الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يطرح تساؤلات عما يُسمَّى «العلل الأولى» (من أين جئنا؟ وأين سينتهى بنا المطاف؟ وما الهدف من وجودنا؟..). وهو لا يكتفى أبدًا بما هو كائن ولا يرضى بسطح الأشياء؛ فهو دائب النظر والتدبر والبحث، يغوص فى الظواهر ليصل للمعانى الكلية الكامنة وراءها. وهذه كلها تساؤلات تجد أصلها فى البنية النفسية والعقلية للكائن البشرى (النزعة الربانية).

سادسًا: لا تُوجَد أعضاء تشريحية أو غدد أو أحماض أمينية تشكل الأساس المادى لهذا الجانب الروحى أو الربانى فى وجود الإنسان وسلوكه، لهذا فهو يشكل ثغرة كبرى فى البناء الطبيعى/ المادى. وهو ليس جزءًا لا يتجزأ من الطبيعة وإنما هو جزءٌ يتجزأ منها، يوجد فيها ويعيش عليها ويتصل بها ولكنه ينفصل عنها. قد يقترب منها ويشاركها بعض السمات، ولكنه لا يُرَدُّ فى كُليِّته إليها بأى حال، فهو دائمًا قادرٌ على تجاوزها، وهو لهذا مركز الكون وسيد المخلوقات. وهو، لهذا كله، لا يمكن رصده من خلال النماذج المُستمَدة من العلوم الطبيعية.

سابعًا: أصبح الإنسان فى منظومتى كائنًا يعيش فى عالم الطبيعة/ المادة ولكنه يحوى داخله عناصر غير طبيعية، أى متجاوزة للطبيعة. كائن يتسم بثنائية الروح والمادة، ومن ثم تتنازعه نزعتان: نزعة للعودة إلى الطبيعة/ المادية (أُسَمِّيها النزعة الجنينية)، ونزعة للإحساس بالاستقلال عنها وتجاوزها (أُسَمِّيها النزعة الربانية).

ثامنًا: إذا كان الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تجاوز ذاته الطبيعية، فهو أيضًا الكائن الوحيد القادر على الارتداد عنها. ولذا نجد أن الخير والشر ظاهرتان إنسانيتان لا علاقة لهما بعالم الحيوان.

لا أحسبنى قرأت من قبل وصفًا لطبيعة الإنسان ينطلق من تأمل الذات الإنسانية، ولا

أحسبنى قرأت استدلالًا على الألوهية والوحدانية ينطلق من الإنسان إلى الله، كذلك الذى قرأته للدكتور المسيرى رحمه الله[1].

الإنسان فى القرآن الكريم

تُحدثنا آيات القرآن الكريم عن ثمانى خصائص يتميز بها الإنسان، وهذه الخصائص هى:

١ - ثنائية الإنسان

يقول الحق ﷻ: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [ص].

﴿ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد].

٢ - نفخة الروح الإلهية

يقول الحق ﷻ: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر].

وقد وردت الآية مرة أخرى بنصها فى سورة ص (آية ٧٢).

٣ - حمل الأمانة

يقول الحق ﷻ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

٤ - مخلوق مسئول قدر الطاقة

يقول الحق ﷻ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة].

٥ - كائن مكلف

يقول الحق ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

(١) أردد كثيرًا «أن حياتى بعد اطلاعى على فكر د. المسيرى تختلف عن حياتى قبل اطلاعى على هذا فكره».

٦ - امتاز بالعلم على سائر المخلوقات

يقول الحق ﷻ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة].

٧ - امتاز بالعقل على سائر المخلوقات

تكررت الدعوة إلى التعقل والتفكر والتدبر فى القرآن الكريم عشرات المرات.

٨ - كائن يتمتع بحرية الإرادة

يقول الحق ﷻ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف].

هذا هو الإنسان كما نراه فى القرآن الكريم، فما العلاقة بين هذه الخصائص الثمانية؟

لا شك أن الصفة المحورية للإنسان كما جاءت فى القرآن الكريم (وكما أخبرنا د.المسيرى) هى الثنائية. كما نفهم من القرآن الكريم أن نفخة الروح الغيبية يقابلها فى عالم الشهادة تمتع الإنسان بالعقل، وكلاهما مسئول عن حمله للأمانة، التى هى المسئولية والتكليف والعلم وحرية الإرادة.

من ذلك ندرك أن «العقل» هو «جوهر الإنسان المشهود»، لذلك فإن[1]:

العقل وازع يعقل صاحبه عما يأباه له التكليف.

العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور.

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال.

العقل رَوِيَّة وتدبير.

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار.

والعقل ذكرى تأخذ من الماضى للحاضر، وتجمع العبرة مما كان لما يكون، وتحفظ وتعى وتبدئ وتعيد.

---

(١) الوصف التالى للعقل عن كتاب «الإنسان فى القرآن» للأستاذ عباس محمود العقاد. نهضة مصر - الطبعة السابعة - ٢٠٠٩.

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف، وكل أمر بمعروف، وكل نهى عن محظور.

أفلا يعقلون؟ أفلا يتفكرون؟ أفلا يبصرون؟ افلا يتدبرون؟ أليس منكم رجل رشيد؟ أفلا تتذكرون؟

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله، التى يناط بها التكليف، حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء، ومن أمر أنفسهم ومن أمر خالقهم وخالق الأرض والسماء.

لذلك نقول: إن الله ﷻ عندما أراد أن يرقى بمخلوق ليكون أهلًا لأن يعرفه، وأهلًا لأن يخاطبه ويكلفه ويحاسبه ويجازيه، خلق الإنسان وزوده بالعقل، الذى هو نفخة منه ﷻ.

صفات الألوهية وخلق الإنسان

عرضنا فى الفصل السابق آخر عطاءات العلم حول نشأة الإنسان، والآن نعرض لما تُطلعنا عليه هذه النشأة من الأسماء والصفات الإلهية.

سبحان ربى...

الله ﷻ: الخالق

الله سبب أول ... أسلوب الخلق آلية

صراع كاذب افتعله **الدراونة الماديون**، حين وضعوا الله ﷻ مقابل التطور البيولوجى كموجد للإنسان، والحقيقة غير ذلك تمامًا.

لقد غاب عن الدراونة (أو تعاموا) أن الله ﷻ والتطور ليسا بديلين متنافيين؛ إما... أو ... **فالله ﷻ والتطور مستويان متتاليان للإيجاد يمكن الجمع بينهما. فالله ﷻ سبب أول، استخدم التطور (إن ثبت حدوثه) كآلية للخلق.**

سواء ثبت مفهوم الخلق التطورى أو مفهوم الخلق الخاص، **فالله ﷻ هو الخالق فى الحالين.** وفى هذا المعنى يقول فرانسيس كولنز (رئيس مشروع الجينوم البشرى): **من الذى يحجر على الله فى أن يستخدم آلية التطور فى الخلق.**

هذا - بالطبع - بعد أن أثبت العلم عجز العشوائية التام عن قيادة قاطرة التطور.

سبحان ربى...

الله ﷻ: الواحد

تعكس ثنائية الإنسان واحدية الله ﷻ

تتجلى صفة الله ﷻ «الواحد» بوضوح عند النظر إلى طبيعة الإنسان وحقيقته.

فإذا كان «**بضدها تُعَرف الأشياء**» فلا شك أن صفة الثنائية هى السمة الأولى المميزة للإنسان. فالإنسان جسد طينى يحمل روحًا نورانية (**جسد متروحن**) أو قل **روحًا نورانية** سكنت جسدًا طينيًّا (**روح متجسدة**). لذلك فالإنسان يحمل بين جنبيه الخير والشر، يمكن أن يسمو فوق الملائكة ويمكن أن يتدنى أسوأ من الشياطين وأجهل من الحيوانات.

ثم هناك **الثنائية الجنسية** (ذكر وأنثى) والتى تجسد احتياج وافتقار كل من الجنسين للآخر. كل هذه الثنائيات البشرية تلفتنا بقوة وبالمقابَلَة إلى **واحدية خالقها الإله الواحد الأحد**.

وفى الوقت نفسه تتجلى فى **الإنسان الواحدية!**، فجسده الذى هو مليارات الخلايا وعشرات الأجهزة يعمل لخدمة **ذات إنسانية واحدة**، هى فى الحقيقة خمسة عناصر متداخلة؛ الجسد والعقل والقلب والنفس والروح.

كذلك تتجلى فى الإنسان الواحدية والتفرد حين ندرك أن **ما من فرد فى الجنس البشرى يشابه فردًا آخر فى كل بقاع الأرض وعبر التاريخ**. فكل إنسان هو كائن ليس كمثله شىء! لا يشبهه آخر فى بنيته الجسدية أو الجينية[1] أو العقلية أو الشعورية أو السلوكية.

هكذا يصير الإنسان الثنائى المتوحد! مرآة للصفة الإلهية «الواحد» ﷻ.

سبحان ربى...

الله ﷻ: الحكيم

متتالية الإدراك ثم الفهم ثم التفكير

تُعتبر **الملكات العقلية أهم ما يميز الجنس البشرى** عما سواه من الكائنات الحية، لذلك ركزنا فى الفصل السابق عند الحديث عن نشأة الإنسان على **نشأة العقل الإنسانى**. ومن أهم ما استفدناه من هذه النشأة هو إدراكنا أن **العقل الإنسانى ليس مرادفًا للمخ البشرى**. فالمخ من عالم المادة، أما العقل فينتمى إلى عوالم ما وراء المادة.

(١) حتى أن التوائم المتطابقة! فقد أثبت العلم أن هناك اختلافًا فى نشاط جيناتها المتماثلة.

كما ذكرنا أن الإنسان الواعى يمارس متتالية من العمليات العقلية الخاصة بالظاهرة الإنسانية، وهى متتالية: **الإدراك ثم الفهم ثم التفكير**[١]. وإذا وقفنا مع الفهم والتفكير البشرى، وجدناهما لصيقين بمعنى «الحكمة»، بشرط أن يكونا فى الاتجاه الصحيح ويخدمان أهدافًا إنسانية سامية.

وإذا كان تطور أى منظومة محكوم بطبيعتها، دون القفز إلى طبيعة مغايرة، فلا يمكن لمنظومة الكون المادية أن تُنتج منظومة العقل الإنسانى، ولا بد لهذه الأخيرة من مصدر يتمتع بالحكمة، ولا يكون هذا المصدر إلا الإله الحكيم.

وإذا كانت مدرسة التصميم الذكى[٢] فى الغرب تصف خالق الكون والحياة والإنسان بالمصمم الذكى، فلا شك أن صفة «الحكيم» تحمل من المعانى ما يفوق الذكاء بكثير.

بل إن الإنسان صاحب القدرات العقلية المتميزة لا ينبغى أن يوصف بالذكاء وحسب، فما أدراك بالإله الخالق «الحكيم».

سبحان ربى...

الله ﷻ: العليم الخبير، المحصى المحيط

الإدراك سمة التعقل الأولى

يَعْلَم السرَ وأخفى

يعتبر المتخصصون أن أهم ما يميز الملكات العقلية للإنسان على غيره من الكائنات هو قدرته على أن «**يدرك ما يدور فى عقول الآخرين**»، ويطلقون على هذه السمة اصطلاح «**نظرية العقل**».

ولا شك أن قدرة الإنسان على إدراك ما فى عقول الآخرين يحددها عدد من العوامل، منها درجة ذكاء المدرِك، وقدرة الآخرين على إخفاء ما فى عقولهم أو التمويه وخداع المدرِك.

(١) ربما تلاحظ أن «الإدراك» البشرى يُجَلّى اسمه ﷻ «العليم»، لذلك سنناقش هذه العلاقة بعد قليل.

(٢) تتزعم هذا الاتجاه فى الولايات المتحدة بـ «حركة التصميم الذكى Intelligent Design Movement»، التى أسسها عام ١٩٩١ محام مسيحى متدين، يعمل فى جامعة كاليفورنيا اسمه «فيليب جونسون Phillip Johnson»، وكان ذلك عندما نشر كتابه «Darwin on Trial». وقد جاءت الدَفعة الكبيرة لمفهوم التصميم الذكى على يدى أستاذ البيولوجيا «مايكل بيهى Michael Beha»، عندما نشر كتابه «Darwin's Black box»، ثم جاء دور «وليم ديمبسكى William Dembski» (أستاذ الرياضيات المتخصص فى نظرية المعرفة)، و«ستيفن ماير Stephen Meyer» (أستاذ فلسفة العلوم)؛ ليقدما المزيد من الوقود لهذا المفهوم.

ولا شك أن هذه الملكة ـ على ما فيها من قصور ـ لا تكون إلا هبة من الإله المطلع على ما فى عقول خلقه إلى أقصى مدى؛ ما أَسَرَّه الإنسان فى نفسه، وما هو أخفى من ذلك، وهو ما لم يدركه المرء بعد عما يدور فى عقله هو. وفى هذا الشأن يقول جل شأنه: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[غافر]. ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾[طه].

وإذا كانت هذه القدرة تقف فى الإنسان عند حدود «التصور»، فإنها «إدراك» و«علم» و«خبرة» و«إحصاء» و«إحاطة» حقيقيين عند الله ﷻ.

وإذا تأملنا ملكة الإدراك، نجد أن المخ البشرى قد أُعد لالتقاط المعلومات بشكل فطرى، فحواس الإنسان الخمس تلتقط المدخلات الحسية سواء قصد الإنسان ذلك أو لم يقصد، بل إن الإنسان يعجز عن إيقاف ورود سيل المعلومات إلى مخه، فالأذنان تستقبلان، واللمس يستقبل، والأنف يستقبل، سواء قصد الإنسان ذلك أو أَبَى(١)!

وتتفاوت المعلومات التى يرصدها الإنسان تبعًا لقدراته العقلية وخبرته. فالطبيب المتخصص يدرك من نظرة لوجه المريض من دقائق حالته الصحية مالا يدركه الآخرون، وكذلك الفلكى من نظرته للسماء، لذلك صرنا نسمع عن الخبير فى كذا، والخبير فى كذا.

ويقوم المتخصصون بإحصاء ما أدركوه من معلومات، فيقسمونها إلى مجموعات تبعًا لعوامل عديدة، ويدرسون العلاقات بين هذه المجموعات، وكيف يتأثر بعضها ببعض، وعلى ذلك قامت مجموعة من علوم الإحصاء التى دفعت بالعلم دفعًا إلى الأمام.

ويدعى بعض العلماء أنهم قد أحاطوا بكل تفاصيل علوم تخصصاتهم. وما أحمق هذا الادعاء!! فقدرة الإنسان على الإدراك محدودة وقاصرة للغاية مهما بلغ حرصُه ودأْبُ سعيه. ألم نذكر أن المخ البشرى يتعرض لـ ٤٠٠ مليار معلومة فى الثانية الواحدة لكنه لا يدرك منها إلا ألفى معلومة؟!!

وبالإضافة إلى هذا العجز الفطرى الذى يرجع إلى محدودية القدرات الإدراكية للمخ البشرى، هناك عجز أساسى آخر يرجع إلى ثراء ما فى الكون من معلومات، لذلك كلما تكشفت للإنسان معلومة جديدة فتحت الباب لعشرات التساؤلات، وقد أُطلق فى هذا المعنى قول صار مأثورًا: يتزايد العلم البشرى بمتوالية عددية فيتزايد الجهل بمتوالية هندسية!!

(١) وفى المقابل، يستطيع الإنسان أن يغلق عينيه فلا يبصر، وأن يغلق فمه فلا يتذوق.

ومن هذا النذر اليسير من المعلومات يبنى الإنسان تصوره عن الوجود، والمصيبة أنه يدعى أنه قد أحاط بالوجود علمًا!! والمصيبة الأكبر من ذلك، هو ادعاء الملاحدة غياب الحكمة الإلهية، نتيجة لعجزهم عن تفسير بعض الأحداث الكونية!! وامصيبتاه، أيحكم المحدود العاجز على حكمة الحكيم المطلق!!.

نضيف إلى ما سبق عن الإدراك، أن الإنسان كائن خيالى قادر على التنقل بعقله عبر الزمن، فيستحضر فى اللحظة الحالية ما وقع فى الماضى ويتخيل ويتوقع ما يمكن أن يقع فى المستقبل.

رأينا كيف يسعى الإنسان ليكتسب العلم والمعرفة، ويسعى فطريًا بشغف ليتحلى بصفات منظومة العلم (العليم، الخبير، المحصى، المحيط). ولا شك أن هذا الحافز يقف وراءه إله خالق يتمتع بهذه الصفات بشكل مطلق. وفى الوقت نفسه فإن عجز الإنسان عن تحصيل القدر المعقول من المعارف يُجَلِّى بشكل أوضح طلاقة هذه الصفات فى الإله الخالق الحكيم، فسبحانه:

العليم: ﴿... وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام].

الخبير: ﴿...وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام].

المحصى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩﴾ [النبأ].

والمحيط: ﴿... وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق].

سبحان ربى الذى سجدنا بعجزنا على أعتاب بابه.

الله ﷻ: القـوى القـادر،

الذى «لا تأخذه سنة ولا نوم»

يعكس النوم جوانب عجز الإنسان

رأينا أن وعى الإنسان (أن يصبح الإنسان واعيًا بنفسه وبما حوله) هو الباب لمتالية الإدراك ثم الفهم ثم التفكير. وبدون الوعى الإنسانى يتردى الإنسان إلى ما دون الحيوانية، ويصبح نشاطه قاصرًا على ما تمارس النباتات! من وظائف.

وينبهنا تأمل «ظاهرة النوم» إلى العديد من جوانب القصور البشرى. فالنوم يقطع الإنسان عن نشاطاته العقلية ويرده إلى ما يُعرف بالحالة النباتية Vegetative State، التى يُغنى اسمها عن

وصفها[1]. كذلك يُظهر النوم ضعف الإنسان الذى يتجلى فى احتياجه للراحة واحتياج دماغه وجسده للترميم وإعادة التأهيل. كما يعكس النوم ضعف الإرادة البشرية حين يصبح الإنسان غير قادر على مغالبة النُعاس.

إن ما يعترى الإنسان من دورات (الوعى ـ النوم) لمن أكبر الدلالات على الصفة الإلهية «لا تأخذه سنة ولا نوم»، فالوعى الإنسانى يتطلب أن يكون مانحه متمتعًا بهذه الصفة. وفى الوقت نفسه فإن ما يصاحب النوم أو الغيبوبة من عجز يجزم بأن الإله (الذى يستحيل عليه العجز) لابد أن يكون دائمًا واعيًا، وسبحان ربى الذى لا تأخذه سنة ولا نوم.

كذلك فإن من لا تأخذه سنة ولا نوم، المنزه عن «الضعف» البشرى من مغالبة النعاس، والمنزه أيضًا عن «عجز» النوم والغيبوبة، جدير بأن يوصف بما يقابل هذا القصور من كمالات، فكان (ولا يزال أبدًا) ربنا بحق «القوى» «القادر».

سبحان ربى...

الله ﷻ: السميع البصير

دون قيود من زمان ولا مكان ولا حواس

الهاتف المحمول والإدراك خارج الحواس

رأينا منذ قليل أن حواس الإنسان مُعَدَّه لتدرك ما حولها بتلقائية وبداهة، وفى الوقت نفسه فإنها مقيدة بمحدودية قدرات المخ الإدراكية.

وقد أمكن العلمُ الحديث الإنسانَ من توسيع مجالات إدراكه، فصار يسمع ويبصر عبر ملايين الأميال، ويسمع ويبصر أطوال الموجات التى تتجاوز قدراته الطبيعية، ويستعيد (عبر التسجيلات) سماع ورؤية ما وقع منذ سنوات!

تصور ما تنقله لنا سفن الفضاء من صور دقيقة للغاية من كواكب أخرى، والأقرب من ذلك ما تحققه لنا وسائل الاتصال الحديثة كالنت والتليفون المحمول من تواصل بالصوت والصورة مع شخص مُعَيَّن فى أقصى الأرض. لقد أعاننا هذا التمدد الرهيب فى قدرتنا الإدراكية

(١) المقصود بالحالة النباتية أن يكون الإنسان فى غيبوبة، بينما يمارس جسده من الوظائف البيولوجية ما يبقيه حيًا، كالتنفس وانقباض القلب وانبساطه.

الحسية على تصور مدى عِظَم الصفات الإدراكية «كالسميع والبصير» لمانح الإنسان هـذه القـدرات.

ولا يقف الأمر عند ذلك، بل لقد زُوِّد الإنسان منذ نشأته (غالبًا) بمَلَكَة إدراكية عجيبة جعلتنا نفهم القدرات الإلهية بشكل أوسع وأعمق. إنها ملكة «الإدراك خارج الحس»؛ حيث يخترق الإنسان حدود المكان، فيدرك فى نفس اللحظة ما يقع على بُعد آلاف الأميال! كذلك يخترق حدود الزمان فيدرك ما لم يقع بعد من أحداث، ويكون ذلك كله دون آلات أو أعضاء حسية. أيكون غريبًا بعد ذلك أن نؤمن بعلم الله (الذى لا يحده الزمان) المُسبق بتصرفاتنا واختياراتنا؟!

لقد أعانتا الإدراك خارج الحس على توسيع تصوراتنا عن الصفات الإدراكية لله ﷻ، فنزعت عنها الارتباط بآلات حسية، كما أخرجتها من منظومة الزمان والمكان. وبذلك أدركنا الصفتين الإلهيتين «السميع» «البصير» بقدر من الإطلاق والتنزيه اللائق بهما.

سبحان ربى...

الله ﷻ: الظاهر الباطن

متتالية المخ. العقل. الروح

رأينا عند تأملنا لظاهرة الحياة كيف تتجلى فيهاالصفتان الإلهيتان: **الظاهر الباطن**، وضربنا لذلك مثلًا بالشفرة الوراثية التى هى باطن لظاهر هو بنية الخلية ووظائفها.

كذلك تقابلنا هاتان الصفتان بشكل جلى عند تأمل المخ/ العقل البشرى. **فالمخ المادى** هو البنية الظاهرة للعمليات العقلية، نلمس فيه كتلة مادية هلامية تزن قرابة ١٣٤٠ جرام، وتمارس وظائفها من خلال الدوائر الكهربائية والناقلات العصبية الكيميائية. ومع ذلك فإن هذا النشاط الكهروكيميائى يعجز عن تفسير نشاطاتنا العقلية!

وفى المقابل، يقابلنا **العقل**، الذى هو ؟؟؟، الذى هو ؟؟؟، لا أدرى، ولا يدرى أحد. لذلك عندما يتحدث العلماء عن العقل فإنهم لا يعلمون عن ماذا يتحدثون! ولذلك أيضًا لا يحدثنا القرآن الكريم عن العقل بل عن ممارسة النشاط العقلى، فنجد مشتقات الجذر «عَقَلَ» تتكرر تسعًا وأربعين مرة فى آياته الكريمة.

إن الفرق بين المخ والعقل كالفرق بين نُطق الكلمة ومعنى الكلمة. فالنطق آليه من عالم الطبيعة المادية، إنه صوت مستمر تُخرجه الحنجرة على هيئة ذبذبات واهتزازات فى الهواء، ثم يُحدِث الحلق واللسان والشفتان تَقَطُّعات فى هذا الصوت لتُشَكّله على هيئة حروف وكلمات، إن الأمر كله فيزياء، هذا هو نطق الكلمات. أما المعنى فهو شيء آخر، فقد يكون تعبيرًا عن الحب أو إعلانًا للحرب أو أى مفهوم آخر، إن معنى الكلمات شيء خارج عن هذه الآليات المادية وعن تركيب الكون المادى.

لذلك يتبنى الفيلسوف الأسترالى الكبير ديفيد شالمرز (الاتجاه اللامادى)، الذى يرى أن الوعى وباقى عمليات التعقل ظواهر غير فيزيائية غير مادية، وإن كانت على اتصال بالظواهر الفيزيائية. ويرى هذا الاتجاه أن العقل المسئول عن هذه الظواهر يختلف تمام الاختلاف عن المخ، فالمخ ينتمى إلى عالم المادة، بينما ينتمى العقل إلى عالم غير مادى لا ندرك حقيقته. وبالرغم من أنه من كبار «الشكاكين Skeptics» فإن شالمرز يرفض الاتجاه المادى الفيزيائى.

وإذا كان العلم يتقدم فى دراسة مكونات ونشاطات المخ، فإن دراسة العقل قد أعيت الفلاسفة طوال آلاف السنين، كما أعيت علماء النفس وأطباءها عبر عشرات السنين.

ندرك مما مضى أن منظومة المخ/ العقل هى إحدى تجليات الصفتين الإلهيتين «الظاهر الباطن».

والمتأمل للظاهرة الإنسانية فى القرآن الكريم يجد أن الإنسان يتميز على غيره من الكائنات الحية بمفهومين أساسيين ، أحدهما هو النشاطات العقلية التى يتميز بها الإنسان، والثانى هو الأمانة أو النفخة الإلهية الغيبية ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر].

لذلك فإن الاستنتاج المنطقى هو أن هذه الأمانة/ النفخة الغيبية هى المسئولة عن النشاطات العقلية. وبذلك نجد أن ما هو باطن فى أحد المستويات (العقل بالنسبة للمخ) يصبح ظاهرًا لباطن أعمق (العقل بالنسبة للروح).

وقد تحدثنا منذ قليل عن ثنائية الإنسان (المادة ـ الروح) وكيف أنها تُجَلِّى اسم الله ﷻ «الواحد»، والآن نرى فى هذه الثنائية تجليًا للصفتين الإلهيتين «الظاهر الباطن». فالمكون المادى هو ظاهر الإنسان الذى تحركه ظاهرة الحياة البيولوجية، أما المكون الربانى الغيبى فهو باطن الإنسان الذى تتحكم فيه نفخة الروح الربانية ومن ثم تصبح ثنائية الإنسان مرآة لصفتى الله ﷻ «الظاهر الباطن».

سبحان ربى...

الله ﷻ؛ المريد

أكذوبة الحتمية

عندما توصل جيمس واطسون وفرانسيس كريك إلى بنية وطريقة أداء جزىء الدنا DNA لوظائفه وإلى دوره فى نشاط الخلية اعتبر العلماء أنهم قد توصلوا إلى سر الحياة، ونظروا إلى الدنا باعتباره الجزىء المحورى الذى يتحكم فى بيولوجيا الخلية وفى صفاتنا البنائية. ثم تَوَسَّعت النظرة وساد الاعتقاد بأن الدنا يتحكم فى سلوكياتنا وانفعالاتنا كذلك، أى أنك إذا ورثت جين الإجرام فستصبح مجرمًا!! وهذا ما أطلقوا عليه «الحتمية البيولوجية».

كذلك يحدثنا التربويون عن «الحتمية التربوية»، أى أننا عبيد نشأتنا؛ تسلك كيفما تربيت!

وبين الحتمية البيولوجية والحتمية التربوية ضاعت «حرية الإرادة».

البيولوجيا الجديدة وأكذوبة الحتمية الجينية

ومع إعلان نتائج مشروع الجينوم البشرى عام ٢٠٠٠، جاءت المفاجأة. فقد ثبت أن فى الطرح السابق عن الحتمية ثلاثة أخطاء فادحة. الأول، أن الجينات التى تتحكم فى صفاتنا البنائية لا تستطيع أن تتحكم فى نفسها! ولا بد لها من مُنظِّم يوجه نشاطها. والثانى هو اعتبار أن الجينات تتحكم فى جميع العمليات البيولوجية فى الخلية، ومن ثم فى حياتنا، وهذا يُعتبر تعصبًا غير منطقى لا يقل عن تعصب المتدينين المتطرفين! والخطأ الثالث اعتبار أن جينات قليلة تتحكم فى سلوكياتنا وانفعالاتنا، فقد ثبت أن هذه الوظائف تخضع للعديد من العوامل البيئية والنفسية بالإضافة إلى تواصل هائل بين العديد من المراكز المخية.

وقد حدد عالِم البيولوجيا الكبير ديفيد بالتيمور[1] ـ الحائز على جائزة نوبل فى الطب ـ أهم النتائج الفلسفية لمشروع الجينوم بأنها «غروب نظرة الحتمية الجينية Set of Genetic Determinism»، والتى تعتقد أن الجينات تحدد مصائرنا. وقد تأكد خطأ ذلك بعد أن ثبت أن التغيرات البيئية، كالتغذية ودرجة الحرارة وكذلك التغيرات الداخلية كالحالة النفسية، يمكن أن تُغَيِر من نشاط الجينات دون تغيير فى بنية الجينوم الأساسية، بل ويمكن أيضًا توريث تلك

(١) David Baltimore: عالم البيولوجيا الأمريكى. ولد عام ١٩٣٨.

التغيرات المكتسبة (فى النشاط) إلى الأجيال التالية. وبناء على هذه المفاهيم، تأسست البيولوجيا الجديدة New Biology التى تقوم على علم التحكم فى الجينات Epigenetics، والذى يهتم بدراسة آليات تأثير البيئة (الداخلية والخارجية) على نشاط الجينات (تنشيط، كبت، تعديل نشاط).

إن تلاشى مفهوم الحتمية الجينية يضع مصير حياتنا فى أيدينا، فنحن قادرون على برمجة الخلية من خلال غشائها الذى يُعتبر بمثابة مخ الخلية (عن طريق ظروفنا البيئية وحالتنا النفسية والروحية)، وقد آن الأوان لأن نرسم خطًا يفصل بين عالمين؛ العالم الداروينى الذى يصورنا كروبوتات حية متصارعة، وعالم البيولوجيا الجديدة التى تنظر إلى الحياة باعتبارها رحلة يتعاون فيها أناس أقوياء من أجل الحياة فى سعادة وحب. لقد آن الأوان لأن نعرف أننا لسنا عبيدًا لجيناتنا، لكننا سادة مصائرنا.

وكما تهاوت الحتمية البيولوجية، فقد تهاوت الحتمية التربوية مع انهيار المبالغات الفرويدية لدور التنشئة. وهكذا أصبح دور التربية لا يصل إلى الإلزام، لكنه عامل مرجح فى المواقف المختلفة.

لا شك أن تمتع الإنسان بحرية الإرادة والقدرة على الاختيار من أهم ما يميزه عن غيره من الكائنات، وتصل هذه الحرية إلى أقصى درجاتها فى «خُلُق الإيثار»، إذ يختار الإنسان أن يضحى بوقته وجهده وماله وربما حياته فى سبيل الآخرين.

ومن العجيب أن يتبنى بعض المتدينين مفهوم الجبر، الذى ينزع عن الإنسان حرية إرادته، وذلك بدعوى أنها تنتقص من طلاقة القدرة الإلهية. وهذا التصور يلغى أية حكمة من خلق الإنسان ونزول الرسالات السماوية! إن حرية الإرادة الإنسانية واضحة جلية فى القرآن الكريم، انظر إلى قول الحق ﷻ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ [الشمس]، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ [الإنسان]، ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾ [البلد]، ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... ۝٢٩ ﴾ [الكهف].

بل لقد ترك الله ﷻ للإنسان الاختيار فى أن يكون حر الإرادة! ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ... ۝٧٢ ﴾ [الأحزاب].

إن حرية الإرادة التى تحرر بها الإنسان من «الحتمية الفيزيائية» التى تحكم الموجودات

المادية غير الحية، ومن «الحتميتين الجينية والتربوية» اللتين تحكمان مختلف الكائنات الحية، لا يمكن أن تكون إلا عطاءً من خالق يتمتع بالقدرة على الاختيار، ومن ثم فإن حرية الإرادة الإنسانية مظهر من مظاهر حرية الإرادة لإله فعال لما يريد، وقد أراد الله ﷻ أن تكون لنا إرادة حرة تُجلّي صفته «المريد» ﷻ.

سبحان ربى...

الله ﷻ: الهادى الوهاب

منظومة الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق

منظومة العلم

من أكثر القضايا تعجيزًا للدراونة والفرويديين تفسير نشأة **«منظومة الألوهية والدين والأخلاق»** فى النفس البشرية. ويطرح هؤلاء أن هذه المنظومة تحقق للإنسان فوائد عاجلة وآجلة، ومن ثم فهى قد نشأت بالانتخاب الطبيعى، أى أن الحاجة أم الاختراع. **وكأن الإله إذا خلق لا ينبغى أن يحقق فائدة!!**

بفرضيتهم هذه، يقدم الدراونة والفرويديين طرحًا **لا يمكن اختباره، بل ويتعارض مع أساسيات التطور الداروينى!**. فإذا نظرنا إلى **«خُلق التعاطف»** الذى يبذل فيه الإنسان من جهده ووقته وماله ما يساعد به المحتاجين، نجده يتعارض مع مفهوم **«مصلحة الذات»** الذى يحرك الداروينية. كذلك قولهم إن الإنسان يفعل ذلك اليوم من أجل أن يجده عند الآخرين عندما يحتاج، قول مردود، **فالانتخاب الطبيعى لا يعرف المصلحة الآجلة**، أى لا يعرف «من قَدَّم السبت يلقى الحد قدامه»!!

كذلك يتعارض **«خُلُق الإيثار»** بشكل جذرى مع التفسيرات الداروينية التى تدور حول **«الصراع من أجل البقاء»** و**«الجين الأنانى»**. فكيف يقدم إنسان حياته مختارًا راضيًا فداء لآخرين؟! ولم يملك الدراونة للخروج من هذا المأذق إلا القول بأن الإيثار **«خطأ تطورى»**!

فندنا بهذا الطرح دعاوى الدراونة والفرويديين بأن منظومة «الألوهية والدين والأخلاق» قد نشأت تطوريًا لزوم الحاجة. وندعم أدلتنا بما طرحناه فى الفصل السابق من أن العلم قد أثبت أن هذه المنظومة فطرية، والذى استشهدنا عليه بمفاهيم **جين الألوهية، ونظرية المزاجات والأخلاق الوراثية، والذكاء الروحى، والتوصل إلى مراكز التدين فى المخ، ومعدل مارشال**

لإطلاق النار فى الحروب. واستشهدنا أيضًا بأقوال جازمة لعلماء كبار فى مختلف التخصصات بأن الإنسان بفطرته كائن عاطفى، خلوق، متدين.

ويقودنا إثبات «فطرية» منظومة «الألوهية والدين والأخلاق»، إلى أن النفس البشرية قد أُمدت قصدًا بهذه المنظومة، من أجل إعدادها لمهام لاحقة[1]. أى أن الإله الخالق قد هدى الإنسان لهذه المنظومة، وهو ما يمكن وصفه «بهداية الإعداد».

ولا تقف «هداية الإعداد» عند غرس الأسس البيولوجية لهذه المنظومة فى النفس البشرية، بل تشمل أيضًا إعدد العقل الإنسانى للتعامل مع المنظومة، من حيث إمداده بالقدرة على فهم النصوص المقدسة، والرغبة فى تجسيد الأفكار والمشاعر الدينية فى طقوس، وأيضًا الرغبة فى تحويل المعتقدات النظرية إلى تجربة شعورية ذاتية، ترقى إلى القدرة على التسامى الروحى.

ولا تقف هداية الإعداد للإنسان عند «منظومة الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق»، بل تقابلنا أيضًا فى «منظومة العلم». فقد تم زرع عددًا من المفاهيم الأولية التى تعيننا فى مجال العلم فى عقولنا، كما تم التنسيق بين الوجود من حولنا وبين قدرة عقولنا على فهمه، وفى النهاية أعطتنا الثقة فيما تتوصل إليه عقولنا من معارف.

وقد جاءت هداية الإعداد من الله ﷻ «الهادى»[2] هبة تتناسب مع عظمة عطائه، فصرنا نرصد فيها أيضًا صفته ﷻ «الوهاب».

---

(١) كالإعانة على اختيار طريق الصواب الذى يقودنا إلى الجنة.

(٢) قسم الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه «بدائع الفوائد» الهداية إلى أربعة أنواع:

١ - الهداية العامة المشتركة: وهى الهداية التى مَنَّ بها الله ﷻ على «جميع المخلوقات»، وهى أن يضع فى كل مخلوق صفاته ويلزمه اتباعها.

﴿الَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه].

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد].

وتعتبر «هداية الإعداد» التى ذكرناها فرعًا من الهداية العامة، وتمهيدًا لهداية البيان التالية.

٢ - هداية البيان: وفيها يبين الله ﷻ «للإنسان» طريق الحق.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى].

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ... ۝١٧﴾ [فصلت].

٣ - هداية التوفيق والإلهام: وهى خاصة بمن «استجاب لهداية البيان»، فاتبع أوامر الله ﷻ.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... ۝٢٧﴾ [إبراهيم].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد].

٤ - الهداية الأخروية، حيث يهدى الله ﷻ أهل الجنة للجنة:

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ [محمد].

وأهل النار للنار: ﴿...فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات].

الله ﷻ: كل شىء عنده بمقدار

ميزان الطبيعة وميزان النفس الإنسانية

تطرقنا عند استعراضنا لنشأة الكون لـ «برهان الضبط الدقيق»، الذى يعكس ما تحتاجه عملية خلق الكون الهائل الهادر من توازن دقيق للغاية بين ثوابته الفيزيائية وقوانينه الطبيعية. وقد تبع خلقَ الكون منظومات عديدة متتابعة من الأحداث والموجودات، تشمل خلق الحياة، وتعدد الكائنات، وخلق الإنسان، ومنحة العقل البشرى،... .

وانتقلنا فى الفصل السابق إلى نمط آخر من المنظومات، فوجدنا أن النفس البشرية تتنازعها ثلاثة دوافع أخلاقية فطرية: الميول الأنانية، والرحمة والتعاطف، وطمأنينة الضمير. ورأينا أن السلوك الإنسانى يحكمه توازن دقيق يمارسه الإنسان بين هذه الدوافع.

وإذا كانت منظومات الكون تخضع لتوازنات «الحتمية الفيزيائية الإلهية»، فإن السلوك البشرى يختلف عنها بما نمارسه من «حرية الاختيار والإرادة». لذلك كلفنا الله ﷻ بمراعاة التوازن فى منظومة السلوك الإنسانى، فحثنا على الفاضل منها ونهانا عما هو دنىء، تبعًا لمقاييس أخلاقية يحددها الإله. وقد بنى الله ﷻ منظومة الثواب والعقاب على حفظ الإنسان لتوازن المنظومة الأخلاقية، حتى يظل كل شىء بمقدار.

ونلمس هذا الطرح فى مدخل سورة الرحمن فى القرآن الكريم ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ إنه توازن حتمى دقيق يلتزم الوجود باتباعه.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ خَلْق الكون تبعًا لتوازن دقيق.

ووضع للإنسان الميزان الذى يحكم سلوكه الأخلاقى الحر. علينا ألا نجور ولا نتجاوز الاعتدال فى المنظومة الأخلاقية السلوكية ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾.

وعلينا ألا نُفسد فى الاتجاه المعاكس بالتقصير: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾.نعم... لا تجاوز ولا تقصير ... إنه الاعتدال.

علينا أن يكون كل شىء فى اختيارنا بمقدار.

وذلك انطلاقًا وتشبهًا بما ألزم ربنا به نفسه: أن كل شىء عنده بمقدار...

الله ﷻ: المؤمن، ألزم نفسه بالسببية

يقوم الوجود على علاقة السبب والنتيجة

من المفاهيم الأولية البديهية فى عقل كل إنسان أن «لكل موجود حادث (له بداية) سبب»، كذلك يرصد المتأمل لمنظومة الكون التزامه بشكل مطلق بعلاقة السبب والنتيجة. وعلى هذه القاعدة قام العلم كله، فهو يهدف فى المقام الأول إلى التوصل إلى منظومة الأسباب فى الوجود، وفهمها وتوجيهها للاستفادة من مختلف الظواهر الطبيعية والإنسانية.

ولا شك أن التزام الكون بعلاقة السببية، وفى الوقت نفسه إيمان العقل الإنسانى بها، يعكس إيمان السبب الأول للوجود بمنظومة السبب والنتيجة. فقد خلق الإله الخالق منظومة الأسباب، متمثلة فى قوانين الطبيعة (التى يطلق عليها علماء الدين اصطلاح «السنن الكونية») وتَكَفَّل بتفعيل هذه القوانين وإلزام الموجودات باتباعها، كما قام بحفظها. ويكشف الله ﷻ للإنسان كل حين المزيد عن هذه القوانين ويُعَلمه كيف يستفيد منها لصالحه.

والأهم من ذلك، أن الله ﷻ قد ألزم نفسه بهذه القوانين. انظر إلى قول الحق ﷻ: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ ﴾ [ق]. لقد كرر الله ﷻ معنى الآية سبع مرات فى قرآنه الكريم، وفيها يخبرنا ﷻ أنه ينبت النبات بمطر السماء، ألم يكن الله ﷻ بقادر على أن يخرج النبات دون ماء؟!

ولا شك أن بناء الكون و إدارته من خلال منظومة الأسباب أمر ضرورى لتحقيق الغاية من خلق الإنسان، أليس مطلوبًا منه أن يكون خليفة مِن الله فى الأرض؟ أليس مطلوبًا لتحقيق الخلافة أن يكون للمستخلَف بعض صلاحيات المستخلِف؟

إذا لم يُنشأ الله ﷻ الوجود تبعًا لسنن كونية، بل أداره بالتدخل الإلهى السافر، إذا كان الوجود سيُدَار دون أسباب، فكيف يستطيع الإنسان الخليفة أن يمارس خلافته، التى منها إدارة شئون الأرض؟!

ولِنَعُد إلى مثال إنبات النبات بماء السماء من أجل أن نقرب المعنى. كيف يكون الحال لو جعل الله ﷻ إنبات النبات تارة بالماء، وتارة أخرى بالجفاف وتارة ثالثة بالنار وتارة رابعة تلقائيًّا؟! كيف يستطيع الإنسان الخليفة أن يمارس دوره المكلف به فى إحياء الأرض بالمفيد من الزراعات؟!

ولا ينبغى أن تظن أن طرحنا هذا يتعارض مع طلاقة المشيئة والقدرة الإلهية. أليس لله أن يلزم نفسه بشىء؟، أليس الله ﷻ فعالًا لما يريد؟ أليس هو القائل: يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا[1].

أليس الله ﷻ بقادر على أن يخرق منظومة الأسباب بإتيان المعجزات؟

كذلك جعل الله ﷻ للحياة الآخرة قوانينها، فدخول الجنة له أسبابه ودخول النار له أسبابه.

إن التزام الله ﷻ بالسببية فى شئون الدنيا يُطَمئن الإنسان على التزام إلهه بما وعده فى منظومة الآخرة، فالفعل الإلهى يكون طبقًا لقوانين، وبذلك يطابق فعلُه ﷻ قولَه. وهذا هو أحد معانى اسمه ﷻ «المؤمن».

سبحان ربى...

الله ﷻ؛ المتكلم

اللغة وسيلتنا للتواصل

تُعتبر اللغة الإنسانية ظاهرة شديدة التميز، فقد أثبت العلم أنها قد «انبثقت» فى العقل الإنسانى بشكل مباشر، فليس هناك أى شبه بينها وبين وسائل التواصل بين الكائنات الأخرى. كذلك فاللغات الإنسانية لغة واحدة! مبرمجة جينيًا فى المخ البشرى! تحكمها قواعد واحدة وآليات واحدة.

وإذا كان عالم اللغويات الكبير ناعوم تشومسكى قد اعتبر نشأة اللغة بمثابة الانفجار اللغوى الأعظم (انبثاق)، فإن فيلسوف العلوم الأكبر كارل بوبر يعتبر أن «الانبثاق» فى المنظور العلمى هو نظير «الخلق» فى المنظور الدينى.

ويرجع استدلالنا باللغة على وجود الإله الخالق وصفاته إلى عاملين تتميز بهما؛ الانبثاق المباشر الذى لا يقوم به إلا الإله الخالق، وتعقيد بنية اللغة وقواعدها وسماتها وهو ما يتطلب أن يكون الإله علميًا حكيمًا.

وتعتبر اللغة من الظواهر اللصيقة بالعلم الإلهى. فلله كلام محفوظ فى كتاب، كذلك فالكلام هو وسيلة تواصله مع البشر من خلال الوحى، لذلك علمنا الله ﷻ اللغة حتى نفهم وحيه، فنفهم المراد منا ونعرف كيف نتقرب إلى ربنا.

(١) حديث قدسى صحيح ـ رواه أبو ذر الغفارى وأخرجه مسلم.

إن هذه الرابطة بين الخالق والمخلوق، من خلال اللغة، جعلت القول بإله «متكلم» من بديهيات تصور صفات الإله.

سبحان ربى...

الله ﷻ: جميل يحب الجمال

كن جميلًا ترى الوجود جميلًا

قرأت حكمة هندوسية قديمة، تثير الكثير من التساؤلات حول علاقة الإحساس بالجمال بالألوهية، تقول الحكمة: «**لقد أُعطى الإنسانُ الحسّ الجمالى، الذى يجعله يتفاعل مع الجمال، ويرى اللمسة الإلهية فى كل ما حوله**». ولقد أثبتت البحوث الحديثة أن الحس الجمالى ليس أمرًا مكتسبًا وليس إفرازًا للحضارة الإنسانية، ولكنه **ملكة فطرية غريزية**.

إن نشأة الحس الجمالى للإنسان أمر شديد التعقيد ويخضع لقوانين دقيقة، ومغاير تمامًا لما عليه غريزة تذوق الجمال فى الحيوانات، ويُعتبر ذلك دليلًا قاطعًا على التصميم الذكى الذى لا يقدر عليه سوى إله خبير حكيم قادر.

وقد وصفنا فى الفصل السابق الفَنَّ بأنه «**التوصل إلى جوهر الشىء، وعرضه بأسلوب يثير مشاعر ومزاج المشاهد**»، **فكيف يتوصل الفنان إلى ذلك الجوهر ليعبر عنه؟ وكيف يضع المشاهد يده عليه عند تأمل العمل الفنى ليتذوقه؟**.

لقد أحدث العلم الحديث انقلابًا فى مفهوم الجمال حين أثبت أن الجمال وإدراكه أمران موضوعيان وليسا ذاتيين. معنى ذلك أن هناك **صفات حقيقية تتميز بها الأشياء الجميلة**، كما أن هناك **آليات عقلية حقيقية تدرك الجمال فى الأشياء**. وبذلك أعان العلم فى حل المشكلة التى حيرت الفلسفة لآلاف السنين: هل الجمال ذاتى أم موضوعى؟

مما سبق، يتضح أن الجمال ظاهرة مخلوقة شديدة التعقيد لها قوانينها وآلياتها، ويتطلب ذلك أن يكون **خالق الجمال كريمًا** يسعى لإسعاد الكائنات بما حولها من جمال.

ومن منطلق قاعدة أن فاقد الشىء لا يعطيه، يستحيل لمن يتصف بصفات القبح أن يهب الجمال، بل ينبغى أن يكون متصفًا بالجمال، وقد عبر رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله:

«**إن الله جميل يحب الجمال...**»[1].

---

(١) رواه ابن مسعود ـ فى صحيح مسلم.

الله ﷻ: البديع - السلام

تكشف لنا «منظومة الألوهية - الدين - الأخلاق» والتنسيق الكامل بينها وبين طبيعة الإنسان ككائن عاقل خُلق لغاية، وأيضًا «منظومة العلم» والتنسيق الكامل بينها وبين طبيعة العقل البشرى الباحث عن الحقيقة، أقول إن هذا الإنشاء والتنسيق الكامل يكشف عن صفات إلهية إبداعية تبغى الكمال فى منظومات الوجود. ومن ثم فهذه المنظومات تجلى صفة الإله «البديع» والإله «السلام» الذى يتكامل عمله ويسلم من كل نقص.

صفات الألوهية والسلوك الإنسانى

وعدنا رسول الله ﷺ أن من أحصى أسماء الله الحسنى دخل الجنة[1].

ولا شك أن إدراك معنى الإحصاء ضرورى ولازم لفهم المقصود من الحديث الشريف.

أرى أن لإحصاء الأسماء الحسنى مستويات متعددة، تبدأ بتلاوتها ثم حفظها، ثم فهم معانيها والتفرقة بين دقائق تلك المعانى، ثم قراءة الوجود لنتعرف فيه على عمل هذه الأسماء. وأرقى مراتب إحصاء الأسماء الحسنى هو التخلق بها، وفى هذا المعنى جاء الحديث الشريف «تخلقوا بأخلاق الله»[2]. كما يشير الحديث «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»[3] إشارة صريحة إلى أن الله ﷻ يطالبنا بالتخلق بما ألزم به نفسه من خُلق، وهو هنا مجافاة الظلم.

تخلقوا بأخلاق الله ﷻ

ولا شك أن خير من تخلق بأخلاق الله ﷻ هو سيدنا رسول الله ﷺ. فعندما سُئلت السيدة عائشة أم المؤمنين عن خُلق رسول الله ﷺ قالت: كان خُلُقُه القرآن[4]، لذلك استحق رسولنا الكريم أن يوصف بالإنسان الكامل.

(١) «إن لله ﷻ تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة». رواه البخارى ومسلم.
(٢) رواه البخارى.
(٣) رواه مسلم.
(٤) صحيح مسلم.

كذلك أمر البشر جميعًا بالتخلق بقدر الاستطاعة بخلق رسول الله ﷺ، الذى هو فيض من أخلاق الله ﷻ وأسمائه وصفاته. والقرآن الكريم يوجهنا إلى ذلك: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب ٢١].

ولا يقف التأسى عند رسولنا الكريم ﷺ، بل يمتد ليشمل الصالحين الذين تخلقوا بأخلاقه. ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾ [الممتحنة٦].

بذلك صار التخلق بالأسماء والصفات الإلهية هو طريق القرب من الله ﷻ وحسن الخاتمة فى الآخرة.

من المخلوق إلى الخالق

تعاملت كتب شرح معانى أسماء الله الحسنى مع هذه المهمة من خلال جمع الأسماء والصفات الإلهية من القرآن الكريم (كتاب الله المسطور) والأحاديث الصحيحة، ثم شرح معانيها. وتفردت بعض الكتابات[1] بتوضيح نصيب الإنسان من كل من هذه الأسماء والصفات، وكيف نتخلق بها، أى أن هذه الشروح تنزل من الخالق إلى المخلوق.

وفيما تبقى من هذا الفصل، نتبع المنهج المعاكس، فنعرج بالأخلاق من المخلوق إلى الخالق، أى نرصد الخُلُق فى ممارسات البشر (كتاب الله المنظور)، فيدلنا على ضرورة أن يتمتع الإله الخالق للإنسان بهذا الخُلُق، فندرك أنه صفة من صفاته وربما اسم من أسمائه.

وفى تناولنا، سنُقَسِّم هذه الصفات إلى شقين، صفات جمال وصفات جلال، ثم نقسم كل شق إلى منظومات تشتمل كل منها على صفات متقاربة المعنى.

وبصفات الجمال نبدأ...

---

(١) من أهم هذه الكتب كتاب «المقصد الأسنى فى شرح معانى أسماء الله الحسنى». تأليف حجة الإسلام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥هـ). وهذا الكتاب هو مرجعنا الرئيسى فيما تبقى من الفصل.

صفات الجمال

أولًا: منظومة السكينة واللطف والرفق

سبحان ربي...

الله ﷻ؛ المؤمن ـ السلام

اللطيف ـ الحليم

الرحمن الرحيم ـ الرءوف ـ البر ـ الكريم

تشتمل هذه المنظومة على مجموعة من الأخلاق الإنسانية الراقية، التي تتدرج من الذات إلى الآخر. فلا شك أن «**السكينة**» شعور داخلي يغمر الإنسان بالهدوء والطمأنينة، أما «**الرفق**» فخلق سامٍ يراعيه الإنسان عندما يتعامل مع الآخرين، ويقع «**اللطف**» بين ذاتية السكينة وخارجية الرفق.

الإنسان المؤمن

كلنا يعرف ما يحققه «الإيمان» من سكينة للنفس،

والفاضلون منا يسعون لأن «يَأْمَن» الآخرون شرورَهم[1].

و«المؤمن» مَنْ يطابق فعلُه قولَه.

وأحق الناس باسم «المؤمن» من كان سببًا لأمن الخلق من عذاب الله، وهي مهمة الأنبياء والصالحين.

هذه سلوكيات ومعانٍ إذا تحلى بها أو ببعضها إنسان صار جديرًا بوصف «المؤمن».

وهل يمكن أن يتحلى الإنسان بهذه المعاني والسلوكيات إلا كعطاء من إله يوفر أسباب الأمن والأمان ويسد طرق المخاوف، فيحقق سكينة النفوس، ويُؤَمِّن الناس شر الناس، ويرشدنا إلى طريق الأمن من عذابه، وهو أولًا وأخيرًا يطابق فعله قوله.

بذلك كان الله وما زال وسيظل هو «المؤمن» ﷻ.

(١) حديث «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليأمن جاره بوائقه». رواه مسلم.

الإنسان السلام

يحيا بعضنا وقد سَلِمَ قلبه من الغش والحقد والحسد وإرادة الشر،

وتحرر عقله من أسر شهواته وغضبه،

وسلمت من الآثام والمحظورات جوارحُه.

من أين لهؤلاء بهذه الكمالات، إنها لا تكون إلا عطاءً ممن تسلم ذاته من العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر. بذلك لا يكون السلام النسبى أو الجزئى إلا عطاء من «السلام» المطلق ﷻ.

الإنسان اللطيف

ما ألطف من يرفق بالناس فى تعاملاته،

ولا يرى الناس منه إيذاءً ولا إزراءً ولا عنفًا ولا تعصبًا ولا خصامًا.

ذلك أن اللطف ليس كلمات مزينة، ولكنه سيرة طيبة وأعمال صالحة.

واللطيف بالناس من يعطيهم فوق الكفاية ويكلفهم دون الطاقة.

ويتطلب اللطف إدراك مصالح الناس، ظاهرها ودقيقها.

مما سبق ندرك أن اللطف يجمع بين الدقة فى الإدراك، والإخلاص فى العمل، والرفق فى إيصال المصالح للآخرين.

ولا يمد الإنسان بهذه القدرات التى تحقق اللطف إلا إله «لطيفٌ» بعباده.

الإنسان الحليم

الحليم منا من لا يعتريه غضب،

ولا يستفزه غيظ يحمله على المسارعة للانتقام،

الحلم هو هذه الخصال الحميدة من خصال العباد فى وجود القدرة على الانتقام، لذلك قالوا (اتقِ شر الحليم إذا غضب).

من أين لهؤلاء الحلماء بهذه القدرة؟

إنها لا تكون إلا عطاءً من «حليم» مطلق، استحق أن يصف نفسه بقوله:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل].

الإنسان الرحيم

كلما رأيت أمًّا (من البشر أو الحيوانات) ترعى صغيرها، قلت ما أرحمها[1].

والرحيم منا من لا ينظر إلى الضعفاء والفقراء والعصاه بعين الإزراء.

أعرف من الناس من يرى كل مصيبة تنزل بالآخرين كأنها مصيبة فى نفسه، فلا يألوا جهدًا فى إزالتها بقدر وسعه، حتى لو أصابه فى سبيل ذلك مشقة أو ضُر.

من أين للإنسان الذى جُبل على حب الخير لنفسه وإيثارها بالمنفعة بهذا السلوك؟!

لقد أخرجنا الله ﷻ من حيرة إجابة السؤال، حين قال رسولنا الكريم ﷺ: جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا وأنزل فى الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه[2].

ويؤكد هذا الحديث أن ما لدى الإنسان من الرحمة إنما هو عطاء من «الرحيم» المطلق. ولا ينطبق هذا المعنى على الرحمة فقط، بل ينبغى تعميمه على جميع الصفات الإلهية، بجمالها وجلالها.

ولا شك أن رحمة الإنسان يشوبها النقصان، فهى لا تخلو من رقة مؤلمة تعترى الرحيم، فتحركه إلى قضاء حاجة المرحوم حتى يُفَرِّج ما يستشعره من ضيق، وذلك ينقص من كمال معنى الرحمة. أما رحمة الله ﷻ فمنزهة عن ذلك.

كذلك رحمة الإنسان محدودة، تستدعى وجود مرحوم، أى محتاج يستحقها. أما رحمة الله فهى مطلقة، تامة عامة؛ أما تمامها فمن حيث يقضى حاجات المحتاجين. وأما عمومها فمن حيث شمولها المستحق وغير المستحق، المؤمن والكافر، تعم الدنيا والآخرة، ولم تقف عند قضاء الضرورات والحاجات بل تجاوزتها إلى ما يزيد على ذلك.

---

(١) لنا وقفة بعد قليل من معجزة الأمومة.
(٢) رواه البخارى.

لذلك فالله ﷻ، خالق الرحمة، هو «الرحيم» القاضى لحوائج المستحقين، وهو «الرحمن» بمعنى الرحمة التامة العامة.

وإذا أطلقنا على بعض الناس صفة «الرحيم»، فصفة «الرحمن» أبعد عن ذلك تمامًا، فهى مقتصرة على الله ﷻ فقط. لذلك أُستخدمت كمرادف لاسمه ﷻ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ... ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء].

الإنسان الرءوف

والرأفة هى شدة الرحمة،

فهى بمعنى الرحيم، مع المبالغة فيه،

سبحان ربى «الرءوف» «الرحيم».

الإنسان البَرُّ

أرقى البِرُّ هو بِرُّ الوالدين.

والبّارُّ محسنٌ للناس، وإن لم يستطع فلا يحسد أحدًا منهم على ما آتاه الله من فضله.

و«البَرُّ» المطلق ﷻ هو الذى منه كل مبرة وإحسان.

الإنسان الكريم

الكَرَم[1] فى الإنسان معنوى ومادى، وكان العرب يباهون به، وضُرب فيه المثل بحاتم الطائى. وقد أفاض العرب فى وصف الكرم فقالوا: **الكريم هو الذى إذا قدر عفا، وإذا وعد وفَى، وهو المترفع عن الدنايا، وإذا جُفِى عاتب برفق، ولا يضيع من لاذ به والتجأ.**

وهو كذلك إذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالى كم أعطى ولمن أعطى، وإذا رُفعت إلى غيره حاجة لا يرضى.

ما أرقاها من خصال، يفعلها الإنسان قدر طاقته، وقد يتكلفها أو يتصنعها إظهارًا للفضل.

(١) أطلق العرب اسم «الكَرْم» على العنب؛ لأنه لطيف الشجرة، طيب الثمرة، سهل القطاف، قريب المتناول، سليم عن الشوك والأسباب المؤذية، وذلك بخلاف النخل!

أما من اجتمعت له هذه الخصال إلى أقصاها، دون تكلف أو تصنع، بل وأمد بها **الإنسان**، فليس إلا الإله «الكريم» ﷻ.

ثانيًا: منظومة الإعزاز

سبحان ربى...

الله ﷻ: المعز ـ الغنى المغنى

الرافع ـ المقدم ـ المعين

الإنسان المعز

المعز هو من يعين الناس فى **تحقيق أسباب العز**،

فيدعمهم للخروج من ذل الحاجة وقهر الشهوة ووصمة الجهل،

وذلك هو العز الحقيقى.

من أين للإنسان هذا السمو فى معاملة البشر؟ **لا يكون ذلك إلا عطاءً ممن يؤتى الملك** من يشاء ويسلبه عمن يشاء، ويرزق الإنسان القناعة حتى يستغنى بها عن خلقه، ويرفع الحجاب عن قلبه حتى يعز بمشاهدة جمال حضرته، ويعزه فى الآخرة بالقرب منه وبالجنة. **سبحان ربى «المعز»** ﷻ.

الإنسان الغنى المغنى

فى حياة كل منا شخص أو أكثر نظن أنه بلغ من **الغنى المادى** قدرًا جعله غير محتاج لأحد، وكلما رأيناه أو جاء ذكره نقول: **سبحان من أغناه**، فيذكرنا غناه بغنى من أغناه.

وربما علمنا أن هذا الشخص يمتلك بعض الشركات التى بلغ بعض العاملين فيها درجة الغنى أيضًا.

ولكن إذا تأملنا الأمر قليلًا، لوجدنا أن من يبدو غنيًا من الناحية المادية، **فإن استغناءه غنى مجازى**. فهو فى الحقيقة فى أمس الحاجة **إلى أهون الناس شأنًا بين الناس**. فهو محتاج لمن يطهو له طعامه ويحيك له ثوبه وينظف له بيته والشارع الذى يقطن فيه. حتى وإن كان يدفع لهم أجورهم فهذا لا يلغى احتياجه لهم.

وإذا كان هؤلاء الأغنياء المُغنون محتاجين لمن هم أدنى منهم، فإنهم بلا شك محتاجون مفتقرون إلى من يغنيهم ماديًّا ويغنيهم عن الآخرين. ﴿... وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ...﴿٣٨﴾﴾ [محمد].

فسبحان ربى «الغنى» «المغنى» ﷻ.

الإنسان الرافع

قليل من البشر من يجعل الحق غايته، فيسعى لرفع شأن الحق ونصرة المحق.

يسعى فى رفع الأذى عن الناس، والمرض عن المرضى، والهم عن المهمومين.

ولا يمد الإنسان بتلك القدرة، ويعينه عليها، ويقوم بها بحقها وطلاقتها إلا الله «الرافع» ﷻ.

الإنسان المقدم

نرى فى حياتنا الملوك وذوى الشأن يُقَرِّبون ويُقَدِّمون أقوامًا فى المرتبة، وبالتبعية يقدمونهم فى المكان عند جلوس القوم فى حضرتهم.

ونرى من يسعى ليتقدم على منافسيه؛ فمن طالب يبذل الجهد فى الدراسة حتى يلحق بإحدى كليات القمة، إلى منافس فى مجال عمله لينال فيه السبق والتقدم، ومتسابق يسعى للفوز بالرقم القياسى. وكل من هؤلاء الساعين للتقدم يقف وراءه أستاذ أو قدوة أو مدرب يعينه عليه، ويكون فى حقه هو المقدم.

أما إلهنا «المقدم» ﷻ، فهو المقدم المطلق الذى وفر للمتقدمين أسباب التقدم، بل وأثار فى نفوسهم دواعيه.

الإنسان المعين

لا شك أن معظم صفات الجمال التى يمارسها الإنسان تحتاج إلى دعم ومساعدة وإعانة.

كذلك نرى فى حياتنا من يعين الآخر فى رفع حِمْل أو حَمْل غرض، أو فى نفقات العيش وتربية الذرية، أو يعينه على الهموم أو على نفسه الأمارة بالسوء.

والقدرة على الإعانة لا بد لها من مُمِدّ، ولا تقف إعانة الله «المعين» ﷻ عند الإمداد المباشر، بل يتعدى ذلك إلى تيسير الأسباب وأسباب الأسباب، وهكذا...

ثالثًا: منظومة النفع والعطاء

سبحان ربى...

الله ﷻ: المعطى المغنى. الوهاب. الكريم[1]

النافع. الباسط

الإنسان المعطى المغنى

يركز الكثيرون فى عطائهم على العطاء المادى، فينفقون من أموالهم هنا وهناك.

ويمد آخرون العطاء إلى الجوانب غير المادية، فيعين الطبيب (مثلًا) المرضى حتى يُكتب لهم الشفاء، ويُعطى البعض عطاء عقليًّا ينتفع فيه الناس بعلمهم.

وللبعض عطاءات نفسية تحقق السكينة والطمأنينة فى نفوس الناس.

ويعمم البعض (عن حق) مفهوم العطاء، فيسعون لإزالة الضر أو إبعاد أسبابه قبل أن يقع.

ويمتد عطاء البعض المادى للآخرين ليتجاوز حد الكفاف إلى درجة الغنى المادى[2].

هكذا تقوم دنيانا على العطاء، الذى لولاه لانقرضت الحياة على الأرض.

ما مصدر خُلُق العطاء الذى يضحى فيه الإنسان بماله ووقته وجهده؟

هل يمكن أن يكون إلا إلهًا «معطى» «مغنى»، يتمتع بخُلُق «العطاء» المطلق.

الإنسان الوهاب

يختلف الوهاب عن المعطى فى أن الهبة هى العطية الخالية من العِوَض والغرض.

وإذا كنا نرى فى حياتنا من يُقَدم هبة لمؤسسة خيرية (مثلًا) ومن ثم يُذَكروننا بالله

---

(١) تعرضنا لصفة «الكريم» عند حديثنا عن منظومة السكينة واللطف والرفق.

(٢) جاء فى الأثر: أعطوهم حتى تغنوهم.

«الوهاب» ﷻ، فإن هؤلاء وهابون تجاوزًا. فالهبة الحقيقية غير موجودة فى حياتنا! فدائمًا يكون هناك غرض فى نفس الواهب. كأن يحصل على إعفاء ضريبى، أو يحقق حسن الذكر والسيرة بين الناس، أو يطلب الوصول إلى الجنة والفرار من النار، أو حتى يطلب رضا الله والتقرب إليه.

ومن ثم، يرقى بنا هؤلاء إلى معرفة صفة الله «الوهاب» ﷻ الحقيقى المطلق، الذى يعطى كل محتاج ما يحتاج إليه، لا لِعِوَض ولا لغرض عاجل ولا آجل.

الإنسان الهادى

يُعين بعض الناس ذوى الخبرة الآخرين لقضاء حوائجهم بالنصيحة السديدة والإرشاد الصائب، كما يرشد الدعاة لطريق الله ﷻ البشَر إلى طريق النجاة الذى يقربهم من الجنة ويباعد بهم عن النار.

هذه هداية البشر للبشر، التى لا تكون إلا مددًا من هداية الله ﷻ للوجود كله. فهو الذى هدى كل مخلوق إلى ما لا بد منه لقضاء حاجاته. فهدى الطفل إلى التقام الثدى، وهدى الفَرخ إلى التقاط الحَب، والنحل إلى بناء بيته على شكل التسديس. بل هدى الأجرام والرياح والمطر وكل شىء.

وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه]، ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى].

فسبحان ربنا «الهادى» ﷻ.

الإنسان النافع

مرت بنا فيما مضى أنواع مختلفة من النفع التى نعتبرها ـ تجاوزًا ـ صادرة من الإنسان، رأينا ذلك فى منظومتى الإعزاز والعطاء.

وما نرصده من نفع صادر من إنسان إلى آخرين يلفتنا بلا شك إلى مصدر النفع الأصيل، إلى الله ﷻ «النافع» المطلق بحق.

الإنسان الباسط

نَلقى أحيانًا فى تعاملاتنا اليومية رجالًا مبسوطى الوجه، يَهُشون للقائنا، فَيُحدِثون بإقبالهم وكلامهم بسطة فى القلب وانبساطًا فى النفس.

ونلقى أحيانًا من يداه مبسوطتين، ينفق بسخاء على الفقراء، فلا تعلم يساره ما تنفق يمينه. وكم من رجل تعصف به ضائقة الدَّين، ثم يأتيه الفرج وتنبسط أحواله.

وفى بعض الأحيان، نعانى ضِيقًا فى الصدر لهموم تؤرقنا، أو ضيق فى التنفس لمرض يمر بقلبنا أو رئتينا، أو آلام وأمغاص بسبب تقلص يصيب أمعاءنا، وفجأة تنبسط أمورنا فيرتاح الصدر والتنفس والأمعاء.

إن رصدنا لأحوال البسط هذه يستحضر فى العقول اليقِظَة حضرة الإله الذى أمدنا بهذا المدد، الذى ليس إلا تجليًا لاسمه وصفته «الباسط» ﷻ.

رابعًا: منظومة الحُكم

سبحان ربى...

الله ﷻ: الحَكَم . العَدْل

الإنسان الحَكَم

لا يقتصر دور الإنسان كَحَكَم فى أن يكون حاكمًا لدولة أو إمارة، أو مدينة أو قرية، أو أن يكون وزيرًا أو مديرًا أو ربًا لأسرة. بل تمر بنا فى الحياة مواقف أخرى كثيرة يمارس فيها الإنسان دور الحَكَم. فنراه جالسًا على المنصة فى المحكمة ليحكم على متهم، وتارة نراه يحكم بين المتنافسين فى المباريات والمسابقات، وتارة أخرى يقوم بدور الممتحِن الذى يحكم بنجاح الطالب أو رسوبه، وتارة رابعة يحكم فى اختلاف بين متخاصمين. ما أخطرها من مهمة...

وربما كان تولى الإنسان مهمة «الحَكَم» من أكثر المواقف تجسيدًا للصفات الإلهية، وفى الوقت نفسه من أخطر هذه المواقف إن لم يعطها الإنسان حقها من العدل والإنصاف.

لذلك ما أسهل أن تعرج بنا هذه الصفة إلى الله «الحَكَم» المطلق ﷻ، الذى لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه. ومن ثم فالحقيقة هى: ﴿ ...إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف].

الإنسان العدل

يعيش كل منا حياته وكأنه يمشى على حبل، على جانبيه إفراط وتفريط، يجتهد ألا يُسقطه الجَوْر فى أحدهما، من ثم فالعدل يمتزج بكل تصرف للإنسان فيزينه.

وأول ما على الإنسان العدل فيه هو صفات نفسه؛ فيجعل الشهوة والغضب أسيرين تحت إشارة العقل والدين، ويستعمل كل عضو على الوجه الذى أذن فيه الشرع. وهذا هو **العدل الأكبر** تجاه نفسه، ألا يوردها المهالك فى الدنيا أو الآخرة.

أما عدله فى أهله وذويه، ثم رعيته ومرءوسيه ومن وُلِّىَ عليهم فأمره لا يخفى.

وللفيلسوف رينيه ديكارت برهان يُعرف (بالبرهان الأخلاقى) يقول فيه: «**إن شوقنا للعدل هو الدليل على وجود العادل**». فتَحَرُّق الإنسان لتحقيق ما ذكرنا من جوانب العدل، ورفضه التام لأن ينجو مجرم (مثل هولاكو وستالين وهتلر) بإجرامه لمجرد أنه مات أو انتحر، إن هذا الشوق والتحرق والرفض هى أقوى الأدلة على وجود الإله «**العادل**» **المطلق** ﷻ.

وبعد الحُكْم والعدل، نواجه أمامنا أحد سلوكين: إما الشكر وإما التجاوز.

خامسًا: منظومة الشكر

سبحان ربى...

الله ﷻ: الشكور

الإنسان الشكور

من الخصال الحميدة التى تزين الإنسان أن يكون شاكرًا للآخرين، وذلك بمجازاتهم بأكثر مما قدموه إليه، وإن لم يستطع فبشكرهم وبالثناء عليهم والدعاء لهم فى غيابهم.

ونحن حين نشكر الله ﷻ على عطاياه، فإننا فى غاية شكرنا مقصرين. فالله ﷻ هو الذى هدانا للشكر ويسره لنا. وغاية شكر نعم الله هو استخدامها فى الغاية التى من أجلها خُلِقَت، مع الإقرار بعجزنا عن القيام بحق شكر هذه النعم.

ولكن هل إدراك سلوك العبد الشاكر يعرج بنا إلى إدراك أن الله الخالق «شكور»؟ وكيف ذلك؟!

أن الله ﷻ شكور لأنه يجازى على يسيرِ الطاعات كثيرَ الدرجات، ويعطى بالعمل فى أيام معدودة نعيمًا فى الجنة غير محدود، كما يجازى بالحسنة أضعافها، ويثنى على المحسن. ومن ثم فقد جمع جوانب الشكر كلها، وأعطانا منها بعضها.

وبالرغم من أنه ﷻ صاحب العطاء الحقيقى، ومن ثم فهو الشكور المطلق، فقد أرشدنا إلى حقيقة آداب سلوك الشكر حين قال رسوله الكريم ﷺ: «لا يشكر الله مَن لم يشكر الناس»[1].

سادسًا: منظومة التجاوز

سبحان ربى...

الله ﷻ: الغفور الغفار . العفو . التواب

الرحمن الرحيم . الحليم . الكريم . البر . الصبور

هاتان مجموعتان من أسماء منظومة التجاوز،

المجموعة الأولى منها تحمل معانى التجاوز بشكل مباشر.

والمجموعة الثانية، تفيد التجاوز بشكل غير مباشر، وقد ناقشناها جميعًا فيما سبق، إلا اسمه ﷻ «الصبور».

الإنسان الغفور الغفار

من الناس من يستر على الناس عيوبَهم وسوآتهم، ولا يفشى من أخبارهم إلا أحسن ما فيها، إن الذى يغفر هو من يتغافل عن القبائح ويذكر المحاسن، **فَغَفَرَ تعنى غَطَّى وستر.**

وإذا كان ما جاء على وزن (فَعَّال) يفيد كثرة الفعل، كان **الغفار كثير المغفرة**. وما جاء على وزن (فَعُول) فينبئ عن جودة الفعل وكماله وشموله، لذلك كان **الغفور هو تام المغفرة والغفران.**

وترقى بنا مغفرة الناس للناس إلى مغفرة الله ﷻ ذنوب خلقه، بإسبال الستر عليها فى الدنيا، والتجاوز عن عقوبتها فى الآخرة.

فأول ما ستره الله على عبده أن جعل مقابح بدنه مستورة عن الناس.

وستره الثانى، أن جعل خواطره المذمومة وإرادته القبيحة لا يطلع عليها أحد.

وستره الثالث، عدم فضحه بذنوبه على ملأ الخلق فى الدنيا وفى الآخرة.

سبحان ربى «**الغفور الغفار**» ﷻ.

---

(١) رواه الترمذى والإمام أحمد.

الإنسان العفو

من الناس من يعفو عن كل من ظلمه، بل ويحسن إليه.

وليس لهذه المكرمة من مصدر إلا إله خالق «عفو»، عَلَّمَنا أن الغفران ينبئ عن الستر، وأن العفو ينبئ عن المحو، والمحو أبلغ من الستر.

الإنسان التواب

من الناس من بلغت سعة صدره مداها، فيقبل أعذار من أجرم فى حقه من مرءوسيه وأصدقائه ومعارفه مرة بعد أخرى.

وليس لهذا السلوك السامى من مصدر إلا خُلق الله ﷻ «التواب». فهو لا يكتفى بقبول توبة عباده عن ذنوبهم، بالرغم من معاودتهم المعصية مرة بعد أخرى، بل إنه ييسر لهم أسباب التوبة مرة تلو المرة.

الإنسان الصبور

إذا تجاذبك داعيان متضادان، كأن تتعجل ردَّ الإساءة أو تمتنع، فتوقفت عن الرد وآثرت الامتناع، فأنت صبور، إذ قهرت داعى التعجل.

وإذا كان صبر المرء يستدعى فى أذهاننا صبر الرب باعث الصبر فى نفوسنا، فهل الله ﷻ يتنازعه داعيان؟!

إن إلهنا ﷻ «صبور» باعتبار أن العجلة لا تحمله على المسارعة إلى فعل قبل أوانه، فيُنزل الأمورَ منازلها، لا يؤخرها ولا يقدمها. وأهم مظاهر صبر ربنا ﷻ؛ صبره على العصاة والجاحدين من خلقه، ورزقه إياهم، وتغمدهم بعنايته ورعايته.

سابعًا: منظومة السلوك الاجتماعى

سبحان ربى...

الله ﷻ: الودود

الرحيم . اللطيف . الحليم . الكريم . الغفار[1]

يعتقد الكثيرون أن أُمَّتىّ النمل والنحل أكثر اجتماعية منا نحن البشر؛ حيث إن تجمعاتها أكثر عددًا وكثافتها أعلى وتجمعاتها ألصق، كما أن توزيع المسئوليات بين أفرادها أكثر صرامة.

---

(١) عرضنا هذه الصفات الخمس فيما سبق.

لكن الدراسات المقارنة بين المجتمعات البشرية ومجتمعات هذه الأمم أثبتت تميز مجتمعاتنا بما يعرف «بالوعى الاجتماعى العميق». فإذا كانت نشاطات مجتمعات النمل والنحل تتم بشكل غريزى، فإن نشاطات المجتمعات البشرية تتسم بالوعى العقلى الكامل لكل إنسان بدوره فى خدمة الجماعة، عن رضا وقبول حر.

وقد اقتضى هذا التعامل الواعى وضع منظومة إنسانية أخلاقية تحكمه وتحافظ عليه فى الاتجاه الصحيح.

الإنسان الودود

من الناس من يريد للآخرين مثل ما يريد لنفسه من خير، بل ويؤثرهم على نفسه، فيحسن إليهم ويثنى عليهم، وهذا هو الود الصافى.

وقد كان لخُلُق الوُدْ دور كبير فى رحلة تحول د. **عبد الوهاب المسيرى** - رحمه الله - من الإلحاد إلى الإيمان! فعندما أحب الشاب المسيرى فتاته هدى (د.هدى زوجته فيما بعد) لفته ما يمازج عاطفة الحب من إيثار المحبوب. كذلك عندما رُزِقا بطفلتهم نور هاله ما فى **علاقة الأمومة** من إنكار ذات وإيثار. عندئذ تنبه د.المسيرى إلى أن المنظومة المادية تعجز عن تفسير خُلق الإيثار الذى هو من مكونات الوُدْ، عندها تأكدت عنده ثنائية الإنسان؛ جسد مادى وروح غيبية. فأدرك د. المسيرى عجز المنظور المادى عن تفسير الظاهرة الإنسانية. وكان هذا المفهوم هو **دافعه الأكبر للخروج من حظيرة الإلحاد إلى دائرة الإيمان.**

والودود قريب من الرحيم، لكن أفعال الرحيم تستدعى مرحومًا ضعيفًا، أما أفعال الودود فلا تستدعى ذلك، بل يأتى الخير على يدىّ الودود بتلقائية وعفوية لكل خلق الله.

ولا شك أن هذه الصفة الإنسانية تتميز بكمال لا يتحقق فى معظم الصفات الأخرى، وهو **عدم انتظار عائد أو عِوَض.**

وهذا السلوك الكامل لا يمكن أن يأتى كإفراز لمفهوم الصراع من أجل البقاء، لذلك أَعْجَزَ تفسير هذا السلوك أصحاب نظرية التطور الداروينى، ومن ثم لا يمكن أن ينشأ الوُد إلا كعطاء من إله خالق «ودود» سبحانه.

معجزة الأمومة

تأسرنى الأمومة دائمًا، سواء أمومة البشر أو غيرنا من الكائنات. وتُمْتِعُنى كثيرًا مراقبة سلوك الأمهات المحيطات بى فى عائلتى وجيرتى ودائرة عملى.

وتبدأ ملامح الأمومة برعاية الطفلة لعرائسها وللأطفال حديثى الولادة فى أسرتها، تمامًا كما تفعل الأم بأطفالها، ويظل هذا السلوك ملازمًا للطفلة حتى تكبر وتتزوج، ويتزايد شوقها لأن تصبح أمًا، ويتحول الشوق إلى قلق إذا تأخر هذا الحدث السعيد.

وما أن يقع الحمل، تبدأ سلسلة المتاعب الجسدية والنفسية والأرق، وتعانى أم المستقبل الأَمَرَّين. وإذا كانت الولادة ذروة هذه المعاناة، فإن المعاناة لا تنتهى، بل تستمر، ليس فقط حتى يشب الأولاد عن الطوق، بل تستمر رعايتها لهم وقلقها عليهم ثم على أحفادها إذا ما امتد بها العُمر.

ويحدثنا المفكر الإسلامى الكبير د. عبد الوهاب المسيرى رحمه الله عما اعترى حياة زوجته وحياته من انقلاب بعد أن شَرَّفت طفلتهما. لقد تنازلت الأم عن كل طموحاتها العلمية والدراسية والزوجية لصالح هذا الضيف الجديد، وتبدل نظام البيت لتدبير الغرفة اللائقة بالطفلة نور، كما تبدل جدول المعيشة ليحقق الملاءَمة المناسبة مع الساعة البيولوجية للصغيرة! متى ترضع،، متى تنام، متى تبدل الحفاضات...

والمدهش الذى ينبغى التوقف عنده هو أن الأم طوال فترات المعاناة تكون فى سعادة غامرة!! وإن خَيَّرتَهَا أن يرتفع عنها هذا العناء بمن يقوم عنها بواجباتها لأبت معظم الأمهات.

لا شك أن الأمومة أكثر العلاقات الإنسانية التى تتجلى فيها «أخلاق الجمال». فإذا بدأنا بتدبير الغذاء، ظهرت لنا الرعاية فى كل مراحل النشأة الجنينية وما يتبع الولادة. فبويضة الأنثى محاطة بما تحتاجه من مواد غذائية، ويستمر حصول الجنين على غذائه عن طريق جدار الرحم ثم عن طريق الحبل السُّرى. وما أن يُولد الصغير حتى يحصل على غذائه بالرضاعة من ثَدْيَى أمه. وعندما يعود الصغير من حضانته ثم مدرسته يجد الأم قد أعدت له ما يشتهى من الطعام. كل ذلك عطاء يحصل عليه الجنين ثم الصغير دون تدبير منه ولا من الأم، بل يحصل عليه على حساب بنية جسم الأم وحالتها الغذائية من خلال ذلك كله يتجلى:

العطاء: تعطى الأم ما تعطيه لجنينها ثم لطفلها بفطرية وتلقائية.

الرزق: يحصل عليه الصغير دون تدبير أو جهد.

الإيثار: تقدم فيه الأم مصلحة صغيرها على مصلحتها بكل رضا وسعادة.

ولا تظهر ثلاثية: «العطاء والرزق والإيثار» من خلال عملية التغذية فقط، بل إن ما تقدمه الأم من جهدها ووقتها وسهرها لا يقل، بل يزيد،عما تقدمه فى منظومة التغذية.

كذلك تُعتبر الأمومة المجلى الأكبر لثلاثية «الود والحنان والرحمة». انظر إلى السيناريو الصامت الذى يدور بين الأم وطفلها:

« تقع فى أثناء الرضاعة عشرات الأحداث المثيرة. إن الطفل يمتص حَلَمَة الثدى، يعتصرها، يعضها، يستريح، يتركها، يدفعها بلسانه، يلتقطها مرة أخرى، ينعس، يُفيق، يتثائب، يبتسم، يبكى، يصرخ، يفتح عينيه، يَذُرُّهما، يكشر، يسترخى.

والأم تتجاوب وتتفاعل مع كل إشارة يصدرها طفلها، فتارة تهدهده، وتارة ترفعه، وتارة تخفضه، وتارة تبتسم، وتارة تُحَمْلق فيه، وتارة تخاطبه وتناغيه وتارة تُربِّت عليه، وتارة تنفعل، وتارة تهدأ. ما أعجب هذا الحوار بين الأم والطفل والذى يفهم فيه كل منهما إشارات الآخر ويستجيب لها ».

أين الرجل من مثل هذا الحوار الصامت؟.

يا له من ود، يا له من حنان، يا لها من رحمة...

وتستمر الأم فى ممارسة صفات الجمال طوال حياتها تجاه أطفالها الذين يكبرون فى أحضانها وأمام عينيها.

وصدق من وصف الأم بأنها الحاضنة وقت الحمل، والمرضعة عند الجوع، والممرضة عند المرض، والرفيقة عند اللعب، والمدرسة والخادمة والخاطبة، وجليسة الأحفاد. سبحان من جعل الجنة تحت أقدامهن.

أى شرف للأم أن خصها الله ﷻ بأن تكون مجلى للكثير من صفات الجمال الإلهى. وقد عبر رسول الله ﷺ عن هذا المعنى فى الحديث: (... أترون هذه المرأة ملقية ولدها فى النار. قالوا: لا يا رسول الله. فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»)[1].

---

(١) رواه عمر بن الخطاب ـ صحيح البخارى.

ولا يقف عطاء الأمومة عند البشر، بل يتجلى أيضًا فى الطيور وباقى الثدييات، إنها الأمومة الشاملة التى تحير العقول، والتى لا يمكن إلا أن تكون عطاءً إلهيًا. وقد عبر رسول الله ﷺ عن هذا المعنى قائلًا: «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[1].

كما أن الحديث الشريف بيان صريح لكيف أن أخلاق الجمال ليست إلا استمدادًا من صفات الجمال الإلهى.

لذلك فالأمومة خير مجلى لصفات الجمال الإلهى تلك...

إنه الإله «الرازق» «الرزاق» «المعطى» «الوهاب» «الهادى»

«الودود» «اللطيف» «الرحمن» «الرحيم».

لا شك أن منظومة «أخلاق الجمال» من أعقد المفاهيم التى تُعجز نظرية التطور الداروينية عن التفسير. فالتطور الداروينى الذى يوجهه الانتخاب الطبيعى بعد طفرات عشوائية لا يُنتج إلا أخلاق التنافس والصراع، ولا يُنتج إلا أمثال هولاكو وهتلر وستالين، كما أقر بذلك ريتشارد دوكنز زعيم الملاحدة الجدد.

إذًا كيف نشأت «أخلاق الجمال»؟

لم يعد لهذه المنظومة من مصدر إلا الإقرار بالإله الخالق.

ولن يكون لمنظومة أخلاق الجمال من وجود ما لم يتمتع الإله الخالق بهذه الأخلاق.

صفات الجلال

لا شك أن السلوك الإنسانى ليس كله «صفات جمال».

فلا شك أن الجنود يسلكون بعدوانية تجاه أعداء الوطن، وأحيانًا نتصرف بقسوة مع أولادنا، ويتصرف بعضنا بعنف تجاه مرءوسيهم الذين يقصرون فى أعمالهم، وهذه بعض الجوانب الإيجابية من صفات الجلال.

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم.

وهذا لا يمنع أن لهذا السلوك جوانبه السلبية، فنجد من يتصرف بعداونية وقسوة وعنف فى غير موضعهم، كما قد تتسم شخصيته بتجاوزات جلالية غير مقبولة، كالتكبر والتعالى.

وإذا كان ما يمارسه الإنسان من صفات جمال تُجَلِّى صفات الجمال الإلهى، فهل تُجلى صفات الجلال فى الإنسان صفات الجلال الإلهى؟

الإجابة: نعم.

فالإنسان يمارس صفات الجلال فى تعاملاته مع الأعداء، والشيطان، والنفس الأمارة بالسوء ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ... (٢٩) ﴾ [الفتح]. وإذا كان ما يمارسه الإنسان من جلال (تكبر واستعلاء واستعظام) فى تعاملاته مع المسالمين يُعتبر سلوكًا سلبيًّا، فذلك لأنه لا يتمتع بحق بتلك الصفات، إذ يدعى ما ليس له. ولكن تُعتبر نفس هذه الصفات فى حق الله ﷻ كمالات، لاستحقاقه ما تعكسه عن عظمة وعزة.

وإذا تأملنا أسماء الجلال من أسماء الله الحسنى وجدناها تنقسم إلى مجموعتين أساسيتين، مجموعة منها تأتى مقترنة بأسماء الجمال المقابلة، كـ: القابض الباسط - الخافض الرافع - المعز المذل - المحيى المميت - المقدم المؤخر - الضار النافع، وكلها أسماء أفعال. وفى هذه المجموعة يحقق الاقترانُ التنزيَه اللائق بالله ﷻ حتى لا يوصف بما يُتوهم منه الإضرار بمخلوقاته، وحتى يحقق تأكيد طلاقة القدرة من خلال الربط بين النقيضين. لذلك ينبغى عند تأمل هذه الصفات رؤيتها فى إطار الصفات الجمالية المقابلة.

والمجموعة الثانية تشمل أسماء الجلال التى تأتى منفردة. وهذه قد تدل على الذات؛ مثل المتكبر، العظيم، العزيز، الجليل، الحق، المتعالى. وقد تدل على أفعال، مثل القهار، المنتقم، المانع.

وهناك مجموعة صغيرة تجتمع فى الاسم الواحد منها معانى الجمال والجلال، وهى: الجبار، وذو الجلال والإكرام.

وسنقوم فيما تبقى من الفصل بتأمل سلوكيات ومشاعر الإنسان الجلالية، لنرصد من خلالها ما يتيسر من صفات الجلال الإلهية.

أولًا: منظومة صفات الأفعال المقترِنة

سبحان ربى...

القابض . الخافض . المذل . المؤخر . الضار . المميت.[1]

الإنسان القابض

من الناس من يثير تعاملك معه قبضًا فى النفس والقلب، فتضيق صدورنا، وتصبح الدنيا فى وجهنا أدق من سَم الخياط. وقد يعترى حالُ القبض النفسَ دون سبب ظاهر.

وقد نعانى قبضًا حِسيًّا، فنشعر بألم فى صدورنا، أو ضيق فى التنفس أو تقلصات فى البطن.

وقد يعيش الإنسان فى ضائقة مالية، تجعله يستدين، ويستشعر الهمَ بالليل والذلّ بالنهار.

إن ما نستشعره وما يسببه هؤلاء من ضيق وقبض للآخرين لا يكون إلا تجليات لسبب أول يتمتع بصفة القابض.

سبحان ربى «**القابض الباسط**» ﷻ.

الإنسان الخافض

بعض الناس يكون سببًا فى إفشال الآخرين والحط من قدرهم، سواء كان هذا قصدًا أو عن غير قصد.

ولا شك أن النفس السوية تنسب هذا الفعل السلبى إلى سوء خُلق هؤلاء الأشخاص، وقد ينسبه البعض إلى الشيطان الرجيم. ولكن إذا نظرنا إلى الحقيقة، لا يكون وراء كل ما يقع فى الوجود (بجماله وجلاله) إلا الله ﷻ.

فسبحان الله «**الخافض الرافع**» ﷻ.

الإنسان المذل

من المؤمنين من يهتم بمجاهدة نفسه الأمارة بالسوء لإذلالها وإلزامها التخلى عن الأخلاق الدنية، ويجتهد ليرقى بنفسه إلى مستوى النفس اللوامة، ثم الآمنة المطمئنة. وهؤلاء بسعيهم هذا يذلون الشيطان الذى يأمرهم بالفحشاء والمنكر.

---

(١) ينبغى تأمل هذه الصفات الإلهية الجلالية فى إطار الصفات الجمالية المقابلة. لكننا هنا ذكرناها منفصلة لأننا نتأمل وجودها فى الإنسان.

ولا شك أن الجندى المخلص فى ميدان القتال، والسياسى البارع فى ميدان السياسة يسعون لهزيمة أعدائهم وإذلالهم. وهذه كلها جوانب إيجابية لصفة المذل.

وفى الوقت نفسه، هناك قلة من الناس يعانون اختلالًا نفسيًا، يسعون لإذلال الآخرين من أهليهم والمحيطين بهم، وربما يتلذذون بذلك.

ولا شك أن كل هذه الصور بإيجابياتها وسلبياتها ليس وراءها إلا خالق واحد، حتى وإن نسبنا السلبى منها لسوء أخلاقنا أو لفعل الشيطان الرجيم.

فسبحان ربى «المعز المذل» ﷻ.

الإنسان الضار

يتسبب بعضنا فى الأذى للآخرين وينزلون بهم الضرر، عن قصد أو غير قصد.

وإذا كنا - تنزيهًا لله - ننسب إنزال الضرر إلى بعضنا البعض، فتلك القدرة لا بد لها من مصدر أول لا يقع شىء فى الوجود إلا بإذنه.

فسبحان الله «النافع الضار» ﷻ.

الإنسان المؤخر

عندما يغضب الملوك وذوو الشأن على إناس من تابعيهم فإنهم يؤخرونهم فى المنزلة، وبالتبعية يؤخرونهم فى المجلس فى حَضْرَتهم.

ونجد من يسعى لإفشال الآخرين من منافسيهم، سواء فى الدراسة أو المسابقات أو السلك الوظيفى، فيجتهدون فى تأخيرهم وتعطيل تقدمهم.

وهل وراء هذه الصفة - فى الحقيقة - مهما بدت غير مقبولة، إلا الله ﷻ.

فسبحان ربى «المقدم المؤخر» ﷻ.

الإنسان المميت

من الناس من يحترف القتل، سواءً للقصاص، كمن ينفذون أحكام الإعدام، أو من يبيعون ضمائرهم للآخرين ليخلصونهم ممن يكرهون.

ومن الناس من يقتل خطأً، كجراح يُقَصِّر فى إجراء الجراحة، أو سائق مسرع يقتل عابرًا للطريق.

وفى التاريخ أشخاص شياطين، كهولاكو وهتلر وستالين، تسببوا فى إزهاق عشرات الملايين من النفوس البشرية.

إن هؤلاء جميعًا وغيرهم ليسوا إلا صورًا لاسمه ﷻ «المميت»، الذى جعل ملك الموت، وهؤلاء، واسطة بينه وبين هذا الفعل الذى لا ترتاح إليه نفوسنا.

فسبحان ربى «المحيى المميت» ﷻ.

ثانيًا: منظومة صفات الجلال الفعلية

سبحان ربى...

الله ﷻ: القهار ـ المنتقم ـ المانع

الإنسان القهار

القهر صفة يتخلق بها بعض الناس.

فنرى فى حياتنا من يظلم الآخرين ويقهرهم.

ومنهم من يسعى لقهر أعداء وطنه ودينه وأسرته.

ومنهم من يسعى لقهر أعدى أعدائه، وهى نفسه التى بين جنبيه، التى يتخذها الشيطان وسيلة للإيقاع به.

ومن ثم، فالقهر صفة إيجابية وسلبية، ينبغى أن تكون مستَمَدَّة من إله «قهار» يقصم ظهور الجبابرة من أعدائه.

الإنسان المنتقم

نعرف فى صعيد مصرنا (وأماكن مماثلة من العالم) عادة الثأر البغيضة، التى يسعى فيها أهل القتيل للانتقام من قاتله أو من أهله.

ونرى فى حياتنا من ينتقم لشرفه وكرامته إذا أُسيء إليه.

والانتقام المُشَرِّف هو ما يمارسه الصالحون من نفوسهم الأمارة بالسوء إذا أذنبت. فيفرضون عليها من العقوبات ما يردعها ويردها إلى طريق الصواب.

والمنتقم المطلق، الذى هو مصدر هذه الصفة فى الإنسان، لا يكون إلا رب العالمين «المنتقم» ﷻ. فهو الذى يقصم ظهور العتاه، وينكل بالجناه، ويشدد العقاب على الطغاه، بعد الإعذار والإنذار،وبعد التمكين والإمهال.

الإنسان المانع

الناس فى المنع على شاكلتين؛ مانع للضُر ومانع للخير!

فالأطباء يسعون لدفع المرض عن البشرية، وذلك بالتطعيمات واللقاحات والعلاجات والتحذيرات والإرشادات.

والوالدين يسعون لدفع السوء والضرر عن أبنائهم، فيتابعونهم ويوجهونهم فى حياتهم، ويحذرونهم صحبة السوء وكل ما يضر بهم.

وأهل الخير، يسعون دائمًا للخير ومنع الضر عمن يعرفون ومن لا يعرفون.

أما مانعو الخير، فكل حاقد وحاسد ومغتاظ، من تغلبه طبائعه الدنيئة، فيقف فى طريق الخير للآخرين، بل ويتجاوز ذلك فيعمل على إنـزال الضُّر بهم.

و«المانع» المطلق، الذى يستمد منه البشر تلك الصفة الجلالية، هو الذى يَرُّد أسباب الهلاك والنقصان فى الأديان والأبدان، بما يخلقه من أسباب الحفظ والنجاة.

ثالثًا: منظومة صفات الجلال الذاتية

سبحان ربى...

الله ﷻ: الحق

العلى . المتعالى . المتكبر

العظيم . العزيز . الجليل

الإنسان الحق

ترى القضاة فى ساحات العدالة وهم يُلزمون الشهود بالقَسَم ألا يقولوا إلا الحق. كما نرى القضاة يحرصون ألا يحكموا إلا بالحق.

وكل من أُوكلت إليه مهمة الحكم، كحكام المباريات والممتحنين للطلبة وكل من تولى أمرًا، يحرص ألا يحكم إلا بالحق ولا يعمل إلا الحق.

ويَعتبر كلُّ من يتبنى الفكر المادى أن لا حق إلا ما يدركه بحواسه، وقد أوقعهم ذلك فى العجز عن تفسير الكثير من الظواهر الطبيعية والإنسانية.

ويظن معظمنا أن وجوده المادى فى هذه الحياة هو الوجود الحق، وما سواه باطل!

أما أهل البصائر، فيرون أنفسهم باطلًا، أو يعتبرونها وجودًا مستمَدًا من وجودٍ حقٍّ مطلقٍ، وهو الله ﷻ.

وقد كان تشريفًا للحق أن يُسَمَّى باسم من أسماء الله ﷻ، الذى لولاه ما كان الحق، ولا كان الوجود.

فسبحان ربى «الحق» ﷻ.

الإنسان العلى . المتعالى

العلى هو الذى لا رتبة فوق رتبته.

والعلو أنواع، إما علو فى درجات محسوسة، كالأماكن المتدرجة فوق بعضها، أو علو غير مادى، كتفوق طالب على باقى الطلبة، أو علو رئيس عمل على مرءوسيه، أو تدرج الرتب عند العسكريين، وكعلو الإنسان على باقى الكائنات.

وقد يكون علوًا فى الرُّتب المعقولة؛ كعلاقة السبب والمسبَّب، والعلة والمعلول، والفاعل والمفعول، والكامل والناقص.

ونحن فى حياتنا نرصد كل هذه الأنواع من العلو، ويصل بنا إدراك وتأمل هذا التدرج إلى علو مطلق، ولا يكون ذلك إلا لله «العلى» ﷻ الذى ليس فوقه درجة.

و«المتعالى» بمعنى «العلى» مع المبالغة فى الدرجة. فهو المستعلى على كل شىء بقدرته، العَلِيُّ الكامل فى العلو والعظمة، البالغ الغاية من الرفعة والكبرياء، فى ذاته وصفاته وأفعاله.

الإنسان المتكبر

المتكبر هو الذى يرى الكل حقيرًا مقارنة بذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه. فإن كان ذلك حقًّا كان تكبره مقبولًا، وإن كان باطلًا كان تكبره مذمومًا.

فما موقف الإنسان من هذا الميزان؟

يتكبر المتنافس، فى معركة أو فى رياضة، على خصمه، حتى يوقع فى قلبه الوهن والخوف منه.

ويتكبر الزاهد العارف على شهوات وحظوظ الدنيا التى تشغله عن الله الحق.

أما التكبر المذموم، فهو ما يمارسه بعض المغرورين المخدوعين بأنفسهم، فيظنون أنهم خير من الآخرين. وما أورد الشيطان الرجيم المهالك إلا هذه الخطيئة الكبرى.

وإذا قسنا بالميزان السابق، لا يكون هناك متكبرًا بحق، وهو الممد بالتكبر عند الخلق، إلا الله «المتكبر» ﷻ.

الإنسان العظيم

العظيم من الناس من إذا عرف العاقل شيئًا من صفاتهم امتلأ بالهيبة صدره وقلبه، حتى لا يبقى فيه متسع. فالنبى عظيم فى حق أمته، والشيخ فى حق مريده والأستاذ فى حق تلميذه، إذ يعجز هؤلاء عن الوصول إلى مقام أولئك. فإن ساووهم لم يكونوا عظماء فى نظرهم.

ولا شك أن «العظيم» المطلق هو الذى تُستَمَد منه هذه العظمة، ولا تحيط العقول بكنه حقيقته بل تَقْصُر عنها.

الإنسان العزيز

العزيز هو الذى تشتد الحاجة له، ويقل وجود مثله، ويصعب الوصول إليه. كالماء فى الصحراء بالنسبة للمسافر الذى نفد ماؤه، وكالجراح المتخصص فى جراحات دقيقة بالنسبة للمريض. وكالأنبياء والهداة الذين يحتاج إليهم عباد الله فى أهم أمورهم؛ وهى الحياة الأخروية والسعادة الأبدية.

ولا شك أن كل عزيز فى حياتنا هو عزيز نسبى. فالماء ليس عزيزًا بالنسبة لسكان المدن، والجراح المتخصص ليس عزيزًا بالنسبة للأصحاء، وهكذا.

ومن ثم ليس «عزيز» مطلق، يُستمد منه كل عزيز منزلته إلا الله «العزيز» ﷻ.

الإنسان الجليل

الجليل هو من يتمتع بصفات الجلال، وهى العز والملك والعلم والغنى والقدرة والعلو وغيرها. وإذا كانت هذه صفات هيبة ورهبة بين الخلق، فإن من يُقَدِّرون الرجال حق قدرهم يدركون أنها صفات جمال، فيحتل هؤلاء فى نفوسهم منازل عالية.

وبالمثل، فالجليل المطلق، هو الذى يتمتع بصفات الجلال إلى أقصاها، وهو مصدر هذه الصفات بين خلقه، وما هو إلا الله «الجليل» ﷻ.

رابعًا: منظومة صفات جمال وجلال

لا شك أن الصفات الإلهية مجتمعة، بجمالها وجلالها، تقرب إلينا ما عليه الله ﷻ من كمال. كما أن المجموعة الأولى من صفات الجلال، التى تقترن فيها الصفة بمقابلها (كالمعز المذل - الخافض الرافع) تحقق لنا إدراك الكمال الإلهى.

كذلك فإن هناك من الصفات الإلهية ما يجمع بين الجمال والجلال فى صفة واحدة وأهمها الجبار، وذو الجلال والإكرام.

الإنسان الجبار

يمر علينا هذا الاصطلاح عند الحديث عن أشخاص تفردوا بعلو الرتبة، يجبرون الخلق على فعل ما يريدون، وتَنْفُذ مشيئتهم جبرًا فى كل من حولهم، ولا تنفذ فيهم مشيئة أحد. سواء كان ذلك ملكًا أو أميرًا أو زعيمًا، أو طاغية قزم يترأس مؤسسة صغيرة.

ويقابلنا الاصطلاح نفسه (بمفهوم جمالى) عند الحديث عن جماعة من الناس يقومون بإصلاح كسور العظام عند المصابين، ويُطلق على الفرد منهم «مجبراتى». ومن وجه الجمال أيضًا جاء اصطلاح جبر الخاطر.

والجامع لهذه الأفعال إلى أقصاها، والواهب إياها للبشر، ليس إلا الله «الجبار» ﷻ. الذى يخضع لعظمته كل شىء، الذى تنفذ مشيئته فى كل أحد، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد، قاصم ظهور الجبابرة، وجابر خواطر من ظلموهم وكسروهم.

الإنسان ذو الجلال والإكرام

من الأمثال الشائعة عند العرب؛ اتق شر الحليم إذا غضب. ويبين هذا المثل، أن هذا الإنسان يجمع بين جمال الحلم وجلال الغضب.

ولا شك أننا كل حين نلقى شخصًا من هؤلاء، يجعلنا نستحضر اجتماع الجمال والجلال.

وإذا ارتقينا بهذا الاجتماع إلى مستوى الحضرة الإلهية، قابلنا اسم الله الأعظم «ذو الجلال والإكرام» الذى يجمع بين الجلال وجمال الإكرام. وقد أمرنا الرسول الكريم ﷺ أن: ألظوا بـ«يا ذا الجلال والإكرام»[1]، أى أن نلوذ بهذا الاسم عند النوازل.

---

(١) رواه الترمذى والنسائى، وصححه الحاكم.

استعرضنا فيما مضى بعضًا من المشاعر والسلوكيات الإنسانية، بعضها صفات جمال والبعض الآخر صفات جلال، وتتبعنا بعض المواقف التى تظهر فيها هذه المشاعر وهذه السلوكيات. ثم انتقلنا من هذه الصفات إلى السبب الأول الذى هو مصدرها، فوضعنا أيدينا على ما يقابلها من أسماء وصفات إلهية.

وبذلك تتكامل[1] منظومة قراءة صفات الله ﷻ فى الكتاب المنظور (الوجود)، من خلال هذه الصفحة من صفحاته؛ وهى الإنسان، هذا الكائن الذى خُلق ليكون أهلًا لأن يتخلق بأخلاق الله[2].

مَن عَرِفَ نفسه عَرِفَ رَبَّه

«من عَرِفَ نفسه عَرِفَ رَبَّه»، الأرجح أنه قول لحكيم العرب يحيى بن معاذ. ويرى الشُّرَاح لهذا القول معانى شتى، منها أن الأمور تُعرَف بأضدادها. فمن عَرِفَ ضَعفَ نفسه عرف ربَه بقوته، ومن عرف عَجْزَ نفسه عرف ربَه بقدرته، ومن عرف فَقْرَ نفسه عرف ربَه بغناه، ومن عرف جَهْلَ نفسه عرف ربَه بعلمه... ومن ثَمَّ، إذا عرفنا أنفسنا بكل ما فيها من نقائص ومحدودية، عرفنا بعض ما عليه ربنا من كمالات وإطلاق. وفى ذلك يقول ابن عطاء الله السكندرى فى حِكَمِه: **تحقق بأوصافك يَمُدُّك بأوصافه، وتحقق بذُلِّك يَمُدُّك بعزته، وتحقق بعجزك يَمُدُّك بقدرته، وتحقق بضعفك يَمُدُّك بحوله وقوته.**

ويرى آخرون، أن الله ﷻ قد أعطى الإنسان شيئًا من صفاته؛ فأعطاه من علمه، وحلمه، وغناه، وقدرته، وإرادته، وصبره... مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه الصفات فى حق الله ﷻ ذاتية كاملة مطلقة، أما فى حق الإنسان فهى مُعَارة ناقصة، محدودة كمًّا وكيفًا.

وقد كان منْح اللهُ ﷻ الإنسانَ شيئًا من صفاته أمرًا ضروريًّا، حتى تتحقق معرفة الإنسان بربه، وهى الغاية القصوى من الخلق. ذلك أن إدراكنا لمعانى أسماء الله ﷻ وصفاته لا يكون إلا إذا مارسنا وتذوقنا هذه الأسماء والصفات. فكيف ندرك معنى اسم الله «الحليم» ما لم نكن قد مارسنا الحلم، وكيف ندرك معنى اسمه ﷻ «المريد» ما لم نمارس حرية الإرادة، وكيف ندرك معنى اسمه «الرحمن الرحيم» ما لم نمارس الرحمة. لذلك جاء فى الحديث الصحيح:

---

(١) الكمال لله وحده، أما التكامل فيكون تبعًا لقدرة الإنسان القاصرة.

(٢) تخلقوا بأخلاق الله... صحيح البخارى.

من لا يَرْحَمُ لا يُرحَمُ [1]، أى إذا أردنا أن نُعَامَل بصفة الله ﷻ (الرحمن الرحيم) علينا أن نتخلق بالرحمة التى هى صفته ﷻ.

كذلك كان حصول الإنسان على بعضٍ من صفات الله ﷻ أمرًا ضروريًّا للقيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض، فكيف يقوم جاهل عاجز مسلوب الإرادة بحق الخلافة من الله، أليس من الحتمى أن يكون للمستخلَف بعض صلاحيات من استخلفه؟ من ذلك نفهم لماذا جعل الله ﷻ تسيير شئون الكون من خلال قوانين وضعها وألزم مخلوقاته بالخضوع لها، وقام فى الوقت نفسه بكشف هذه القوانين للإنسان تدريجيًّا حتى يتسنى له استغلالها فى التعامل مع الطبيعة.

القارئ الكريم

تماشيًّا مع منهجنا فى الفصول السابقة، انطلقنا فى هذا الفصل من قراءتنا للإنسان، باعتباره جزءًا من الوجود، فوضعنا أيدينا على بعض الأسماء والصفات الإلهية المسئولة عن خَلْق الإنسان، ثم المسئولة عن المشاعر والسلوك الإنسانى.

الصفات الإلهية وخلق الإنسان

لا شك أن صفة «الخالق» هى أول الصفات الإلهية المسئولة عن خلق الإنسان، سواء كان الخلق خلقًا مباشرًا أو خلقًا تطوريًّا موجهًا، فمجرد وجود الإنسان يتطلب الإقرار بالإله الخالق. وإذا كانت بضدها تُعرف الأشياء، فإن ما يتميز به الإنسان من ثنائية يُجَلِّى صفة الإله «الواحد»، ويؤكد هذه الصفة أيضًا أن كل إنسان وجود متفرد ليس له نظير بين البشر.

ولما تأملنا نشأة الصفات العقلية، لم نجد مصدرًا لما يتمتع به الإنسان من إدراك وفهم وقدرة على التفكير إلا إله «حكيم» «عليم» «خبير» «محصى» «محيط». وبالرغم من هذه القدرات العقلية العالية، فإنها تتلاشى فى لحظة واحدة حين يخر الإنسان صريع النوم! ومن ثم كان إلهنا الذى لا تأخذه سنة ولا نوم إلهًا «قويًّا» «قادرًا».

وفى متتالية المخ ـ العقل ـ الروح، نلاحظ أن السابق منها (المخ) يمثل ظاهرًا لباطن تال له (العقل). وهذا العقل الذى هو باطن يصبح ظاهرًا للروح الأكثر بطونًا، وهكذا فى جميع منظومات المخلوقات، فسبحان الله الذى يقف وراء هذا المفهوم باسمه «الظاهر» «الباطن».

(١) رواه البخارى.

ولا شك أن حرية الإرادة الإنسانية من أهم ما يميز نشاطاتنا العقلية، وقد أثبت العلم الحديث خطأ مفهومى الحتمية البيولوجية والحتمية التربوية، كذلك فإن الحتمية الفيزيائية التى تنطبق على الجسد الإنسانى لا تنطبق على العقل الإنسانى. ومن ثم كانت حرية الإرادة الإنسانية أكبر مجلى لاسم الله «المريد» ﷻ.

ويأتى «العلم» كأحد أهم النشاطات العقلية للإنسان، وتشهد البشرية انفجارًا علميًّا ومعلوماتيًّا هائلًا كل يوم، ولا شك أن خالق الإنسان الذى زوده بالرغبة الجارفة فى طلب العلم وبآليات تحصيله هو الله ﷻ «العليم» «الخبير» «المحصى» «المحيط». كذلك كان تمتُّع ربنا بصفتى «السميع» «البصير» من لوازم هذه الأسماء، وأيضًا من لوازم متابعته لمخلوقه الإنسان ولقيوميته عليه.

ولما كان تمتع الإنسان بمنظومة «الألوهية والدين والأخلاق» (خاصة خلق التعاطف والإيثار) من أكثر القضايا تعجيزًا للدراونة والفرويديين، إذ تتعارض تمامًا مع الأسس التى قامت عليها نظرياتهم، لم يعد من تفسير هذه المنظومة إلا أنها هبة من الإله «الهادى» «الوهاب».

وإذا كان توازن ودقة منظومات الطبيعة من أهم ما يميز منظومة الكون والأرض والحياة، فإنها بلا شك تميز أيضًا الوجود الإنسانى والنفس البشرية، ولا يقدر على هذا الضبط الدقيق إلا إله «كل شىء عنده بمقدار».

ومن أهم عناصر التوازن فى الوجود، علاقة الأسباب بالنتائج، فهى الأساس لكل قوانين الطبيعة، بل تقوم عليها حياتنا بعد البعث من الموت ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة]. وعلى علاقة الأسباب بالنتائج تقوم معظم براهين الألوهية، فسبحان الله ﷻ الذى ألزم نفسه بالسببية.

ولا شك أن ظاهرة «الكلام» تُعتبر معجزة تفوق (فى رأيى) ما طرحته الكتب السماوية من معجزات! وقد أثبتت علوم اللغويات الحديثة أن لغة البشر لا يمكن أن تكون تطورًا عن وسائل تواصل الرئيسيات الأدنى، واعتبرت أنها «انبثاق» جديد تمامًا. ويتبنى كارل بوبر فيلسوف العلوم الأشهر أن مفهوم «الانبثاق» العلمى لا يختلف عن مفهوم «الخلق» الدينى. ومن ثم صار القول بإله يتمتع بهذه المَلَكة ووهبها للإنسان من بديهيات الفكر، فسبحان ربى «المتكلم».

والمتأمل لظاهرة الجمال يدرك أن نشأة الحس الجمالى للإنسان أمر شديد التعقيد ويخضع لقوانين دقيقة، ويُعتبر دليلًا قاطعًا على التصميم الذكى الذى لا يقدر عليه سوى إله «خبير» «حكيم» «قادر». فسبحانك ربى، «جميل تحب الجمال».

كذلك رأينا أن كل ما ميز الإنسان من صفات عقلية تعكس بعض الصفات الإلهية هو إبداع جديد لا يشاركه فيه كائن من الكائنات، وقد تم فى إطار المحافظة على منظومة الوجود دون إخلال بها، ولا شك أن ذلك يمثل مجلى لصفتين إلهيتين كريمتين نستكمل بهما ما أدركناه من صفات إلهية، فسبحان ربى «البديع» «السلام» ﷻ.

صفات الألوهية والمشاعر والسلوك الإنسانى

قمنا فيما تبقى من الفصل برصد أخلاق البشر كما تتكشف فى مشاعرهم وسلوكياتهم، ثم عرجنا منها إلى صفات الخالق التى هى مصدر تلك الأخلاق، فالرسول الكريم ﷺ هو الذى أمرنا أن تخلقوا بأخلاق الله ﷻ.

واستهللنا عرضنا بصفات الجمال، فبدأنا بما يميز الإنسان من سكينة ولطف ورفق، ورأينا كيف أنها تعكس صفات الله ﷻ «المؤمن» «السلام» «اللطيف» «الحليم» «الرحمن الرحيم» «الرءوف» «البر» «الكريم». ثم عرضنا منظومة إعزاز الله ﷻ لخلقه، وهى التى تُجَلِّى صفاته ﷻ «المعز» «الغنى المغنى» «الرافع» «المقدم» «المعين». وتأتى بعد ذلك منظومة النفع والعطاء، التى يقف وراءها الله «المعطى المغنى» «الوهاب» «الكريم» «النافع» «الباسط» ﷻ.

وانتقلنا بعد ذلك إلى منظومة الحُكْم، وتأملنا ما يقوم به الإنسان من مهمة القاضى والحَكَمْ، وحرصه على تحقيق العدل فى هذه المهمة، وارتقينا من هذه المسئولية الخطيرة إلى صفتى الله ﷻ «الحَكَم» «العدل».

حَكَمَ الإنسان وعَدَل فقد تطلب ذلك الشكر، وهو الخُلُق الذى يقف وراءه اسم الله «الشكور». أما إذا أخل الإنسان بهذه المهمة أو بأى واجب من واجباته، فى حق الله أو حق العباد، توجه إلى من أذنب فى حقهم وطلب منهم العفو والتجاوز والسماح، وهو ما يجلى صفات الله ﷻ «الغفور الغفار» «العفو» «التواب» «الرحمن الرحيم» «الحليم» «الكريم» «البر» «الصبور».

وختمنا الحديث عن منظومات أخلاق الجمال بالأخلاق التى ينبغى مراعاتها فى **السلوك الاجتماعى**، وهى تأتى فى ذروة السمو الخلقى، وهى ليست إلا عطاء لأسماء الله ﷻ **«الودود» «الرحيم» «اللطيف» «الحليم» «الكريم» «الغفار»**.

وقد استشهدنا على هذه المنظومات الجمالية بـ**«معجزة الأمومة»**! التى شرفها الله ﷻ بأن تكون المجلى الأكبر لصفات الجمال الإلهى. فالأمومة تتميز بثلاثية **«العطاء والرزق والإيثار»**، وكذلك ثلاثية **«الود والحنان والرحمة»**. فسبحان ربى **«الرازق الرزاق» «المعطى» «الوهاب» «الهادى» «الودود» «اللطيف» «الرحمن الرحيم»** ﷻ.

ومن صفات الجمال انتقلنا إلى **صفات الجلال**، التى يمارسها الإنسان فى مجالين متضادين! مجال يجعل منها **كمال وجمال**! وذلك حين يمارسها الإنسان ضد أعدائه؛ أعداء وطنه والشيطان والنفس الأمارة بالسوء. والمجال الآخر حين يمارسها **بنقص ودناءة**، حين لا يكون أهلًا لها، فيسىء بها إلى الآخرين. وهى فى كل الأحوال تُجَلِّى **صفات الجلال الإلهية الخالقة لتلك الصفات البشرية**.

وتأتى صفات الجلال فى منظومات أربع. فيأتى بعضها **مصحوبًا بصفات الجمال المقابلة**، مثل **«القابض الباسط ـ الخافض الرافع ـ المعز المذل ...»**. والمنظومة الثانية، هى **صفات الجلال الفعلية**، ومنها **«القهار» «المنتقم» «المانع»**. والمنظومة الثالثة هى **صفات الجلال الذاتى**، مثل **«الحق» «العلى» «المتعالى» «المتكبر»**.وختمنا عرضنا لصفات الجلال بصفتين **تجمعان بين الجلال والجمال** وهما **«الجبار»** و**«ذو الجلال والإكرام»** ﷻ.

سبحان الله، الذى جعل **خَلْق الإنسان وخُلُقه مرآة للأسماء والصفات الإلهية**، ومن ثم، **فمن عرف نفسه عرف ربه**.

سبحانك ربى صاحب الأسماء الحسنى والصفات العُلى...



الباب الثالث

الألوهية

تتجلى فى المخلوقات

تعرضنا فى الباب السابق لـ«عمليات الخلق والإيجاد» لمستويات الوجود الثلاثة؛ الكون والحياة والإنسان. ووضعنا أيدينا على بعض ما تُجَلِّيه هذه العمليات من صفات إلهية، يستحيل أن يتم الخلق دون توافرها فى السبب الأول للوجود.

وفى هذا الباب، نقف مع «موجودات الوجود». ونمهد لطرحنا بالإشارة إلى أن كل ما فى الوجود من موجودات غير حية وموجودات حية (يتربع على عرشها الإنسان) يتركب من مكون مادى ومكون معرفى معلوماتى[1]، وقد أثبت العلم الحديث أن هذين المكونين يشكلان السمات المسئولة عن وجود موجودات الوجود كلها، واستمرارها وعملها فى دقة وحكمة تخفى عن الكثيرين.

ونقوم فى هذا الباب بتأمل السمات المشتركة لموجودات الوجود، لنضع أيدينا على بعض الصفات الإلهية التى تقف وراءها، ليس فقط إيجادًا وإنما أيضًا بقاءً واستمرارًا. وبذلك يتأكد لنا من خلال دراسة هذه السمات أن عطاء العلم الحديث لا يقف عند إثبات الوجود الإلهى فقط، بل ويجلى أيضًا العديد من صفات الإله.

---

(١) فى مقال بمجلة العلوم (ديسمبر ٢٠٠٣) يقربنا جاكوب بنكيمستين (عالم الفيزياء النظرية المكسيكى، ولد عام ١٩٤٧. من مؤسسى مفهوم الثقوب السوداء) من القضية بطرح مثير للاهتمام فيقول: «إذا سألت معظم الناس عما صُنع منه العالم المادى لقالوا (المادة والطاقة)، لكن إذا كنا قد استوعبنا ما تعلمناه فى المدرسة والجامعة عن الفيزياء لأدركنا أن «المعلومات» عنصر مساوٍ للعنصرين الآخرين، بل يمكن اعتبار أن العالم يتكون فى المقام الأول من معلومات، وأن المادة والطاقة عنصران إضافيان». انظر إلى الروبوت الذى يقوم بتجميع القطع المختلفة بمصنع السيارات، لا شك أن ما يمدونه به من قطع معدنية وبلاستيكية سيصبح بلا قيمة ما لم يوجد برنامج الكمبيوتر الذى يغذى الروبوت بالمعلومات.

الفصل السابع

لا إله إلى الله

- وحدة النسيج تعنى خالقًا واحدًا
  - لبنات واحدة
  - قوى واحدة
  - قوانين واحدة
  - مع الكائنات الحية
  - واحد فى كثرة... وكثرة من واحد
- لا إله إلا الله... الواحد الأحد
  - ليس كمثله شىء
- القارئ الكريم

وحدة النسيج

تعنى خالقًا واحدًا

ربما كان للمشركين الأقدمين العذر حين اعتقدوا أن لكل صنف من الموجودات ولكل ظاهرة من الظواهر إلهًا مستقلًا خالقًا مدبرًا! فالماء يختلف تمامًا عن النار بل ويضادها فى الكثير من صفاتها، وكذلك النور والظلام، وأيضًا الجمال والحرب بما تحمله من قبح، وهكذا... أرى أن التباين الجلى والتضاد بين الموجودات والظواهر دفع هؤلاء للقول بتعدد الآلهة.

ثم جاءت الفتوحات العلمية المتواترة، تحمل حقائق مغايرة تمامًا، وتكشف لنا أن **كل الموجودات وكل الظواهر إنما هى نسيج واحد وإن اختلفت أصباغه وألوانه الظاهرة. فالموجودات تتكون من لبنات واحدة، تمسكها إلى بعضها قوى واحدة، وتحكمها قوانين واحدة. وكذلك الظواهر**، كالرعد والبرق وهطول الأمطار والزلازل وانفجار البراكين، هى قوى واحدة تحكمها قوانين واحدة أيضًا.

والآن إلى بعض التفاصيل

لبنات واحدة

اكتشف العلم أن «الذرة» هى اللبنة التى تتكون منها جميع عناصر الكون، الصلبة والسائلة والغازية. كما اكتشف أن للذرات على اختلاف أنواعها بنية واحدة ترجع إلى مكون واحد هو الطاقة، وتتبع نمطًا واحدًا فى البناء (نواة تدور حولها إلكترونات). وتَتَّبع مجرات الكون الهائلة هذا النمط نفسه! فنجد المجموعات النجمية (كالمجموعة الشمسية) تتكون من نواة هى النجم، ويدور حوله توابع هى الكواكب. كذلك فإن بعض هذه الذرات يمكن أن يتحول إلى ذرات أخرى، كتحول ذرات اليورانيوم المشع إلى ذرات الرصاص.

وتتشكل مادة الكون كله على اختلاف مجراته من مجموعة من العناصر المشتركة التى يجمعها الجدول الدورى للعناصر، كما أن العناصر التى تتكون منها الكائنات الحية هى نفسها عناصر المادة غير الحية.

إنه نسيج واحد...

قوى واحدة

كما اكتشف العلم أن موجودات الكون كلها (على تباينها الشديد) تربطها وتحركها أربع قوى وُلدت تدريجيًا فى أثناء تَبَرُّد الكون، وهذه القوى الأربع هى:

١- قوة الجاذبية Gravitational Force، وهى المسئولة عن سقوط الأجسام تجاه مركز الأرض، ومسئولة عن تَشَكُّل المجرات والنجوم والكواكب، إذ تقوم بالإمساك بهذه الأجرام فى أفلاكها، وهى أضعف القوى الأربع.

٢- القوة النووية الشديدة Strong Nuclear Force، وإليها يرجع تماسك نَوَى العناصر. فهى قوة جذب شديدة تربط الكواركات ببعضها لتشكل البروتونات والنيوترونات، كما تربط هذه الجسيمات ببعضها لتتشكل نواة الذرة. ويؤدى تحطيم الذرة فى الانفجارات النووية إلى انطلاق جزء من هذه القوة النووية الشديدة.

٣- القوة النووية الضعيفة Weak Nuclear Force، وهى المسئولة عن النشاط الإشعاعى للنظائر المشعة، فيتحول العنصر المشع (بعد إطلاق جسيمات بيتا) إلى نظير آخر أو إلى عنصر آخر، مثال ذلك تَحَول اليورانيوم إلى رصاص.

٤- القوة الكهرومغناطيسية Electromagnetic Force، وهى التى تحفظ إلكترونات الذرة السالبة الشحنة فى مداراتها حول النواة موجبة الشحنة، كما تؤدى دورًا مهمًا فى التفاعلات الكيميائية وانتشار الضوء. ومن استخداماتها موجات إرسال التليفزيون والتليفونات المحمولة وغيرها.

وقد اكتشف العلم أن هذه القوى كانت عند حدوث الانفجار الأعظم (الذى أنشأ الكون) موحدة فى قوة واحدة فى المفردة Singularity التى نصف قطرها صفر!. وقد أثبتت الفيزياء النظرية أن إعادة توحيد هذه القوى كما كانت فى المفردة يحتاج إلى مُسَرِّع يبلغ حجمه حجم مجرتنا درب التبانة!!

كما أثبت العلم أن المادة والطاقة وجهان لوجود واحد، وأن إحدى الهيئتين يمكن أن

تتحول إلى الهيئة الأخرى. وقد توصل أينشتين إلى معادلته الرياضية الأشهر التى تحكم هذا التحول (الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء $E = C^2$).

وقد استغل الإنسان هذه الحقيقة فى إنشاء المفاعلات الذرية التى تمدنا بالطاقة، كما استغلها ـ للأسف ـ فى صناعة أسلحة الدمار الشامل كقنبلتى هيروشيما ونجازاكى!!

قوانين واحدة

كذلك اكتشف العلم أن القوى الطبيعية الأربع المسئولة عن نشأة الكون واستمرارية وجوده يحكمها عدد من القوانين التى يمكن أن تُدَوَّن جميعها فى ورقة صغيرة.

وانطلاقًا من الأصل المشترك لقوى الطبيعة الأربع يحاول العلماء التوصل إلى معادلات مشتركة تجمع بين هذه القوى. فاستطاعوا الجمع بين القوانين الكهربائية والقوانين المغناطيسية فى القوانين الكهرومغناطيسية. كما توصل العالِم الباكستانى محمد عبد السلام إلى النموذج الذى يجمع بين القوة النووية الضعيفة والقوة الكهرومغناطيسية، فحصل على جائزة نوبل فى الفيزياء عام ١٩٧٩ (١).

ويسعى علماء الفيزياء النظرية للجمع بين قوى الطبيعة الأربع فى قوانين واحدة تشكل ما أطلقوا عليه نظرية التوحيد الكبرى Grand Unification Theory أو النظرية الجامعة لكل شىء Theory Of Everything (TOE)

وقد مات أينشتين وهو يحلم بالتوصل لهذه النظرية.

(١) مزيد من الأمثلة: كان العلماء يعتقدون أن كلًّا من الأجسام على الأرض والأجسام خارجها تخضع لقوانين مختلفة. ثم توصل نيوتن إلى القوانين التى تحكم سلوك الأجسام كلها، سواء الكواكب أو التفاحة التى تسقط من الشجرة. كما توصل العلماء إلى قوانين مشتركة تحكم سلوك كل من المجالات الكهربائية والمجالات المغناطيسية. وكذلك تصف فيزياء الكم قوانين مشتركة تحدد سلوك موجات الإشعاع وجسيمات المادة. وحديثًا توصل العلماء إلى «نظرية الأوتار String theory»، التى تعتبر أنه توجد أوتار من الطاقة دقيقة للغاية، تتذبذب بترددات مختلفة تنشأ عنها المادة والطاقة والقوى الطبيعية الأربع. فبتردد معين للأوتار تتكون الإلكترونات، وبتردد آخر تتكون الكواركات، وبتردد ثالث تتكون قوة الجاذبية، وبآخر تتكون القوة الكهرومغناطيسية، وهكذا...، ولا شك أن هذه النظرية خطوة كبيرة فى الطريق إلى التوصل إلى «نظرية توحيد القوى الكبرى Grand unification theory».

مع الكائنات الحية

وإذا انتقلنا من المادة غير الحية إلى الكائنات الحية، وجدنا وحدة عجيبة تجمع بين العالمين. فالكائنات الحية لا تتفرد مادتها بعناصر بنيوية خاصة بها، بل تشارك المواد غير الحية فى عناصرها الكيميائية (الكربون والنيتروجين والأوكسجين والهيدروجين والكبريت والفوسفور وبعض العناصر النادرة). لقد استعملت الحياة التى كانت ضيفًا جديدًا تمامًا على الوجود المادى نفس العناصر المنتشرة فى الأرض.

وعندما ظهرت الحياة على الأرض منذ قرابة ٣,٧ مليار سنة اتخذت شكل الكائنات وحيدة الخلية (البكتريا)، وظلت الحياة على هذه الهيئة ثلاثة مليارات سنة، ظهرت بعدها الكائنات عديدة الخلايا. والمدهش أن «الكائن الخلية» كان يمارس - وما زال - نفس النشاطات التى تحتاج الكائنات الأكبر لملايين الخلايا لتمارسها، كالاغتذاء والحركة والتنفس والتكاثر و...

هذا وتشترك جميع الكائنات الحية من أدناها إلى أرقاها فى نفس البنية التى ظلت محافظة عليها عبر مليارات السنين. فالبنية الأساسية للكائن الحى هى البروتينات، التى تتكون فى جميع الكائنات من عشرين حمضًا أمينيًّا ذات توجهًا يساريًّا[١]!!، ذلك بالإضافة إلى الكربوهيدرات والدهون والتكوينات الأخرى.

وتستخدم الحياة منذ أن نشأت الخلية الحية الأولى (منذ أكثر من ٣,٧ مليار سنة) وأيضًا فى أكبر الكائنات حجمًا وأثقلها وزنًا (الحوت الذى يشتمل جسمه على مليون مليار خلية) وكذلك الإنسان أرقى الكائنات عقلًا، نفس الشفرة الوراثية التى تحمل التعليمات المطلوبة لتحديد بنية ووظيفة الكائن الحى، كما تقوم بتوجيه عملية تكاثره ونقل صفاته الوراثية إلى سلالته. هذه الشفرة الوراثية هى جزىء الدنا DNA، الذى يستخدم فى تسجيل المعلومات وإخراجها للوجود المادى لغةً واحدة تتكون من أربعة حروف (مركبات كيميائية هى القواعد النيتروجينية = نيكلوتايدات) فى جميع الكائنات.

---

(١) يوجد نوعان من كل حمض أمينى: أحدهما يدور لليمين (يمينى D) والآخر يدور لليسار (يسارى L). ولا يشارك فى صنع البروتينات إلا النوع اليسارى.

واحد فى كثرة ... وكثرة فى واحد

وفى نفس الوقت، يُخرِج هذا النسيج الواحد أنماطًا لا حصر لها من الموجودات، أنماطًا لا يماثل نوع منها نوعًا آخر، بل يُخرج لنا من النوع الواحد أفرادًا لا حصر لها لا يطابق أحدها الآخر منذ بداية الخلق إلى أفول الحياة، حتى وإن كانا توأمين متطابقين.

إن نظرة فاحصة لما تعرضه علينا الأفلام الوثائقية العلمية من تنوع النباتات والطيور والأسماك والأجناس البشرية و... تُجَلِّى لنا تعدد واختلاف مطلق وأيضًا ذاتية وتفرد، فى إطار النسيج الواحد.

لا إله إلا الله ... الواحد الأحد

ليس كمثله شىء

إذا كانت هذه الجولة العلمية تثبت أن الوجود نسيج واحد وإن تعددت ألوانه وتنوعت هيئاته، نسيج تحركه قوى واحدة وتحكمه قوانين واحدة. فهل يعكس النسيج الواحد إلا نَسَّاجًا واحدًا؟ خالق واحد...

لقد طمست اكتشافات العلم الحديث حجج المشركين بأن تنوع المخلوقات يعنى تعدد الخالقين. لقد قضى العلم على شبهة التنوع والتعدد.

ويخاطب الله ﷻ البشرية وينبهها إلى أن شبهة الكثرة ستزول فور موت الإنسان ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر].

وإذا كانت شبهة تنوع الموجودات وتعدد الخالقين تزول عند موت الإنسان، فالله ﷻ يمنح بعضًا من هذا العطاء لبعض أوليائه من أصحاب البصيرة والحكمة فى الحياة الدنيا، فيكشف عنهم حجاب الكثرة، فهل يكون العلم أحد وسائل كشف الحجاب؟!

وهل أراد الله تعالى بهذا التعدد والاختلاف المطلق أن يُجَلِّى صفته ﷻ «ليس كمثله شىء»، فجعل كل مخلوق من مخلوقاته فى الوجود متفرد «ليس كمثله شىء»؟

سبحان الله.

القارئ الكريم

تُبين هذه الجولة العلمية «**وحدة النمط البنائى والوظيفى**» لموجودات الوجود. إنه «**نسيج واحد**» خيطه هو «**الذرة**» التى بنيتها هى «**الطاقة**». وتُبين كذلك «**وحدة القوى الأربع**» التى تربط وتحرك موجودات الكون كلها على شدة تباينها، كما تُبين «**وحدة القوانين**» التى تتحكم فى هذه القوى.

كذلك تُبين هذه الجولة العلمية أن الخلايا الحية تشارك المادة غير الحية فى «**عناصرها البنائية**»، التى هى نفس العناصر فى جميع الكائنات الحية على تنوعها الرهيب. كما تبين أن الكائنات الدنيئة! (وحيدة الخلية) تمارس جميع النشاطات البيولوجية التى يمارسها الإنسان أرقى الكائنات (باستثناء التعقل)، مستخدمة فى ذلك نفس الشفرة الوراثية ذات الحروف الكيميائية الأربعة.

وهل يعكس هـذا النسيـج الواحد الذى تحركه قوى واحدة وتحكمه قوانين واحـدة... إلا إلهًا واحدًا... لا إله إلا هو.



الفصل الثامن

وجـود منضبط

- كل شىء بمقدار
  - الله ﷻ: المقدر - الحسيب - المقيت
  - التوازن الكمى
  - التوازن التوقيتى
- منظومات شديدة التعقيد - مترابطة - متكاملة
  - الله ﷻ: المدبر - الحكيم - القادر - القوى - المتين - السلام
  - منظومة الكون وكوكب الأرض
  - منظومة الحياة
  - منظومة البيئة
- وجود قابل للتنبؤ
  - الله ﷻ: الحكيم - القادر القدير - المؤمن
- منظومة عقلية علمية
  - الله ﷻ: العليم الخبير - السميع البصير - الرقيب - المحصى - الحسيب - المحيط
  - وقفة مع المنهج العلمى
  - خالق المنهج العلمى
- القارئ الكريم

استعرضنا فى الفصل الثالث مفهوم الضبط الدقيق **Fine Tunning** الضرورى لنشأة واستمرارية الكون والحياة. ويثبت هذا المفهوم أن كل شىء فى الوجود قد تم ويتم ضبطه بدقة لا متناهية، وأن أى خلل فى هذا التوازن يؤدى دون شك لكوارث كونية وطبيعية وبيولوجية.

كل شىء بمقدار

سبحان ربى...

الله ﷻ: المقدر - الحسيب - المقيت

كل شىء فى الوجود بمقدار

يرينا قدر بسيط من التأمل أن **الضبط الدقيق للوجود** يشمل الجوانب «**الكمية**» كما يشمل الجوانب «**التوقيتية**».

التوازن الكمى

عرضنا فى الفصل الثالث بعضًا من **الثوابت الكونية** التى لو اختلت بمقدار جزء من مليارات الأجزاء لَمَا نشأ الكون باعتباره المسرح الذى تم إعداده لظهور الحياة والإنسان.

كذلك فإن الأمور التى **تبدو للإنسان عشوائية** قد تم ضبطها بدقة هائلة. فشرارات البرق مثلًا، إذا حدثت بمعدل ومقدار أكبر لنشأ عنها قدر كبير من حامض النيتروز فى الهواء الجوى (نتيجة لوجود كثرة من غاز النيتروجين)، ولأصبحت الأمطار حمضية، لكن عذوبة ماء المطر تطلبت أن تحدث تلك الشرارات بقَدْر محدد[1].

لا شك أن هذا الضبط «الكمى» الدقيق يحتاج إلى تمتع مدبر الكون بالقدرة على تصريف الوجود **تبعًا لدقة رياضية هائلة**، ولا يكون ذلك المدبر إلا **الإله** «**الحسيب**» ﷻ.

(١) ربما كان ذلك أحد المعانى المقصودة بقول الحق ﷻ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ... ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة].

التوازن التوقيتى

كذلك نرصد الدقة اللامتناهية فى ضبط الوجود فى الجوانب التوقيتية. وربما كان عالم البيولوجيا من أهم المجالات التى تتجلى فيها الدقة التوقيتية.

فالتفاعلات الكيميائية الحيوية داخل جسم الكائن الحى وخلاياه تتعاقب بترتيب دقيق وسرعة هائلة، ذلك إذا أُريد للوظائف الفسيولوجية أن تحدث وللحياة أن تستمر.

كذلك فإن اضطرابًا ضئيلًا للغاية فى توقيت تتابع انقباض الغرف الأربع لعضلة القلب يمكن أن يؤدى إلى اضطراب فى وظيفته قد يسبب الوفاة.

وأيضًا فإن اضطراب معدل وتوقيت وتتابع مراحل انقسام الخلايا الحية يمكن أن يؤدى إلى حدوث الأورام السرطانية.

ومن الأمور المدهشة الخاصة بالضبط التوقيتى للظواهر الحياتية ما يُعرف بـ«الساعة البيولوجية». فالكثير من النشاطات البيولوجية للكائنات الحية (كإفراز الهورمونات والنوم) يتم ضبطها بإيقاع زمنى دقيق. والأغرب من ذلك أن تلك النشاطات ترتبط وقتيًا بالعديد من الظواهر الطبيعية، كالمجال المغناطيسى للأرض، والانفجارات الشمسية ودوران الكواكب!!

لا شك أن هذا الضبط التوقيتى الدقيق يحتاج إلى تمتع مدبر أمر الحياة إلى إدارة جزئياتها وفقًا لتوقيتات دقيقة، ومن ثم كان الإله المحيى إلهًا مُقيتًا.

ويحدثنا القرآن الكريم عن الدقة الهائلة التى تميز أعمال الإله الحسيب المقيت، بقوله:

﴿...وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

بذلك يجمع اسمه ﷻ «المقدر» الدقة الكمية «الحسيب» إلى الدقة التوقيتية «المقيت».

سبحان ربى ﷻ...

منظومات

شديدة التعقيد - مترابطة - متكاملة

سبحان ربى...

الله ﷻ؛ المدبر - الحكيم - الرشيد - القادر

القوى - المتين - السلام

ما أروعه من توازن

ليست مخلوقات الوجود بقعًا عشوائية متناثرة، بل هى **منظومات دقيقة «شديدة التعقيد»، «ترابط» و«تتكامل»** مع بعضها لتشكل منظومات أكبر ثم أكبر، حتى تشكل منظومة الوجود العظمى. وترينا النظرة العكسية أن هذه المنظومات الكبرى تتفكك إلى منظومات أصغر فأصغر.

منظومة الكون وكوكب الأرض

تتكون منظومة الكون من المجرات، التى تتكون من نجوم وكواكب وتوابع، وتتكون هذه الأجرام من عناصر المادة وموجات الطاقة.

ويظهر الترابط والتكامل بين منظومات الكون فيما تمارسه أجرام كل منظومة من جذب بعضها لبعض، وأيضًا فيما تمارسه أشعة الشمس (مثلًا) من مهام حيوية على كوكب الأرض. وتحدثنا الفيزياء الحديثة عن ظاهرة «التعالق **Entangelment**» العجيبة، التى تتبادل فيها المجرات والأجرام الطاقة مع كل ما يمر بها من أجسام وطاقات (كالضوء).

وإذا كان الكون تم إعداده لنشأة الحياة وظهور الإنسان، فمن باب أولى أن «كوكب الأرض» تم إعداده أيضًا بشكل خاص ليكون محلًا لظاهرة الحياة ومأوى للإنسان. وإذا كان من العلماء من يساوى بين الأرض وبين ملايين وربما مليارات الكواكب فى الكون، ومن ثم يتنبأ بإمكانية وجود حياة عاقلة فى العديد منها، فالكثيرون منهم يرون أن **كوكب الأرض شديد التميز والتفرد**، سواء فى صفاته، أو فى جيرانه من الكواكب، أو تابعيته لنجم الشمس

المتميز، أو فى وقوعه فى موقع متميز فى مجرة متميزة[1]. ويرى هؤلاء أن الأرض كوكب لا يكاد يوجد له مثيل فى الكون، فكان جديرًا بأن يتفرد بظاهرة الحياة[2]، وحول هذا المعنى اقرأ معى هذه المقولات لبعض فطاحل علوم الكونيات:

«هناك كوكب واحد فى الكون يمكن أن يحتوى على الحياة الذكية، لعلكم تعرفون هذا الكوكب!» جون أوكيف[3]، الأب الروحى لأبحاث الفضاء.

«إنه كوكب فريد، الكوكب الوحيد فى هذه المجرة، وربما فى الكون كله، الذى تعمره الحياة» بيتر ورد، ودونالد براونلى[4]، الأستاذان بجامعة واشنطن - سياتل.

«ليس هناك موزارت آخر ولا بيتهوفن آخر» دون جونسون[5]، مدير مركز دراسات أصل الإنسان بجامعة أريزونا.

ويتجدد كل فترة فى الساحة العلمية السؤال حول احتمال وجود الحياة فى أماكن أخرى من الكون، وللإجابة عن هذا السؤال طرح عالِم الفضاء «فرانك دراك Frank Drake» معادلته Drake Equation (عام ١٩٦١، وعُدلت عام ٢٠٠٠) لحساب عدد الحضارات التى يمكن أن تنشأ فى مجرتنا وتتواصل معنا. توصل دراك إلى أن هذا الاحتمال يكاد يكون معدومًا. وإذا حدث هذا الاحتمال شبه المستحيل، هل يؤيد هذا المفاهيم الإلحادية؟! أيعجز الإله عن خلق وإدارة ومتابعة الحياة على بضعة كواكب؟!

منظومة الحياة

وإذا انتقلنا إلى عالم الأحياء، بهرنا ما بين منظومات ظاهرة الحياة من ترابط وتكامل. فالكائن الحى (باستثناء الإنسان)[6] ليس إلا عدة أجهزة بيولوجية (أنظمة) يؤدى كل منها وظيفة خاصة تتناسق مع ما تقوم به الأجهزة الأخرى لتستمر الحياة.

(١) فى هذا المعنى راجع كتاب «الكوكب المتميز The Privileged Planet» صدر عام ٢٠٠٤. والكتاب تأليف أستاذ علوم الكون «جليرمو جونزاليز Guillermo Gonzalez» بجامعة Iowa state University، وأستاذ الفلسفة «جاى ويسلى ريتشارد Jay Wesley Richard» نائب رئيس مؤسسة Discovery المهتمة بمفهوم التصميم الذكى.

(٢) سير فريد هويل Sir Fred Hoyle

(٣) John A. O' Keefe، اشتهر بدراساته حول إمكانية نشأة الحياة فى أماكن أخرى من الكون. نشر نتائج أبحاثه فى كتاب God and the Astronomers

(٤) أستاذ الجيولوجيا Peter Ward، وأستاذ الكونيات Donald Brownlee، نشرا آراءهما فى كتابها Rare Earth

(٥) Don Johanson: مكتشف أشهر حفرية من حفريات أشباه الإنسان؛ لوسى Lucy

(٦) يمارس الإنسان جميع الوظائف التى تمارسها الثدييات، ويتميز عليها بالعقل الذى لا مثيل له بين الكائنات.

فإذا كان الجهاز الهضمى مسئولًا عن الاغتذاء والهضم، فإن ما يُحصِّله هذا الجهاز من مواد غذائية يحتاج للاستفادة منه إلى الأوكسجين الذى يوفره الجهاز التنفسى. كما يحتاج الكائن إلى الجهاز الدورى المسئول عن توزيع مصادر الطاقة على الجسم، وكذلك يحتاج إلى الجهاز الإخراجى المسئول عن إخراج الفضلات وتنقية الجسم من السموم، هذا بالطبع بجانب مركبات عديدة أساسية للحياة كالإنزيمات والهورمونات.

منظومة البيئة

يتكون النظام البيئى لكوكب الأرض من بحار وأنهار وغابات وصحارى وكائنات حية وظروف مناخية وغيرها، ويتكون كل من عناصر هذا النظام من منظومات أدنى، وهكذا.

ومن هذه المنظومات التى يظهر فيها الترابط والتكامل بشكل مباشر ما يُعرف بـ«سلسلة الغذاء»، وتبدأ السلسلة بالنباتات التى تستخدم ما فيها من المادة الخضراء (الكلوروفيل - اليخضور) لبناء السكريات والنشويات من الماء وثانى أوكسيد الكربون وطاقة الشمس. وتغتذى الحيوانات على هذه النباتات، ثم تغتذى الحيوانات اللاحمة على هذه الحيوانات النباتية، ويغتذى الأقوى منها على الأضعف وهكذا. وعندما تموت هذه الكائنات تغتذى على أجسادها بكتيريا التعفن والتحلل لتعود مكوناتها الأولية إلى الطبيعة الأم مرة أخرى.

وبالإضافة «لسلسلة الغذاء»، تتجلى الرابطة بين الطبيعة والكائنات الحية فى علاقات أخرى. فقد تم إمداد الكائنات الحية بـ «المستقبلات **Receptors**» القادرة على الإحساس بما فى الطبيعة من موجات. فالأذن قد تم إعدادها لتستقبل الموجات الصوتية، والعين تم إعدادها لاستقبال الموجات المرئية، وهكذا. والمدهش أن المخ قد تم تزويده بثلاثين مركزًا للإبصار يتعامل كل منها مع صفة من صفات الرؤية؛ هذا لرؤية الضوء، وهذا لإدراك الألوان، وهذا لإدراك الحركة، وهذا لعمق الصورة، وهذا... وهذا...

سبحان ربى...

إن بناء الوجود باعتباره منظومة واحدة عظمى تتركب من العديد من المنظومات، كل منها يتكون من منظومات أصغر، وكذلك ما بين هذه المنظومات من تكامل وترابط، يحتاج دون شك إلى موجد «مدبر» «حكيم» يدرك ما بين المنظومات من علاقات لامتناهية، موجد «قادر» على التنسيق وتحقيق الترابط بينها.

بهذا الترابط والتكامل صار الكون منظومة واحدة متماسكة مترابطة متكاملة، ولا يكون ذلك إلا عطاءً من موجد مدبر قادر يتمتع بصفات «القوى» «المتين» «السلام».

وجود قابل للتنبؤ

سبحان ربى...

الله ﷻ: الحكيم - القادر القدير - المؤمن

لا يحتاج الأمر إلى نوستراداموس[1]

من الأقوال المأثورة لأينشتين، الأثيرة لدى والتى استشهد بها كثيرًا، قوله: «إن أكثر الأشياء استعصاء على الفهم فى الوجود، أنه مفهوم» The most Incomprehensible Thing in the Universe is that it is Comprehensible

وقد ذكرنا فى حديثنا عن الكون والعالم الفيزيائى (فى الفصل الثالث) كيف أنه وجود منضبط بدقة، بل ويمكن التنبؤ بظواهره كما حدث من اكتشاف كوكب أورانوس وبعض عناصر جدول مندليف.

ولا يقف هذا الانضباط والقابلية للتنبؤ عند العالم الفيزيائى، بل يمتد ليشمل الكائنات الحية، فأنت تستطيع أن تتنبأ بسلوك الحيوانات الضارية وأيضًا الأليفة تجاه عامل مثير. كذلك يمكن أن تدرك هذه السمة الوجودية فى السلوك الإنسانى إذا فهمت شخصية من تتعامل معه، بالرغم مما تتمتع به النفس البشرية من حرية إرادة.

إن هذا الانضباط والقابلية للتنبؤ اللذين يتمتع بهما الوجود (سواء على مستواه الكونى أو الفيزيائى أو البيولوجى أو الإنسانى) يعكس بوضوح ما يتمتع به خالقه من «حكمة» و«قدرة»، كانتا وراء إيمان عالم كبير كأينشتين بوجود الإله ﷻ.

ويلمس المتأمل للقرآن الكريم بوضوح تكرار وعد الله ﷻ للإنسان بأن يحيا فى وجود منضبط، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

(١) Nostradamus: (١٥٠٣ - ١٥٦٦) الصيدلانى والمنجم الفرنسى، صاحب كتاب النبوءات الشهير.

والمتأمل للوجود يدرك أن الله ﷻ قد أوفى بوعده، أى أن فعله قد طابق قوله، وهذا من معانى اسمه «المؤمن» ﷻ.

منظومة عقلية علمية

سبحان ربى...

الله ﷻ: العليم الخبير

السميع البصير ـ الرقيب

المحصى ـ الحسيب ـ المحيط

خلق المنهج العلمى واستخدمه

وقفة مع المنهج العلمى

يهدف العلم إلى الكشف عن أسرار الوجود والاستفادة منها، وذلك عن طريق **«الإلمام» بقوانين الطبيعة** و**«فهمها»** و**«تسخيرها»** لخدمة الإنسان وتحقيق رفاهيته. وقد تطلب ذلك اتباع منهج مَكَّنَ العقل البشرى من تحقيق هذه الأهداف، فاستحق أن يوصف بأنه **«المنهج العلمى»**.

وأول أساسيات هذا المنهج التى ينطلق منها ولا يقوم إلا بها، الإلمام بالمعلومات المتاحة حول قضايا الوجود وهو ما يُعرف **«بجمع المعلومات»**، وتأتى بعد ذلك عملية تصنيف هذه المعلومات وتبويبها فيما أُصطلح على تسميتها **«بالإحصاء»**. وبعد هاتين الخطوتين (جمع المعلومات وإحصائها)، ينطلق المنهج العلمى فى **عدة اتجاهات** تبعًا لنوعية كل علم؛ هذا رياضى، وهذا تجريبى، وآخر عقلانى فلسفى، وهذا طبى تشخيصى ثم علاجى، وذلك نفسى، وهكذا.

ومن المفاهيم التى أصبحت العلوم المختلفة تسعى إليها وتحلم باستخدامها هو تحويلها إلى **منظومات كمية** (تكميم العلوم) تيسر التعامل معها حسابيًا، حتى يمكن تقييمها وتوصيف تفاعلاتها والتنبؤ بنتائجها.

وإذا كان التكميم قد بدأ بعلوم الرياضيات، فقد أتت بعدها علوم الفيزياء والكيمياء التى أصبحت تُوَصَّف سلوك مفرداتها وعناصرها توصيفًا رياضيًّا. ثم دخلت (حديثًا) علوم البيولوجيا (خاصة البيولوجيا الجزيئية) مجال التوصيف الرياضى، كذلك أصبحنا نرى العلوم الطبية (التشخيصية والعلاجية) تدخل هذا المجال[1].

وإذا كان تكميم العلوم من الأمور المعقولة فى العلوم الطبيعية ، فقد وجدنا العلوم التى تقف فى البرزخ بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية (وأقصد بذلك علم النفس مثلًا) قد بدأت تغزو هذا المجال. بل والمدهش أن العلوم الإنسانية الصرفة (كالفلسفة) أصبحت تسعى لذلك أيضًا، وربما كانت من الجهود المشهودة فى ذلك أبحاث عالِم الرياضيات والفيلسوف الكبير برتراند رسل.

خالق المنهج العلمى

يعطينا المنهج العلمى درسًا فى أن تعامل البشر مع الطبيعة لا يتم إلا بجمع المعلومات وإحصائها وتقييمها حسابيًّا. وبديهى أن تمتع الإنسان بهذه القدرة يتطلب توافرها فى السبب الأول الخالق له.

وقد حرص القرآن الكريم وهو يعرفنا بربنا على إظهار تمتعه ﷻ بصفات تحقق تعامله مع الوجود بالأسلوب الذى أسماه البشر «المنهج العلمى». لذلك يصف القرآن الكريم الإله ﷻ بأنه:

«العليم الخبير»؛ الذى يعلم كل ما فى الوجود.

«السميع البصير ـ الرقيب»؛ وهى صفات تختص بقدرة الله ﷻ على رصد كل ما يحدث من تغير فى الوجود، أى لا يقف علمه على ما خلق فى الابتداء. وإذا كان علم الله لا يَجِدّ عليه شىء، فلا شك أن اتصاف الله ﷻ بهذه الصفات جاء من باب تقريب الصورة لفهمنا البشرى.

«المحصى ـ الحسيب»؛ وهو الذى أحصى كل شىء عددًا، وهما الصفتان اللتان تحققان التعامل مع الوجود كميًّا ورياضيًّا.

وتجمع هذه الصفات كلها صفة «المحيط»، المُلم (عمقًا واتساعًا) بكل شىء فى الوجود.

---

(١) مثال ذلك فى المجال التشخيصى أن تقول: إذا كان المريض يعانى عَرَض كذا إعطه قيمة رياضية (١ أو،٢، ٣، ٤)، وإذا كان يعانى بالإضافة إلى ذلك عرض كذا، إعطه قيمة كذا، وهكذا.
ثم نجمع القيم الرياضية ونرجع إلى جدول تشخيصى لتشخيص المريض تبعًا للقيمة الجمعية.

القارئ الكريم

لا شك أن «**الضبط الدقيق**» سمة أساسية يقوم عليها الوجود.

ويتجلى هذا الضبط فى عدة جوانب، منها، **التوازن الكمى للكون والتوازن الكمى والتوقيتى** لعالم الأحياء فى كوكبنا. ويقف وراء هذا التوازن تمتع الإله الخالق بصفات «**المقدر**» «**الحسيب**» «**المقيت**» ﷻ.

ويشتمل الوجود على العديد من **المنظومات شديدة التعقيد**، المترابطة المتكاملة. ومنها، منظومة الكون وكوكب الأرض، ومنظومة الحياة، ومنظومة البيئة. ولا شك أن هذا النمط البنائى للوجود لا يقوم إلا كعطاء لإله «**مدبر**» «**حكيم**» «**قادر**» «**قوى**» «**متين**» «**سلام**» ﷻ.

ومن سمات الوجود التى أدهشت أينشتين فعبر عنها قوله: «**إن أكثر الأشياء استعصاء على الفهم فى الوجود، أنه مفهوم**» فدفعته دفعًا إلى الإيمان بالإله، ولا شك أن بناءَ هذه سِمَته لا يقدر عليه إلا الله «**الحكيم**» «**القادر القدير**» «**المؤمن**» ﷻ.

ومن ثم أكثر السمات إدهاشًا، والتى لم يتنبه إليها معظم من تصدى لشرح الأسماء والصفات الإلهية، هى التزام خالق الوجود بالمنهج الذى أسماه البشر «**المنهج العلمى**». فكان ربنا ﷻ هو «**العليم الخبير**» «**السميع البصير ـ الرقيب**» «**المحصى ـ الحسيب**» «**المحيط**».

تباركت ربى وتعاليت... سبحانك

❊ ❊ ❊

الفصل التاسع

ثنائيات الوجود المتكاملة

ـ ثنائية المتناقضات المتكاملة

ـ الله ﷻ؛ الظاهر الباطن ـ القابض الباسط ـ اللطيف القوى المتين

ـ الجامع بين الأضداد

ـ مِن المتناقضات إلى الصفات

ـ لبنات يتم جمعها... ولبنات يتم فلقها

ـ الله ﷻ؛ الجامع ـ فالق الحب والنوى (تجميع وانقسام)

ـ مِن التجميع إلى الانقسام

ـ فالق الحب والنوى

ـ خَلْق لا على مثال... وإعادة الخَلْق

ـ الله ﷻ؛ البديع المبدع ـ المصور ـ المعيد ـ الباعث ـ السلام (إيجاد أول وإيجاد معاد)

ـ خلق جديد

ـ إعادة الخلق

ـ القبض والبسط ـ المنع والعطاء ـ الإغلاق والفتح

ـ الله ﷻ؛ القابض الباسط ـ المانع المعطى الفتاح (الوجود كالمصفاة: يمرر ويمنع)

ـ الميت والحى ـ الإحياء والإماتة

ـ الله ﷻ؛ المحيى المميت (منها وإليها)

ـ ظاهر وباطن ... غيب وشهادة

ـ الله ﷻ؛ الظاهر الباطن (للوجود عقل مدرك وعقل باطن!)

ـ وجود يقوم على الغيب والشهادة

ـ الجمال والجلال

ـ الله ﷻ؛ الكامل، ذو الجمال والجلال (اتقِ شر الحليم إذا غضب)

ـ القارئ الكريم

تُظهر النظرة المتأملة لكتاب الوجود أنه يقوم على مجموعة كبيرة من **الثنائيات، المتضادة أو المتوافقة**، التى تتكامل أزواجها لتشكل لبِنات الكون والحياة والإنسان.

ويستطيع القارئ لثنائيات الوجود أن يدرك أنها تعكس **افتقار الموجودات**؛ فالسالب يفتقر إلى الموجب، والإنسان يفتقر إلى زوجه، وهكذا... وبالتالى فهذه الثنائيات تعكس **استغناء الإله الخالق**، ومن ثم تُجلى بوضوح صفة الله ﷻ «**الواحد الأحد**».

ويقينى أن ثنائيات الوجود هى أحد المعانى المقصودة بقول الحق ﷻ: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ... ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات]. وهذه الثنائيات فى حقيقتها امتداد لثنائيات أعلى؛ **المادى والمعنوى، الجمال والقبح، الظاهر والباطن،...** وأخيرًا نصل إلى الثنائية الأصل والأساس؛ **ثنائية الخالق والمخلوق، ثم ما يتمتع به الخالق من جمال وجلال.**

ثنائية

المتناقضات المتكاملة

سبحان ربى...

الله ﷻ: الظاهر الباطن. القابض الباسط. اللطيف القوى المتين

الجامع بين الأضداد

يجمع الوجود من حولنا بين المتناقضات المتكاملة بشكل مذهل، فبعض الكواكب تمثل أتونًا شديد الحرارة لقربها من أحد النجوم، والبعض الآخر تقارب حرارته الصفر المطلق لبعده عن مصدر الحرارة. بل إن كوكبًا واحدًا ككوكبنا يجمع بين البرودة الشديدة التى تصل إلى عشرات الدرجات تحت الصفر فى القطبين وبين الحرارة الشديدة التى يفور بها باطن الكوكب وتنتشر فى صحاريه.

ويظهر التناقض أيضًا فى الأحجام؛ ما بين جسيمات تحت ذرية مفرطة فى الدقة والصغر

وبين المجرات الهائلة. كما تتفاوت الأحجام فى عالم الأحياء من البكتريا التى لا تُرى إلا بالمجهر إلى الحيتان التى يبلغ حجم بعضها حجم عمارة من عدة طوابق.

وأيضًا يجمع الوجود بين اللطافة المفرطة كالغازات الخفيفة والموجات الطويلة، وبين ما هو شديد الكثافة كالنجوم النيترونية والثقوب السوداء. كذلك نجد ثنائيات السالب والموجب، والمادة ومضادات المادة، والقطب المغناطيسى الشمالى والقطب الجنوبى.

والمدهش أن هذه الثنائيات الفيزيائية المتناقضة تتبع كلها بنية واحدة، وهى بنية الموجة والذرة والطاقات الأربع، وأيضًا تخضع لقوانين واحدة.

وإذا انتقلنا إلى منظومات السلوك والأفكار والمشاعر، قابلنا فى كل منها ظاهرة الثنائيات المتناقضة. فنجد الحلم والغضب، والنفع والإضرار، والكرم والبخل، والقلق والسكينة، والأمانة والخيانة، والحرص واللامبالاة، والتكبر والتواضع، والانشراح والاكتئاب، والجمال والقبح، و...

من المتناقضات إلى الصفات

إن هذا الوجود المتناقض ظاهرًا والمتكامل حقيقة لا يكون إلا تجليًا لمنظومات من الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها الموجد المدبر، والتى قد تبدو متناقضة لكنها فى حقيقتها متكاملة. لذا نجد من الصفات الإلهية:

الظاهر الباطن - المقدم المؤخر - الخافض الرافع - القابض الباسط - المحيى المميت - النافع الضار - اللطيف القوى المتين. لذلك نجد الأفعال والصفات المتقابلة لله ﷻ مبثوثة فى العديد من آيات القرآن الكريم، ومنها:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات].

ويقابلها: ﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ ... ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء].

فى الآية الأولى، الله ﷻ «يُوَسِّع السماء» وفى الآية الثانية «يطويها».

وقد نجد المتقابلات مجموعة فى آية واحدة: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۖ ... ﴿٦٨﴾ ﴾ [يس].

فالله ﷻ «يُعَمِّر» و«يُنَكِّس» فى الخلق.

سبحانك ربى...

لَبِنَات يتم تجميعها

ولَبِنَات يتم فلقها

سبحان ربى...

الله ﷻ: الجامع - فالق الحب والنوى

تجميع وانقسام

بعدما أنتج الانفجار الأعظم طاقة الكون، تمدد الكون الوليد وتَبَرَّد، فتحول بعض طاقته إلى جسيمات المادة ومضادات المادة. ثم «اجتمعت» تلك الجسيمات وتعادلت وتلاشت، وبقيت كمية محدودة من الجسيمات الأولية (أهمها الكواركات والإلكترونات) كانت هى مصدر ما فى الكون من مادة بقيت حتى الآن وستبقى حتى فناء الكون.

ثم «اجتمعت» الكواركات بهيئات معينة لتنتج البروتونات والنيوترونات، التى «اجتمعت» لتنتج نويات الذرات. ثم «اجتمعت» الإلكترونات مع النويات لتشكل ذرات عناصر المادة. و«تجتمع» الذرات لتشكل جزيئات المركبات الكيميائية والفيزيائية لتشكل كل ما فى الوجود من مواد.

وتمثل عملية «التجميع» أيضًا المصدر الرئيسى للطاقة المتجددة فى الكون. فما يحدث فى النجوم (كنجمنا الشمس) من «اندماجات نووية» بين ذرات الهيدروجين هو مصدر الطاقة التى تبعثها النجوم فى الفضاء المحيط والكواكب والتوابع الدوارة حولها.

كذلك تقوم ظاهرة الحياة على عمليات تجميع عديدة؛ «فتجتمع» ذرات بعض العناصر لتكون الأحماض الأمنية التى «تجتمع» لتشكل البروتينات التى هى أهم مكونات بنية الخلية. وتجتمع عناصر أخرى «لتُكَوِّن» القواعد النيتروجينية الأربع التى تكتب الشفرة الوراثية التى يحملها جزىء الدنا DNA، ومثله الرنا RNA الناقل لهذه الشفرة، وهكذا مع كل مكون من مكونات الخلية التى «تجتمع» لتشكل الخلايا الحية، التى «تجتمع» بدورها لتشكل الأنسجة، ثم الأعضاء، ثم الكائنات الحية.

من التجميع إلى الانقسام

وإذا انتقلنا من «عملية التجميع» إلى العملية المضادة وهى «عملية الانقسام»، قابلنا العديد من الأمثلة التى يقوم عليها بقاء الكون. ومن أمثلة ذلك، ما يحدث فى «لُب كوكب الأرض Core»، ففى قلب هذا اللب تحدث عمليات «انشطار نووى» للنظائر المشعة التى يشتمل عليها، وهذا الانشطار هو المسئول عن الطاقة التى تحفظ جزءًا من لب الأرض فى هيئة حديد منصهر، ومسئول أيضًا عن الاحتفاظ بقشرة الكرة الأرضية فى هيئة منتفخة ككرة القدم، ولولا تلك الطاقة لتداعت صفائح القشرة الأرضية وانهارت على بعضها البعض.

ومن أمثلة الانقسام الأخرى عمليات «تفكك» المركبات الكيميائية المعقدة إلى مركبات أبسط منها، كما يحدث فى عملية هضم الغذاء، وأيضًا عمليات تعفن المركبات العضوية، ففيها «تتحلل» المواد العضوية إلى مواد أبسط لتستمر دورة الحياة فى الأرض، ونقوم نحن بمحاكاة نفس العملية فى عمليات تكرير البترول.

ويشتمل «تكاثر الكائنات الحية» على عمليتى الانقسام والتجميع فى مراحل متعاقبة. فتكوين الحيوانات المنوية وحبوب اللقاح يحتاج «لانقسام» الخلايا الذكورية بأسلوب اختزالى يهبط بعدد كروموسوماتها إلى النصف، وكذلك بويضات الإناث. وعندما يحدث الإخصاب، الذى هو عملية «تجميع» للعناصر الذكورية والأنثوية تنتُج خلية متكاملة الكروموسومات تُعرف بـ«الزيجوت». ثم تأخذ خلية الزيجوت فى «الانقسام» ملايين المرات لينتج فى النهاية جسم الكائن الحى، الذى ينمو مع التقدم فى العمر بمزيد من عمليات الانقسام.

فالق الحب والنوى

وقد أطلق القرآن الكريم على عملية الانقسام اصطلاح «الفلق»، وبَيَّنَ أنها تحدث فى «الحب والنوى»، وهما قلب الأشياء الحية وغير الحية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام]. وقد كرر الحق ﷻ نسبة هذه العملية لنفسه فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفلق].

هكذا يقوم الوجود الحى وغير الحى على عمليتين عكسيتين هما «التجميع» و«الفلق»، لذا ينبغى أن يتصف خالق الوجود ومدبره بالقدرة على هذين الفعلين، ومن ثم يتصف إلهنا بأنه «الجامع» «فالق الحب والنوى» ﷻ.

خَلْقٌ لاعلى مِثال

وإعادة الخَلْق

سبحان ربى...

الله ﷻ: البديع المبدع ـ المصور

المعيد ـ الباعث

السلام

إيجاد أول وإيجاد مُعاد

خلق جديد

إذا كان التعريف الشرعى لعملية الخلق هو «**الإيجاد من عدم على غير مثال سابق**»، فقد أثبت العلم أن الكون قد ظهر بعد عدم مطلق، **فخُلِقَ الزمان والمكان والطاقة والمادة**، ثم ظهر السديم، ومنه تشكلت المجرات بما تحمل من نجوم وكواكب وتوابع، كل ذلك تم إبداعه وتصويره على غير مثال سابق.

وكما كان الوجود ضيفًا جديدًا تمامًا على العدم، ظهرت الحياة فى الكون المادى كضيف جديد على المادة، فصار الوجود غير الوجود، صار وجودًا حيًّا، ثم ظهر **العقل** الواعى المفكر ضيفًا جديدًا أيضًا فى الكون، صار به الوجود واعيًا بنفسه.

لقد كانت كل مرحلة من هذه المراحل وما ينضوى تحتها من مراحل فرعية **إيجادًا جديدًا تمامًا على غير مثال**.

إعادة الخلق

وفى المقابل، نشاهد فى الوجود من حولنا عمليات لانهائية من «**إعادة الخلق**». فالانفجار الكونى الأعظم تحاكيه انفجارات صغرى تحدث فى أنحاء الكون من حين لآخر. كذلك الكائنات الحية التى تم إبداعها تتكاثر باستمرار لتملأ الأرض والبحر والجو. وأيضًا يتم فى كل لحظة خلق أنماط عديدة من **العقل البشرى** الذى بزغ فى لحظة ما من عمر الكون فأضاء ظلامه.

وإذا كان الخلق من عدم على غير مثال سابق يحتاج إلى الخالق: «البديع» «المبدع» «المصور»، فإن إعادة الخلق تحتاج إلى الخالق «المعيد»، وأيضًا إلى الخالق «الباعث» إذا كان الكائن الحى قد اختفى من صفحة الوجود لفترة، كما سيحدث من بعثٍ للإنسان فى حياته الأخرى.

ويجمع القرآن الكريم بين الخلق لاعلى مثال وبين إعادة الخلق فى قول الحق ﷻ:

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان].

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ... ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس].

فالآية الأولى تحدثنا عن الخلق الجديد الأول ثم عن البعث، الذى هو إعادة خلق. وتحدثنا الآية الثانية عن الخلق أول مرة ثم عن إعادة الحياة، التى هى إعادة خلق.

القبض والبسط

المنع والعطاء - الإغلاق والفتح

سبحان ربى...

الله ﷻ: القابض الباسط - المانع المعطى الفتاح

الوجود كالمصفاة: يمرر ويمنع

تُعتبر ثنائية القبض والبسط/ الفتح والإغلاق/ المنع والعطاء من الثنائيات الأساسية فى الوجود. فنشأة العالم الكبير (الكون) بدأت بالانفجار الكونى الأعظم الذى تمدد فيه الكون وانبسط، وما زال (**الانبساط**) مستمرًا، ويتوقع المتخصصون لحظة ما يتوقف فيها الكون عن التمدد ويبدأ فى الانكماش (الانقباض)، تمهيدًا لأن يعود كنقطة نصف قطرها صفر، كالمفردة التى بدأ بها الانفجار الأعظم.

والراصد للكون الآن يجد أن بعض نجومه فى طور التمدد (البسط) وبعضها فى طورالانكماش والانهيار (القبض) حتى يصل إلى ما يُعرف بالقزم (الأحمر - الأبيض - البنى - الأسود).

ويقابل هذه الظاهرة فى عالم العناصر ما نلاحظه من تمددها بالحرارة (البسط) وانكماشها بالبرودة (القبض).

ويقابلنا أيضًا فى كوكبنا **الأرض المعطاءة والأشجار المثمرة والأرحام الولودة**، فى مقابل الأرض الجدباء والأشجار الشحيحة والأرحام العقيمة. إنها أنماط من ثنائية العطاء والمنع.

وفى **علم البيولوجيا**، يقابلنا انقباض **العضلات** وانبساطها، مما يسمح بحركة الأطراف والكائنات. وكذلك انقباض عضلات جدار الأمعاء وانبساطها لدفع الطعام، وأيضًا انقباض عضلة القلب وانبساطها مما يحقق تدفق الدم فى دورة الكائن الدموية، والتى إذا توقفت ماتت الكائنات.

ويعرف المتخصصون فى علم وظائف الأعضاء أن **انتقال النبضات الكهربائية** خلال الألياف العصبية فى المخ والأطراف يعتمد على تبادل حركة وسكون الأيونات (**ذرات العناصر الحاملة للشحنات الكهربائية**)، وهذه الحركة وهذا السكون يرجعان إلى فتح وإغلاق مواضع خاصة فى جدار الليفة العصبية[1].

وفى **الوصلات العصبية** (Synapses)، يحدث أمر مشابه لما يحدث فى الألياف العصبية، مع استبدال التوصيل الكهربائى للإشارات بتوصيل كيميائى يمر بمراحل فتح وإغلاق مشابهة. ولاشك أن نقل الإشارات (الكهربائية والكيميائية) فى الألياف والوصلات العصبية أمر حيوى للغاية ولولاه ما قامت الحياة حتى فى أبسط صورها.

وإذا انتقلنا من عالم البيولوجيا إلى **الحالة النفسية للإنسان** وجدناها أيضًا تمر بمرحلتى البسط والقبض، فالإنسان ينتقل دومًا من الشعور بالانشراح والسرور والتفاؤل إلى الشعور بالانقباض والاكتئاب والتشاؤم، ويتناوب حالا البسط والقبض على النفس الإنسانية باستمرار.

نلاحظ مما سبق أننا كلما ترددنا بين **الوجود المادى الحى والوجود غير المادى**، واجهتنا ثنائية القبض والبسط/ الفتح والإغلاق/ المنع والعطاء. **ثنائية واحدة تقابلنا بأشكال وأسماء مختلفة** حيثما تَوَجَّهنا، فما مصدر هذه الثنائية وشيوعها فى الوجود؟

لاشك أن ذلك يرجع إلى موجد مدبر يتمتع بتلك الثنائية؛ فسبحانك ربى الخالق الذى اتصف بـ«**القابض**» «**الباسط**»، و«**المانع**» «**المعطى**» «**الفتاح**».

(١) يكون جدار الليفة العصبية فى حالة فتح (بسط) أثناء ما يُعرف بـ Action Potential ويكون فى حالة إغلاق (قبض) أثناء الـ Resting Potential

المَيِّتُ والحى

الإحياءُ والإماتة

سبحان ربى...

الله ﷻ: المحيى المميت

منها وإليها

بزغ الوجود (كما نعرفه) منذ قرابة ٧, ١٣ مليار عام، ونشأت أرضنا منذ ٥, ٤ مليار عام، واحتاجت مئات الملايين من الأعوام حتى بردت ودبت فيها الحياة منذ قرابة ٧, ٣ مليار عام. وكما كان الوجود ضيفًا جديدًا تمامًا على العدم المطلق، كانت الحياة ضيفًا جديدًا تمامًا على الوجود غير الحى.

تُظهر النظرة المتأملة للوجود أنه ينقسم إلى **وجود حى ووجود غير حى، كما تُظهر تناوب عمليتى الإحياء والإماتة فى دورة الطبيعة**. فالكائنات الحية بعد موتها تتحول إلى غازات تختلط بالهواء وتراب يختلط بمادة الأرض. ومن عناصر تراب الأرض وغازات الهواء تتكون أجسام الكائنات الحية النباتية والحيوانية، لتعود مرة أخرى بعد موتها لتختلط بالهواء والتراب، وهكذا.

وقد عبر الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعرى عن ذلك المعنى فى بيته الشعرى الحكيم المأثور:

خفف الوطءَ، ما أظنُ أديمَ ... الأرضِ إلا مِن هذه الأجساد

كما طرح الفيلسوف والرياضى عمر الخيام هذا المعنى أيضًا قائلًا:

فامش الهوينا، إن هذا الثرى ... من أعينٍ ساحرةِ الإحورارِ

ألا يحتاج قيام منظومتى الإحياء والإماتة والميت والحى فى الوجود إلى موجد مدبر، قادر على تنظيم وتفعيل هذه الدورة، إله يتصف بأنه «المحيى» «المميت»؟

لقد عبر القرآن الكريم عن هذه القدرة بقوله:

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم].

ظاهر وباطن

غيب وشهادة

سبحان ربى...

الله ﷻ: الظاهر الباطن

للوجود عقل مدرك وعقل باطن!

تقف قدرتنا على «الرصد الحسى» عند الظواهر الطبيعية (مثل الزلازل والبرق والرعد والمطر وسقوط الأجسام)، التى هى ظاهر الوجود، ثم «يدرك» الراصد بعقله أن تلك الظواهر الظاهرة تقف وراءها قوانين الفيزياء الكلاسيكية غير الظاهرة (مثل قانون الجاذبية)، التى تحكمها فيزياء الكم الغامضة، وتحكم الأخيرة فيزياء الفراغ الأكثر غموضًا.

إن ذلك يعنى أن الظواهر تحكمها آليات باطنة، وأن كل مستوى من مستويات الفيزياء يعتبر ظاهرًا لما قبله وباطنًا لما بعده، كما يعنى أن القوانين الباطنة تتجلى فى الظواهر والآثار.

كذلك يخبرنا العلم أن مادة الكون وطاقته هما ظاهران، بالنسبة لمادة سوداء وطاقة سوداء باطنان يعجز الإنسان عن رصدهما.

وإذا تأملنا الإنسان، نجد أن صورته الجسدية الظاهرة تقف وراءها أجهزة وأعضاء باطنة، خصص لها الأطباء علمًا أسموه علم الأمراض الباطنة. وإذا انتقلنا إلى السلوك الإنسانى وجدناه محكومًا بوعى يدركه الإنسان فأطلق عليه العقل الواعى، وأيضًا بآليات لا يدركها الإنسان أطلق عليها اللاشعور أو اللاوعى، أرجعه إلى العقل الباطن. وبذلك صار الجسد ظاهرًا لباطن هو النفس.

وإذا كانت أمخاخنا هى ظاهر، فالعقول التى تُسَخِّر هذه الأمخاخ هى باطن. كذلك تلك العقول، هى ظاهر بالنسبة لروح هى باطن.

وجود يقوم على الغيب والشهادة

وتُشتق من ثنائية الظاهر والباطن فى بنية الوجود ثنائية مشابهة، وهى ثنائية الغيب والشهادة. فما هو ظاهر ينتسب إلى عالم الشهادة، وما هو باطن ينتسب إلى عالم الغيب.

وينقسم الغيب إلى غيب مطلق ليس للإنسان أن يتوصل إليه البتة فى هذه الحياة، كالملائكة والجنة والنار، وغيب مرحلى، كان غيبًا فى زمان ما أو مكان ما، ثم يصير مشهودًا مدركًا. فالكثير مما كان غيبًا من العلم فى القرن الماضى صار شهادة فى أيامنا، وما هو غيب لوقوعه فى بيت مجاور هو شهادة لأهل هذا البيت.

والمدهش أن المخ البشرى تطرقه فى الثانية الواحدة ٤٠٠ مليار معلومة، ولا يستطيع العقل أن يدرك منها إلا ألفى معلومة فقط! أى لا يصل إلى مستوى الشهادة بالنسبة للإنسان إلا هذا القدر الضئيل جدًا من المعلومات، أى جزء من ملايين الأجزاء من معلومات عالم الشهادة الذى نحيا فيه!!

وكلما تكشف للعلم بعضٌ من غوامض الوجود، فتح ذلك أبوابًا من المجهول الذى يحتاج إلى تفسير. وفى ذلك المعنى قالوا: **إذا كان ما نعرفه (عالم الشهادة/ الظاهر) يتضاعف بمتوالية عددية، فإن ما نجهله (عالم الغيب/ الباطن) يتضاعف بمتوالية هندسية.**

ويُجمل د. مصطفى محمود (رحمه الله) هذا المعنى بقوله: **لقد تفرد العصر الحديث بأن صار فيه نصف العلم غيبًا.**

وإذا كانت الظواهر والآثار هى ظاهر لباطن (هو آليات هذه الموجودات) فإن تلك الآليات هى ظاهر بالنسبة للحكمة منها، ومن ثم تصبح الغائية (التى لا يعلمها إلا الله) باطنًا لظاهر.

من أجل ذلك يُقسِمُ الله ﷻ فى كتابه الحكيم بقوله: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحاقة]. إن رب العزة يقسم بهذا النمط الذى يتميز به الوجود، وهو نمط الغيب والشهادة/ الظاهر والباطن.

وعندما عَلَّمَ الله ﷻ آدم فقد علمه ظواهر الأمور ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ ... ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة]، نعم علمه «أسماء» الأشياء والمفاهيم، أما «المسميات» التى هى حقائق الأمور فقد أخفاها وتركها باطنة/ غيب.

وفى الوقت نفسه، أخبرنا الله ﷻ أنه اختص خليله إبراهيم ﷺ بعلم حقائق الأمور، فقال ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ... ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام]. نعم لقد أراه «الملكوت» الذى هو الحقائق وراء الظواهر.

من ذلك ندرك أن بنية الوجود تقوم على ثنائية الظاهر الباطن/ الغيب الشهادة، ويدرك ذوو العقول أن تلك الثنائية يقف وراءها موجد مدبر يتصف بها، من ذلك أدركوا أن الله ﷻ هو «الظاهر الباطن».

وقد انحرفت بعض العقائد بثنائية الظاهر والباطن، فتبنت الهندوسية (وبعض ما اشتُق منها من عقائد) «مفهوم وحدة الوجود»، الذى يرى فى الوجود ظاهرًا لباطن هو ذات الموجد الأول، أى أن الموجد والموجودات شىء واحد ذو وجهين.

الحمد لله على نعمة الإسلام الذى جعل ثنائية الخالق والمخلوق من أسس العقيدة فيه.

الجمال والجلال

سبحان ربى...

الله ﷻ: الكامل ـ ذو الجمال والجلال

اتقِ شر الحليم إذا غضب

يلاحظ المتأمل للوجود ظواهر تعكس معانى **الجمال والرحمة والعطاء**، كما يلاحظ ظواهر تعكس معانى **الجلال والبطش والمنع والإذلال**.

والمدهش أن الكثير من هذه المظاهر التى تبدو متناقضة هى **إفراز لمنظومات واحدة**. فنجم **الشمس** الذى هو مفاعل نووى مُهلك يعمل بآلية الاندماج النووى، هو الشمس التى تقوم على طاقتها الحياة فى الأرض، ويسحرنا جمالها وقت الشروق والغروب. إن هذه الملاحظة ما هى إلا مثال للجمع بين صفتى الجمال والجلال، ومثال لكيف يتحول الجلال إلى جمال، وذلك بوجود الغلاف الجوى لكوكب الأرض الذى يحجب عنا الأشعة الكونية المدمرة. إنها مثال **للكمال الذى يجمع بين الجمال والجلال**.

ولا يمكن أن يكون الجمع بين منظومتى الجمال والجلال فى الكون إلا إفرازًا لصفات الجمال والجلال لموجد الكون ومدبره[1].

وإذا كانت «**صفات الجلال**» بما تنطوى عليه من بطش ومنع وإذلال منبوذة فى حق الإنسان، فإنها كمال فى حق الله ﷻ. فالكمال الإلهى لا يتحقق بصفات الرحمة والتسامح واللين فقط، وهذا ما وقعت فيه المسيحية التى بين أيدينا، والتى صورت للإنسان أن الله ﷻ جمال وحسب (الله محبة)، وذلك كرد فعل لليهودية المُحَرَّفة التى تصورت أن الله ﷻ جلال فقط.

ولاشك أن المسيحية عندما وصفت الله ﷻ بأنه جمال وحسب، كانت وراء تساؤل الكثيرين؛ ومن أين يأتى ما فى الوجود من شرور وآلام؟!، وكان المخرج الطبيعى أمام هؤلاء هو إنكار أن يكون للإله «المحبة» دور فى الوجود، وبالتالى لا مبرر لافتراض وجود هذا الإله!. ويُعرف هذا التسلسل الفكرى «**مجادلة الشر والألم**» التى طرحها الفيلسوف اليونانى القديم أبيقور وكانت أكبر أسباب الإلحاد المعاصر.

ومن ثم، نرى أن الوجود (بما فيه من ظواهر الجمال والجلال) يشير إلى ضرورة **تمتع الإله الخالق بصفات الجمال مقترنة بصفات الجلال**، وهذه هى النظرة التى أثبتها العلم للسبب الأول وراء الكون والتى طرحها الإسلام عن صفات الإله الخالق.

سبحانه ذو الجلال والإكرام

القارئ الكريم

تُظهر النظرة المتأملة لكتاب الوجود أنه يقوم على مجموعة كبيرة من **الثنائيات، المتضادة أو المتوافقة، التى تتكامل** أزواجها لتشكل لبنات الكون والحياة والإنسان.

(١) من أسماء الجمال: الرحمن، الرحيم، الحميد، الودود، الرزاق، المغنى، المجيب، الفتاح، المحيى، المعز، النافع، الباسط، المعطى، الخالق، البارئ، المصور، الشكور، الجواد، الكريم، المنعم، الوهاب، المغيث، النور، الهادى، الشافى، العفو، الغفور، الحليم.
من أسماء الجلال: المميت، المذل، الخافض، الضار، المانع، القابض، القهار، المنتقم، الجليل، المتكبر، المتعالى.
ومن الجمع بين أسماء الجمال والجلال تأتى «أسماء الكمال»، ومنها:
ذو الجلال والإكرام؛ فهو يجمع بين الجلال وبين الكرم كصفة من صفات الجمال.
والجبار: ففيه جلال البطش بالظالمين والمتكبرين، وجمال جبر (إصلاح) حال الضعفاء والمنكسرين.

ويستطيع القارئ لثنائيات الوجود أن يدرك أنها تعكس **افتقار الموجودات**؛ فالسالب يفتقر إلى الموجب، والإنسان يفتقر إلى زوجه، وهكذا... وبالتالى فهذه الثنائيات تعكس **استغناء الإله الخالق**، ومن ثم تُجلى بوضوح صفة الله ﷻ **«الواحد الأحد»**.

كذلك فإن **«منظومة الثنائيات المتناقضة المتكاملة»** فى الوجود تتطلب أن يكون وراءها **إله خالق يجمع بين أسماء وصفات متقابلة**.

من أمثلة ذلك، يجمع الله ﷻ بين صفتى **«الجامع وفالق الحب والنوى»** فإيجاد وبقاء الوجود كله (الحى وغير الحى) يقوم على الجمع والفلق. وإذا كان الإيجاد ينقسم إلى **إيجاد أول جديد وإعادة خلق**، فقد تطلب ذلك أن يكون الإله الخالق هو **«البديع المبدع» «المصور» وأيضًا «المعيد» «الباعث» «السلام»**.

كذلك يقوم الوجود على ثنائية **القبض والبسط**، والتى تتكرر بأشكال أخرى، منها المنع والعطاء، والإغلاق والفتح، لذلك فربى ﷻ هو **«القابض الباسط» «المانع» «المعطى» «الفتاح»**.

وقد استمر الوجود لمليارات السنين وجودًا ميتًا، حتى دبت الحياة فى الأرض، ولما كان من المستحيل أن يقوم عَالَمَ الأحياء على خلود الكائنات، كان ضروريًا أن تنشأ **ثنائية الإحياء والإماتة**، التى يقف وراءها الله **«المحيى المميت»** ﷻ.

وبقليل من التأمل، نجد أن بنية الوجود تقوم على ثنائية الظاهر الباطن/ الغيب الشهادة، ويدرك ذوو العقول أن تلك الثنائية يقف وراءها موجد مدبر يتصف بها، من ذلك أدركوا أن الله ﷻ هو **«الظاهر الباطن»**.

وقد نبهنا الفصل إلى أن «الأسماء» هى ظاهر لباطن هو «المسميات»، وهى الآليات التى تحكمها، وأن هذا الباطن ظاهر للغائية الأكثر بطونًا، التى هى إرادة الله ومشيئته. كما نرصد هذا الانتقال بين الظاهر والباطن فى متتالية **المخ ـ العقل ـ الروح**.

وفى ختام الفصل بَيّنَا أن كل هذه الثنائيات (وغيرها من الأسماء الحسنى والصفات الإلهية العُلى) تنبع من ثنائية أساسية، وهى **ثنائية الجمال والجلال الإلهى**، التى هى تعبير عن **كمال الله** ﷻ.

فسبحان ربى ذو الجلال والإكرام...

الفصل العاشر

جنة الوجـــود

- وجود مِعْطَاء
  - الطعام لكل فم
    - الله ﷻ؛ الرازق الرزاق ـ المقيت ـ الكفيل
  - أعضاء حيوية تفوق احتياجاتنا
    - الله ﷻ؛ الحفيظ ـ الكريم
  - اللهم اشف كل مريض
    - الله ﷻ؛ الشافى ـ الحفيظ
    - تجربة شخصية
- وجود شديد التنوع
  - الله ﷻ؛ الواسع
- وجود مستقر آمن
  - الله ﷻ؛ السلام ـ المؤمن ـ الحافظ الحفيظ
- وجود جميل وممتع
  - الله ﷻ؛ كريم ـ جميل يحب الجمال
- وجود يتهادى فيه الحياء
  - الله ﷻ؛ الحيى ـ الستار الستير
- وجود خُلق من أجلك
  - الله ﷻ؛ الهادى ـ الوكيل ـ المعين ـ الكفيل
- القارئ الكريم

تستطيع أن تدرك ببعض التأمل أن سيادة الإنسان للوجود لم تتأتَ بشكل عشوائى، بل كانت مقصودة قصدًا، وهذا ما يُعرف بـ«الغائية»[1]. ولا تقف سيادة الإنسان للوجود عند تسخيره لهذا الكائن الخليفة، بل لقد تجاوزت الغائية الإلهية تيسير الحياة للإنسان فى هذا الكون إلى أن جعله الله ﷻ فردوسًا دنيويًّا!!، بالرغم من أن حياتنا هذه دار ابتلاء!!.

وللسادة الصوفية أثر يعتزون به وينسبونه لرب العزة، ويجسد ما نقصده من هذا الفصل، وهو: «من أجلك خَلَقْتُ الأكوان».

وجود مِعْطاء

الطعام لكل فم

سبحان ربى...

الله ﷻ؛ الرازق ـ الرزاق ـ المقيت ـ الكفيل

مع التعدد الهائل للكائنات الحية؛ كأنواع حيوانية ونباتية، وكأفراد من كل نوع، نجد أن جميعها، من أدناها إلى أرقاها، قد تَوَفَّر لها غذاؤها، بل وقد فاق المتوافر منه فى كوكبنا احتياج هذه الكائنات. وبالإضافة إلى ذلك فإن الطاقة الشمسية التى هى المصدر الأول لكل المواد الغذائية طاقة متجددة لا تنفذ، ومتوفرة فى الأرض بقدر يتجاوز ما تحتاجه الكائنات بالآف وربما ملايين المرات.

إن الراصد للطبيعة يلفته التباين الشديد فى بيئاتها؛ من بيئات شديدة الحرارة إلى شديدة البرودة، ومن شديدة الارتفاع إلى شديدة الانخفاض. كما يلفته تباين الكائنات؛ من تلك التى تدب على

(١) المقصود «بالغائية» فى مجال نشأة ووجود الكون والإنسان هو أن تكون هناك حكمة أو علة لوجودهما. كما يستوعب مفهوم الغائية (على المستوى التفصيلى) أن تكون كل خطوة فى عملية النشأة ملائمة تمامًا للخطوة التى تليها، حتى يمكن القول أن الخطوة الأسبق قد وُضعت على هذه الهيئة قصدًا لتخدم الخطوة التالية. وقد ناقشنا هذا المفهوم فى الباب الثانى عند مناقشة نشأة الكون والحياة والإنسان.

كما يستوعب مفهوم الغائية (على المستوى التفصيلى أيضًا) أن تخدم آلية ما موجودًا بعينه، خاصة إذا كانت هذه الخدمة تفيد وضعًا «قد يَجِد» وقد لا يَجِد، وسنستشهد على هذا المعنى فى هذا الفصل.

الأرض، إلى تلك التى تسبح فى الماء حتى فى أعماق المحيطات السحيقة، إلى تلك التى تحلق على ارتفاعات شاهقة فى الهواء. وكل هذه الكائنات تحصل على ما يفى باحتياجاتها الغذائية.

ويُعتبر حصول الأطوار الجنينية على غذائها من الظواهر المدهشة فى الكون! فبذور النباتات وكذلك بيض الحيوانات البيوضة يحتوى على مخزون غذائى يكفيها لتمام تكوينها، أما الحيوانات الولودة فتمد أجنتها بالغذاء عن طريق الحبل السرى، دون إرادة من الأم ودون جهد من الجنين!

وإذا ما اكتمل تَكَوُّن الصغار، تتفنن الأمهات والآباء فى تغذية صغارها بأساليب متباينة تثير العجب والدهشة. بل إن المتأمل لكيفية حصول الكائنات البالغة على أرزاقها تدهشه الآليات التى تُعجز عن الحصر التى تحصل بها على غذائها.

وفى عام ١٧٩٨ أطلق توماس مالتوس[1] فرضيته، التى حذر فيها البشرية من أن إنتاج الأرض من الغذاء لن يفى باحتياجات الأعداد المتزايدة من البشر. وقد أثبتت الأيام خطأ فرضية مالتوس، فقد طور الإنسان آليات الزراعة وتربية الحيوانات بحيث استطاعت توفير احتياج البشر المتزايدة، بل وتزيد. ويعنى ذلك أن المشكلة لا تكمن فى ثروات الأرض ولكن تكمن فى بذل الجهد الإنسانى لاستثمار هذه الثروات.

قد يقول معترض، وما لنا نرى نقص الغذاء يقتل الملايين من البشر فى مناطق الجفاف والتصحر فى العديد من البلدان، خاصة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية.وقد يضيف قائلًا: ولا يقف الأمر عند البشر فقط، بل ويسرى على الحيوانات أيضًا، ألا ترى الحيوانات التى تهلك والأنواع التى تنقرض نتيجة لنقص الغذاء بسبب نقص مياه الأمطار وجفاف الأنهار. ألا يعنى ذلك قصورًا شديدًا فى تدبير الرزق؟

لا شك أن ما يطرحه المعترضون من ملاحظات حق، ولكن دعنا نتأمل الوضع الغذائى والوضع المناخى فى الأرض:

إن موارد إنتاج الغذاء ـ كما ذكرنا ـ كافية جدًّا لاحتياجات البشر، بل إن دولة واحدة كالسودان تستطيع إنتاج الغذاء الذى يكفى قارة أفريقيا كلها، لكنه التقصير البشرى لأسباب سياسية واقتصادية وغيرها. كذلك فإن دولًا (كالولايات المتحدة) تنتج فائضًا من المواد الغذائية يمكن أن يسد احتياجات ملايين الهالكين من البشر، لكنها تفضل أن تُلقى هذا الفائض فى المحيط حتى لا يختل ميزانها الاقتصادى!

(١) Thomas Malthus: (١٧٦٦ - ١٨٣٤). المفكر وعالم الاقتصاد البريطانى.

كذلك يرجع العديد من موجات الجفاف التى تؤدى إلى التصحر فى الكثير من المناطق إلى ما سببه الإنسان من إفساد للبيئة، نحن فى غنى عن تفصيله هنا، إن ذلك يعنى أن الإنسان هو المتسبب فى الكثير من هذه المجاعات التى تحصد الإنسان والحيوان على السواء.

نخلص ما سبق إلى أن كوكبنا الأرض قد زُوِّد بالآليات التى تكفل الرزق لكل ما يحيا عليه من الكائنات، بل وأضعاف ما يحتاجون.

ألا يعنى ذلك أن الخالق المدبر لحياة هذه الكائنات قد تكفل لها بالقوت والرزق، فسبحان ربى «الرازق» «الرزاق» «المقيت » «الكفيل».

أعضاء حيوية تفوق احتياجاتنا

سبحان ربى...

الله ﷻ، الحفيظ... الكريم

كنت أذكر لبعض تلامذتى الدارسين للجراحة أن الإنسان (كمثال للكائنات الحية) يتمتع بثراء كبير فى أعضائه، فاعترض أحدهم بأن الإنسان يمتلك بالكاد حاجته من الأعضاء؛ أليس لنا مخ واحد، وقلب واحد، وكبد واحد، وكليتان اثنتان، وإذا فقد الإنسان أحد هذه الأعضاء مات سريعًا، حتى سُميت بالأعضاء الحيوية؟

قلت لتلميذى المعترض: ألا تتابع ما يجرى حديثًا من جراحات نقل الأعضاء من المتبرعين الأحياء إلى المرضى؟ ألا تعلم أننا يمكن أن ننزع من الإنسان إحدى كليتيه وثلاثة أرباع الأخرى، أو نصف كبده، أو بعضًا من نخاع عظامه، أو، أو، ومع ذلك يحيا حياة طبيعية؟!

وأضفت قائلًا لتلميذى: إن الأمر لا يحتاج لاستيعابه أن تتابع جراحات نقل الأعضاء، فقد درست أن الإنسان يحتاج ليحيا حياة طبيعية إلى ثُمن نسيجه الكلوى وربع خلاياه الكبدية ومثلها من نخاع عظامه. فإذا أصيب أحد هذه الأعضاء بمرض لم تظهر عليه أعراض فشل العضو إلا بعد استنفاذ الرصيد الكبير الزائد من هذه الأنسجة.

إن الثراء فى أنسجة الأعضاء دليل جازم على خطأ مفهوم العشوائية كآلية للتطور البيولوجى، فالتطور العشوائى يحركه الاحتياج إلى الشىء، ومن ثم فهو يعجز عن أن يفسر الاحتياج المستقبلى إلى أنسجة لا تُستخدم فى الوقت الحالى.

ومن ثم، فأنسجة أعضائنا الحيوية التى تفوق احتياجاتنا دليل جازم على التصميم الذكى

من خالق حكيم مدبر، كما أنه دليل على اتصاف هذا الرب الإله بالكرم وبالحرص على حفظ حياة مخلوقاته فكان هو حتمًا «الكريم» «الحفيظ» ﷻ.

اللهم اشف كل مريض

سبحان ربي...

الله ﷻ؛ الشافي ـ الحفيظ

وكما لا تظهر أعراض فشل أحد الأعضاء الحيوية إلا بعد استنفاذ رصيد احتياطيها الكبير، فإن أعراض الأمراض المعدية لا تظهر إلا بعد معركة شرسة بين الكائن الغازي المعدي (طفيل ـ بكتريا ـ فيروس) وبين الجهاز المناعي للإنسان. ولا شك أن هذه الآليات المناط بها شفاء الإنسان من مرضه والمحافظة على حياته لا يشعر بها المريض ولا حتى الطبيب الذي يقوم على علاجه! فهي تعمل في صمت وهدوء ظاهرين.

وفي بدايات العقد الثامن من القرن العشرين، بدأت المجلات والنشرات الطبية تحدث الأطباء عن مرض الإيدز AIDS [1]، فقد ثبت أن الجهاز المناعي لجسم الإنسان يمكن أن يصيبه الضعف والشلل نتيجة لإصابته بفيروس ينتقل إليه من إنسان آخر عن طريق الدم. وعندها يصبح المريض عُرضة لسلسلة طويلة من الالتهابات الخطيرة التي تودي بحياته، نتيجة لأي عدوى بسيطة.

تجربة شخصية

ومن الخبرات التي اكتسبتها في حياتي المهنية، وتَركت في نفسي أثرًا إيمانيًا عميقًا، موقف أُحب أن أرويه لك قارئي الكريم :

حدث أن زارتني إحدى مريضاتي في عيادتي منذ ثلاثين عامًا، تعاني قرحة سطحية بظهر قدمها، حدثت نتيجة لارتدائها حذاءً ضيقًا. وصَفْتُ للمريضة مرهم مضاد حيوي، وتوقعت أن تبرأ القرحة خلال بضعة أيام. عاودتني المريضة بعد أسبوع، وإذا بالقرحة لم تلتئم، بل ازدادت مساحتها، فطلبت منها أن تُريح قدمها مع الاستمرار في استخدام العلاج. زارتني المريضة بعد أسبوعين آخرين، والحال يزداد سوءًا. تعجبتُ كثيرًا، وطلبتُ منها أن تُحضر لي في اليوم التالي المرهم الذي تستخدمه.

---

(١) هو مرض نقص المناعة المكتسب. وقد تم اكتشاف أول إصابة بالإيدز عام ١٩٧٩ في مدينة نيويورك الأمريكية، عند رجل شاذ جنسيًا.

كانت المفاجأة السيئة، لقد أعطى الصيدلى للمريضة مرهمًا يحتوى على مادة **الكورتيزون**، ويشبه اسمه مرهم المضاد الحيوى الذى وصفته لها، لا أدرى مَن المسئول؟ هل الصيدلى أم أن خَطِّى فى الوصفة الطبية (الروشتة) كان سيئًا، فالتبس عليه الأمر؟!

يا الله... بدلًا من أن تستخدم المريضة مرهم المضاد الحيوى الذى يحفظ الجرح نظيفًا ومن ثم يُعين على التئامه، قضت ثلاثة أسابيع وهى تستخدم مرهم الكورتيزون الذى من آثاره الجانبية أن يوقف التئام الجروح! وما أن توقفت مريضتى عن استخدام مرهم الكورتيزون، وقبل أن يمضى أسبوع واحد قاربت الشفاء.

عندها استوعبت الدرس الإيمانى جيدًا... لقد توقفت الآليات التى زُوِّدَ بها الإنسان لالتئام الجروح نتيجة لاستخدام المرهم الخطأ. عندها تجلت أمامى **آلية أخرى من آليات الحفظ والشفاء**، سبحان الله.

يا إلهى، هل يمكن أن يقف الإنسان عاجزًا مجردًا من جهازه المناعى ومن آليات التئام الجروح، تعصف به أى مُمْرِضات أو إصابات عابرة؟

سبحان الله... فى عام ١٩٤١ كتب جوليان هكسلى[1] كتابه «الإنسان يقف وحيدًا Man Stand Alone»، فأجابه كريس موريسون[2] عام ١٩٤٤ بكتاب جعل عنوانه «الإنسان لا يقف وحيدًا Man Does't Stands Alone» بَيَّنَ فيه العديد من **جوانب العون التى قدمها خالق الإنسان لمخلوقه**، والتى ظهر منها أننا محاطون بسياج من الحفظ والحماية الإلهية، ولولاها لمات جميع البشر قبل أن يجتازوا مرحلة الطفولة.

إن مرض **نقص المناعة المكتسب (إيدز)**، وكذلك تجربتى مع **مريضة قرحة القدم**، مَثَلَين من آلاف الأمثلة لما يقوم به الجسم البشرى لحفظ الإنسان وتحقيق الشفاء للمريض.

إن الجهاز المناعى للإنسان وكذلك القدرة على التئام الجروح آليتان لهما هدف مستقبلى، أى لهما **غائية**، فكيف تم تزويد الإنسان بهما؟!

لاشك أن التطور الداروينى العشوائى يعجز عن تفسير ذلك. ولا تفسير مقبول لذلك إلا أنهما منحة من إله رحيم حكيم «**شافى**» «**حفيظ**».

(١) Sir Julian Huxley: (١٨٨٧ – ١٩٧٥) عالم البيولوجيا البريطانى.

(٢) Cressy Morrison: (١٨٨٨ – ١٩٥١) عالم الكيمياء الأمريكى - ورئيس أكاديمية نيويورك للعلوم.

وجـود
شديـد التنـوع

سبحان ربى...

الله ﷻ؛ الواسـع

موجودات تُعجز عن الحصر

فى رحلتى الأولى إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كنت حريصًا على زيارة **متحف التاريخ الطبيعى بنيويورك**، أكبر المتاحف البيولوجية فى العالم. وإذا كانت قاعات عرض الديناصورات الضخمة بأنواعها أكثر ما يستهوى زوار المتحف، فلم تكن تلك بُغيتى، بل ما بهرنى كان تلك القاعات الخاصة بقسم التنوع البيولوجي، ففيها أدركت بحق مدى تنوع وتعدد الكائنات الحية، التى تنقسم إلى خمس ممالك. وكل منها ينقسم إلى شُعَب، فطوائف، فرتب، فعائلات، فأجناس، فأنواع[1].

ومن كل نوع توجد ملايين بل مليارات الأفراد.

بهرنى ما بين الكائنات من تباين شديد، فى أحجامها، وهيئاتها، وأجهزتها، وآلياتها الحيوية، وعدد خلاياها، و...

لم يُشبع العرض المتحفى فى متحف نيويورك نهمى، فأردت أن أرى الكائنات والحياة لم تفارقها، فقمت بزيارة حديقة الحيوان ببرونكس وحديقة النباتات ببروكلين (وهما حيان من أحياء مدينة نيويورك)، وتُعتبر الحديقتان من أكبر الحدائق فى الولايات المتحدة الخاصة بالحيوانات والنباتات، وربما فى العالم.

---

(١) تنقسم الكائنات الحية إلى خمس «ممالك Kingdom» (المملكة الحيوانية، والنباتية، والفطريات، والبروتستا، والمونيرا). وتنقسم المملكة الحيوانية إلى عدة «شعب Phylum» منها الفقاريات، التى تنقسم إلى خمس «طوائف Class» (الأسماك ـ البرمائيات ـ الزواحف ـ الطيور ـ الثدييات). وتنقسم كل طائفة إلى عدة «رُتَب Order»، كالرئيسيات والقوارض. وتنقسم كل رتبة إلى «عائلات Family» منها القطط وأشباه الإنسان Hominids. وتنقسم كل عائلة إلى «أجناس Genus» كالجنس البشرى Homo وذوات الأنياب، ويشتمل كل جنس على «أنواع Species» كالإنسان الحديث وكالذئاب.

وقد وضع هذا التقسيم عالم النبات السويدى كارلوس لينيوس (١٧٠٧ - ١٧٧٨).

لم تكن حديقة حيوان برونكس ثرية فى محتوياتها، ولاشك أن حديقة الحيوان فى الجيزة بمصر أغنى منها بحيواناتها عدة مرات.

أما حديقة النباتات ببروكلين فشىء آخر، كان فى ثرائها وتنوع نباتاتها وحسن تنسيقها ما دفعنى لأن أقول لمرافقىَّ: لولا أن الله ﷻ قد أعلمنا أن بالجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لولا ذلك لخلت هذه الحديقة روضة من رياض الجنة.

أفقت من تأملاتى فى عالم التنوع البيولوجى على خاطر ربانى يخبرنى بأن الله ﷻ قد جعل هذا التنوع لحكمة، فذكر عن عالم الحيوان ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النحل]، كما ذكر عن عالم النبات ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النور].

سبحان من لا يدرك حكمته وقدرته إلا قوم يتفكرون.

ولا يقف التنوع الهائل على الكائنات الحية، بل نشهد فى بنية الكون أنماطًا لا تُعَد ولا تُحصى، تنوع فى جميع المجالات، يشمل المجرات، والنجوم، والكواكب، والتوابع، والصخور، والعناصر، و...

ومن أعظم ما يحير العلماء فى الكون هو «اتساعه» الفعلى، الذى يكاد يكون بلا نهاية. فالكون يتمدد بسرعة تفوق قدرة الإنسان على السفر خلاله أو حتى على الرصد! ومن ثم لن يصل الراصد بأى حال من الأحوال إلى أحد أطرافه.، إن كان له أطراف!

كذلك فالناظر إلى سطح كوكبنا الأرض، الكروى، يحس أنه لا نهائى الامتداد، فكلما تقدم الناظر أو تأخر أشعرته كروية الكوكب أن هناك بقية، أى أشعرته باللانهائية.

هل فكرت ـ قارئى الكريم ـ أن التنوع والسعة لا تقف عند حدود العالم المادى، بل تتجاوزه إلى الوجود غير المادى؟ ما أشد التنوع والسعة فى المشاعر التى تعتمل فى صدورنا والأفكار التى تدور فى عقولنا والاهتمامات التى يختص بها كل منا.

وهل يقف وراء هذا التنوع والامتداد إلا قدرة يتمتع بها خالقه، وهى صفته ﷻ «الواسع».

وجــود

مستقر آمن

سبحان ربى...

الله ﷻ؛ السلام ـ المؤمن ـ الحافظ الحفيظ

وحوش مستأنسة

لا شك أن كوننا وكوكبنا وحياتنا مليئة بالظواهر المدمرة المهلكة. مثال ذلك ما نرصده فى الكون من انفجارات نووية فى النجوم التى ينفجر بعضها ويتبعثر شذرات، والثقوب السوداء التى تلتهم كل ما يقترب منها حتى الضوء!. وكذلك ما نرصده فى كوكبنا من أعاصير وزلازل وبراكين وفيضانات مدمرة، وما يتعرض له الكوكب من أشعة كونية مهلكة. وبالإضافة إلى ذلك تتعرض حياة الكائنات (ومنها الإنسان) للعديد من الأمراض الفتاكة والأوبئة، بل إن الإنسان يُزيد بتهوره وأنانيته من دمار الحياة وفساد الأنظمة البيئية فى الكوكب بتفجيراته النووية والغازات السامة والمواد الكيميائية الضارة.

وبالرغم من ذلك، تمتلك منظومات الكون وكوكب الأرض والحياة من الآليات شديدة الانضباط ما يعادل ويُلاشى التأثيرات المدمرة المهلكة لهذه الظواهر الطبيعية والبيولوجية، وتحقق لتلك المنظومات الاتزان والاستقرار، بذلك صارت منظومات آمنة فى ذاتها آمنة للإنسان، برغم ما يلاقيه من تحديات فى أثناء حياته على سطح كوكبنا الأرض.

ومن هذه الآليات الكونية المسافات الشاسعة التى تفصل الأجرام السماوية عن بعضها البعض وتفصلها عن الثقوب السوداء، والأحزمة المغناطيسية والأغلفة الجوية التى تحيط بتلك الأجرام، والقوى المعاكسة التى يعادل بعضها البعض.

أما كوكبنا المتفرد الأرض، فقد تم تزويده بالعديد من الخصائص والآليات التى تجعله محضنًا ملائمًا تمامًا لنشأة الحياة شديدة التنوع واستمرارها لمليارات السنين. ومن هذه الآليات ما يقدمه الغلاف الجوى للأرض من حماية من الأشعة الكونية شديدة الإضرار بالحياة. وأيضًا ما تقوم به القشرة الأرضية (بما تتمتع به من طبقات منزلقة وفتحات بركانية وأيضًا غلاف مائى شاسع) من معادلة ما يتعرض له سطح الكوكب وباطنه من اضطربات طبيعية مستمرة.

وإذا انتقلنا من الطبيعة الفيزيائية إلى الكائنات الحية، نجد أنها قد زُودت بأجهزة المناعة البيولوجية التى تعينها فى التغلب على الأمراض الفتاكة، كذلك زُودت الطبيعة بالآليات التى تحد من انتشار الأوبئة وتضع لها نهاية.

وتتجاوز آليات التأمين البيولوجية التعامل مع الأمراض إلى التعامل مع الوظائف الفسيولوجية، فقد أُعطى الإنسان (ومعظم الكائنات الحية) القدرة على إدراك التغيرات الضارة فى الوسط المحيط، كالارتفاع والانخفاض الكبيرين فى درجة حرارة الجو، ثم تنشيط الآليات المسئولة عن الاحتفاظ بدرجة حرارة الجسم عند الحد الأمثل لانتظام وظائف الجسم الفسيولوجية. والمدهش أن ما يتم داخل أجسام الكائنات من عمليات فسيولوجية أمور شديدة التعقيد. ولو قُدِّر أن تتم هذه العمليات فى معامل من صنع البشر لأنتج ذلك حرارة هائلة وضوضاء مزعجة. لكن شاء الله ﷻ أن تتم هذه التفاعلات فى أجسامنا بسهولة ويسر من خلال عوامل مساعدة تُعرف بالإنزيمات.

ولا يقف الأمر عند ذلك الحد، فقد زُوِّد الإنسان بالقدرة على الابتكار، تلك القدرة التى جعلت كوكب الأرض أكثر أمانًا لحياته بل جعلته فردوسًا أرضيًّا! فقد أقام الإنسان البنايات التى تقاوم الزلازل، وأقام السدود لتحاشى الفيضانات وموجات الجفاف، واكتشف الأدوية والعقاقير، واخترع أجهزة تكييف الهواء والمدافئ، وكذلك الأجهزة التى مكنته من أن يطير فى الهواء ويغوص فى أعماق الماء، و...، و....

لم يقف استئناس الوحوش عند الكون وكوكبنا الأرض وأجساد كائناته الحية. لكن الوحش الأكبر هو النفس البشرية، التى هى أشرس من كل الوحوش. ومع ذلك فقد تم استئناسها بالمنظومات الأخلاقية الفطرية وبالديانات السماوية التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

سبحان الله...

لقد أنتج الانفجار الأعظم، بالرغم مما فيه من عشوائية وفوضى ظاهرة، كونًا منضبطًا مستقرًّا، فصار جديرًا بأن يوصف بـ«التصميم الكونى الأعظم».

ثم خرج من أتون الطاقة المستعر كوكب آمن وارف الظلال ترتع فيه الحياة بشكل يفوق قدرة الإنسان على التخيل.

ثم كانت الكائنات الحية التى تم استئناس عملياتها الفسيولوجية لتتم بسلاسة ويُسر. وكذلك النفس البشرية التى ترقى لتصير نفسًا آمنة مطمئنة.

إن ذلك ما كان يتحقق لولا أن موجد الوجود ومدبره قصد قصدًا إلى ذلك، ولا يقوم بذلك إلا إله: «سلام»؛ يقصد سلامة واكتمال ما يخلق.

«مؤمن»؛ يقصد تحقيق الأمن لمخلوقاته.

«حافظ حفيظ»؛ يقصد المحافظة على ما خلق إلى أجل معلوم.

سبحانك ربى...

وجـود

جميل وممتع

سبحان ربى...

الله ﷻ؛ «كريم» « يحب الجمال

كن جميلًا ترى الوجود جميلًا

لم تتوقف عملية إيجاد الوجود عند مجرد الإيجاد.

ولم يتجاوز الوجود مستوى الإيجاد إلى مستوى الاكتمال وحَسْب،

ولم يتجاوز الوجود المكتمل إلى مستوى الانضباط وحَسْب،

ولم يتجاوز الوجود المنضبط إلى مستوى الاستقرار وحَسْب،

ولم يتجاوز الوجود المستقر إلى مستوى الأمن والأمان وحَسْب،

بل لقد وصلت عملية إيجاد الوجود إلى مستوى الاتصاف بالجمال، وما أرقاه من مستوى. ولكن هل الجمال مفهوم مطلق ـ مفهوم حقيقى ـ يمكن أن نصف به الوجود؟ أم إنه مفهوم نسبى ذاتى توهمى؟

لم يول العلم التساؤلات الفلسفية حول الجمال قدرًا كافيًا من الاهتمام، بالرغم من قناعة الكثير من العلماء أن الحس الجمالى من أكثر النشاطات العقلية خصوصية للإنسان. ولحسن

الحظ أَوْلى خبير علوم المخ والأعصاب (وأيضًا الفن) العالِمِ الفذ راماشاندران[1] القضية اهتمامه مؤخرًا، فلنرجع إليه للبحث عن أجوبة للأسئلة المهمة التى طرحناها. يقول راماشاندران:

لقد شغلتنى فى الفترة الأخيرة قضية الإحساس بالجمال وتذوق الفن، وعلاقة ذلك بنشاط المخ. ومفتاح الإجابة عن هذه التساؤلات هو كلمة «رازا Rasa» التى تتردد كثيرًا فى الفن الهندى، وهى كلمة باللغة السنسكريتية يصعب ترجمتها، لكنها تعنى تقريبًا «**التوصل إلى جوهر الشىء، وعرضه بأسلوب يثير مشاعر ومزاج المشاهد**»، فكيف يتوصل الفنان إلى ذلك الجوهر ليُعَبر عنه؟ وكيف يضع المشاهد يده عليه عند تأمل العمل الفنى ليتذوقه؟

ليست مهمة الفن نقل نسخة مماثلة تمامًا للوجود، وإلا لكفانا أن نسير فى الدنيا نتأمل ما حولنا. بل على العكس؛ **إن مهمة الفن هى تغيير صورة الوجود، أو التركيز على إحدى جزئياته لتحقيق الإمتاع (وأحيانًا القرف!) للمشاهد**، وكلما حقق الفنان ذلك تصاعدت رجفة الاستمتاع بالجمال وكان الفنان قديرًا. وأضاف راما؛ لقد توصَلْتُ إلى عدة سمات (أو قوانين)[2] لا بد أن يلتزم بها الفنان (أو مصمم الأزياء) من أجل أن يحقق للمُشاهد من الإمتاع والإثارة الجمالية مالا تحققه الرؤية الواقعية.

ولا يعنى التوصل إلى هذه القوانين والآليات فقدان البعد النفسى والروحى للجمال والفن. فإدراكنا لآليات الحب وممارسة الجنس لا يلغى البعد النفسى والروحى لهما، كذلك فإن تعمقنا فى دراسة دقائق علوم اللغة لا ينتقص من استمتاعنا بقصائد الشعر وإبداعات الأدب، كما أن إدراكنا أن الماس يتكون من الكربون، وتَوَصُّلْنا إلى خطوات تكوينه فى باطن الأرض عبر ملايين السنين، لا ينتقص من استمتاع النساء به. وبالمثل فإن وجود قوانين وآليات فطرية لا يعنى غياب دور التنشئة والحضارة فى تذوقنا للفن وفى تعبيره عن مدرسة معينة.

جمال. . . جمال . . . جمال . . .

إن ما ذكرت فيما سبق خاص بالجمال المرئى المنظور

تستطيع أن تدركه كلما تَلَفَّتَ حولك؛

---

(١) راماشاندران V.S.Ramachandran: وُلد فى الهند ويعيش فى كاليفورنيا. يشغل فى جامعة سان دييجو فى كاليفورنيا مناصب: مدير مركز أبحاث المخ والمعرفة، وأستاذ الدراسات العليا فى علوم المخ والأعصاب، وأستاذ بقسم علم النفس.
توصل راماشاندران من خلال الفحص الطبى للمرضى إلى العديد من المفاهيم الجديدة حول آليات المخ/ العقل، حتى استحق أن يوصف بأنه ماركوبولو علوم المخ والأعصاب، وبول بروكا العصر الحديث. وقد اختارته مجلة التايم الأمريكية عام ٢٠١١ كواحد من أكثر مائة شخص تأثيرًا فى العالم.

(٢) للإحاطة بهذه القوانين، راجع كتابى «أنا تتحدث عن نفسها» ص ٥٣ – ٥٨، الناشر مكتبة الشروق الدولية.

تدركه عند النظر إلى صورة مجرة من المجرات، إلى صفحة السماء المرصعة بالنجوم ليلًا أو وقت شروق الشمس أو غروبها.

تدركه عند النظر إلى سطح البحر الساكن أو الذى يموج بالأمواج،

تدركه عند النظر إلى كثبان رمال الصحراء، وآثار أقدام الإبل فوقها،

تدركه عند النظر إلى المروج الخضراء، وإلى أشجار الغابات،

تدركه عند تأمل زهرة واحدة، أو باقة من الزهور، أو بستان من أشجار الفاكهة،

تدركه عند رؤية خلايا متلاصقة تحت الميكروسكوب تُكَوِّن نسيجًا من أنسجة الجسم،

تدركه عند رؤية لوحة فنية أو تمثالًا أنفق فيهما الفنان الأسابيع أو الشهور،

تدركه... وتدركه... وتدركه...

وإذا كان الفنان المبدع يستحق ملايين الجنيهات مقابل لوحة رسمها أو تمثال نحته، وذلك لأنه حاكى فى عمله زاوية من الطبيعة وأضاف إليها حسه ورؤيته، فما أدراك بما يستحقه صانع هذه الطبيعة وصانع هذا الفنان من تقدير؟

ولا يقف الجمال عند المرئى المنظور، بل ندركه بباقى حواسنا الخمس:

فنحن ندرك الجمال فيما نسمعه من أصوات بشرية تهمس أو تشدو أو تزأر أو تزمجر.

وندرك الجمال فى ألحان متباينة تعزفها آلات موسيقية.

وندرك الجمال فى أصوات الحيوانات والطيور.

وندرك الجمال فى خرير الماء وحفيف أوراق الأشجار.

وكما للجمال المنظور قوانين تحكمه فللجَمال المسموع قوانين تحكمه، ربما كان من أهمها العلاقات الرياضية بين موجات الأصوات المتناغمة.

كذلك ندرك الجمال فى الملموسات، كنعومة بشرة الطفل وبتلات الأزهار، ورِقة الحرير، وملمس المخمل.

وندرك الجمال فيما هو مُذاقٌ ومشموم، من طعوم وروائح، وقد قدر المتخصصون أن لأمخاخنا القدرة على تذوق وشَمْ مئات الآلاف من الطعوم والروائح.

وأيضًا للملموسات والمُذاقات والمشمومات قوانينها التى تحقق لنا الاستمتاع بها أو التأفف منها، وتعين المحترفين على ابتكار الجديد من المنسوجات والأطعمة والعطور.

ولا يقف الجمال عند المحسوس بحواسنا الخمس، بل يتجاوزها إلى إدراك جوانب عديدة من **الجمال الباطنى**. فهذا الرجل تهزك رجولته وشهامته، وتلك الفتاة تلفتك برقتها وحيائها، وهذا الجرو الصغير وتلك القطة الصغيرة يهزمك ضعفهما، وهكذا...

ولا تقف تهيئة الإنسان لاستقبال الجمال عند الإحساس بما حولنا وإدراك ما فيه من جمال، بل إن المدخلات العصبية تتجاوز مراكز الإدراك الحسى ثم الجمالى فى المخ، لتصل إلى **مراكز الإشباع والإثابة**[1] فنستشعر المتعة كرد فعل لما نرصده من جمال. كذلك تقوم بعض المدخلات بتنشيط إفراز المورفين الداخلى (إندورفين Endorphin) الذى يشعرنا **بنشوة تفوق نشوة المخدرات**.

ومن مشاعر المتعة شديدة الأهمية لبقاء الكائنات الحية **ما تستشعره الإناث الحوامل** (سواء من البشر أو من الحيوانات) فى أثناء حملها وولادتها وما بعد الولادة، بالرغم مما تحمله هذه المراحل من معاناة رهيبة للإناث. ما أمتع **غريزة الأمومة** (وكذلك **الأبوة**)، تلك المتعة التى لولاها لانقرضت الحياة على وجه الأرض.

ولا يقف «الإمتاع» فى أثناء ممارسة وظائفنا البيولوجية على الأمومة والأبوة، بل تمتد مظلته لتشمل معظم نشاطاتنا الحياتية. فممارسة **العملية الجنسية** تكون مصحوبة بأقصى لذة حسية يمكن أن يستشعرها إنسان، تصور لو لم تشتمل عملية الجماع على تلك اللذة المضافة إلى متعة الأمومة والأبوة، لا شك أن قليلين منا كانوا سيحرصون على الحصول على ذرية!.

كذلك يشمل الإمتاع **الوظائف البيولوجية التى نظنها تافهة**! فعملية التبول تصحبها راحة ومتعة، وكذلك التبرز، وكذلك امتلاء الرئتين بالهواء، والاحتماء بالظل بعد التعرض لحرارة الشمس، ومرور نسمة هواء على الوجه الذى يتصبب عرقًا، بل إن حك الجلد عند الشعور بالأكلان يكون مصحوبًا بلذة، وغيرها، وغيرها.

سبحان الله...

يثبت طرحنا السابق أن الغاية من إيجاد الوجود (الغائية) لا تقف عند إنشاء وجود مكتمل منضبط مستقر آمن وحسب، لكن الصفات السابقة قد اقترنت بأن **يكون الوجود «جميلًا»**، ويتطلب ذلك أن يكون موجد الوجود ومدبره **«جميلًا محبًا للجمال»**.

---

(١) Pleasure Center: يقع فى النواة المتكئة Nucleus accumbens بمنطقة تحت المهاد Hypothalamus فى المخ.

وإذا كانت صفة الكرم تعنى إفاضة العطاء على المُكْرَم إشباعًا لحاجاته ورغباته، فإن «الكرم الإلهى» قد تجاوز أقصى حدود العطاء كما نعرفه ببشريتنا، فأصبح مصحوبًا بالشعور بالمتعة واللذة.

لقد تجاوز الإنشاء والخلق الإلهى حدود الضرورة والوظيفة وقضاء الحاجة، لقد صحب هذا الإنشاء والخلق الحس واللمسة الجمالية الفنية. كذلك صحب العطاء الإلهى الرغبة الأكيدة فى إمتاع الكائنات الحية، خاصة الإنسان، بذلك يصبح الإمتاع مقصدًا أسمى من مقاصد الإله الخالق المدبر.

سبحانك من إله «كريم» «جميل يحب الجمال».

وجـــود

يتهادى فيه الحياء

سبحان ربى...

الله ﷻ؛ الحيى - الستار الستير

الحياء يمشى على الأرض

بينما الكلب يتهادى أمامى فى الحديقة، سأل الطفل الجالس فى مواجهتى أمه سؤالًا يشى بدقة الملاحظة التى يتسم بها الأطفال، فقال: «ليه يا ماما الكلب مش بيلبس هدوم واحنا بنلبس هدوم».

أثار السؤال الطفولى البرىء فى خاطرى سلسلة من الأفكار. فلا شك أن الإنسان يرتدى الملابس لغايتين أساسيتين؛ لتقيه الحر والبرد وتقلبات الجو، وللتزين. ولكن عندما يغطى إنسان القبائل البدائية عورته بقطعة من الجلد أو بعضٍ من الريش، فذلك يثبت أن الأصل فى استخدام الملابس هو «ستر العورة». ولكن، لماذا يحرص الإنسان البدائى على ستر عورته؟ ليس هناك إجابة عن هذا السؤال إلا «الحياء» الذى يستشعره هذا الإنسان فيدفعه إلى أن يستر عورته.

واستمر تداعى الأفكار؛ لقد خُصَّ رأس الإنسان بغزارة فى الشعر، فكان لنا شعرًا فى فروة الرأس واللحية والشارب. يرى بعض المتأملين أن ذلك تكريم لرأس الإنسان بما حوى، ومن ثَمَّ

يعتبرون أن غزارة الشعر فى منطقة العانة نوعًا من التكريم للأعضاء التناسلية، لما تقوم به من دور فى عملية الخلق وتعزيز ميل كل من الجنسين للآخر بما يحققه ذلك من تراحم بينهما.

ويستمر تداعى الأفكار، لماذا لا تكون سوءة الحيوان (أعضاؤه التناسلية وفتحات الإخراج) فى وجهه مثلًا، أو فى ذراعه أو أحد أطرافه؟! لماذا تكون سوءة الحيوانات (وأيضًا الإنسان) مخفية بين أفخاذها وإلياتها ومغطاة بذيولها؟ وهل شعر العانة عند الإنسان آلية من آليات ستر العورة؟

كلما رأيتُ إنسانًا يسير أمامى مرتديًا ملابس تُشعر بالحشمة والوقار، وكلما رأيتُ حيوانًا وقد غَطَى ذيلُه عورته التى اختبأت بين فخذيه وإليتيه، أشعرنى ذلك بأن هذه الكائنات تمثل حياءً يمشى على الأرض.

دفعنى توارد هذه الخواطر إلى التيقن من أن الحياء الذى هو سمة أساسية فى بنية الإنسان النفسية، يتجلى أيضًا فى ستر العورة والسوءة فى بنية الكائنات الجسدية، التى نصفها بالحيوانية!!

ألا يتطلب ذلك أن يكون واهب الحياء خالقًا «حَيِيًّا»؟

ألا يتطلب ذلك أن يوصف الخالق الحريص على ستر عورات وسوءات مخلوقاته بـ«الستار» بل «السِّتير»[1]؟

وجود
خُلِقَ من أجلك

سبحان ربى...

الله ﷻ؛ الهادى ـ الوكيل

المعين ـ الكفيل

المبدأ البشرى Anthropic principle

«لقد تم بناء الكون على هيئة تجعله

ملائمًا تمامًا لنشأة الحياة وظهور الإنسان»

يؤكد معظم الفيزيائيين أن ما فى بنية الكون من توافق مذهل مع متطلبات نشأة الحياة ثم احتياجات الإنسان دليل على «الغائية Teleology»، التى تعنى أن الإله الخالق قد صمم الكون

---

(١) الستير صيغة مبالغة من الستار.

على هذه الهيئة ليكون مناسبًا لنشأة الحياة بصفة عامة، وظهور الإنسان بصفة خاصة. ويُعرف هذا المفهوم بـ «المبدأ البشرى Anthropic Principle[1]».

وقد عَبَّر العلماء عن المبدأ البشرى بصياغات دالة، فقالوا: **«كيف يستطيع كونٌ خالٍ من الغائية أن يخلق إنسانًا تحركه الغائية والأهداف[2]».**

وقالوا: «**يبدو أن الكون قد تم تفصيله على مقاس الإنسان Tailor - made for man**[3]».

وقالوا: «**يبدو أن الكون كان يعلم أننا قادمون**[4]».

وكلما ازدادت معارفنا عن نشأة الكون وبنيته، تَكَشَّف لنا بشكل أكبر مدى مواءمة هذه النشأة والبنية ومواءمة قوانين الكون الفيزيائية لبزوغ الحياة وظهور الإنسان. حتى يمكننا القول إنه **إذا لم يكن الإنسان فى المركز المادى للكون، فإنه بلا شك فى المركز الغائى منه**[5].

كوكبنا المتميز

إذا كان **الكون** قد تم إعداده لنشأة الحياة وظهور الإنسان، فمن باب أولى أن «**كوكب الأرض» تم إعداده أيضًا بشكل خاص** ليكون محلًا لظاهرة الحياة ومأوى للإنسان. وإذا كان من العلماء من يساوى بين الأرض وبين ملايين وربما مليارات الكواكب فى الكون، ومن ثم يتنبأ بإمكانية وجود حياة عاقلة فى العديد منها، فالكثير منهم يرون أن **كوكب الأرض شديد التميز والتفرد**، سواء فى صفاته، أو فى جيرانه من الكواكب، أو تابعيته لنجم الشمس المتميز، أو فى وقوعه فى موقع متميز فى مجرة متميزة[6]. ويرى هؤلاء **أن الأرض كوكب لا يكاد يوجد**

(١) أول من استخدم هذا الاصطلاح هو «**براندون كارتر** Brandon Carter»، عالم الفيزياء البريطانى فى جامعة كمبردج ـ عام ١٩٧٣.

(٢) مقولة لسير **جون تيمبلتون** Sir John Templeton (١٩١٢-٢٠٠٨م)، البليونير الإنجليزى، من كبار رجال المال والأعمال، أنشأ مؤسسة وجائزة تيمبلتون (تزيد على قيمة جائزة نوبل) لتشجيع الأبحاث التى تهتم بالجوانب الروحية للإنسان. كما أسس كلية تيمبلتون فى جامعة أكسفورد.

(٣) جاء ذلك فى كتاب «**مادة الكون** The stuff of the universe». تأليف عالمَىّ الفيزياء الكبيرين **جون جريبين** John Gribbin، **ومارتن ريز** Martin Rees.

(٤) مقولة لعالم الفيزياء **فريمان ديسون** Freeman Dyson.

(٥) عن كتاب The New story of science، تأليف «**روبرت آجروس** Robert Augros»، و«**جورج ستانكيم** George Stancium».

(٦) فى هذا المعنى راجع كتاب «**الكوكب المتميز** The Privileged Planet» صدر عام ٢٠٠٤. والكتاب تأليف أستاذ علوم الكون «**جليرمو جونزاليز** Guillermo Gonzalez» بجامعة Iowa state University، وأستاذ الفلسفة «**جاى ويسلى ريتشارد** Jay Wesley Richard» نائب رئيس مؤسسة Discovery المهتمة بمفهوم التصميم الذكى.

له مثيل فى الكون، فكان جديرًا بأن يتفرد بظاهرة الحياة[1]، وحول هذا المعنى اقرأ معى هذه المقولات لبعض فطاحل علوم الكونيات:

«هناك كوكب واحد فى الكون يمكن أن يحتوى على الحياة الذكية، لعلكم تعرفون هذا الكوكب!» جون أوكيف[2]، الأب الروحى لأبحاث الفضاء.

«إنه كوكب فريد، الكوكب الوحيد فى هذه المجرة، وربما فى الكون كله، الذى تعمره الحياة» بيتر ورد، ودونالد براونلى[3]، الأستاذان بجامعة واشنطن - سياتل.

«ليس هناك موزارت آخر ولا بيتهوفن آخر» دون جونسون[4]، مدير مركز دراسات أصل الإنسان بجامعة أريزونا.

ويتجدد كل فترة فى الساحة العلمية السؤال حول احتمال وجود الحياة فى أماكن أخرى من الكون، وللإجابة عن هذا السؤال طرح عالم الفضاء «فرانك دراك Frank Drake» معادلته Drake Equation (عام ١٩٦١، وعُدلت عام ٢٠٠٠) لحساب عدد الحضارات التى يمكن أن تنشأ فى مجرتنا وتتواصل معنا. توصل دراك إلى أن هذا الاحتمال يكاد يكون معدومًا. وإذا حدث هذا الاحتمال شبه المستحيل، هل يؤيد هذا المفاهيم الإلحادية؟! أيعجز الإله عن خلق وإدارة ومتابعة الحياة على بضعة كواكب؟!

وقد عبر القرآن الكريم عن معانى تسخير الوجود للإنسان فى آيات عديدة منها:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل].

---

(١) سير فريد هويل Sir Fred Hoyle

(٢) John A. O' Keefe، اشتهر بدراساته حول إمكانية نشأة الحياة فى أماكن أخرى من الكون. نشر نتائج أبحاثه فى كتاب God and the Astronomers

(٣) أستاذ الجيولوجيا Peter Ward، وأستاذ الكونيات Donald Brownlee، نشرا آراءهما فى كتابهما Rare Earth

(٤) Don Johanson مكتشف أشهر حفرية من حفريات أشباه الإنسان؛ لوسى Lucy

لذلك يلفتنا القرآن الكريم إلى أن الله ﷻ خالق الوجود ومدبره هو:

«الهادى»: الذى هدى موجودات الوجود لخدمة الإنسان.

«الوكيل»: الذى قام نيابة عن الإنسان بتسخير الوجود لخدمته.

«المعين»: الذى يُعين الإنسان فى مهام الخلافة فى الأرض.

«الكفيل»: الذى كفل للإنسان ما يحتاجه فى حياته.

سبحانك ربى...

«الهادى» «الوكيل» «المعين» «الكفيل».

القارئ الكريم

تستطيع أن تدرك ببعض التأمل أن سيادة الإنسان للوجود لم تتأتَ بشكل عشوائى، بل كانت مقصودة قصدًا، وهذا ما يُعرف بـ«**الغائية**». ولا تقف سيادة الإنسان للوجود عند تسخيره لهذا الكائن الخليفة، بل لقد تجاوزت الغائية الإلهية تيسير الحياة للإنسان فى هذا الكون إلى أن جعله الله ﷻ **فردوسًا دنيويًّا!!**، بالرغم من أن حياتنا هذه **دار ابتلاء!!**.

لا شك أن أُولى سمات فردوسنا الدنيوى أنه «**وجود معطاء**». فما ينتجه كوكبنا الأرض يفوق احتياجات كل ما يدب على أرضه، وما يطير فى سمائه، وما يسبح فى مياهه من كائنات، بالرغم من تنوع عاداتها الغذائية. فسبحانك ربى **«الرازق الرزاق» «المقيت» «الكفيل»**.

كذلك وفر الإله الخالق لكل الكائنات الحية **كمًّا احتياطيًّا كبيرًا من الأنسجة فى أعضائها الحيوية**، مما يكفل الحفاظ على وظائفها ومن ثَمَّ على حياتها إذا ما أصابها مرض أو حادث. وهل يقوم بذلك إلا إله «**حفيظ**» «**كريم**»؟ وبالإضافة إلى ذلك تم إمداد الكائنات بآليات مُحكمة دقيقة تكفل التغلب على ما تتعرض له من أمراض، كآليات المناعة والتئام الجروح، لتحافظ على حياتها. فسبحان ربى **«الشافى» «الحفيظ»**.

وترينا نظرة متأملة إلى الوجود ما فيه من «**تنوع شديد**»، يشمل أجرام الكون ومواده وعناصره، ويشمل عالم الأحياء فى كوكبنا، ويشمل المشاعر التى تعتمل فى صدورنا والأفكار التى تدور فى عقولنا والاهتمامات التى يختص بها كل منا، إن هذا الاتساع فى التنوع لا يقف وراءه إلا إله اتُّصِفَ باسمه «**الواسع**».

ويُذكِّرنى الوجود من حولنا بشخصيتَىّ **دكتور جيكل ومستر هايد**[1]! الإنسان الذى يجمع فى جنباته بين شخصية شريرة وأخرى خَيِّرة. فالوجود من حولنا (فى الكون وكوكبنا الأرض والجسد البشرى والنفس الإنسانية) وجود هائج مستعر غير مستقر فى حقيقته، لكنه قد زُوِّدَ بآليات دقيقة حولته إلى جزيرة آمنة مطمئنة. ما أرحمه من إله **«سلام» «مؤمن» «حافظ حفيظ»**.

ولم يقف أمر تنظيم الكون والأرض والحياة والإنسان عند العطاء والتنوع والاستقرار والأمن. بل لقد **تميز الوجود بالجمال**، جمال تدركه كل نفس جميلة، جمال فى عالم المادة وجمال فى عالم المعانى، جمال يشيع فى الوجود بسخاء، ولا يكون إلا مددًا من إله **«جميل يحب الجمال»**، إله **«كريم»**.

ولا يكتمل الجمال إلا بالحياء، فكان ستر عورات وسوءات الكائنات سمة ظاهرة فى بنيتها، تمامًا مثلما كان الحياء سمة ظاهرة فى النفس الإنسانية، فسبحانك من **إله خالق «حَيِّى» «ستار سِتِّير»**.

إن ما مضى هو جزءٌ من سمات جنة الوجود، التى أثبت العلم أنها أُنشأت على هذه الهيئة قصدًا من أجل أن تكون **مسرَحًا لقدومك وحياتك**، مسْرَحًا لا يحقق لك أسباب العيش وحسب، بل ويحقق لك السعادة والمتعة، فسبحان ربى **«الهادى» «الوكيل» «المعين» «الكفيل»**.

سبحان ربى العظيم الوهاب

الذى تتناسب هبته مع عظمته

 ...

* * *

(١) قصة من تأليف الكاتب الأسكتلندى روبرت ستيفنسون نشرها عام ١٨٨٦ـ وهو صاحب قصة جزيرة الكنز.

الباب الرابع

الوجـــود والقـــرآن

عندما نتحدث عن الوجود فنحن نقصد به الخالق والمخلوق،
والمخلوق يشمل الكون والإنسان،
والإنسان هو البرزخ بين الخالق والكون.

والوجود ثلاثة عوالم: عالم الشهادة ـ وعالم المعنى ـ وعالم الغيب.

وإذا كان القرآن الكريم مرآة لكل ما سبق من مكونات الوجود،
فالوجود مرآة لكل ما حوى القرآن الكريم...

ومن ثم، إذا كان القرآن الكريم رسالة توحيد،
فالوجود رسالة توحيد...

الفصل الحادى عشر

القرآن الكريم

وعوالـم الوجـود

- الوجود مِجهر ومُقرِّب
  - عوالم الوجود
  - علاقة منطقية جدلية
  - القَسَم وضرب الأمثال فى القرآن الكريم
- من الأسماء والصفات الإلهية إلى عوالم الوجود
  - سبحان ربى... مالك الملك
  - سبحان ربى... أحسن الخالقين
  - سبحان ربى... أحطت ووسعت كل شىء علمًا
  - سبحان ربى... من لا يرحم لا يُرحم
- الأمثال القرآنية وعوالم الوجود
  - سبحان ربى... مَثَل النور
  - سبحان ربى... مَثَل الماء
  - سبحان ربى... مَثَل الجبال
  - سبحان ربى... مَثَل الشجر
  - سبحان ربى... مَثَل الميزان
  - سبحان ربى... مَثَل الحياة والموت، والعمى والصمم والبكم
  - سبحان ربى... المتجاهل لما يعلم كالحمار
  - سبحان ربى... مَثَل العبد الرِّق ومَثَل المشركون العناكب
  - من القرآن الكريم إلى الحديث الشريف: مَثَل رياض الجنة
  - إلى حياة الصالحين... من نار إلى نار
- الرمز فى الفن الإسلامى
  - رمزية المئذنة
  - رمزية رقصة المولوية
- الإنسان المرآة البرزخية
  - المخلوق الحامل لصفات الخالق
  - المخلوق الحامل لصفات المخلوق
- القارئ الكريم

رأينا فى الفصول السابقة أن الانطلاق من الوجود يقودنا إلى إدراك الكثير من الأسماء والصفات الإلهية التى جاءت فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة. وفى هذا الفصل ننطلق من القرآن الكريم وما فيه من أسماء وصفات، للتعرف على علاقتها اللصيقة بعوالم الوجود، فما عوالم الوجود إلا «ظهور» للأفعال والصفات الإلهية، حتى مَثَّلَها البعض بانعكاس صور الأشياء فى الماء.

الوجود مِجْهَر ومُقَرِّب[1]

عوالم الوجود

تستطيع النظرة «الموضوعية» المتأملة للوجود أن تصنفه إلى ثلاثة عوالم، تبعًا لإحساسنا بها وإدراكنا لها.

أول هذه العوالم هو «**الوجود المادى**»، ويشمل ما ندركه **بحواسنا** من موجودات، كالجبال والأنهار، والشمس والقمر، والضوء والظلام، ... وأنا وأنت. ويُطلق على هذا الوجود فى المنظور الإسلامى عدة أسماء منها: «**عالم الشهادة**»، «**عالم المحسوسات**».

وثانيها، «**الوجود المعنوى**»، ويشمل ما ندركه **بعقولنا من معان لا تدركها الحواس**، كالإيمان، والحرية، والحيرة، والطمأنينة. ويُطلَق على هذا الوجود فى المنظور الإسلامى: «**عالم المعنى**».

وثالثها وآخرها، هو «**الوجود الغيبى**»، الذى يشمل **المعقولات العقلية التى لا ندركها بحواسنا ولا عقولنا**. وهذا الوجود إما «**غيب مرحلى**» ينكشف فى مرحلة لاحقة، مثل الغيب المكانى الذى تقع أحداثه بعيدًا عنا، أو الغيب الزمانى الذى لم يقع بعد. وإما «**غيب كامل**» لا

(١) مجهر = ميكروسكوب، يُستخدم لتكبير الأجسام الدقيقة.
مُقرب = تليسكوب، يُستخدم لرؤية الأجسام البعيدة.

ينكشف إلا فى حياتنا الآخرة كالملائكة والصراط والجنة والنار. ويُعرف هذا الوجود **الثالث** فى المنظور الدينى **بعالم الغيب**[1].

وتعلو هذه العوالم الثلاثة من الوجود، وما يقابلها من المنظور الدينى، مرتبتين أخريتين، هما «**الأفعال والأسماء والصفات الإلهية**» التى رأينا فى الفصول السابقة أن موجودات الوجود كلها نابعة منها، ثم «**الذات الإلهية**» التى تُنسب إليها هذه الأفعال والأسماء والصفات، وهى غيب مطلق.

والعلاقة بين عوالم الوجود الخمسة «**علاقة تزامنية تصاحبية**»، أى أنها كلها موجودة فى آن واحد، كما أنها «**علاقة سببية**»، فالذات الإلهية هى صاحبة الأسماء والصفات والأفعال الإلهية، التى هى مصدر العوالم الثلاثة الأولى (الشهادة والمعنى والغيب).

علاقة منطقية جدلية

رأينا فى فصول الكتاب السابقة أن قراءة الوجود (الكون ـ الحياة ـ الإنسان) تُبرهن على المفاهيم المحورية للألوهية (هناك إله ـ التوحيد ـ الأسماء والصفات). **وبذلك يتفق عطاء القرآن المنظور (الوجود) مع مقصد القرآن المسطور (القرآن الكريم).**

والمُطالع للقرآن الكريم يدرك بجلاء العلاقة الأصيلة بينه وبين القرآن المنظور. **فالقرآن المنظور هو الحجة على صدق القرآن المسطور** ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]. كذلك **يحيلنا القرآن المسطور دائمًا إلى القرآن المنظور، حتى يصبح المسطور بمثابة النص المكتوب ويصبح المنظور بمثابة الرسم التوضيحى** فى أى مرجع أو بحث ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية]. كما **يمتزج القرآنان بشكل مدهش** عند القسم وضرب الأمثال فى القرآن الكريم.

وإذا كنا قد انطلقنا فى الفصول السابقة من **القرآن المنظور** لنصل إلى حقائق الألوهية فى القرآن المسطور، **ففى هذا الفصل سننطلق من القرآن المسطور إلى مراتب الوجود الثلاث**

(١) يطلق الصوفية على هذه العوالم الثلاثة من الوجود اصطلاح «مراتب الوجود» وهى: عالم الملك ـ عالم الملكوت ـ عالم الجبروت، بالترتيب. ولهذه المصطلحات لديهم العديد من المعانى الأخرى.

(الشهادة والمعنى والغيب)، وبهذا «المنهج المنطقى الجدلى» تتكامل مفاهيمنا عن العلاقة بين القرآنين، ويكتمل مقصدنا من هذا الكتاب وهو إدراك أن «الوجود رسالة توحيد» تمامًا مثلما أن «القرآن الكريم رسالة توحيد».

القَسَم وضرب الأمثال فى القرآن الكريم

يُعتبر القسم وضرب الأمثال الأسلوبين الأمثل والأكثر شيوعًا فى القرآن الكريم عندما يتعرض للعلاقة بينه وبين عوالم الوجود.

إذا نظرنا إلى منهج القسم فى القرآن الكريم وجدنا أن الله ﷻ يقسم بالكثير من المُدْرَك فى عالمى الشهادة والمعنى، وأيضًا من عالم الغيب غير المدرَك، على صحة ما يريد تأصيله من معانٍ وردت فى القرآن المسطور، ومن ذلك:

قَسَمٌ من عالم الشهادة:

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الواقعة].

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانشقاق].

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفجر].

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الضحى].

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الأعلى].

قَسَمٌ من عالم المعنى:

﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾ [القيامة].

قَسَمٌ من عالم الغيب:

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤﴾ [الحاقة].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١﴾ [المعارج].

قَسَمٌ من عالمي المعنى والغيب:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾ [القيامة].

قسم من عوالم الشهادة والمعنى والغيب:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠﴾ [الحاقة].

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس].

بهذه الأنماط من القسم لا يكون القرآن المنظور حجة على صحة القرآن المسطور وحسب، بل يمتزج القرآن الكريم بعوالم الوجود الثلاثة.

كذلك يستخدم القرآن الكريم أسلوب ضرب الأمثال للاستدلال بالمحسوس المادى على المعنوى والغيبى، ولا شك أن تجسيد هذه الأمور يحقق لها حضورًا وإدراكًا كبيرين فى عقل ونفس المتلقِى. وفى ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت].

﴿... وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر].

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ ... ٥٨﴾ [الروم].

لاحظ أن القرآن الكريم فى الآيتين الأوليين يلفتنا إلى أن إدراك ما وراء الأمثال لا يتوصل إليه إلا العالمون والذين يتفكرون.

لذلك يحتاج إدراك العبرة من الأمثال إلى تكرار التأمل، فالعين ترى بالنظرة الأولى الوصف العام على الجملة، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾﴾ [تبارك]. كذلك الأذن، تتبين تفاصيل الصوت عندما يعاد عليها مرة ثانية، فتتبين ما لم تتبينه بالسماع الأول.

كذلك فإن تحصيل المعنى لا يحصل للإنسان إلا بعد نية وهمة فى طلبه واجتهاد فى نيله. وكلما كان المعنى ثمينًا وعاليًا وعميقًا، تطلب ذلك تحمل المشقة لقطع الشُّقة. لذلك جاء الأمر بمداومة الذكر والتذكير لتجنب الغفلة ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الأعلى].

ويحدد القرآن الكريم قاعدة محورية عند تأمل ما جاء فيه من أمثال، فيقول: ﴿...وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم]، أى أن المثل مهما عظم فى صفاته (كالجبال والسماوات) فصفات الله ﷻ هى العُلى. ومن ثم فالله ﷻ «العزيز» أعز من أن يشابهه شىء بالرغم من ظهور صفاته فى الخلق، وهو «الحكيم» الذى يُظهر هذه الصفات من خزائن الغيب بأحكم الأساليب وأدق المقادير.

وفى المقابل، مهما صغر المثل ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡىِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِى بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة]. فالله ﷻ لا يستحى من ضرب هذا المثل، والمؤمنون يوقنون بأنه الحق من ربهم. وفى الوقت الذى تهدى به الأمثال عقول من هم أهل للاعتبار فإنها تضل عقولًا أخرى.

بعد هذه المقدمة عن العلاقة بين القرآن الكريم والوجود يأتى دور التفصيل. وسنعرض هذه العلاقة منطلقين من القرآن الكريم على مستويات ثلاثة:

- الأسماء والصفات الإلهية.
- عوالم الوجود.
- الإنسان.

من الأسماء والصفات الإلهية

إلى عوالم الوجود

تحت هذا العنوان نعرض أمثلة قليلة من القرآن الكريم تبين انعكاس الأسماء والصفات الإلهية على عوالم الوجود. وتستطيع قارئى الكريم أن تقيس على هذه الأمثلة عند تدبرك لآيات كتاب الله ﷻ.

سبحان ربى....

مالك الملك

يقول الحق ﷻ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران]. سبحانك ربى «مالك الملك»، **استخلفت بعضًا عن خلقك على بعض من ملكك، وآثرت بعض خلقك بالعز، فالملك كله لك وبيدك، والعطاء كله بقدرتك.**

بعطائك تَسَمَّى بعض خلقك باسمك «المَلك» وباسمك «العزيز»،

بعطائك تجلت بعض أسمائك وصفاتك من عالمها فى عالم الشهادة،

بعطائك تجلت فى بعض خلقك مظاهر الملك والولاية والحفظ والعدل.

ويأتى يوم يتعرى فيه كلٌ من خلافته، ويفارقه المُلك المعار، بل يتلاشى الملك عن عوالم الوجود، ولا يبقى إلا مالك الملك ﴿ ... لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر].

سبحان ربى...

أحسن الخالقين

عَرَّفنا فى الفصل الثانى عملية الخلق بأنها «التقدير للشىء» قبل برئه وتصويره، ومع ذلك يقول ربى ﷻ واصفًا منزلته فى عملية الخلق:

﴿ ... فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]. .

سبحانك... **أَعَرْتَ صفة «الخالق» لبعض خلقك، فتجلت فى عوالم الوجود.**

ربما كان «الإبداع الفنى» أحد أشكال محاكاة «عملية الخلق» على المستوى الإنسانى. فإذا كان الله ﷻ يخلق الجمال فى الأشياء، فالفنان يُظهر الجمال فى الأشياء.

إن الخلق البشرى قدرة مُعَارَة، ليست ذاتية، وليست إيجاد من عدم على غير مثال سابق، كما هو الحال فى الخَلْق الإلهى.

سبحانك ربى... أحسن الخالقين.

سبحان ربى...
أحطتَ ووسعتَ كل شىء علمًا

سبحانك ربى...

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه].

﴿ ... وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة].

سبحانك... وسعت ربى وأحطت كل شىء علمًا... علمك الواسع المحيط قديم أزلى... فحاشاك أن يَجِدَّ فى علمك علم.

أظهرت علمك فى عالم الشهادة خلقًا بعد خلق، إنها أمور تبديها ولا تبتديها،

وأخرجت من خزائن علمك ما تفضلت به على البشر، فصار منا العلماء بقطرات من العلم الإلهى بقدر ما تقتضيه حكمتك، وبذلك تجلى اسمك «العليم» واسمك «المحيط» واسمك «الكريم» فى عالمى الشهادة والمعنى...

سبحانك ربى...

سبحان ربى...
مَن لا يَرحم لا يُرحم[(1)]

«جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا وأنزل فى الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[(2)].

---

(١) حديث شريف متفق عليه.

(٢) رواه البخارى.
أضفنا هذه الصفة من الأحاديث النبوية الصحيحة، حتى ينسحب عليها منهجنا فى الاستشهاد.

حديث نبوى صحيح صريح يجسد المعنى الذى ندور حوله؛ فالرحمة خَلْق واحد؛ تلك التى يرحمنا الله ﷻ بها فى الدنيا والآخرة، وتلك التى تتراحم بها الخلائق فيما بينها، وأيضًا رحمة الأمومة التى هى المثل الأعلى لرحمة المخلوقات...

إنها رحمة الله ﷻ وقد تجلت فى عالمى الشهادة والمعنى.

ويجسد نفس المعنى الحديث القدسى الصحيح: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا»[1].

فرض الله ﷻ تحريم الظلم، وارتضاه خُلُقًا لنا، لأنه خُلُق إلهى، ومن ثم فإن ما نمارسه نحن البشر من العدل إنما هو عطاء من العدل الإلهى.

لذلك فإن القول «تخلقوا بأخلاق الله» إن لم تصح نسبته للرسول الكريم ﷺ فقد صح معناه.

الأمثال القرآنية

وعوالم الوجود

رأينا فيما مضى من فصول الكتاب، كيف أن «الذات الإلهية» تتجلى فى «الصفات والأسماء والأفعال الإلهية»، وتلك تتجلى فى المخلوقات التى تشمل «عوالم الشهادة والمعنى والغيب».

والمتأمل للقرآن الكريم يرصد هذه العلاقة بشكل جَلِىّ، فالقرآن الكريم يستخدم أسلوب «ضرب الأمثال» ليجسد لنا المعنى فى عوالمه المختلفة. لذلك نجد أن المثل القرآنى يمتد عبر كل عوالم الوجود. ومن ثم فإن المثل القرآنى ينقل مضمون الكلمة من عالم إلى عالم ومن مستوى إلى مستوى، حتى يمكننا أن نطلق عليه اصطلاح «معراج الكلمة».

وبالتالى فإن، كل ما فى عالم الشهادة يشير إلى عالم المعانى وعالم الغيب، ثم يشير إلى الأفعال والأسماء والصفات التى هى مجلى الذات الإلهية. لذلك نستطيع أن نقول إن كل ما ندركه بحواسنا هو الظل المادى فى الأرض للعوالم غير المادية الأربعة (المعنى ـ الغيب ـ الأفعال والأسماء والصفات ـ الذات الإلهية).

---

(١) رواه مسلم.

فلنتأمل هذه الأمثال:

سبحان ربى...

مَثَلُ النور

لا شك أن مَثَل النور من أكثر الأمثال استخدامًا فى القرآن الكريم. وقد أُستخدم للإشارة إلى عوالم الوجود كلها (مثل باقى الأمثال)، وللدلالة على عدة مستويات، أهمها:

نور الله... ﷻ

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور].

تشير آية النور إلى **أن الله ﷻ هو نور السماوات والأرض**، أى «**مُظهرها**»، أوجد الوجود وأمده بالدوام والبقاء، ثم تُشَبِّه الآية نور الله (**عالم الغيب**) **بنور مصباح المشكاة** (عالم الشهادة).

وإذا انتقلنا بالآية إلى (عالم المعنى)، وجدنا **أن نور الله ﷻ (ويشير هنا إلى الفطرة السليمة) يضىء قلب الإنسان بالإيمان**، حتى وإن لم تصله الديانات (ولو لم تمسسه نار)، وتكتمل هداية الله ﷻ للبشر باجتماع نور الديانات مع نور الفطرة (نور على نور).

ولا شك **أن نور الله ﷻ هو الذى يمد الجنة وأهلها (عالم الغيب)** بما فيها من نعيم خالد باقٍ، نعيم مادى ونعيم الرضا والأمن والطمأنينة.

وإذا وصلنا إلى عالم الأسماء والصفات (ومن ورائه الذات الإلهية)، **وجدنا أن اسم الله ﷻ «النور» هو الذى يمد عوالم الوجود الأدنى (الشهادة ـ المعنى ـ الغيب)** بما أشرنا إليه فى الفقرات السابقة.

نور الرسول الكريم ﷺ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

تضرب الآية المثل بالسراج المنير للإشارة إلى رسولنا الكريم ﷺ. وإذا كان السراج فى عالم الشهادة يبدد ما يحيطنا من ظلمات، فالرسول ﷺ ينير القلوب (عالم المعانى) ويبدد ما فيها من جهل وغفلة. بل يحمل سراجنا المنير البُشْرَى للمؤمنين بالفضل الإلهى الكبير الذى لا يكتمل إلا فى الجنة (عالم الغيب)، ولا يقتصر دور رسولنا على البُشْرَى، بل هو الذى يقودنا بمنهج الله ﷻ إلى الجنة، ويشفع فينا بما أذن له الله ﷻ من شفاعة.

ولا شك أن السراج المنير تستضىء منه سُرُج أخرى، تصبح بمثابة الهداة للناس فى الظلمات، وليست هذه السُرُج إلا العلماء والصالحين.

نور القرآن الكريم

﴿... وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف]. تستعير الآية الشريفة دور النور من عالم الشهادة، وتضفيه على القرآن الكريم الذى يبدد ظلمات القلوب (عالم المعانى). ولا شك أن اتباع منهج القرآن الكريم هو الذى يبدد ما يمكن أن يكتنفنا من ظلمات فى الحياة الآخرة (عالم الغيب)، حين ينجو بنا من النار، ويقودنا إلى الجنة بإذن الله ﷻ.

نور العلماء والصالحين

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام].

وكما أن اتباع النجوم هو دليل الهداية فى سفر الصحراء وسفر البحر (عالم الشهادة)، فإن اتباع العلماء والصالحين هو دليل الهداية لسفر المؤمن فى طريق الله ﷻ (عالم المعنى)، ومن ثم فالتعلم منهم هو دليلنا فى الطريق إلى الجنة (عالم الغيب).

نور الهداية

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ... ﴿١﴾﴾ [الأنعام].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب].

﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم].

تكررت كثيرًا فى القرآن الكريم الإشارة «بالنور» إلى الهداية وما يُحَصِّلُها من أعمال صالحة، وكذلك الإشارة إلى الضلال وما يقود إليه من مهلكات وخبائث «بالظلمات». ولا شك أن هذا المثال ينطبق على عوالم الوجود الثلاثة (الشهادة ـ المعنى ـ الغيب)، ويقف وراءه اسم الله ﷻ «النور».

هل لاحظت أن «النور» يأتى ذكره فى القرآن الكريم دائمًا بصيغة المفرد، بينما تأتى الظلمات بالجمع؟، نعم، فطريق الهداية واحد والمهلكات والخبائث كثيرة.

ولإظهار تأثير النور فى هداية القلوب يضعنا القرآن الكريم فى صورة مقابلة مستخدمًا أسلوب التمثيل أيضًا:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ ... ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة].

وبأسلوب فريد يطرح القرآن الكريم مثالًا يفصل به مثال الظلمات:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة]. إنه حال المنافقين؛

أناس دخلوا فى الإسلام عند مَقْدِم الرسول الكريم ﷺ إلى المدينة بعد أن عرفوا الحق من الباطل (أضاءت ما حوله)، ثم غلبتهم نفوسهم الأمارة بالسوء، فكانوا كمن ذهب نور الهداية من قلوبهم، فرجعوا إلى ظلمة كفرهم.

لقد أضاء نور الرسول ﷺ قلوبهم بالنور،

ثم بنفاقهم انطفأ ذلك النور فوقعوا فى ضلال كبير.

كانوا فى نور فصاروا فى ظلمة (عالم الشهادة).

كانت قلوبهم مؤمنة، فغلبها الضلال (عالم المعانى).

كانوا من الموعودين بالجنة، فباعوها بالدرك الأسفل من النار (عالم الغيب).

كذلك استخدم القرآن الكريم، كَمَثَل، هيئة أخرى للنور، وهى «البرق»، ذلك أنه لافت للنظر وغنى بالدلالات. فللبرق وجهان، فهو من تجليات الجمال وأيضًا من تجليات الجلال.

فجمال البرق، تلمسه فى قوله ﷻ:

﴿... كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ ... ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة].

فالبرق باعتباره نورًا، يضىء عالم الشهادة، ويضىء القلوب (عالم المعنى)، ويضىء مآل المؤمن (عالم الغيب).

وجوانب الجلال فى البرق، نلمسها فى قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد].

فالبرق من الصواعق التى تخيف المسافرين (جلال)، وفى الوقت نفسه تبشرهم بالمطر المنتظر الذى يطمعون فيه (جمال). ويقابل هذه الصورة فى عالم المعنى القلوب الوجلة التى تنتظر طمأنينة الإيمان.

كذلك يستحضر ذكر البرق ما يكتنف المرور السريع على الصراط يوم الحساب من جمال وجلال (عالم الغيب).

وللبرق أيضًا دلالات أخرى فى عالمى المعنى والغيب. فهو إشارة إلى الإلهامات والواردات التى تغمر قلوب العارفين من العوالم العلوية، فتمدهم بومضات من العلوم اللدنية.

اللهم أمدد قلوبنا بفيض من المعارف اللدنية التى تعرج بنا من نور عالم الشهادة، إلى الله ﷻ، نور السماوات والأرض.

سبحان ربى...

مَثَلُ الماء

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس].

﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ [ق].

﴿... وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾﴾ [الحج].

تضرب هذه الآيات الثلاث مثلًا من «**عالم الشهادة**»، فالأرض الجدباء الهامدة الخالية من الزرع تتفجر فيها العيون أو ينزل عليها المطر فتنتعش بالحياة.

وإذا انتقلنا بهذا المثل إلى «**عالم المعانى**» وجدنا أن القلوب الجدباء الهامدة الخالية من الإيمان، إذا غمرها ماء العلم، انتعشت بالحياة وأنبتت الإيمان واليقين.

ونفس المثل ينطبق على «**عالم الغيب**»، فعند البعث يسقى ماء الحياة، الأجساد الميتة فتنتعش. ومن ثم فالمثل آية على إمكانية البعث والنشور.

وما هذه المستويات من المعانى إلا امتداد **للأفعال والأسماء والصفات (المحيى المميت - المعطى الوهاب)** التى هى تجليات للذات الإلهية.

إنه مثل من عالم الشهادة، يجسد مفعول العلم فى عالم المعانى، ويستحضر حدث البعث من عالم الغيب، ويربط هذه العوالم جميعًا بالأفعال والأسماء الصفات، ثم بالذات الإلهية.

ما زلنا مع أمثلة الماء:

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد].

فى هذه الآية، يضرب الله ﷻ مثلين من عالم الشهادة. الأول، **ماء المطر الذى يجرى فى الأودية**، والثانى، **المعادن التى تُصهَر بالنار**. فالماء الجارى والمعادن المصهورة فيها ما هو نافع للناس وفيها الزَبَد الذى يطفو على السطح ولا فائدة منه.

وإذا سحبنا المثال على عالم المعانى، وجدنا الإمام أبا حامد الغزالى **يؤول الماء بالقرآن الكريم، والأودية هى القلوب**، وأما **الزَبد فهو الكفر والنفاق**، فالبرغم من ظهوره على سطح الماء فإنه لا يثبت ولا يفيد، أما الهداية فهى ما يثبت وينفع الناس. وينطبق المعنى نفسه على المعادن المصهورة.

ويؤول الإمام الرازى **الماء بالعلم** الذى أعطى الله ﷻ الرسل منه أودية تفرعت أنهارًا من العلماء، الذين أعطوا العامة جداول صغيرة على قدر طاقتهم (= بقدرها).

وإذا حملنا مَثَلَ الماء إلى **عالم الغيب**، وجدنا أن القرآن والعلم (ومثلهما الإيمان واليقين

والعمل الصالح و...) ينفعان أصحابهما يوم القيامة، بينما الكفر والنفاق (ومثلهما الباطل والعمل السيء و...) لا ينفعان أصحابهما، بل يذهبان جفاء، ويذهبان بهم إلى الجحيم.

إنهما مثلان من عالم الشهادة (الماء ومصهور المعادن) يجسدان تأثير الصالحات وكذلك الطالحات على الإنسان من هداية وضلال (عالم المعانى)، ويجسدان أيضًا تأثيرهما عليه فى الحياة الآخرة (عالم الغيب).

وما هذه المستويات من المعانى إلا امتداد للأفعال والأسماء والصفات (النافع الضار)، التى هى تجليات للذات الإلهية.

ويضرب القرآن الكريم مثلًا ببيئة أخرى من الماء، وهى «الغيث»:

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾ [الحديد].

فى الآية الكريمة، يمثل الله ﷻ الحياة الدنيا بالغيث وما يتبعه من أحداث: فما أن يهطل المطر، ينبت الزرع وينضج، ثم تعود الأرض إلى سابق عهدها من الموت بعد أن تجف أعواد النبات.

ومن هذه الصورة ننتقل إلى (عالم المعانى)، فالحياة الدنيا، يستمتع فيها الكفار بكل أنوع المتع. وفى لحظة، ينضب معين المتع ويفارق الإنسان الحياة بالموت. لكن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد كما فى مثال الغيث والنبات، بل للكفار مآل مظلم بعد رحلة الدنيا، فى مقابل المغفرة والرضوان من الله ﷻ للمؤمنين (عالم الغيب).

وكما أن انتعاش الأرض بالغيث ودورة النبات فيها خدعة (غرور) إذا اعتقد الإنسان بدوام الحال، إذ الحقيقة أنها تعود لسابق عهدها من موت، كذلك فإن الحياة الدنيا خدعة أكبر، إذ لا تنتهى بالموت، بل يعقب ما فيها من متع مآل مظلم للكافرين.

إنه مثال من عالم الشهادة (غيث ونبات، ثم حطام)، ينسحب على عالم المعنى (لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، ثم موت)، ليصل بنا إلى عالم الغيب بما فيه من عذاب أو مغفرة ورضوان.

وهيئة ثالثة للماء، يضرب بها القرآن الكريم المثل، وهى «**الطوفان**»:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت].

فى عالم الشهادة، أهلك طوفان نوح عليه السلام الكافرين من قومه، وأنجاه الله ومن ركب معه السفينة من المؤمنين.

وينسحب المثل على (عالم المعنى)، فكل الرسالات السماوية والأنبياء والرسل كانوا بمثابة سفينة النجاة لأقوامهم، نجا من ركبها، وهلك من تخلف عنها.

وفى (عالم الغيب)، يحمل طوفان الكفر الظالمين لأنفسهم إلى جهنم، ويفوز المؤمنون الذين تحملهم سفينة الإيمان إلى الجنة.

إنها قصةٌ «آية»، دروسها وعطاؤها باقية للبشر إلى يوم القيامة.

سبحان ربى...

مثل الجبال

من الأمثال التى يستخدمها القرآن الكريم كثيرًا، مثل «**الجبال**».

ومن البديهى أن يكون الاستخدام الأكثر شيوعًا مثل «الجبال» هو إظهار أن «**رسوخ**» هذه المخلوقات يتداعى ويتلاشى هيبة فى مواجهة الأمور الجسام المتعلقة بالألوهية.

رسوخ الجبال وتقديس الله عز وجل

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف].

فالجبل على رسوخه لم يحتمل تجلى الله عز وجل له، فدُكَّ دكًا.

وقد صَوَّرَ هذا الموقف من عالم الشهادة بشكل حسى مباشر جلال الله عز وجل (عالم المعنى وعالم الغيب)، فكان أن خَرَّ موسى صعقًا.

رسوخ الجبال وتوحيد الله ﷻ

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ ﴾ [مريم].

فالجبال على رسوخها كادت أن تخر هدًا أمام دعوى من يقول إن الله ﷻ قد اتخذ ولدًا. إنه مثال من عالم الشهادة يهزنا وينقلنا إلى عالمى المعنى والغيب.

رسوخ الجبال وعِظَم الأمانة

﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ ﴾ [الأحزاب].

فالجبال على رسوخها وشدة تحملها شاركت السماوات والأرض رفضَ حمل الأمانة، التى هى العقل وحرية الاختيار والتكليف.

إنه مثل يجسد عظم هذه الأمانة، التى وُصف الإنسان عندما قَبِلَ حملها بأنه ظلوم لنفسه جاهل بمتطلبات حملها.

رسوخ الجبال والقرآن الكريم

﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ ﴾ [الحشر].

فالجبل على قساوة حجارته، يتصدع خشوعًا إذا أُنزل عليه القرآن، خشية لله وحَذَرًا ألا يؤدى حق الله ﷻ من تعظيم لما فى القرآن الكريم من معانٍ. إنها صورة من عالم الشهادة تجسد لنا عالمى المعانى والغيب.

رسوخ الجبال ومكر الظالمين

﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ٤٦ ﴾ [إبراهيم].

يمكر الذين ظلموا أنفسهم مكرًا شديدًا، تزول له الجبال الراسخات، فما أدراك بنفوس البشر وقلوبهم؟

جمال الجبال مع الراسخة باب لخشية الله ﷻ

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

إذا كان الله ﷻ قد نَوَّعَ بالماء الواحد ثمار النباتات، ووضع سُنَّةَ الاختلاف بين الناس والدواب والأنعام، فإنه جعل الجبال أنواعًا وألوانًا كذلك. إن هذا التنوع فى عالم الشهادة يجعل قلوب العلماء تمتلئ بخشيته.

إنه تجاوب، وأى تجاوب، بين عالم الشهادة وبين قلوب العلماء (عالمى المعنى والغيب).

إنه تجاوب ينقلهم من التنوع والكثرة فى عالم الشهادة إلى جلال التوحيد الذى يغمر القلوب.

الرسوخ ظاهرى، ودوام الحال من المحال

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل].

إن تلك الجبال الراسخات والراسيات، التى يراها الإنسان أوتادًا لا تتزحزح، هى فى الحقيقة غير مستقرة! تمر بسرعة حركة الأرض حول نفسها وحركتها حول الشمس وداخل المجرة ومع المجرة.

ويحملنا هذا المثل إلى عالم المعنى، فحركة الجبال الناعمة كحركة السحاب، مثلها تمامًا انطواء حياتنا الدنيا الزائلة؛ حيث لا يشعر الكثيرون بانقضائها ويظنون أنهم راسخون مخلدون فيها.

تعطينا حقيقة الجبال الراسخة فى عالم الشهادة الدرس فى عالم المعنى بأن دوام الحال من المحال.

واخيرًا، يتلاشى رسوخ الجبال الراسيات عند قيام الساعة

تنقلنا آيات عديدة عن الجبال من عالمى الشهادة والمعنى اللذين نحياهما إلى عالم الغيب الذى ننتظر فيه قيام الساعة، ولا شك أن استخدام «عدم استقرار الجبال وتلاشيها» كمثل لما سيقع يوم القيامة يشير إلى عِظَم أهوال ذلك اليوم.

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ ﴾ [الطور].

﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ۝٦ ﴾ [الواقعة].

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١٥ ﴾ [الحاقة].

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩ ﴾ [المعارج].

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ۝١٤ ﴾ [المزمل].

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣ ﴾ [المرسلات].

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝٥ ﴾ [القارعة].

يا إلهى، أكل هذا الثبات والرسوخ سوف يتلاشى؟

نعم... ما أشده من هول...

سبحان ربى...

مَثَلُ الشجر

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥ ﴾ [إبراهيم].

الكلمة الطيبة فى الآية الكريمة هى لا إله إلا الله، ثم كل ذكر لله وكل أمر بمعروف ونهى عن منكر.

ومثالها؛ الشجرة الطيبة، فأصلها ثابت فى قلب المؤمن، وتخرج كلماتٍ طيبة على لسانه، وترتفع فروعها إلى السماء فتصل إلى العوالم العلوية، فتُفاضُ على قائلها الرحمات، وثمرات الشجرة (أُكلها) التى يذوقها قلب المؤمن هى إدراكه للأمور العلوية.

ومن ثم، فهذه الشجرة هى معراج المؤمن، يرتفع فيه ذكره لله وسائر عباداته إلى حضرة

القدس، وتتنزل عَبْرَه الأنوار والبركات إلى قلبه، الذى هو أصل الشجرة وأصل المعراج.

كذلك فالكلمة الطيبة هى النفس الطيبة، أصلها ثابت بالاطمئنان وثبات الاعتقاد وبرهان العقل، وفرعها فى سماء الروح، تؤتى أكلها من ثمرات المعارف والحكمة والحقائق.

ياالله... ما أروعه من مثال، يَعْبُر صعودًا وهبوطًا بين عوالم الشهادة والمعنى والغيب، ويعرج بالإنسان على أجنحة الحب إلى حضرة القدس.

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [إبراهيم].

و«الكلمة الخبيثة» إشارة إلى كلمة الكفر وإلى النفس الخبيثة وإلى كل ما يُغضب الله ﷻ، فلا جذور لها ولا عمق ولا ارتفاع إلى السماء.

وقال عنها الإمام جعفر الصادق: الشجرة الخبيثة هى الشهوات، وأرضها النفوس، وماؤها الأمل، وأوراقها الكسل، وثمارها المعاصى، وغايتها النار.

سبحان ربى...

مثل الميزان

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ [الرحمن].

لا شك أن مثل الميزان من أوضح الأمثال القرآنية التى تتعامل مع عوالم الوجود كلها.

فالله ﷻ قد رفع السماء ووضع فيها الميزان، مما يوحى بأن العدل سمة أساسية ستُمَارس فى سماء القيامة (عالم الغيب) مثلما أُمرنا أن نمارسها فى حياتنا الدنيا (عالم الشهادة).

وتأمرنا الآيات أن نتخلق بأخلاق الله «الحَكَم العدل»، فنلتزم الوزن بالعدل، سواء فى الأوزان المادية فى عالم الشهادة، أو الأوزان المعنوية فى عالم المعنى، فلا نطغى (نُزيد) ولا نُخسر (ننقص) من حقوق الآخرين.

آيات ثلاث قصيرة، جاء فيها ذكر الميزان وعملية الوزن أربع مرات.

سبحانك ربى الحكم العدل.

سبحان ربى...

مثل الحياة والموت

والعمى والصَمَم والبَكَم

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢)﴾ [فاطر].

تطرح علينا هذه الآيات أقدر الأمثال تعبيرًا عن المقابلة بين الهداية والإيمان وبين الكفر والضلال.

إنها متقابلة: الحياة والموت - والإبصار والعمى - والسمْع والصمم - والظلمة والنور - والظل الوارف والحر الشديد - حتى نصل إلى متقابلة الحياة والموت.

وتُفصِّل بعض آيات القرآن الكريم هذه الآيات من سورة فاطر، وتنبهنا إلى المقصود بالعمى والصمم والظلمات والحر الشديد والموت. إنها مفاهيم تختلف عن عالم الشهادة البيولوجى الفيزيائى، إنها مفاهيم من عالم القلوب (عالم المعنى). ثم تعرج بنا إلى عالم الغيب، إلى يوم الحشر.

انظر إلى قول الحق ﷻ:

﴿... لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ... (١٧٩)﴾ [الأعراف].

إن الداء هو داء القلب:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج].

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧)﴾ [فصلت].

فالعمى هو عَمَى القلب:

كما أن الصمم والبكم هو صمم وبكم القلب

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾ [الأنفال].

إن هذا الصمم والبكم يجعلهم كأسوأ الدواب.

إن الذى لا يهتدى إلى الحق هو معتل القلب[1]، فهو كالأعمى الذى لا يرى الشىء الظاهر الواضح لكل عين، وهو كالأصم الأبكم الذى لا يسمع ولا يعى ولا ينطق كالآخرين.

وإذا كانت هذه الصور تنتقل من هيئة حسية (فى عالم الشهادة) إلى حقيقة معنوية فى عالم المعنى، فإنها تعود لتظهر فى هيئة حسية فى عالم الغيب يوم القيامة:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه].

لقد حُشر هذا الذى كان أعمى القلب والبصيرة فى الحياة الدنيا وقد صار أعمى البصر فى الحياة الأخرى. ونفس الشىء يقال على الصُّم البُكم، فتصيب حواس من أعرض عن ذكر الله فى الآخرة ما أصاب قلوبهم فى الدنيا.

وصورة أخرى من الصمم والعمى تنقلها لنا سورة البقرة:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

ففى عالم الشهادة يقابلنا نمط من الناس إذا سمع صوت صاعقة وضع طرفى إصبعيه السبابتين فى أذنيه خشية الموت، ويتخبط بعض هؤلاء ويحتار، فيشرع فى المسير فى ضوء البرق المصاحب للصاعقة، ويتوقف عن السير إذا أظلمت.

وينقل القرآن الكريم هذه الصورة من «عالم الشهادة» إلى «عالم المعانى». فالمنافقون يعتبرون منهج الإسلام كالصاعقة، ويعتبرون تكاليفه من صلاة وصوم وجهاد بمثابة الظلمات والرعد والبرق. وكلما حصل لهم نفع من منهج الإسلام (كالغنائم وعصمة الدماء والأموال) رغبوا فى الدين (كلما أضاء لهم مشوا فيه)، وإذا لم يجدوا هذه المنافع (أظلم عليهم) كرهوا الإيمان.

(١) المقصود من «القلب» فى المنظور الإسلامى هو «المنظومة المسئولة عن النشاطات العقلية والشعورية والإيمانية». ولهذه المنظومة تعلق ما بالقلب المادى فى صدر الإنسان، وقد اكتشف العلم الحديث بعضًا من جوانب العلاقة بين القلبين، وما زال الأمر فى حاجة إلى المزيد من البحث.
راجع كتابنا «رحلة عقل» الفصل السادس ص ١٩١ ـ مكتبة الشروق الدولية ـ الطبعة الثامنة ٢٠١٤.

إنها صورة تُشَبِّه المنافقين فى حيرتهم وجهلهم بحقيقة الدين بهؤلاء الذين لا يرون طريقًا ولا يهتدون، ويظنون أن تجاهلهم لتعاليم الدين سيغنيهم.

سبحان ربى...

المتجاهل لما يعلم كالحمار

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة].

صورة قد نراها فى عالم الشهادة فى أيامنا هذه، وهى الحمار الذى يحمل مجلدات وكتبًا قيمة يسير بها هنا وهناك، ولا يحتاج الأمر لذكاء لندرك أن الحمار لا يدرى شيئًا عن محتوى الكتب أو قيمتها أو فائدتها.

وتنقلنا الآية إلى عالم المعانى، فتشبه بهذه الصورة هؤلاء الذين حملوا كتاب اليهود المقدس (أو أى كتاب سماوى) دون أن يعملوا به. وتنقلنا الآية الكريمة إلى مستوى آخر فتعتبر من لا يعمل بما يعلم من آيات الله كالمكذب بها تمامًا. وهؤلاء قد ظلموا أنفسهم، فهم بتجاهلهم هذا يسيرون فى طريقهم إلى جهنم.

هكذا تحملنا الصورة من عالم الشهادة إلى عالم المعنى إلى عالم الغيب.

سبحان ربى...

الشرك يضاد الفطرة.
مَثَل العبد الرِّق،
ومَثَل المشركون العناكب.

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر].

مقابلة يواجه بها القرآن الكريم المشركين الذين يُرجعون خلق الوجود وتدبيره لآلهة عِدَّة،

وينطلق فى هذه المواجهة من منطق الفطرة، فيستعير مثالًا من عالم الشهادة يظهر حمق القول بتعدد الآلهة:

أرجل عبد لشركاء متعددين يستوى مع رجل عبد لمالك واحد؟

أى الموقفين أكثر قبولًا لدى العقل السوى؟

أعَبْدٌ لله الواحد الأحد، أم عبد لآلهة متعددين؟!

ما أسوأ الذين أشركوا بالله آلهة أخرى.

ولم يقف الشرك عند ذلك الحد،

فنحن نرى فى تاريخنا وحياتنا المعاصرة من يشركون بالله بعضًا من خلقه.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت].

تتناول الآية الكريمة من يشركون بالله بعض أوليائه، يلجأون إليهم لقضاء الحاجات، فتشبههم بالعناكب التى تبنى بيوتًا واهية تلجأ إليها. إن كلًّا من الأولياء وبيوت العنكبوت لا تغنى عن اللاجئين إليها شيئًا.

إنها صورة تنقلنا من عالم الشهادة الذى نلمسه جميعًا إلى عالم المعانى (الشرك)، ثم إلى عالم الغيب الذى لا ندرك أسراره.

من القرآن الكريم إلى الحديث الشريف...

مَثَل رياض الجنة

«ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة»[1].

«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا وما رياض الجنة يا رسول الله، قال حِلَق الذكر»[2].

«القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»[3].

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة.

(٢) رواه أحمد والترمذى وأبو يعلى والبيهقى.

(٣) حديث مرفوع، رواه الترمذى والطبرانى، ضعفه الشيخ الألبانى وقال: لكن معناه مأخوذ من أحاديث صحيحة.

تمثل هذه الأحاديث النبوية الشريفة مواضع من عالم الشهادة برياض الجنة (عالم الغيب)، إذ تشترك فيما بينها فى تَنَـزُّل الرحمات.

فهو استشهاد بالغيبى المعقول (رياض الجنة) على المادى المحسوس (الروضة النبوية ـ حِلَق الذكر ـ القبر).

ولا شك أن السنة النبوية الشريفة تشمل عوالم الوجود الثلاثة؛ فمن عالم الشهادة (الملك)، نجد سنن الرسول الكريم ﷺ فى المأكل والملبس، ومن عالم المعنى (الملكوت) يقابلنا الحب والعطف والشفقة، ومن عالم الغيب (الجبروت) يبين لنا الرسول الكريم ﷺ منهج العبادة الذى هو معراجنا إلى الترقى الروحى.

صلى الله عليك وسلم يا سيدى يا رسول الله.

إلى حياة الصالحين...

من نار إلى نار

كان الربيع بن خثيم فى طريقه إلى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فمر بحانوت حداد، فرأى الحديدة المحماة فى الكير، فغشى عليه، ولم يفق إلى الغد. فلما أفاق سُئل عن ذلك فقال: تذكرت كون أهل النار فى النار.

لقد نَقَلَت شدة الموقف الربيع من «عالم الشهادة» إلى «عالم الغيب»، ذَكَّرَته نار الدنيا بنار الآخرة.

ما أرقها من قلوب، اعتادت العروج من المحسوس إلى الغيب، ومن المُلك إلى الملكوت والجبروت.

الرمز فى الفن الإسلامى

استوعب الفنان المسلم منهج القرآن الكريم فى «ضرب الأمثال»، وكيف أنه يعرج بالمَثَل من مفاهيم عالم الشهادة إلى عالمى المعنى والغيب. وقد جعل الفنان المسلم هذا الأسلوب محور أعماله الفنية، وبذلك صارت الأعمال الفنية رموزًا وأمثلة لهذا العروج. وسنعرض هنا نموذجين

شهيرين لأعمال فنية (عالم الشهادة) تجسد معانى من (عالم المعنى) ومفاهيم من (عالم الغيب)، أحد هذين المثلين من عالم المعمار والآخر من عالم الموسيقى والرقص!.

رمزية المئذنة

إذا تأملت المئذنة، وجدت أنها تنتصب فى شموخ وتعلو كل ما حولها مُعَبِّرَةً عن التوحيد.

أما الشرفات الثلاث المتتالية، التى تمثل حلقات حول المئذنة، فيرى البعض أنها تشير إلى مستويات: الإسلام والإيمان والإحسان، ويرى آخرون أنها تشير إلى مقامات اليقين الثلاثة؛ علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين. كذلك تشير إلى عوالم الشهادة والمعنى والغيب، التى تقابلها عوالم الملك والملكوت والجبروت.

وفى قمة المئذنة هناك الهلال المنفتح على السماء كذراعين ممدودتين بالدعاء، وإذا كان الهلال هو نصف دائرة يشير إلى عالم الشهادة فإن باقى الدائرة (الغائب) يشير إلى عالم الغيب، وبذلك تكتمل دائرة الوجود.

رمزية رقص المولوية[1]

تقوم الطريقة الصوفية المولوية على ثلاثة عناصر أساسية، هى الموسيقى والرقص وإنشاد الشعر، وتحديدًا شِعر مؤسسها جلال الدين الرومى. وقد تعدى تأثير هذه الطريقة حدود الحلقات الصوفية ليشمل فنونًا أخرى كالأدب والرسم والخط.

ويُعَد ما يُعرف بـ«الرقص الكونى» للدراويش الدَّوارين من أشهر فنون الطريقة المولوية، ولكل طقس فى الرقص رمزيته. فالثياب البيض التى يرتديها الراقصون ترمز إلى الأكفان، وترمز المعاطف السود إلى القبر، وقلنسوة اللباد المرتفعة فوق الرءوس إلى شاهد القبر، أما البساط الأحمر الذى يتحرك عليه الراقصون فيرمز إلى لون الشمس الغاربة.

---

(١) عن ورقة بحثية شارك بها د.أحمد موسى٣٢ فى المؤتمر الدولى الثالث للتصوف بكلية الآداب بالجريدة عام ٢٠٠٨.
والمولوية طريقة صوفية تُنسب إلى جلال الدين الرومى (١٢٠٧ - ١٢٧٣م) الذى ولد بطاجكستان وعاش حياته ومات ودُفن فى مدينة قونية بتركيا، والتقى فيها بالدرويش المتجول شمس الدين التبريزى وتلقى عنه طريق الترقى الروحى.
ولا يعنى عرضنا لفنون هذه الطريقة أننا نتفق مع كل مفاهيم العقيدة التى تتبناها، لكننا نعرضها كمثال لكيف تمثل الأعمال الفنية عروجًا من عالم الشهادة إلى عالمى المعنى والغيب.

ويقوم الدراويش الراقصون بالدوران ثلاث دورات حول باحة الرقص، وتشير الدورات الثلاث إلى المراحل الثلاث فى القرب من الله، وهى طريق العلم (الشريعة)، والطريق إلى المكاشفة (علم الباطن)، ثم الطريق المؤدى إلى الوصال مع الله. ويرمز سقوط المعاطف السود فى أثناء الرقص إلى التطهر والخلاص من الدنيا.

وتنقسم دائرة الراقصين إلى نصفين، يمثل أحدهما قوس الهبوط أو انغماس الروح فى المادة، ويمثل الآخر قوس الصعود، أى صعود الروح إلى بارئها. ويدخل الشيخ إلى مركز باحة الرقص فى الدورة الثالثة، وهو الواسطة بين الله وبين الدراويش، ويمثل دوران الشيخ فى مركز الدائرة الشمس وشعاعها، أما حركة الدراويش حول مركز الباحة فتمثل النظام الكونى ودوران الكواكب حول الشمس.

وفى أثناء الدوران، يمد الدراويش أذرعتهم كالأجنحة؛ اليد اليمنى وكفها إلى السماء واليسرى وكفها إلى الأرض. وهذه الاتجاهات كناية عن أن الدرويش يتلقى الطاقة الحيوية من السماء ليمنحها إلى الأرض.

وموسيقى الرقص عنصر أساسى فى الطريقة المولوية، فهى كصرير باب الجنة، ويقول فيها جلال الدين الرومى: «هناك طرق عديدة تؤدى إلى الله، وقد اخترت الرقص والموسيقى».

ويقول جلال الدين عن الناى كآلة محورية فى موسيقى المولوية: «يقص الناى حكايته، فهو يشكو بأنينه آلام الفراق منذ قُطع من منبت الغاب، إنه ينشد صدرًا مزقه الفراق حتى يبثه ألم الاشتياق».

ويقول عن الرباب: «إنها ليست سوى وتر يابس وخشب يابس وجلد يابس، لكن منها يخرج صوت المحبوب».

أما قرع الطبول فيُذَكّر بالصّور يوم القيامة.

وفى مواضع معينة، يتوقف الرقص، وينشد الدراويش بصوت رخيم أشعار جلال الدين الرومى الصوفية، خاصة من عمله الفذ «المثنوى».

ورقص المولوية هو، أولًا وأخيرًا، تحرير للجسد وانفلات من قيود المادة، ويصبح الراقص بدورانه محور العالم، ومن خلاله تلتقى السماء بالأرض، وتلتقى الأكوان المرئية وغير المرئية. أما

الموسيقى المصاحبة، فكناية عن تناغم هذه الأكوان فيما بينها فى نظام محكم، هو أسطع دليل على وحدانية الخالق.

هكذا أبدع فنان المعمار الإسلامى كما أبدع الصوفى المولوى فى تجسيد معانى عالم المعنى ومفاهيم عالم الغيب، وهو بذلك يحاكى منهج ضرب الأمثال فى القرآن الكريم. لقد جعل هؤلاء الفنانون من فنهم رموزًا للعقيدة والعروج والتسامى.

الإنسان المرآة البرزخية

كان الوجود قبل خلق الإنسان مختلفًا عنه بعد خلق الإنسان. فبخلق الإنسان أصبح فى الوجود «كائن ذو وعى عميق»، فأصبح الوجود واعيًا بنفسه لأول مرة. كذلك بخلق الإنسان صار فى الوجود «كائن مثال»، تتجمع فيه صفات الوجود المخلوق وصفات الإله الخالق، أى إن الإنسان «كائن برزخ» بين المخلوق والخالق.

المخلوق الحامل لصفات الخالق

عرضنا فى الفصل السادس عددًا من صفات الله ﷻ وأسمائه، والتى ندركها من تأمل صفات الإنسان، ورأينا أن القرآن الكريم حافل بالصفات الإلهية التى يتخلق بها البشر، مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه المشابهة تقع فى إطار المخالفة الكاملة والتنزيه المطلق لله ﷻ ﴿...لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

وفى ذلك يقول الحديث القدسى:

«يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا»[1]، وهذا الحديث دعوة للتخلق بأخلاق الله ﷻ، أى إظهار لتمتع الإنسان ببعض الصفات الإلهية، فى إطار ما ذكرناه سابقًا.

وتأكيدًا لهذا المعنى يقول الرسول الكريم ﷺ: خلق الله آدم على صورته[2]، وفى مُسند أحمد: خلق الله آدم على صورة الرحمن.

وإذا كان الإنسان هو المخلوق الحامل لصفات الله ﷻ، فإن كلًّا منا يحمل من الصفات

(١) رواه مسلم، عن أبى ذر.
(٢) رواه البخارى ومسلم.

الإلهية (كمًا وكيفًا) قدر قدرته، ومن ثم يصبح كلٌّ منا مرآة للصفات الإلهية بقدر معين. وكلما ترقى الإنسان روحيًّا وسلوكيًّا صار مجلىً أكبر لهذه الصفات.

ولا شك أن سيدنا محمد ﷺ هو «الإنسان الكامل» الذى تتجلى فيه الصفات الإلهية كأقصى ما تحتمل الطبيعة البشرية. لذلك اجتهد العلماء فى إحصاء الأسماء التى أُختص بها رسولنا ﷺ من الأسماء الإلهية[1].

المخلوق الحامل لصفات الوجود

الوجود الصغير والوجود الكبير

يقول الحق ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

تبين الآية الكريمة أن الآفاق (الوجود الكبير) والأنفس الإنسانية (الوجود الصغير) يحملان «نفس الدلالة»، وهى أن القرآن الكريم حق، ومن ثم فالله ﷻ حق. هذا هو التشابه الأول والأهم بين الوجودين.

والمتأمل للوجود يلاحظ أن كلًّا من الكون والإنسان قد بُنيا على هيئة واحدة، وأن كلًّا منهما فيه ما فى الآخر. انظر إلى هذا المقابلة:

جسم	عالم الشهادة	مـلك
نفس	عالم المعنى	ملكوت
روح	عالم الغيب	جبروت[2]

(١) فى ذلك قال القاضى عياض: قد خص الله نبيه ﷺ بأن سماه من أسمائه بقرابة ثلاثين اسمًا وهى: الأكرم، والأمين، والأول، والآخر، والبشير، والجبار، والحق، والخبير، وذو القوة، والرءوف، والرحيم، والشهيد، والشكور، والصادق، والعظيم، والعفو، والعالم، والعزيز، والفاتح، والكريم، والمبين، والمؤمن، والمهيمن، والمقدس، والمولى، والولى، والنور، والهادى.

وقال الإمام السيوطى: قد وقع لنا عدة أسماء زيادة على ما ذكر القاضى عياض، وهى الأحد، والأصدق، والأحسن، والأجود، والأعلى، والآمر، والناهى، والباطن: والبر، والبرهان، والحاشر، والحافظ، والحفيظ، والحسيب، والحكيم، والحليم، والحى، والخليفة، والداعى، والرافع، والواضع، ورفيع الدرجات، والسلام، والسيد، والشاكر، والصابر، والصاحب، والطيب، والطاهر، والعدل، والعلى، والغالب، والغفور، والغنى، والقائم، والقريب، والماجد، والمعطى، والناسخ، والناشر، والوفى.

(٢) ذكرنا فى بداية الفصل أن الصوفية يقسمون الوجود إلى ملك وملكوت وجبروت للإشارة إلى عوالم الشهادة والمعنى والغيب.

كما نلمس التشابه بين الكون والإنسان واشتمال كل منهما على عوالم الوجود الثلاثة فى هذا المثال القرآنى:

يقول الحق ﷻ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [البقرة].

حسنة الدنيا

	العالم الكبير (الكون)	العالم الصغير (الزوجة الصالحة)
عالم الشهادة (الملك)	مسكن وملبس ومأكل	إعانة مادية وإشباع جسدى
عالم المعنى (الملكوت)	علم وفن وثقافة	عواطف ومشاعر
عالم الغيب (الجبروت)	الدنيا مزرعة الآخرة	إعانة على طريق الله

وفى أبيات للإمام على بن أبى طالب، تقابلنا صورة الإنسان المرآة:

دواؤكَ فيكَ وما تشعُرُ ... وداءُكَ منكَ وما تُبصرُ
وتزعُمُ أنك جُرمٌ صغيرٌ ... وفيكَ انطوى العالمُ الأكبرُ
فأنت الكتابُ المبينُ الذى ... بأحرفه يَظهر المُضمَرُ

فالبيت الأول يُجمل لنا أن الإنسان هو الكائن البرزخ والجامع بين المتناقضات (الداء والدواء) وتلك فطرة الله التى فطرنا عليها ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس].

ويبين البيت الثانى أن الإنسان (العالم الصغير) يحوى كل ما فى الكون (العالم الكبير)

ثم يشير البيت الثالث إلى أن الإنسان هو مجلى الصفات الإلهية

حقًّا، إن الإنسان هو الكائن المرآة البرزخ.

القارئ الكريم

رأينا فى الفصول السابقة أن تأمل الوجود يقودنا إلى إدراك الكثير من الأسماء والصفات الإلهية التى جاءت فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة. وفى هذا الفصل نلطلق من القرآن الكريم وما فيه من أسماء وصفات، للتعرف على علاقتها اللصيقة بعوالم الوجود، فما عوالم الوجود إلا «ظهور» للأفعال والصفات الإلهية، حتى مَثَّلَها البعض بانعكاس صور الأشياء فى الماء.

والوجود مزيج من ثلاثة عوالم؛ عالم الشهادة وعالم المعنى وعالم الغيب. وكما تتجلى هذه العوالم الثلاثة فى القرآن الكريم (الكتاب المسطور) فإنها تتجلى عند تأملنا للوجود (الكتاب المنظور).

والعلاقة بين الكتابين علاقة منطقية جدلية، تؤكد أن عطاء الكتاب المنظور يتفق مع مقصد الكتاب المسطور (القرآن الكريم).

وتتجلى هذه العلاقة فى «أسلوب القسم» الذى يستخدمه القرآن الكريم، فالله ﷻ يقسم بعوالم الوجود الثلاثة على صحة ما يريد تأصيله فى القرآن الكريم، مما يحقق الامتزاج بين القرآن الكريم وبين عوالم الوجود الثلاثة.

هذا وقد وقفنا فى الفصل مع بعض الأسماء والصفات الإلهية كما وردت فى القرآن الكريم، وبيَّـنَا كيف أنها تنعكس فى الوجود، وذلك حتى يقيس عليها القارئ أثناء تلاوته لآيات الله ﷻ، وكانت هذه الصفات هى: مالك الملك ـ أحسن الخالقين ـ وسع ربى وأحاط كل شىء علمًا.

ثم انتقلنا إلى عالم «الأمثال القرآنية»، ورأينا أن المثل القرآنى يمتد عبر كل عوالم الوجود، وأنه بمثابة «معراج الكلمة» الذى ينقل مضمون المثل من عالم إلى عالم ومن مستوى إلى مستوى. ومن ذلك أدركنا أن كل ما فى عالم الشهادة (المحسوس المادى) يشير إلى عالم المعانى وعالم الغيب، ومن ثم يشير إلى الأفعال والأسماء والصفات التى هى مجلى الذات الإلهية. لذلك نستطيع أن نقول إن كل ما ندركه بحواسنا هو الظل المادى فى الأرض للعوالم غير المادية الأربعة (المعنى ـ الغيب ـ الأفعال والأسماء والصفات ـ الذات الإلهية).

وقد كانت وقفاتنا مع الأمثال القرآنية التى كَثُر استخدامها فى آياته الكريمة، وأهمها

التمثيل بالنور والماء، والجبال، والشجر، والميزان، والحياة والموت، والعَمَى والصَمَم والبَكم، وأيضًا بالعبد الرق والحمار والعنكبوت.

وتبين لنا آيات القرآن أن ما وراء الأمثال لا يتوصل إليه إلا العالمون الذى يتفكرون، وأنها تحتاج - لإدراك العبرة منها - إلى نية وهمة واجتهاد وإلى تكرار التأمل، صَغُرَ المَثَل أو كَبُر.

ثم بينا كيف استوعب الفنان المسلم منهج القرآن الكريم فى «ضرب الأمثال»، وكيف أنه يعرج بالمثل من مفاهيم عالم الشهادة إلى عالمى المعنى والغيب. وقد جعل الفنان المسلم هذا الأسلوب محور أعماله الفنية، وبذلك صارت الأعمال الفنية رموزًا وأمثلة لهذا العروج. وقد وقفنا مع نموذجين شهيرين لأعمال فنية (عالم الشهادة) تجسد معانى من (عالم المعنى) ومفاهيم من (عالم الغيب). وكان مثالنا الأول من عالم المعمار مع «المئذنة» التى عرج بها الفنان المسلم إلى التوحيد، ومقامات الدين ومقامات اليقين وإلى دائرة الوجود الكلية.

ومن عالم الموسيقى والرقص الكونى كان مثالنا الثانى مع حلقات ذكر الطريقة المولوية، ورأينا كيف أن رقص المولوية هو، أولًا وأخيرًا، تحرير للجسد وانفلات من قيود المادة. وفيه يصبح الراقص بدورانه محور العالم، ومن خلاله تلتقى السماء بالأرض، وتلتقى الأكوان المرئية وغير المرئية. أما الموسيقى المصاحبة، فكناية عن تناغم هذه الأكوان فيما بينها فى نظام محكم، هو أسطع دليل على وحدانية الخالق.

وكانت وقفتنا الأخيرة فى الفصل مع الإنسان كمرآة برزخية، فقد كان الوجود قبل خلق الإنسان مختلفًا عنه بعد خلق الإنسان. فبخلق الإنسان أصبح فى الوجود «كائن ذو وعى عميق»، به أصبح الوجود واعيًا بنفسه لأول مرة. كذلك بخلق الإنسان صار فى الوجود «كائن مثال»، تتجمع فيه صفات الوجود المخلوق وصفات الإله الخالق، أى أن الإنسان «كائن برزخ» بين المخلوق والخالق.

ونختار أن نختم هذا الحصاد للفصل ببيت شعر من ثلاثة ذكرناها من حِكَم الإمام علىّ ابن أبى طالب:

وتزعُمُ أنك جُـرمٌ صغيرٌ   وفيكَ انطـوى العالمُ الأكبرُ

حقًّا إن الإنسان هو الكائن المرآة البرزخ.

الفصل الثانى عشر

بين وحيين

حىّ بن يقظان

- مع قصة الإيمان
  - البداية
  - التأمل
  - التشبه
  - المقارنة
- القارئ الكريم
  - نور على نور على نور على نور

تُعتبر قصة حى بن يقظان من أشهر القصص التى شغلت العقل العربى المُسلم؛ ولها رواج كبير بين الفلاسفة والمتصوفة وعاشقى الأدب العربى[١].

وترجع قصة حى بن يقظان التى كتبها الفيلسوف الأندلسى ابن طفيل[٢] إلى القرن الثانى عشر الميلادى. وفى القصة يعرض ابن طفيل كيف توصل العقل الفلسفى المسلم من خلال قراءة الوجود إلى وجود الإله الخالق وتوحيده وإلى بعض صفاته. وزاد على ما توصل إليه الكثير من الفلاسفة بأن حدد كيف تكون العلاقة بين الله وبين الإنسان. كما تربط القصة بين ما توصل إليه العقل المُنَزَّه عن الهوى وبين ما أتى به الوحى السماوى.

مع قصة الإيمان

وأعرض القصة هنا تلخيصًا وتبسيطًا عن كتاب «قصة الإيمان» للشيخ الفيلسوف نديم الجسر مفتى طرابلس بلبنان. ويدور الكتاب على هيئة حوار بين الشيخ «الموزون» (الذى يشير فى الحقيقة إلى مؤلف الكتاب) وبين تلميذه الباحث عن الحقيقة «حيران بن الأضعف»[٣].

يقول الشيخ الموزون لتلميذه حيران بن الأضعف:

ليس فى قصة (حىّ بن يقظان) يا حيران من الخيال إلا اسم البَطَل ومسرح الأحداث. ولو

---

(١) كُتبت القصة (بتناول مختلف) أربع مرات. كان أولها ما كتبه الشيخ الطبيب الفيلسوف ابن سينا (المتوفى عام ٤٢٨هـ). ثم كتبها الصوفى المتفلسف شهاب الدين السهروردى (المقتول عام ٥٨٧هـ). وبعدها بقرابة قرن من الزمان كتبها الفيلسوف الطبيب ابن النفيس (المتوفى عام ٦٨٧هـ). والصياغة الرابعة (وهى أشهرها) هى التى نتناولها فى هذا الفصل.

(٢) أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل، الفيلسوف الأندلسى (٥٠٤ - ٥٨١ هـ)=(١١٠٥-١١٨٥م).

(٣) الأسماء فى قصة «حىّ بن يقظان» وفى كتاب «قصة الإيمان » ذات دلالات رمزية:
فبطل القصة الأولى، يشير اسمه «حى بن يقظان» إلى القلب الحى والعقل اليقظ.
كما تَظهر شخصية «أبسال» قرب نهاية القصة، والاسم من البسالة والجرأة فى الغوص وراء المعانى فى القرآن الكريم عند البحث عن الحقيقة.
كما يرمز اسم الشيخ «الموزون»، بطل قصة الإيمان، إلى التزام الطريق الوسط الذى يجمع بين الشريعة والحقيقة. بينما يرمز اسم تلميذه «حيران بن الأضعف» إلى ما يعانيه الباحث عن الحقيقة من حيرة وانكسار حتى يصل إلى غايته.

أبدلت عنوان القصة بكلمة (العقل)، واعتبرت أن الجزيرة النائية التى تدور فيها الأحداث هى الوجود الذى نعيش فيه، **لانقلبت القصة واقعًا صحيحًا، ليس فيه أثر للخيال.**

حيران: وكيف ذلك يا مولاى؟

الشيخ: إن القصة هى «رحلة العقل» **فى أى مكان وأى زمان، عندما يترقى فى مسالك المعرفة ومراتب الفلسفة، حتى يعرف الله والحق والخير والجمال.**

وقبل أن أحكى لك القصة يا حيران، أضع أمام عينيك أهم المفاهيم التى أراد ابن طفيل أن يبسطها فى ثنايا قصته، لتدرك ما بين السطور من مقاصد وأفكار. لقد أراد ابن طفيل أن يبين فى قصته المفاهيم الآتية:

أ) **يتدرج العقل الإنسانى، فى سلم المعرفة،** من (المحسوسات الجزئية) حولنا، إلى (الأفكار الكلية). كأن يدرك العقل من خلال مواقف محددة متعددة تقابلنا فى الحياة حقيقة أن «هناك إلهًا».

ب) **العقل الإنسانى قادر، من غير تعليم ولا إرشاد على إدراك وجود الله، من خلال آثاره** فى الوجود، وقادر على إقامة الأدلة الصادقة على ذلك.

جـ) **إن هذا العقل يعتريه العجز عندما يريد «تصور» بعض المفاهيم،** مثل الأزلية المطلقة، والعدم المطلق واللانهاية والزمان والقِدَم والحدوث، وإن كان العقل يستطيع من خلال الأدلة المنطقية «**إدراك**» هذه المفاهيم. وهذا ما يسميه الفلاسفة: **الفرق بين «التَصَوُّر» «والتَعَقُّل أو الإدراك».**

د) سواء تَرَجَّح لدى العقل **قِدَم العالم** (أزلى لا بداية له) **أو حدوثه** (له بداية)، **فإن كلا الاعتقادين يشير إلى وجود الله** ﷻ.

هـ) **إن الإنسان قادر، بعقله، على إدراك أسس الفضائل وأصول الأخلاق العملية والاجتماعية.** وقادر كذلك على إخضاع شهواته الجسدية لحكم العقل، من غير إهمال لحق الجسد أو إفراط فيه.

و) **يلتقى ما يدركه العقل السليم (بدون وحى سماوى) مع منهج الإسلام** عند نقاط واحدة بلا خلاف.

ثم يبدأ الشيخ الموزون فى حكاية القصة لتلميذه حيران:

البداية

يصور لنا ابن طفيل **طفلًا رضيعًا أسماه (حىّ بن يقظان)، أُلِقىَ** به فى جزيرة خالية من الناس، فحَنَّت عليه ظَبية فقدت صغيرها، فأرضعته وتعهَّدته، حتى كبر وتعلم أصوات الحيوانات.

ورأى الطفل الظبية كاسية مسلحة وهو **عار أعزل**، فاتخذ من الورق والريش سِترًا وكساءً، ومن العصىّ سلاحًا.

التأمل

ثم ماتت الظبية، فهال (حىّ بن يقظان) سكونُها وسكونُها، **وأراد أن يعرف عِلَّتها**. وعندما تأملها لم يجد فى ظاهرها تغيرًا، فرَجَّحَ أن العِلَّة تكمن فى عضو محجوب عن بصره. فشق صدرها حتى وصل إلى قلبها، فلم يجد فى ظاهره آفة، فلما شَقَّه وجد الغرفة اليسرى من القلب خالية، فمال إلى أن الشىء الذى كان فى هذه الغرفة وارتحل عنها هو الذى أفقد الظبية حياتها. فأدرك **أن حقيقة الظبية هى ذلك الشىء المرتحل، وما جسدها إلا آلة**، وزاده يقينًا بهذا أنه رأى الجسد يُنتِن. ثم رأى غرابًا يوارى أخاه الميت، فوارى الظبية فى التراب.

ثم **اكتشف (حىٌّ) النار**، واستخدمها فى الإضاءة والتدفئة، وفى شىِّ اللحوم وإنضاجها... وازداد تعجبه من هذه النار التى لها قدرات كثيرة. وخطر بباله أن الشىء الذى ارتحل من قلب الظبية وأدى إلى موتها قد يكون من جنس النار، فأخذ يبحث عن آثار تلك النار **المرتحلة بتشريح الحيوانات**، فعرف الكثير من وظائف أعضائها.

وعندما بلغ العام الحادى والعشرين من عمره، أخذ (حىٌّ) **يتأمل الكون**، وما فيه من **حيوانات ونباتات وجمادات**، فرأى لها أوصافًا كثيرة وأفعالًا مختلفة، **فتكونت عنده فكرة (الكثرة)**. ثم رَأى أن الثلاثة **تتفق فى صفة (الوجود) وفى (الجسمية)** وإن اختلفت فى **(الصورة)**، فاعتقد أن الكل شىء واحد، **وإن عَمَّته الكثرة**، كما تكونت عنده فكرة **(حقيقة الشىء وصورته)**.

ثم عاد (حىّ) إلى الأجسام البسيطة، فرأى صورها تتغير. فالماء يكون ماءً، وقد يصبح بخارًا أو ثلجًا، ثم يرجع ماءً، فأدرك معنى اختلاف الصور فى الشىء الواحد. فأشرف بذلك على تخوم العالم العقلى.

ولاح لـ(حىّ) أن روح الحيوانات شىء زائد على الجسمية، وتتميز به على النباتات والجمادات، وأنه هو الذى يوجه سلوكها، ويفهم ما بداخل الحيوان وما حوله، فعظُم فى عينه أمر (الروح)، وعلم أنها أعظم وأسمى من الجسد الفانى.

ثم أخذ (حىٌّ) يفكر فى أصل الأشياء، فلاحظ أن أبسطها هو التراب والماء والهواء والنار. فَرَجَّح أن هذه العناصر الأربعة هى أصل الوجود.

وأدرك من كل ما مر به أن كل حادث لا بد له من مُحدِث. ومن ثم فإن الأفعال المنسوبة إلى الأشياء، ليست فى الحقيقة لها، وإنما هى لفاعل يفعل بها. واشتاق إلى معرفة هذا الفاعل، فأخذ يبحث عنه بين المحسوسات، فوجد أن جميعها حادثة وتحتاج إلى مُوجد، فأهملها كلها.

وانتقل (حىٌّ) إلى الأَجرام، وتفكر فيها وتساءل: هل أى منها ممتد إلى ما لا نهاية، فى الزمان وفى المكان؟ ثم لاحظ أنها تأفل فى النهار وأنها محدودة مكانًا، فأدرك أن جسمًا لا نهاية له زمانًا ومكانًا شىء غير ممكن ولا يُعْقل[1].

ثم فكر (حىٌّ) فى العالم بجملته، هل هو شىء حدث بعد أن لم يكن، وأنه خرج إلى الوجود بعد العدم، أم كان موجودًا أزلًا ولم يسبقه العدم؟ ولم يترجح عنده أى الحُكْمين.

فالقِدَم مُسْتَبْعَد لاستحالة وجود موجود لا بداية له.

وكذلك (الحدوث) مُسْتَبْعَد؛ لأن نشأة الوجود بعد أن لم يكن، يتطلب وجود زمان يسبقه، والزمان جزء من الوجود فلا يمكن أن يتقدمه. وترجيح الحدوث يطرح تساؤلًا صعبًا: لِمَ أوجد المُحدِثُ الوجودَ الآن، ولم يوجده قبل ذلك؟ أَلِطارئ طرأ على المُحدِث؟ كيف ذلك ولم يكن هنالك شىء يمكن أن يطرأ.

وأخذ (حىٌّ) يفكر، ما الذى يلزم عن كل واحد من الاعتقادين؟ فرأى أن حدوث العالم يلزمه وجود فاعل يُخرجه من العدم إلى الوجود. ولا ينبغى أن يكون الفاعل جسمًا؛ لأنه لو كان

(١) يخبرنا المتخصصون فى الفنون الجميلة أن أى جسم لا بد أن يحيط به فراغ من أجل أن نكون قادرين على إدراكه ورؤيته. ومن ثم، لا يمكن أن يمتد جسم مُدرَك إلى ما لا نهاية.

جسمًا لاحتاج إلى مُحدِث، ولو كان المحدِث الثانى جسمًا، لاحتاج إلى مُحدِث ثالث، والثالث إلى رابع، ويتسلسل ذلك إلى غير نهاية، وهذا مستحيل.

وإن اعتقد قِدَم العالم، فمعنى ذلك أن حركته قديمة، وكل حركة لا بد لها من قوة تُحدِثها، والقوة تسرى (أو تؤثر عن بعد) فى الأجسام، لذلك لا بد أن يكون مصدر القوة بريئًا وعن صفات الأجسام، وأن يكون سابقًا عليها، وألا يكون فى حاجة إلى غيره.

انتهى نظر (حىّ بن يقظان) إلى أنه إذا كان العالم قديمًا فإنه يتطلب محركًا قديمًا أزليًّا، وإذا كان مُحدَثًا، فإنه يتطلب وجودًا مُحدِثًا. وأدرك أنه يتوجب، عقلًا، لهذا الخالق العظيم جميع صفات الكمال، من علم وقدرة وإرادة واختيار ورحمة وحكمة، ورجح أنه لقداسته يحيا فى السماء.

ولما حصلت لـ(حىٍّ) المعرفة بهذا الخالق العظيم، أراد أن يعرف بأى شىء عرفه، فلم يجد فى الحواس وسيلة لإدراكه؛ إذ إنها تدرك الأجسام، وهو برىء من صفات الأجسام، فتبين له أن ذاته التى أدرك بها الخالق ليست بجسم.

ثم رَجَّح (حىٌّ) أن هذه الذات لا يعتريها الفناء لأنها بريئة من الجسمية، وأنها ستبقى فى حياة خالدة، مُنَعَّمة أو معذبة، بحسب ما كان لها من الإقبال على ملاحظة خالقها ومراقبته فى الحياة قبل الموت، فبدأ يفكر فى طريقة ينظم بها حيانه لينصرف إلى التأمل فى هذا الخالق العظيم.

التَّشَبُّه

لما نظر (حىٌّ) إلى نفسه، وجد فيها شيئًا من صفات الحيوان، وهو الجسد المادى، الذى يطالبه بالمتع الحسية. وعلم أن هذا الجسد لم يُخلَق له عبثًا، وأنه يجب عليه أن يُصلِحَ من شأنه. ورأى أنه يشبه، من جهة ثانية، الكواكب، من حيث أن لها أجسامًا، واعتبر أنها قريبة من الخالق لوجودها فى السماء. ورأى من جهة ثالثة أنه بجزئه الأشرف، الذى عرف به (الخالق واجب الوجود) فيه شبه ما من الخالق، فصمم على التشبه بهذه الثلاثة (الحيوانات - الكواكب - الإله).

أخذ (حىٌّ) يتشبه بالحيوانات، بفعل ما يضمن صلاح جسده وبقاءه. فاقتصر على التغذى بالنباتات بقدر الضرورة والكفاية، وإن لم يجدها أكل من الحيوانات، على شرط أن يحافظ على بذور النبات، وأن يختار من الحيوانات أكثرها وجودًا، حتى لا يستأصلها.

كما أخذ يتشبه بالأجرام السماوية، من حيث إنها شفافة ومنيرة وطاهرة، ومن حيث إنها تعطى ما حولها النور والحرارة، ومن حيث كونها قريبة من (واجب الوجود)، وتتصرف بحكمته، ولا تتحرك إلا بمشيئته. فألزم نفسه بالطهارة والنظافة فى جسده ولباسه. وألزم نفسه ألا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مَضَرَّة، من الحيوان والنبات، إلا سعى فى إزالتها. فمتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب، أو تعلق به نبات آخر يؤذيه، أو عطش عطشًا يكاد يفسده؛ أزال عنه ذلك. ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه سَبع، أو تعلق به شوك، أو مسه ظمأ أو جوع؛ تكفل بإزالة ذلك. ومتى وقع نظره على ماء يسيل إلى سقى نبات أو حيوان، وقد عاقه عن مساره عائق، أزاله.

كذلك ألزم (حىٌّ) نفسه التحرك فى حركات دائرية مثل الكواكب، فكان يطوف بالجزيرة ويدور على ساحلها أو فى بيته دورات متعددة، إما مشيًا أو هرولة. وفى أثناء ذلك يستغرق فى التفكير فى واجب الوجود، ويحاول أن ينقطع عن عالم المحسوس، مستعينًا على ذلك بسد حواسه، ليتمكن من مشاهدة الموجود واجب الوجود.

وللتشبه بالإله، رأى حىٌّ بن يقظان أنه ينبغى أن يكتسب من صفاته صفة العلم، وأعلى مستوياتها أن يعرفه ولا يشرك به شيئًا. كما رأى أنه ينبغى أن يتنزه عن الجسمية، فانقطع عن الطعام والشراب فترات طويلة، يظل خلالها منقطعًا إلى التفكير فى الإله، فكانت تمضى أيام وهو مستسلم فى هذه الحالة التى تشبه الغيبوبة.

المقارنة

ثم ينتقل ابن طفيل، فى القصة، إلى وصف جزيرة قريبة من جزيرة حى بن يقظان، فيها قوم يدين بعضهم بالإسلام، وكان من المؤمنين بهذا الدين والساعين للتفقه فيه فتى يُدعى (أَبْسال).

ارتحل (أبسال) إلى الجزيرة التى فيها حىّ بن يقظان، ليعتزل الناس وينقطع إلى العبادة، فلما سمع (حىٌّ) قراءة أبسال للقرآن، ورأى صلاته وتسبيحه ودعاءه، أدرك أنه من العارفين بالإله، وإنْ لم يفهم ما يقول.

وعَلَّم (أبسال) (حيًّا) النطق والكلام. وأخبر (حىٌّ) صديقه الجديد بتاريخ حياته، وكيف

أنه ترقى بالتفكير حتى انتهى إلى معرفة الإله. فلما سمع منه (أَبْسال) وصفه لذات الحق، لم يَشُك فى أن جميع الأمور التى وردت فى عقيدته، هى نفس ما عرفه حىٌّ وأدركه بعقله ومجاهدته.

ولما أخبر (أَبْسال) صديقه (حيًّا) بما ورد فى عقيدته، لم يرَ (حىٌّ) فيه شيئًا على خلاف ما شاهده وعَرِفه بنفسه، وأدرك أن الذى جاء بهذا الدين رسول صادق من عند ربه، فآمن به وصَدَّقه وشهد برسالته. ثم تعلم ما جاء به هذا الرسول من أمر ونهى والتزم العمل به.

وبقى (أَبْسال) مع صاحبه (حىٍّ) فى الجزيرة المعزولة يعبدان الله تعالى، حتى أتاهما اليقين.

القارئ الكريم

هكذا اهتدى حىّ بن يقظان بفطرته، وبعقله من خلال قراءة الوجود، إلى وجود الله ﷻ، وأنه واحد أحد وأنه خالق للكون، وأنه يتوجب له ـ عقلًا ـ كل صفات الكمال، وتعلم ـ بقدر المستطاع ـ كيف يتقرب إلى الله ﷻ.

ثم يجد (حىٌّ) ذلك مطابقًا للدين الذى جاء به الرسول ﷺ، فتطابق عنده المعقول والمنقول، واجتمع عنده الوحيان: وحى العقل ووحى السماء، واتفق عنده الكتابان: الكتاب المنظور والكتاب المسطور.

وبذلك اكتملت رحلة (حىٍّ) إلى الله، وأيقن بالرسالات، وما تطرحه من غيبيات، كالبعث والحساب والجزاء. وهو ما لم يستطع أنصار الدين الطبيعى[١] الوصول إليه.

بذلك تصبح رحلة الإيمان فى كمالها

نورٌ على نورٍ على نورٍ على نور.

فطرة وعقل ووحى وعلم.



(١) الدين الطبيعى، هو الإيمان بإله خالق للكون عن طريق رؤية آثاره فى الوجود، مع إنكار تواصل الإله مع البشر من خلال الديانات، ومن ثم فهؤلاء ليس لديهم مصدر لمعرفة الغيبيات، ولا يؤمنون ببعث بعد الموت، ولا حساب، ولا ثواب وعقاب. ويُعرف القائلون بالدين الطبيعى بـ«الربوبيين Diests».

حصاد الرحلة

لم يكن محض صدفة أن يتوجه أبو الأنبياء إبراهيم وأيضًا خاتم الأنبياء محمد عليهما السلام فى مرحلة التساؤل والبحث عن الله ﷻ إلى السماء، يتأملانها ويستدلان منها على الإله الخالق ﷻ.

يؤكد ذلك السلوك **أن الوجود هو أول رسالات التوحيد**، فقد خلقه الله ﷻ على هذه الهيئة، ليشير إليه وإلى وحدانيته وإلى أسمائه وصفاته. لذا فإن «**الوجود رسالة توحيد**» تمامًا مثلما أن الديانات الإبراهيمية رسالات توحيد. وكما أن **القرآن الكريم هو كتاب الله المسطور فالوجود هو كتاب الله المنظور الذى نستنطقه مفاهيم الألوهية، تمامًا مثلما يخبرنا كلام الله ﷻ فى قرآنه الكريم. لقد كان تأصيل هذا المعنى هو مرادنا من هذا الكتاب.**

نشأة الفكر الدينى

رَكَزَّت بدايتنا مع تناول قضية الألوهية على **نشأة الفكر الدينى**. فذكرنا أن الدارسين لعلوم تاريخ وتطور ومقارنة الأديان تقابلهم نظرتان متقابلتان. تُعرف النظرة الأولى بنظريات «**التوحيد أولًا**»، وترى أن البشرية فى أول عهدها بالدين قد عرفت التوحيد، الذى يُرجعه الفلاسفة إلى تأصل «فكرة السببية» فى العقل الإنسانى، مقرونة بقناعة الإنسان أن كمال السيطرة والهيمنة يتركز فى الواحد. ويُرجع المتدينون «التوحيد أولًا» إلى أن «آدم عليه السلام» قد عرف الله وعبده مكاشفة، وعنه أخذ أبناؤه وأحفاده. وتستكمل هذه المدرسة تصورها، فتتبنى أن الإنسان قد حاد بعد ذلك عن التوحيد وسقط فى الشرك والتعدد والوثنية.

أما الرأى المقابل فى نشأة الديانات فتمثله «**النظريات التطورية**»، التى تتبنى أن الدين - باعتباره نشاطًا إنسانيًا - قد مر بمختلف مراحل التطور والارتقاء من أدنى إلى أعلى بدءًا بالنظرة التعددية للآلهة.

هكذا تصل النظرتان (التوحيد أولًا والنظريات التطورية) إلى التعدد، وتتقدم منه إلى «**ديانات التسلسل الهرمى**» الذى يجعل على قمة هرم الآلهة إلهًا واحدًا هو الأكبر، ثم تصل النظرتان إلى «**التوحيد المطلق**» عن طريق «**الديانات الإبراهيمية**».

من الطبيعة إلى الإنسان إلى التنزيه

عندما طرح الإنسان مفهوم ديانات الكثرة[1]، بدأ بـ«**ديانات الطبيعة**»، وداخلها حدث تطور من عبادة الطواطم والحيوانات وأرواح الأسلاف إلى عبادة مظاهر الطبيعة. وقد اشتملت هذه الأشكال على امتزاج واضح بين الطبيعى والإلهى.

ثم يرتقى الوعى الدينى إلى «**ديانات التشبيه**»، وفيها عبد الإنسان آلهة ذات صفات إنسانية، لكنها أعلى قدرة وأكثر قوة.

ويستمر الوعى الدينى فى الارتقاء، حتى يصل إلى «**أديان التوحيد المتعالى**». وفيها يرتقى الدين من التوحيد غير الخالص إلى **التوحيد الخالص**، ومن الإله القومى إلى **الإله العالمى**، ومن التوحيد المُلغز إلى **التوحيد الواضح الصرف**. وينتقل بصورة الإله من المحسوس إلى **المعقول**، ومن المتناهى إلى **اللامتناهى**، ومن الجزئى إلى **الكلى**، ومن العينى إلى **المجرد**.

وقد صاحب الارتقاء فى النظرة إلى الإله تحول فى **منطق الاستدلال**. فارتقى من منطق الأسطورة إلى **منطق الواقع**، ومن منطق الحس إلى **منطق البرهان العقلى**، ومن الاستدلال بخوارق الطبيعة إلى **الاستدلال بنظام الطبيعة**، ومن منطق الحواة إلى **منطق عدم التناقض**، ومن المعجزات الحسية الوقتية إلى **المعجزة البيانية الباقية**، ومن الكتاب الذى يلتمس دليلًا من خارجه إلى **الكتاب الذى يلتمس دليلًا من داخله**، ومن توحيد غامض يعتمد على التسليم إلى **توحيد مطلق يستند إلى الاستدلال البرهانى**؛ أى يرقى من منطق «**آمِنْ ثم تَعَقَّل**» إلى منطق «**تَعَقَّل ثم آمن**».

جغرافية الديانات

وإذا نظرنا إلى الديانات السائدة فى العالم المعاصر، وجدناها تتركز فى كتلتين كبيرتين؛ «**الديانات الإبراهيمية**» التى ظهرت فى غرب آسيا، ثم انتشرت فى أفريقيا وأوروبا وأمريكا

(١) سواء بعد أن انحرف الإنسان عن مفهوم التوحيد أولًا، أو من البداية فى نظريات تطور الأديان.

الشمالية. والكتلة الثانية هى «الهندوسية وما انشق عنها»، وقد ظهرت وانتشرت هذه الديانات فى جنوب شرق آسيا ووسطها.

وتختلف الديانات الوضعية الآسيوية بشكل جذرى عن الديانات الإبراهيمية فى نظرتها للألوهية. ويتلخص الاختلاف فى أنه يمكن أن نطلق على ديانات جنوب شرق آسيا اسم «ديانات الطبيعة» أو «ديانات الحس المباشر». فالوعى الإنسانى لا يعرف الإله فيها إلا ممتزجًا بالطبيعة المتمردة عاجزًا عن توجيهها أو التعالى عليها، ومن ثم فالإله غير متصف بالحرية المطلقة! بذلك يصبح الروح اللانهائى غارقًا فى الطبيعة النهائية على نحو مباشر، أى هناك وحدة مباشرة فَجَّة بين الكلى المطلق والجزئى المحدود.

مع الإسلام

ورغم أن الديانات الإبراهيمية (اليهودية والمسيحية والإسلام) تشترك فى سمات تميزها كمجموعة واحدة عن ديانات جنوب شرق آسيا، فإن الإسلام وحده يتمايز عما سواه بأنه الدين المطلق المتحرر فى النظر إلى الألوهية من التصورات الطبيعية والإنسانية. فالله تعالى ليس غارقًا فى الطبيعة، بل متعاليًا عليها، كما أنه لا يحل فى أى حيز أو مخلوق، ولا يتحد مع بشر فى طبيعة واحدة أو أكثر. ومع ذلك فقد نفخ الله فى الإنسان من روحه[1]، تلك النفخة التى هى منبع العقل؛ لكن ليس معنى هذا وِحدة الإنسانى والإلهى، فمستويات الوجود متمايزة: الإلهى، الطبيعى، الإنسانى.

ولم يترك الله ﷻ الإنسان فى الدنيا هَمِلًا، يتخبط فيها دون إرشاد باحثًا عن صفات ربه، يصيب تارة ويخيب تارة، بل لقد بث الله ﷻ صفاته فى معظم آيات كتابه المسطور (القرآن الكريم)، كما جعل الوجود كله (الكتاب المنظور) تجليات ملموسة لتلك الصفات. لذلك حَثَّنا الله ﷻ على أن نتدبر آيات القرآن الكريم ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد]. وحَثَّنا كذلك أن نتدبر آيات الوجود ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

وقد تفرد الإسلام عن جميع الديانات السماوية السابقة باطلاع الإنسان بصراحة ووضوح على ما لله من أسماء حسنى وصفات عُلى، تجمع بين الجمال والجلال والكمال. وقد بذل علماء العقيدة جهودًا هائلة لتعريفنا بمعانى هذه الأسماء والصفات، ووصفوا لها تقسيمات عديدة

(١) نرى أن نسبة «نفخة الروح» إلى الله ﷻ، هى نسبة ملكية وليست نسبة تبعيض. مثلما أقول «قلمى»، وليس كما أقول «يدى».

تبعًا لدلالاتها تمكن كل «باحث» وكل «عابد» وكل «متأمل» من الاقتراب من الله ﷻ بقدر حاجته وبقدر طاقته.



تدور مفاهيم الألوهية حول ثلاثة عناصر، هى الاستشهاد على وجود الله ﷻ، والاستدلال على وحدانيته، ومعرفة بعض أسمائه وصفاته، وهذا ما ركز عليه القرآن الكريم فى خطابه للبشرية. ونحن نزعم أن قراءة الوجود تثبت هذه العناصر الثلاثة (الوجود الإلهى - الوحدانية - الأسماء والصفات).

الوجود المخلوق يثبت الوجود الإلهى

تناولنا فى مؤلفاتنا السابقة بالتفصيل العنصر الأول فى مفهوم الألوهية، لذلك اكتفينا فى مقدمة الكتاب بتلخيص الأدلة العلمية والفلسفية على الوجود الإلهى، والتى نستمدها من قراءة الوجود، وذلك حتى نقف على أرض صلبة فى باقى فصول الكتاب التى نتناول فيها ما تقدمه قراءة الوجود من أدلة على الوحدانية وما تكشفه من الأسماء والصفات الإلهية.

وقد تركزت هذه الأدلة فيما يُعرف بالبرهان الكونى، ودليل الضبط الدقيق، والمبدأ البشرى، والمكون المعرفى الهائل الذى تحتاجه نشأة الحياة وتطورها، وخصوصية العقل البشرى، ووجود المنظومة الأخلاقية للإنسان.

كما طرحنا بضعة مفاهيم رأينا فيها استكمالًا للاستدلال السابق، وهى أنه ينبغى عند تفسير أى ظاهرة الجمع بين التفسير الآلى الذى يقدمه العلم والتفسير الغائى الذى يقدمه الدين، وإدراك أن الإله يدير الكون من خلال قوى وقوانين الطبيعة، التى تحتاج إلى إمداده المباشر المستمر حتى تستمر فى فاعليتها، وأخيرًا إدراك أن وجود السبب الأول الذى لا سبب له هو أمر حتمى «التعقل» بالرغم من أننا نعجز عن تصوره.

لا إله إلا الله

وإذا كان للمشركين فى الماضى مبرر لشركهم! حيث تبدو موجودات الوجود متباينة وربما متضادة؛ هناك الماء وهناك النار، هناك الهواء وهناك الصخر، هناك الخير وهناك الشر، هناك... وهناك.... لقد كان هذا التباين دافعهم لتبنى أن لكل موجود إلهًا.

لكن ما قدمه العلم الحديث من قراءة الوجود، أثبت أن كل هذه المتباينات والمتضادات نسيج واحد! خيوطه الطاقة والذرة، وتحركه قوى طبيعية واحدة، وتتحكم فيه قوانين طبيعية واحدة.

لقد أزال العلم عن الوجود حجاب الكثرة، فانكشف باعتباره نسيجًا واحدًا، يقف وراءه نَسَّاجٌ واحد، إله واحد ﷻ.

الأسماء والصفات الإلهية فى الوجود

كانت قراءتنا للأسماء والصفات الإلهية كما يعرضها كتاب الوجود على مرحلتين. المرحلة الأولى هى التدبر فى عملية الخلق (خلق الكون والحياة والإنسان)، والمرحلة الثانية هى تأمل هذه العناصر الثلاثة بعد نشأتها.

وفى تدبرنا وتأملنا وضعنا أيدينا على صفات الوجود، التى هى فى الحقيقة انعكاس لصفات موجده الأول، كما بحثنا عما ينبغى أن يتوافر فى موجد الوجود من صفات حتى يخرج على هذه الهيئة.

وقد كشفت لنا قراءتنا للوجود عدة حقائق عن العلاقة بينه وبين الأسماء والصفات الإلهية، وقد رأينا أن نضع هذه العلاقة فى هذا الحصاد على هيئة منظومات وجودية تعبر عما يميز الوجود من سمات وتُجَلِّى ما يلزمها من منظومات أسماء وصفات خالقه ﷻ، وهذه المنظومات هى:

١ - منظومة الخلق: تكشف عملية خلق الكون والحياة والإنسان بوضوح منظومة الصفات الإلهية المتعلقة بالخلق «الخالق - البارئ - المصور». وقد توصل العلم الحديث إلى عددٍ من الأدلة على احتياج عملية الخلق إلى إله يتمتع بهذه الصفات، وأهم هذه الأدلة:

- للكون بداية، وقد نشأ فى عدم مطلق (البرهان الكونى).
- احتاجت نشأة الكون والحياة والإنسان إلى ضبط دقيق محكم للعديد من ثوابت الطبيعة وقوانينها (برهان الضبط الدقيق).
- كانت بنية الكون وظروف كوكب الأرض مهيئة تمامًا لنشأة الحياة وظهور الإنسان (المبدأ البشرى).
- المُكَوِّن المعرفى الهائل المطلوب لنشأة الحياة وتنوع كائناتها يفوق قدرة العشوائية والصدفة على تجميعه.
- تحتاج نشأة الإنسان إلى موجد يتمتع بصفات منظومة الخلق، سواء تمت هذه النشأة بالخلق الخاص أو بالخلق التطورى.

- لا يمكن تفسير نشأة العقل البشرى بالتطور عن كائنات أدنى، ولم يملك العلم إلا القول بأن ظهور العقل البشرى كان «انبثاقًا»، وهو اصطلاح مبهم علميًّا، لا يختلف عن اصطلاح «الخلق» عند المتدينين.

٢ - منظومة المتابعة: يحتاج الوجود (الكون - الحياة - الإنسان) بعد الإنشاء إلى آليات المتابعة، لتحقق له استمرار التشغيل والحفظ والبقاء. وتكشف هذه المهام عن منظومة الصفات الإلهية المتعلقة بالمتابعة (الهادى - الحفيظ - القيوم).

ولعل استمرار فاعلية قوى الطبيعة الأربع، والاستقرار الدقيق للثوابت الفيزيائية، وانضباط قوانين الطبيعة المستمر، من أوضح ما كشفه العلم الحديث من آليات المتابعة. وقد أثبت العلم أن نشأة هذه القوى والثوابت والقوانين يختلف تمامًا عن استمرارية فاعليتها، ومن ثم فإنها تحتاج إلى تفعيل آنى (لحظة بلحظة).

٣ - منظومة الحكمة: لا شك أن الصفة الإلهية «الحكيم» من أوضح الصفات التى تتجلى فى خلق الوجود واستمراريته وإدارته. وقد عبر أينشتين عن ذلك المعنى بمقولته الحكيمة: «إن أكثر الأشياء استعصاء على الفهم فى الوجود أنه مفهوم»، وأيضًا بمقولته المشهورة: «إن الإله لا يلعب النرد». وقد كشف العلم الحديث العديد من جوانب الحكمة فى منظومة الوجود، وأهم هذه الجوانب:

- تتابعت نشأة الكون بعد الانفجار الأعظم بهيئة تكشف توجهه إلى «غاية نهائية» ينبغى أن يكون قد تم تقديرها مسبقًا.

- كل خطوة من خطوات نشأة الكون كانت نتيجة حتمية للخطوة السابقة وتمهيدًا لا غنى عنه للخطوة التالية.

- يخبرنا القانون الثانى للديناميكا الحرارية أن الفوضى التى أعقبت الانفجار الأعظم كان ينبغى أن تُسْلِمَ الكون لمزيد من الفوضى، ولا يفسر ما أعقب الانفجار من انضباط (ما عليه الكون الآن) إلا تدخل مُنَظِّم «حكيم» من خارج منظومة الكون، كما يشترط القانون المذكور.

- عبرت مقولتا أينشتين السابقتين عما يميز الكون من دقة وانضباط وقابلية للتنبؤ ،

وقد كانت «حكمة» الخالق الذى حقق هذا الضبط الدقيق السبب المباشر لإيمان أينشتين بالإله الخالق الحكيم.

- لا شك أن نشأة واستمرارية وتدبير **ظاهرة الحياة** يحتاج إلى صفات منظومة الحكمة.

- أما المجلى الأكبر لحكمة الإله فلا شك أنه الإنسان الذى يزدان **بعقله البشرى الحكيم**.

إن هذا الانضباط والدقة والقابلية للتنبؤ التى يتمتع بها الوجود (سواء فى مستواه الكونى أو الفيزيائى أو البيولوجى أو الإنسانى) يعكس بوضوح ما يتمتع به خالقه من **«حكمة»** و**«قدرة»**.

٤ - **منظومة العلم**: لا تكون الحكمة إلا عن علم، ولا يكون الخَلْقُ أيضًا إلا عن علم.

لقد غيرت **«نظرية المعلومات»** بشكل جذرى من نظرتنا للكون وللحياة. فبعد أن كان علماء الكونيات يعتبرون الكون «ظاهرة فيزيائية»، ويعتبر البيولوجيون الحياة «ظاهرة كيميائية» تبدلت نظرة العلم إليهما وصار يعتبرهما **«ظاهرتان معلوميتان»**. أى أن **الأصل فيهما هو المعلومات**، أما المادة والطاقة فهما المظهر الخارجى للمعلومات.

وإذا كان الماديون يتنطعون! فى تفسير أصل المادة والطاقة، وينسبوهما تارة إلى الطبيعة، وتارة إلى الأزل! فإن نظرية المعلومات تؤكد أن **أصل المعلومات يستحيل أن يكون سوى مصدر ذكى «عليم» «خبير»**، سبحان ربى ﷻ.

٥ - **منظومة الخلق وإعادة الخلق**: تُعتبر منظومة الخلق الجديد غير المسبوق بِمِثْل، وإعادة الخلق، من سمات عملية الخلق ومن سمات الوجود الظاهرة. فالكون والحياة والإنسان قد نشأوا **كإبداع جديد غير مسبوق**، ثم رأينا **التكرار وإعادة الخلق** يتجليان فى نشأة الجيل الثانى ثم الثالث من نجوم المجرات، كما يتجليان فى تكاثر الكائنات الحية، وغيرها.

إنْ هذه المنظومة من الخلق تعكس منظومة جديدة من صفات الخالق، وهى منظومة **«البديع ـ المبدى ـ المعيد»**.

٦ - **منظومة القبض والبسط**: يظهر أسلوب «القبض والبسط» فى عملية خلق الوجود مثلما يظهر فى سمات الموجودات. سواء كان ذلك فى بسط الكون بعد الانفجار الأعظم

الذى لا يزال مستمرًا حتى اليوم، مع انهيار (قبض) بعض نجوم مجراته، أو فيما ميز النشأة الجنينية فى الإنسان وغيره من الكائنات، أو فى بسط وقبض العضلات خاصة عضلة القلب، وأيضًا ما يتناوب الحالة النفسية للإنسان من بسط وقبض.

ولا تكون هذه الأمثلة وغيرها إلا تجليًا لاسمه ﷻ «**القابض - الباسط**».

٧ - **منظومة الإحياء والإماتة**: لا شك أن أوضح سمة تميز عالم الأحياء عن الوجود غير الحى هى تناوب عمليتى «**الإحياء والإماتة**». ويعتقد الكثيرون أن الموت ما هو إلا توقف الحياة، وهذا فهم مخالف للواقع. فإذا كانت الحياة ظاهرة لها آلياتها شديدة التعقيد، فالموت كذلك! وعندما أدركت هذه الحقيقة اكتمل فهمى لقول الحق ﷻ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ... ﴿٢﴾﴾ [الملك].

فسبحان ربى «**المحيى - المميت**».

٨ - **منظومة الحفظ والتوريث**: أثبت العلم أن دنا DNA الكائنات الحية المسئول عن الكثير من نشاطات الكائنات الحية مسئول أيضًا عن تكاثرها وعن توريث صفاتها للأجيال التالية، مما حدا العلماء لإطلاق اصطلاح «**الشفرة الوراثية**» على هذا المركب الكيميائى العجيب.

إن ذلك يعنى أن ظاهرة الحياة تصاحبها ظاهرتان أساسيتان لاستمرارها، وهما **حفظ النوع** ونقل **الصفات الوراثية**. ومن ثم كانت هاتان الظاهرتان المجلى لصفتى «**الحفيظ**» «**الوارث**» اللتين ينبغى أن يتصف بهما الإله خالق الكون.

٩ - **منظومة الاستغناء**: كذلك تتسم ظاهرة الحياة بأنها وجود ذاتى التحكم، مُستغن عن الوجود الخارجى. ومن البديهى أن هذه الذاتية وهذا الاستغناء لا يكونا إلا نَتَاج مصدر يتمتع بالاستغناء، ومن ثم تُجَلِّى ظاهرة الحياة صفة الاستغناء التى يتمتع بها الإله الخالق. كذلك فإن استغناء الإله عن جميع خلقه يُجَلِّى مقابله، وهو **احتياج خلقه إليه** وقصدهم له فى جميع شئونهم. ومن ثم كان ربنا هو «**الغنى**» «**الصمد**» ﷻ.

١٠ - **منظومة التوازن الدقيق**: يقوم الوجود على ضبط دقيق يشمل **الجوانب الكمية** كما يشمل **الجوانب التوقيتية**. فالثوابت الفيزيائية تم ضبطها **كميًّا** بدقة هائلة بحيث لو اختلت بمقدار جزء من مليارات الأجزاء لما نشأ الكون باعتباره المسرح الذى تم

إعـداده لظهور الحياة والإنسـان. كذلك تم ضبط الجوانـب التوقيتية فى عالم البيولوجيا بدقة تسمح للوظائف الفسيولوجية أن تحدث وللحياة أن تستمر.

ولا شك أن هذا التوازن الكمى والتوقيتى يحتاج إلى تمتع مدبر أمر الكون والحياة بدقة رياضية وتوقيتية هائلة...

فسبحان ربى «المقدر - الحسيب - المقيت».

١١ - منظومة التكامل: لا تمثل مخلوقات الوجود بقعًا عشوائية متناثرة، بل هى منظومات دقيقة شـديدة التعقيـد، تترابط، وتتكامل مع بعضها، لتشـكل منظومات أكبر ثم أكبر، حتى تشكل منظومة الوجود العظمى.

وتشكل المنظومات التى لا حصر لها فى الكون وكوكب الأرض والحياة والبيئة عيدان الغاب التى تجمعها حزمـة الوجـود. ويحتاج ذلك دون شـك إلى «موجـد» «مدبر» «حكيم» «قادر»، يجمعها فى منظومة واحدة قوية مستقرة تعكس صفات «القوى» «المتين» «السلام».

١٢ - منظومـة المنهـج العلمى: يقوم المتخصصون بدراسـة الطبيعة باسـتخدام منهج يبدأ بجمع المعلومات وإحصائها وتقييمها حسـابيًّا، ثم التعامل معها بأسـلوب يختلف من علم لآخر، وقد اصطلح فلاسفة العلم على تسمية هذا الأسلوب بالمنهج العلمى.

وقد كان مبهرًا لى أن أجد فى القرآن الكريم أن خالق الوجود يتصف بالصفات التى تكفل التعامل مع الوجود بما يتبعه العلماء فى المنهج العلمى! فالله ﷻ هو:

«العليم الخبير»؛ الذى يعلم كل ما فى الوجود.

«السميع البصير - الرقيب»؛ وهى صفات تختص بقدرة الله ﷻ على رصد كل ما يحدث من تغير فى الوجود، أى لا يقف علمه عند ما خلق فى الابتداء. وإذا كان علم الله لا يَجِد عليه شىء، فلا شك أن اتصاف الله ﷻ بهذه الصفات جاء من باب تقريب الصورة لفهمنا البشرى.

«المحصى - الحسيب»؛ وهو الذى أحصى كل شىء عددًا، وهما الصفتان اللتان تحققان التعامل مع الوجود كميًّا ورياضيًّا.

وتجمع هذه الصفات كلها صفة «المحيط»، المُلم (عمقًا واتساعًا) بكل شىء فى الوجود.

١٣ - منظومـة ثنائيات المتناقضات المتكاملة: تُظهر النظرة المتأملة لكتاب الوجود أنه يقوم

على مجموعة كبيرة من الثنائيات، المتضادة والمتوافقة، التى تتكامل أزواجها لتشكل لبنات الكون والحياة والإنسان.

ولا شك أن وجود الثنائيات المتضادة يعكس **طلاقة القدرة الخالقة والمهيمنة على الوجود**، إذ تعرض الفعل من أقصاه إلى أقصاه. كما تعكس هذه الثنائيات **افتقار الموجودات**، فالسالب يفتقر إلى الموجب والإنسان يفتقر إلى زوجه، وهكذا... وبالتالى فهذه الثنائيات تعكس **استغناء الإله الخالق**، ومن ثم تُجلى بوضوح صفة الله ﷻ **«الواحد الأحد»**.

وقد حرص القرآن الكريم على عرض الصفات الإلهية المسئولة عن هذه الثنائيات بصورة مقترنة، حتى لا تُنسَب إلى الإله الخالق المعانى السلبية منها.

وأهم هذه الثنائيات:

- لبنات يتم جمعها... ولبنات يتم فلقها

سبحان ربى **«الجامع» «خالق الحب والنوى»**.

- خَلْق لا على مثال... وإعادة الخَلْق

سبحان ربى **«المبدى» «المعيد» ـ «البديع» «الباعث»**

- قبض ... وبسط ـ منع ... وعطاء ـ إغلاق ... وفتح

سبحان ربى **«القابض» «الباسط» ـ «المانع» «المعطى» «الفتاح»**

- الميت... والحى

سبحان ربى **«المحيى» «المميت»**

- ظاهر ... وباطن ـ غيب ... وشهادة

سبحان ربى **«الظاهر» «الباطن»**

- الكمال: جمال وجلال

تباركت ربى **«يا ذا الجلال والإكرام»**

١٤ - **منظومة جنة الوجود:** اعتاد معظمنا على الشكوى مما يلقى فى حياته من عنت وتعب، وحقيقة الأمر عكس ذلك تمامًا، فالوجود قد تم تصميمه بحيث لا يكفل للإنسان احتياجاته وحسب، بل ويحقق له الرفاهية والرخاء والاستمتاع.

وتكمن المشكلة فى أننا قد اعتدنا على ما فى الوجود من نِعَم واعتبرناها حقًّا بديهيًّا مكتسبًا، فأنزل حجاب الاعتياد أستاره الثقيلة على مشاعرنا ففقدنا الإحساس والشعور بالنعمة!!

وفى الفصل العاشر من الكتاب رفعنا سُتُر الاعتياد وتأملنا الوجود من حولنا، حتى ندرك أننا نعيش فى فردوس دنيوى، وحتى ندرك الصفات الإلهية وراء هذه النِعَم. وقد وجدنا أن منظومة جنة الوجود تتكامل من خلال عدة منظومات، أهمها:

- **منظومة العطاء:** يكفل كوكبنا الأرض احتياجات ما يسكنه من كائنات حية ويزيد، ويرجع ما نراه من مجاعات إلى سوء تدبير الإنسان وما ينزله بأخيه الإنسان وبالبيئة من مصائب.

فسبحان ربى **«الرازق الرزاق» «المقيت» «الكفيل»**.

- **منظومة الاستقرار والأمان:** بالرغم من الأتون الذى يعتمل فى نجوم المجرات بسبب **الاندماج النووى**، وبالرغم من الأتون الذى يعتمل فى باطن كوكبنا الأرض بسبب **الانشطار النووى**، فقد تم تزويد جزيرتنا الأرض بالعديد من آليات الأمان حتى صرنا نحيا فى كوكب مستقر آمن محصن من الأشعة الكونية المهلكة، ومن العديد من الأخطار الطبيعية.

فسبحان ربى **«السلام» «المؤمن» «الحافظ الحفيظ»**.

- **منظومة الجمال والإمتاع:** لم تتوقف عملية إيجاد الوجود عند توفير منتجع مستقر آمن للإنسان، بل لقد وصل الإيجاد إلى مستوى **إشعار الإنسان بجمال الوجود**. ولا شك أن ذلك يحتاج إلى اتصاف الموجودات بالجمال وإلى تزويد العقل الإنسانى بالقدرة على إدراك هذا الجمال، فهى منظومة متكاملة.

ولا يقف الجمال عند المنظور المرئى، بل نحن ندركه بجميع حواسنا الخمس، ويتجاوز الجمال ما هو محسوس إلى الجمال الباطنى.

ولا يقف تعاملنا مع الجمال عند إدراكه، بل يتجاوز ذلك فنستشعر المتعة كرد فعل لما نرصده من جمال، وآلية ذلك إفراز المورفين الداخلى فى المخ والذى يشعرنا بنشوة تفوق نشوة المخدرات.

ولا يكون الاستمتاع بالجمال إلا عطاء من إله خالق «كريم» «جميل يحب الجمال».

- منظومة الحياء: إذا كان الحياء سمة أساسية فى بنية الإنسان النفسية، فإنه يتجلى أيضًا فى ستر العورة والسوءة فى البنية الجسدية للكائنات التى نصفها بالحيوانية.

ألا يتطلب ذلك أن يكون واهب الحياء خالقًا «حَيِّى».

ألا يتطلب ذلك أن يُوَصف الخالق الحريص على ستر عورات وسوءات مخلوقاته بـ«الستار» بل «الستير».

وجود خُلِقَ من أجلنا

نستشعر من كل ما استعرضناه من منظومات الوجود أننا نحيا فى وجود خُلِقَ من أجلنا. وهو المفهوم الذى يُعرف فى فلسفة العلم بـ«المبدأ البشرى» ويُعرف فى المنظور الإسلامى بـ«التسخير». وفى هذا المفهوم جاء فى القرآن الكريم ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

لذلك يلفتنا القرآن الكريم إلى أن الله ﷻ خالق الوجود ومدبره هو:

«الهادى»: الذى هدى موجودات الوجود لخدمة الإنسان.

«الوكيل»: الذى قام نيابة عن الإنسان بتسخير الوجود لخدمته.

«المعين»: الذى يعين الإنسان فى مهام الخلافة فى الأرض.

«الكفيل»: الذى كفل للإنسان ما يحتاجه فى حياته.

الإنسان المرآة

لا شك أن الإنسان هو المجلى الأكبر للأسماء والصفات الإلهية، ونرصد ذلك من خلال عملية خَلْق الإنسان، ثم من خلال المشاعر والسلوك الإنسانى:

الصفات الإلهية وخلق الإنسان

لا شك أن صفة «الخالق» هى أول الصفات الإلهية المسئولة عن خلق الإنسان، وسواء كان الخلق خلقًا مباشرًا أو خلقًا تطوريًا موجهًا، فمجرد وجود الإنسان يُحَتم الإقرار بالإله الخالق. وإذا كانت بضدها تُعرف الأشياء، فإن ما يتميز به الإنسان من ثنائية يُجَلِّى صفة الإله «الواحد»، ويؤكد هذه الصفة أيضًا أن كل إنسان يمثل وجودًا متفردًا ليس له نظير بين البشر.

وعندما تأملنا نشأة الصفات العقلية، لم نجد مصدرًا لما يتمتع به الإنسان من إدراك وفهم وقدرة على التفكير إلا إلهًا «حكيم» «عليم» «خبير» «محيط». وبالرغم من هذه القدرات العقلية العالية، فإنها تتلاشى فى لحظة واحدة حين يخر الإنسان صريح النوم! ومن ثم كان إلهنا الذى لا تأخذه سِنَة ولا نوم إلهًا «قويًا» «قادرًا».

وفى متتالية المخ ـ العقل ـ الروح، نلاحظ أن السابق منها (المخ) يمثل ظاهرًا لباطنٍ تالٍ له (العقل). وهذا العقل ـ الذى هو باطن ـ يصبح ظاهرًا للروح الأكثر بطونًا، وهكذا فى جميع منظومات المخلوقات، فسبحان ربى الذى يقف وراء هذا المفهوم باسمه «الظاهر» «الباطن».

ولا شك أن حرية الإرادة الإنسانية من أهم ما يميز نشاطاتنا العقلية، وقد أثبت العلم الحديث خطأ مفهومَىّ الحتمية البيولوجية والحتمية التربوية، كذلك فإن الحتمية الفيزيائية التى تنطبق على الجسد الإنسانى لا تنطبق على العقل الإنسانى. ومن ثم كانت حرية الإرادة الإنسانية أكبر مجلى لاسم الله «المريد» ﷻ.

ويأتى «العلم» كأحد أهم النشاطات العقلية للإنسان، وتشهد البشرية انفجارًا علميًا ومعلوماتيًا هائلًا كل يوم، ولا شك أن خالق الإنسان الذى زوده بالرغبة الجارفة فى طلب العلم وبآليات تحصيله هو الله ﷻ «العليم» «الخبير» «المحصى» «المحيط». كذلك كان تمتُّع ربنا بصفتى «السميع» «البصير» من لوازم هذه الأسماء، وأيضًا من لوازم متابعته لمخلوقه الإنسان ولقيوميته عليه.

ولما كان تمتع الإنسان بمنظومة «الألوهية والدين والأخلاق» (خاصة خُلُق التعاطف والإيثار) من أكثر القضايا تعجيزًا للدراونة والفرويديين، بل إنها تتعارض تمامًا مع الأسس

التى قامت عليها نظرياتهم، لذلك لم يعد من تفسير هذه المنظومة إلا أنها هبة من الإله «الهادى» «الوهاب».

وإذا كان توازن ودقة منظومات الطبيعة من أهم ما يميز منظومة الكون والأرض والحياة، فإنها بلا شك تميز أيضًا الوجود الإنسانى والنفس البشرية، ولا يقدر على هذا الضبط الدقيق إلا إله «كل شىء عنده بمقدار».

ومن أهم عناصر التوازن فى الوجود، علاقة الأسباب بالنتائج، فهى الأساس لكل قوانين الطبيعة، بل تقوم عليها حياتنا بعد البعث من الموت ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة]. وعلى علاقة الأسباب بالنتائج تقوم معظم براهين الألوهية، فسبحان الله ﷻ الذى ألزم نفسه بالسببية.

وتُعتبر ظاهرة «الكلام» معجزة تفوق (فى رأيى) ما طرحته الكتب السماوية من معجزات! وقد أثبتت علوم اللغويات الحديثة أن لغة البشر لا يمكن أن تكون تطورًا عن وسائل تواصل الرئيسيات الأدنى، واعتبرت أنها «انبثاق» جديد تمامًا. ويتبنى كارل بوبر فيلسوف العلوم الأشهر أن مفهوم «الانبثاق» العلمى لا يختلف عن مفهوم «الخلق» الدينى. ومن ثم صار القول بإله يتمتع بهذه المَلَكة ووهبها للإنسان من بديهيات الفكر، فسبحان ربى «المتكلم».

ولا شك أن كل ما يميز الإنسان من صفات عقلية تعكس بعض الصفات الإلهية هو إبداع جديد لا يشاركه فيه كائن من الكائنات، وقد تم فى إطار المحافظة على منظومة الوجود دون إخلال بها، ولا شك أن ذلك يمثل مجلى لصفتين إلهيتين كريمتين نستكمل بهما ما أدركناه من صفات إلهية، فسبحان ربى «البديع» «السلام» ﷻ.

الصفات الإلهية والمشاعر والسلوك الإنسانى

وإذا تأملنا أخلاق البشر - كما تتكشف فى مشاعرهم وسلوكياتهم - وجدنا أنها انعكاس لصفات الخالق التى هى مصدر أخلاقنا، فالرسول الكريم ﷺ هو الذى أمرنا أن تخلقوا بأخلاق الله ﷻ.

وإذا بدأنا بصفات الجمال، قابلنا ما يميز الإنسان من سكينة ولطف ورفق، ورأينا كيف أنها تعكس صفات الله ﷻ «المؤمن» «السلام» «اللطيف» «الحليم» «الرحمن الرحيم» «الرءوف»

«البر» «الكريم». كما تقابلنا منظومة إعزاز الله ﷻ لخلقه، وهى التى تُجَلِّى صفاته ﷻ «المعز» «الغنى المغنى» «الرافع» «المقدم» «المعين». وتأتى بعد ذلك منظومة النفع والعطاء، التى يقف وراءها الله «المعطى المغنى» «الوهاب» «الكريم» «النافع» «الباسط» ﷻ.

أما منظومة الحُكْم، التى تشمل ما يقوم به الإنسان من مهمة القاضى والحَكَمْ، ٥ على تحقيق العدل فى هذه المهمة، فترقى بنا إلى صفتى الله ﷻ «الحَكَم» «ال[illegible]». [illegible] حَكَمَ الإنسان وعَدَل فقد تطلب ذلك الشكر، وهو الخُلُق الذى يقف وراءه اسم الله «الشكور». أما إذا أخل الإنسان بهذه المهمة أو بأى راجب من واجباته، فى حق الله أو حق العباد، توجه إلى من أذنب فى حقهم وطلب منهم العفو والتجاوز والسماح، وهو ما يُجَلِّى صفات الله ﷻ «الغفور الغفار» «العفو» «التواب» «الرحمن الرحيم» «الحليم» «الكريم» «البر» «الصبور».

وتتكامل منظومات أخلاق الجمال بالأخلاق التى ينبغى مراعاتها فى السلوك الاجتماعى، وهى تأتى فى ذروة السمو الخُلُقى، وهى ليست إلا عطاء لأسماء الله ﷻ «الودود» «الرحيم» «اللطيف» «الحليم» «الكريم» «الغفار».

ولا شك أن «معجزة الأمومة» قد شرفها الله ﷻ بأن تكون المجلى الأكبر لصفات الجمال الإلهى. فالأمومة تتميز بثلاثية «العطاء والرزق والإيثار»، وكذلك بثلاثية «الود والحنان والرحمة». فسبحان ربى «الرازق الرزاق» «المعطى» «الوهاب ـ الهادى» «الودود» «اللطيف» «الرحمن الرحيم» ﷻ.

وننتقل من صفات الجمال إلى صفات الجلال، التى يمارسها الإنسان فى مجالين متضادين! مجال يجعل منها كمال وجمال! وذلك حين يمارسها الإنسان ضد أعدائه؛ أعداء وطنه والشيطان والنفس الأمارة بالسوء. والمجال الآخر حين يمارسها بنقص ودناءة، حين لا يكون أهلًا لها، فيسىء بها إلى الآخرين. وهذه الصفات ـ فى كل الأحوال ـ تُجَلِّى صفات الجلال الإلهية الخالقة لتلك الصفات البشرية.

وتأتى صفات الجلال فى منظومات أربع. فبعضها يأتى مصحوبًا بصفات الجمال المقابلة، مثل «القابض الباسط ـ الخافض الرافع ـ المعز المذل ...». والمنظومة الثانية، هى صفات الجلال الفعلية، ومنها «القهار» «المنتقم» «المانع». والمنظومة الثالثة هى صفات الجلال الذاتى، مثل «الحق» «العلى» «المتعالى» «المتكبر».وتشمل الآخيرة صفتين تجمعان بين الجلال والجمال وهما «الجبار» و«ذو الجلال والإكرام» ﷻ.

سبحان الله، الذى جعل خَلْق الإنسان وخُلُقه مرآة للأسماء والصفات الإلهية، ومن ثم، فمن عرف نفسه عرف ربه.

سبحانك ربى صاحب الأسماء الحسنى والصفات العُلى...

الإنسان مرآة برزخية

لقد كان الوجود قبل خلق الإنسان مختلفًا عنه بعد خلق الإنسان. فبخلق الإنسان أصبح فى الوجود «كائن ذو وعى عميق»، فأصبح الوجود واعيًا بنفسه لأول مرة. كذلك بخلق الإنسان صار فى الوجود «كائن مِثَال»، تتجمع فيه صفات الوجود المخلوق وصفات الإله الخالق، أى إن الإنسان «كائن برزخ» بين المخلوق والخالق.

ويُعبر عن ذلك قولُ الإمام على بن أبى طالب:

وتزعُمُ أنك جُـرمٌ صغيرٌ ... وفيكَ انطـوى العالمُ الأكبرُ

حقًّا إن الإنسان هو الكائن المرآة البرزخ.

القرآن الكريم والوجود

إذا كان الانطلاق من الوجود يقودنا إلى إدراك الكثير من الأسماء والصفات الإلهية التى جاءت فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، فالعكس أيضًا صحيح، فالانطلاق من القرآن الكريم وما فيه من أسماء وصفات إلهية يؤكد علاقتها اللصيقة بعوالم الوجود، فما عوالم الوجود إلا «ظهور» للأفعال والصفات الإلهية، حتى مَثَّلَها البعض بانعكاس صور الأشياء فى الماء.

ويشتمل الوجـود على ثلاثة عوالم؛ عالم الشهادة وعـالم المعنى وعالم الغيب. وكما تتجلى هـذه العوالم الثلاثة فى القرآن الكريم (الكتاب المسطور) فإنها تتجلى عند تأملنا للوجود (الكتاب المنظور). والعلاقة بين الكتابين علاقة منطقية جدلية (كل منهما يحيلنا إلى الآخر)، تنتهى بأن يتفق عطاء الكتاب المنظور مع مقصد الكتاب المسطور (القرآن الكريم).

وتتجلى هذه العلاقة فى «أسلوب القسم» الذى يستخدمه الله ﷻ، فهو يقسم بعوالم الوجود الثلاثة على صحة ما يريد تأصيله فى القرآن الكريم، مما يحقق الامتزاج بين القرآن الكريم وبين عوالم الوجود الثلاثة.

كذلك يلجأ القرآن الكريم إلى أسلوب «**ضرب الأمثال**» للاستدلال بالمحسوس المادى على المعنوى والغيبى. وتبين لنا آيات القرآن أن ما وراء الأمثال لا يتوصل إليه **إلا العالمون الذى يتفكرون**، وأنها تحتاج - لإدراك العبرة منها - **إلى نية وهمة واجتهاد وإلى تكرار التأمل**، صَغُرَ المَثَلُ أو كَبُرَ.

وإذا تأملنا أن المَثَل القرآنى، وجدنا أنه يمتد عبر كل عوالم الوجود، وأنه بمثابة «**معراج للكلمة**» ينقل مضمون المثل من عالم إلى عالم ومن مستوى إلى مستوى.

من ذلك ندرك أن كل ما فى عالم الشهادة يشير إلى عالم المعانى وعالم الغيب، ومن ثم يشير إلى الأفعال والأسماء والصفات التى هى مجلى الذات الإلهية. لذلك نستطيع أن نقول أن كل ما **ندركه بحواسنا هو الظل المادى فى الأرض للعوالم غير المادية الأربعة (المعنى - الغيب - الأفعال والأسماء والصفات - الذات الإلهية)**.

الفن الإسلامى وقراءة الوجود

استوعب الفنان المسلم منهج القرآن الكريم فى «ضرب الأمثال»، **وأدرك أنه يعرج بالمَثَل من مفاهيم عالم الشهادة إلى عالمى المعنى والغيب**. وقد جعل الفنان المسلم هذا الأسلوب محور **أعماله الفنية**، وبذلك صارت **الأعمال الفنية رموزًا وأمثلة لهذا العروج**.

ويظهر ذلك بوضوح فى عالم المعمار مع «**المئذنة**»، التى عرج بها الفنان المسلم إلى التوحيد، ومقامات الدين ومقامات اليقين وإلى دائرة الوجود الكلية.

وفى عالم الموسيقى والرقص يتجلى العروج فى **حلقات ذكر الطريقة المولوية**، فرقص المولوية هو، أولًا وأخيرًا، **تحرير للجسد وانفلات من قيود المادة**، فالراقص بدورانه يصبح **محور العالم**، ومن خلاله تلتقى السماء بالأرض، وتلتقى الأكوان المرئية وغير المرئية. أما الموسيقى المصاحبة، فتمثل تناغم هذه الأكوان فيما بينها فى نظام محكم، هو **أسطع دليل على** وحدانية الخالق.

وفى عالم **الأدب الفلسفى** تقابلنا قصة حىّ بن يقظان لابن طفيل، والتى اهتدى فيها (حىّ) **بفطرته وبعقله**، من خلال **قراءة الوجود**، إلى وجود الله ﷻ، وأنه واحد أحد وأنه خالق للكون، وأنه يتوجب له - عقلًا - كل صفات الكمال. كما تعلم (حىّ) من خلال التأمل العقلى - بقدر المستطاع - كيف يتقرب إلى الله ﷻ.

وتخبرنا القصة أن (حيًّا) وجد تطابقًا بين ما توصل إليه بعقله وبين الدين الذى جاء به الرسول ﷺ، فتطابق عنده المعقول والمنقول، واجتمع عنده الوحيان: وحى العقل ووحى السماء، واتفق عنده الكتابان: الكتاب المنظور والكتاب المسطور.

وبذلك اكتملت رحلة (حىٍّ) إلى الله، وأيقن بالرسالات، وما تطرحه من غيبيات، كالبعث والحساب والجزاء. وهو ما لم يستطع أنصار الدين الطبيعى الوصول إليه.

بذلك تصبح رحلة الإيمان فى كمالها

نورٌ على نورٍ على نورٍ على نور.

فطرة وعقل ووحى وعلم.

حصاد الحصاد

ونختم الحصاد بـ«كلمة» للدكتور مصطفى محمود ـ رحمه الله ـ ، تدور حول ما قصدنا طرحه فى كتابنا هذا، وتستحق أن تكون بحق «حصاد الحصاد».

يقول د. مصطفى محمود ـ رحمه الله:

«إن الله ﷻ موجود ليس لأن المسلمين يؤمنون بوجوده،

لكن لأنه حقيقة مطلقة أزلية لا معنى لشىء بدونها،

الله هو سر الجمال والرحمة والمودة والحرية والحياة

وأسماؤه الحسنى مطبوعة على الوردة،

وعلى إشراقة الفجر، وعلى ابتسامة الوليد،

وعلى إطلالة الربيع، وعلى كفتى الميزان، وعلى صولجان الحكم.

فهو الحَكَمُ العدل،

وبدونه يستحيل العدل، وتستحيل الرحمة، وينطمس الكون ويُظلم، فهو نور السموات والأرض،

وهو الذى «يمسك السماوات والأرض أن تزولا،

ولئن زالتا إن أمسكهما من أحدٍ من بعده».

إن الدين يبدأ به، والفلسفة تنتهى إليه، والعقل يتوقف عنده،

فلا كيف، ولا كم، ولا أين، ولا متى.

وإنما هو، لا إله إلا هو،

ولا يملك العقل إلا السجود، ولا تملك العين إلا البكاء ندمًا.

رُفعت الأقلام وجفت الصحف،

اسألوا لنا ولأنفسكم الرحمة،

والتمسوا لنا ولأنفسكم النجاة».

* * *

تعريف بالمؤلف

أ.د. عمرو عبد المنعم شريف

* من مواليد بورسعيد عام ١٩٥٠.

* أستاذ ورئيس أقسام الجراحة الأسبق - كلية الطب - جامعة عين شمس. مع التخصص الدقيق فى جراحات الكبد والجهاز المرارى، ومناظير البطن، وجراحات الحوادث.

* حاصل على درجة البكالوريوس فى الطب والجراحة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٤، ودرجتى الماجستير عام ١٩٧٨ والدكتوراه عام ١٩٨١ فى الجراحة العامة من كلية الطب جامعة عين شمس.

* عضو مؤسِّس للجمعية الدولية للجراحة، والجمعية الدولية لجراحة الكبد والبنكرياس والجهاز المرارى - بسويسرا.

* أُختير المدرس المثالى على مستوى جامعة عين شمس عام ١٩٨٤، والطبيب المثالى على مستوى الجمهورية عام ١٩٨٨.

* مفكر ومُحاضر فى موضوعات التفكير العلمى ونشأة الحضارات، والعلاقة بين العلم والفلسفة والعقل وبين الأديان.

❊ من مؤلفاته:

- كتاب «أبى آدم: من الطين إلى الإنسان»، طرح فيه مفهومًا جديدًا حول نشأة الإنسان عن طريق التطور الموجه.
- كتاب «رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية»، عرض فيه (من خلال فكر د. المسيرى) إيجابيات وسلبيات الحضارة المادية الحديثة، وأسوأها ظهور الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل.
- كتاب «المخ ذكر أم أنثى؟!»، وتناول فيه الفوارق التشريحية والوظيفية بين مخ الرجل ومخ المرأة، وانعكاس ذلك على أسلوب تفكير ومشاعر وسلوك كل من الجنسين. وشارك فى تأليفه الكتاب د. نبيل كامل خبير التنمية البشرية.
- كتاب «رحلة عقل»، ويعرض فيه كيف يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان، وذلك من خلال عرض الرحلة الإيمانية لأكبر ملحد فى القرن العشرين (أستاذ الفلسفة البريطانى، سير أنتونى فلو)، ثم يستكمل الكتاب الرحلة ليعرض البراهين العقلية الدالة على تواصل السماء بالأرض (الديانات).
- كتاب «كيف بدأ الخلق»، يعرض قصة خلق الكون ثم الحياة وتطور الكائنات الحية، وصولًا إلى الإنسان. ويقرأ قصة خلق الإنسان فى القرآن الكريم فى ضوء حقائق العلم.
- كتاب «ثم صار المخ عقلا»، ويتناول فيه دور المخ البشرى فى ملكات الإنسان العقلية ومشاعره الروحية، وهى أهم ما يتميز به الإنسان على غيره من الكائنات.
- كتاب « أنا، تتحدث عن نفسها»، ويتناول السمات المميِّزة للذات الإنسانية من منظور العلم والفلسفة والدين.
- كتاب «وهم الإلحاد»، لخص فيه تاريخ الفكر الإلحادي وأفكاره ومنهج رده. وقد صدر الكتاب كهدية مع مجلة الأزهر - عدد المحرم ١٤٣٥هـ.
- كتاب «خرافة الإلحاد»، فَصَّلَ فيه الفكر الإلحادى؛ نشأته وبنيته ومنهجه، وفَصَّل أسلوب دحضه والتصدى له.
- ترجم كتاب «الطب المصرى القديم» مع د. عادل وديع فلسطين، وهو أفضل كتاب فى موضوعه.